آل أبي طالب

السيّد محسن الأمين

الجزء الرابع

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

آل أبي طالب


بسم الله الرحمن الرحيم

آل أبي طالب

أبو طالب، حمزة بن عبد المطلب،
عقيل بن أبي طالب، جعفر بن أبي طالب،
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)،
فاطمة الزهراء (ع)، الحسنان (ع)،
دول حسنية ودول حسينية

الجزء الرابع

أبو طالب، إلى إرسال أمير المؤمنين (ع) عماله إلى الأمصار

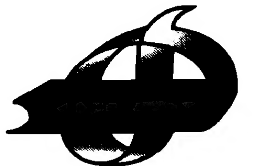
السيد محسن الأمين

مضافاً إليه أبحاث أخرى

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)

الفتح المبين

أربع سنوات هي المدة التي عاشها المولى إدريس ولياً للمؤمنين بعد بيعة وليلي، ولكن المؤرخين حينما يستعرضون ما حققه المولى إدريس خلال هذه الفترة القصيرة، وما بناه وأنجزه، والتحول البعيد المدى الذي عرفه المغرب على المستويين: الوطني بوحدة المغاربة حول بيعتهم وعرشهم وكيانهم الجديد، والسياسي ببزوغ هذه الدولة الجديدة وإشعاع واتساع سلطتها، حينما يستعرض المؤرخون ذلك يقولون: إن المولى إدريس لما اشتدت شوكته وعظمت قوته «زحف» «يغزو» و«يفتح» النواحي والجهات التي كانت «خارجة» عن سلطته، يحكم قبضته عليها ويخضع أهلها لسلطانه. ويضيفون أنه قد تم له ذلك بسهولة ملحوظة. ويتحتم علي أن أوضح أن المؤرخين لهم لغتهم ومصطلحاتهم حينما يؤرخون لحدث ما، ولكن هذه اللغة وتلك المصطلحات غالباً ما تتجافى وجوهر الحقيقة التي هي المحرك لذلك الحدث، وحينما يتعلق الأمر هنا بما حققه المولى إدريس من فتح فإنه ينبغي في نظري تجاوز المصطلحات ووضعها جانباً لأنه من التعسف استعمالها في حق هذا الرجل العظيم، الظاهرة، فما حققه المولى إدريس كان فتحاً بالمعنى الجميل والمشرق

لهذه الكلمة، هذا الفتح لم يصنعه المولى إدريس بحد السيف ولا باستعمال القوة واستخدام السلطة السياسية، لقد كان ذلك الفتح بداية المسيرة، مسيرة المغرب الموحد المسلم الملتف حول عرش وقيادة ورسالة.

ولكن ما هو هذا الفتح الذي نتكلم عنه هنا؟

إنه بمجرد إعلان وإظهار البيعة للمولى إدريس في وليلي تسارعت الجهات والقبائل خارج نطاق قبائل أوروبة لتقدم البيعة، وقد تم ذلك بطواعية بعيداً عن أي ضغط أو تخوف أو حسابات سياسية أو قبلية، ودل ذلك بكل وضوح على الحقيقة التي تغاضى عنها بعض المؤرخين، وهي أن المغاربة جميعاً كانوا يتطلعون إلى رجل يوحدهم ويقودهم تحت راية الرسالة الإسلامية ويحققون به ومعه وجودهم ويثبتون كيانهم ويلعبون دورهم كأمة أصيلة وعريقة حررها الإسلام وهيأها لرسالة كانت مقدرة لهذا الدين العظيم. لقدكان الشعب المغربي ظاهرة أيضاً في تاريخ الرسالة الإسلامية، مثلما كان المولى إدريس ظاهرة في تاريخ الرجال الذين هيأهم الله لنشر هذه الرسالة، ولا تستطيع الأسباب والمبررات والتحليلات السياسية وحدها أن تشفي غليل الباحثين عن الحقيقة، وإن كانت تلك الأسباب والتحليلات تسند وتؤكد أن ما حققه المولى إدريس ومعه الشعب المؤمن الملتف كان تطوراً حاسماً في تاريخ المغرب المسلم. بل كان البداية الحقيقية لذلك التاريخ الذي استمر وتواصل على خط مستقيم.

نعم، إن المولى إدريس، وقد اجتمع الشعب المؤمن حوله، ومنحه حبه وولاءه، قاد حملة توحيد وتطهير، لا حملة غزو وفتوحات، لينشر دين الله في جميع أنحاء المغرب وليوحد هذه الأمة.

والبعد السياسي للمهمة التي جرد نفسه لها، هو تأمين سلامة الدولة الجديدة ضد تهديد العباسيين من الشرق بعد أن أقر تأمين كيان الدولة الروحي في الجنوب والشمال في زمرة الإسلام، وهذا هو التفسير الذي أعطيه لحملة المولى إدريس في اتجاه تلمسان وما جاورها من قبائل مغراوة حيث دخلت هذه

المنطقة في ظل الولاء للدولة الجديدة، وشكلت حزاماً أمنياً استراتيجياً وبشرياً في مواجهة سلطة العباسيين الذين لم تفتر محاولاتهم لاستعادة نفوذهم الضائع. لقد كان المولى إدريس واعياً لهذا الخطر، ومصمماً العزم ليس على الدخول معه في مواجهة، بل لاقتناعه بأن الوضع الجديد القائم في المغرب لم يكن مجرد فلتة أو حالة عابرة، بل واقعاً ثابتاً ومسلحاً ومستعداً للدفاع عن نفسه. وهذا ما فهمه العباسيون وأذعنوا له وتعاملوا على أساسه.

إن أربع سنوات من حكم المولى إدريس كانت حافلة بالأحداث، وشهدت بداية التحول الأكبر لتاريخ المغرب المستقل عن الخلافة المشرقية.

وهذا التدرج في إثبات وتثبيت السلطة الكاملة الشاملة للدولة المغربية، رمزاً وسلطة روحية، يدل على الثبات والأناة والحكمة، مثلما يدل على ما اتسمت به الطبيعة والسياسة المغربية من تسامح وانفتاح.

كذلك فإن ذلك التدرج الهادىء الرزين ينم عن أصالة ثابتة، فالمغاربة المعتزون بأنفسهم لا يميلون إلى إظهار ذلك الاعتزاز عن طريق الثورة أو التمرد أو العصيان أو التحدي، فهم معتزون بأنفسهم لأنهم واثقون بذاتهم ومؤهلاتهم وبقدرتهم على الاختيار الذي يناسب ويتفق مع مزاجهم وطبيعتهم ومصالحهم التي لا تتناقض مع الأهداف السامية لهم كدولة وكأمة.

وانطلاقاً من فلسفة هذا التدرج ومنهجيته كأسلوب مغربي في التعامل مع الأحداث والتحديات والمهام الكبرى نجد التفسير الواقعي للمهام التي لم يستطع إنجازها المولى إدريس في تلك الفترة القصيرة لحكمه والتي تهيأ لبعضها وأنجزها خلفه المولى إدريس الثاني، ثم من بعده خلفه من أبنائه. إن تلك المهام كانت جسيمة وتتطلب الوقت والصبر والإعداد، وقبل كل شيء تتطلب النضج، أي تطرح نفسها كأولية تسبق غيرها من الأوليات. وهكذا بقيت في عهد المولى إدريس الأول دويلات كانت موجودة قبله، وظلت خارجة عن نطاق سلطته ونفوذه الروحي أو السياسي، مثل البرغواطيين وبني مدرار، وبني صالح، وبني

عصام، وقد توزعت هذه «الدويلات» على مناطق في الشمال وفي الجنوب، وكان لها حكامها ونفوذها المحلي، ولكن يجب القول هنا أن هذه «الدويلات» لم تكن تشكل كيانات منفصلة جغرافياً وقومياً عن الوطن، والأصح أن توصف بأنها أقرب إلى إقطاعيات محلية من كونها «دويلات» منفصلة، فهي جميعاً كانت تحت مظلة وسلطة الانتماء إلى الوطن الواحد، وكان وجودها تعبيراً عن حالة أو مذهب أو عصبية طارئة لا تتوفر على وسائل مقومات الاستمرار، وكانت «حدودها» مرسومة لحكم نفوذ تلك الحالة أو المذهب أو العصبية، وليست حدوداً «للسيادة» أو السلطة السياسية، وأحسب أن جميع قادة وزعماء تلك الإقطاعيات «الدويلات» كانوا يتوقون إلى بسط تجربتهم أو نفوذهم أو مذهبهم ليشمل باقي أجزاء التراب الوطني، وبصرف النظر عن الحكم الذي يصدره في حق أولئك الزعماء ودويلاتهم المؤرخون، فإن هؤلاء جميعاً قد اتفقوا على أن تلك الحالة من التشرذم الروحي والسياسي والقومي كانت نتيجة غياب سلطة روحية سياسية مستقرة في المغرب، سلطة نابعة من اختيار المغاربة مجسدة لإرادتهم معبرة عن طموحاتهم موحدة لأفكارهم ومشاعرهم في ظل الدين الإسلامي الذي وحد قلوبهم وفتح عيونهم على آفاق الرسالة التي يسمون بها إلى ذروة العطاء والإشعاع كأمة عظيمة.

إن حالة التشرذم تلك كانت حلقة فراغ تاريخي، كانت الوحدة الوطنية المغربية قبل الإسلام وحدة مواجهة وتصد للقوى الخارجية، وبعد دخول الإسلام كانت تلك الوحدة تبحث عن وجهها الجديد لتنبعث وتعلن عن نفسها في ظل الدين الحنيف كعقيدة روحية ونظام سياسي وتنظيم مدني اجتماعي.

وجاء تأسيس الدولة المغربية على يد المولى إدريس ليعلن عن الميلاد الجديد للوحدة الوطنية المغربية وليضع حداً لذلك الفراغ التاريخي، ولهذا كان محكوماً على حالة التشرذم الروحي والسياسي والقومي أن تأفل وتضمحل وتنتهي وكان ذلك يحتاج إلى وقت لا من أجل استكمال أو توفير القوة المادية لمحو الظاهرة ـ الحالة، بل من أجل أن يأخذ التغيير مجاله في العمق ليكتسح

الظاهرة ـ الحالة قضاء حتمياً وكاملاً، لتتمكن الأمة من وسائل اندفاعها في بناء حضارتها الجديدة، ولتبقى الحالة مجرد ظاهرة خارجة عن نطاق التاريخ السياسي والقومي للأمة، ظاهرة لا يملك أحد وسائل تبريرها أو يجد ما يبرر به التساؤل عن إمكانية تكرارها بشكل أو بآخر.

إن المولى إدريس ما كان له أن يجابه تلك التحديات الداخلية والخارجية بالاعتماد على قوة ،ر جيش، فلو كان هدفه هو تأسيس دولة تمتلك قوة ضاربة يبسط بها نفوذه ويواجه البؤر المرشحة للتمرد داخلياً، وفي نفس الوقت قوة خارجية، ولو كان هدفه ذلك لعانى الأمرين، وحتى لو كسب بتلك القوة المعارك المتعددة، فإنه كسب مؤقت لن يكتب له الدوام، ولكن المولى إدريس أسس في الواقع قواعد دولة لها رسالة، أو بالأحرى قواعد رسالة بنى عليها قوام دولة ـ رسالة تلتف حولها القلوب، وتحتشد الصفوف، وتشحذ العزائم والهمم، فكان صاحب رسالة بنى عليها المغاربة دولتهم وحموها ونأوا بها عن الدخول في مواجهات وصراعات ومعارك تسفك فيها الدماء وتعشش الحزازات والأحقاد، فكان أن كتب لهذه الدولة ـ الرسالة البقاء والاستمرار والمناعة والقوة والمتجددة عبر العصور والأحقاب، فلم يكن لهذه الدولة أطماع للتوسع، ولا تطلعات للهيمنة خارج إطار وحدود وجودها وحياتها وبيئتها الحضارية والبشرية، لذا فبدل أن تدخل في مواجهات تستنفد قوتها وتفرغ رسالتها من محتواها، كان لها من الأقدار، مواعد لمعارك لنصرة المسلمين والذود عن حمى الإسلام في الأندلس، وفي المغرب العربي، وعلى المستوى الوطني فإن الدولة المغربية التي أسسها إدريس على تقوى من الله ورضوان كانت دولة الوحدة والتآلف والتضامن والعدل والمساواة، فليس في بنيانها الشامخ قطرة دم سفكت غدراً أو انتقاماً أو عنتاً من مواطن، وإنما كان للحق الذي لا تفريط فيه جولات تنتهي بسيادته وانتشاره واستتبابه بين الناس.

هنا يكمن، مرة أخرى سر خفي عميق من أسرار المولى إدريس الظاهرة، المولى إدريس القبس المضيء من مصباح النبوة المشرق ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ صدق الله العظيم.

عرش المغاربة

جاء المولى إدريس إذن للمغرب حاملاً رسالة في قلبه وتفكيره وهدفه، لم يأت طالباً لملك يسعى إليه بقوة أو جيش أو أنصار، نعم كان طالب حق، وحينما بايعه الشعب المغربي تناسى ما كان يحمله في صدره من رغبة في امتلاك ذلك الحق وإقامته في أرض بعيدة عن المكان الذي كان أهله يطالبون بإقامة حقهم فيه، وما بقي في صدره من الشرق كان هو إرادته في إقامة حكم إسلامي عادل وطاهر في المغرب، وإصلاح الوضع في العالم الإسلامي، وإقامة الحجة والبرهان على صدق وطهارة أهل البيت في قيام نظام حكم يستند على الشرعية الإسلامية وأحكام الكتاب والسنة، وحينها حقق الله هدفه ويسر له السبل، وفتح قلوب المغاربة لمحبته والالتفاف حوله، وشرع القواعد الثابتة لدولة إسلامية لا مشرقية ولا مغربية، لا أموية ولا عباسية، وإنما هي دولة الإسلام والمسلمين، وكان سبيله إلى ذلك هو الحوار والإقناع والشورى وإيثار المصلحة العامة على ما سواها، وكأني به كان يشعر أن حياته لن تطول، فحقق في تلك المدة القصيرة أهم وأعمق إنجاز لرجل رسالة سامية، ألا وهو دستور الدولة، وما ذلك الدستور إلا رسالته لنشر الإسلام وحمايته والاهتداء بأحكامه والوحدة الوطنية في ظله.

لقد سن المولى إدريس قيم المرونة واللين والحسنى وسعة الصدر تجاه ما يكره، والحنكة في سياسة الملك، وجعل الاحتكام في كل موقف أو مبادرة إلى تعاليم الإسلام الحنيف وحدوده المبينة، فلا مهادنة ولا تراجع حينما يتعلق الأمر بتلك التعاليم وتلك الحدود.

قتل المولى إدريس الأكبر غدراً بقارورة سم ناوله إياها الشماخ على أنها من طيب استجلبه من الشرق، وحينما اشتم ما فيها سرى السم إلى خياشيمه وتسرب إلى دماغه فغشي عليه ثم مات بعد حين.

كانت الجريمة من فعل شخص واحد كان مكلفاً بهذه المهمة فأنجزها وقفل هارباً إلى بغداد لينال الجزاء الذي وقد به، فهل كان هارون الرشيد يريد اغتيال رسالته، أم كان يقصد باغتياله بهذه الطريقه التستر على هذه الجريمة السياسية وهو يعلم ما يعلم من فضل المولى إدريس وما أظهره المغاربة من محبة له وتعلق به وبآل البيت عموماً. إن الذين أرخوا لهذه الحادثة وسردوا تفاصيلها لم يطرحوا هذه الأسئلة، ذلك لأنهم تعاملوا مع الحادثة بمنهج تاريخي بحت لم يتجاوزه إلى استنباط الأبعاد السياسية الكامنة فيه، أو يستعملوا حاسة التاريخ السياسي الذي أرى أن حظه من البروز كان محدوداً تجاه هذه القضية وكأن المولى إدريس كان حلقة عادية في عقد التاريخ العام لتلك الحقبة التي تشكل، في اعتقادي، منعطفاً عميقاً لتاريخين متمايزين، تاريخ إسلامي مشرقي، وتاريخ إسلامي مغربي، أو بعبارة أدق تاريخ الغرب الإسلامي.

استشعر هارون الرشيد الخطر الذي يمثله المولى إدريس على سلطته، ورأى أن هذا الخطر يتمثل كما قال لوزيره حين دعاه للاستشارة فيما ينبغي عمله، في «أن الرجل قد فتح تلمسان وهي باب أفريقيا ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار، وقد هممت أن أبعث إليه جيشاً ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك. ولكنه، في حيرته هذه كان يبحث عن طريقة ما تحول دون أن يدخل المولى إدريس الدار بعد أن فتح بابها، ولعله كان يخشى أن يتجاوز المولى إدريس حدود تلمسان، فيزحف بقوته المتنامية إلى بغداد، ولم لا وموطن الخلافة إنما هو الشرق وليس هو المغرب؟ وإدريس الناجي من وقعة فخ قد يكون اتخذ من المغرب قاعدة انطلاقه لانتزاع الخلافة من أبناء عمومته العباسيين الذي انتزعوها غلاباً وتجاوزاً للبيعة التي عقدوها هم أنفسهم للعلويين.

ولكن الوزير يحيى بن خالد البرمكي غير بمشورته لهارون الرشيد وبخطته مجرى الأحداث، وعجل من حيث لا يدري بنهاية كانت محتملة ولكن لم تكن

قد نضجت بعد كقرار في مخيلة المولى إدريس، وكيف يمكن تحقيقها ومتى، نهاية سلطة الخلافة المشرقية على المغرب الأقصى وقيام دولة مغربية إسلامية على أسس البيعة الشرعية ممثلة في إمام وعرش وسلطة دينية ودنيوية.

والخطة البرمكية كانت ترتكز على رهانين:

الأول: أن يموت المولى إدريس بالسم المستنشق، فلا يعرف المقربون إليه، ولا يعرف الشعب، سر هذا الاغتيال الكيماوي الغريب، وبالتالي تستبعد التهمة عن الخليفة وعن بغداد.

والثاني: أن يحدث ذلك الفراغ الذي تصوره الوزير البرمكي، فكان يعتقد أن اختفاء المولى إدريس سيضع حداً لذلك الوضع الذي كان يمثله، وستعود المياه إلى مجاريها ولن يجد المغاربة رجلاً في مكانة المولى إدريس يمحضونه ذلك الحب الذي أحاطوا به سبط الرسول ﷺ.

وقد سقط الرهان الأول، ولا بد من وقفة قصيرة لمشاهدة سر آخر من أسرار العناية التي أحاط الله سبحانه وتعالى بها سبط رسوله الكريم، عناية أنقذته من موت محقق في وقعة فخ، وعناية كشفت سر اغتياله في مدينة وليلي، ليبقى المولى إدريس حياً في ضمير المغاربة وحياتهم جيلاً بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يفهم من الروايات التاريخية أن الشماخ استوثق من المولى إدريس ووقع من نفسه موقع الأمان والثقة، أصبح يتحين الفرص للانفراد به لينفذ فعلته، ولكنه كان يجد في كل لحظة راشداً ملازماً للمولى إدريس لا يفارقه كظله، إلى أن كان يوم غاب فيه راشد في بعض حاجاته، فدخل الشماخ وجلس يحادث المولى إدريس إلى أن حانت اللحظة المناسبة فناوله القارورة المسمومة. هنا كانت العناية الإلهية حاضرة، فالشماخ وقد رأى أثر السم على وجه المولى إدريس، خرج مسرعاً إلى بيته، وركب فرسه واتجه صوب الشرق قاصداً

الإفلات والهروب، وقد كان بإمكانه أن يظل حيث هو ويتحلى بالجأش ويظهر الجزع على ما أصاب الرجل الذي محضه ثقته دون أن يخشى تهمة أو يتوقع ريبة، ولكن الجريمة المروعة أطاحت بدهائه وكشفت سر خيانته وشقاه، فعرف راشد والناس أن الشماخ قاتل غادر، وأنه أتى مكلفاً بتنفيذ هذه الجريمة. وأفلت الشماخ من سيف راشد الذي تقول الروايات أنه لحق به عند وادي ملوية فضربه بسيف وقطع يمناه وشج رأسه ولكنه لم يمسك به... فعاد إلى بيت مولاه لتبدأ فصول عناية ربانية أخرى بهذه الأمة وبمصيرها وبما قدره الله لها على يد إدريس ومن جاء بعده، وتلك هي قصة سقوط الرهان البرمكي الثاني.

مجلس الشورى

ساد الحزن قلوب الشعب المغربي على ما حل بسبط الرسول ﷺ، وما نزل بالرجل الذي أحبوه والتفوا حوله، ورأوا فيه المنقذ الذي كانوا يتطلعون إليه، ولكن الجزع لم ينل من عزمهم، أو يفتَّ في عضد أناتهم وتبصرهم، ويفقدهم صوابهم، فبعد أن حملوا نعش فقيدهم العزيز إلى مثواه الأخير، اجتمعوا ليروا في أمرهم ما يفعلون، هنا كان راشد ذلك الحكيم المدبر فخرج إلى الناس وهم مجتمعون فقال لهم: «إن إدريس لم يترك ولداً إلا حملاً من زوجته كنزة، وهي الآن في الشهر السابع من حملها، فإن رأيتم أن تصبروا حتى تضع حملها فإن كان ذكراً أحسنا تربيته حتى إذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تمسكاً بدعوة آل البيت وتبركاً بذرية رسول الله ﷺ، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم». فقالوا له: «أيها الشيخ المبارك مالنا رأي إلا ما رأيت، فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمورنا كما كان إدريس يقوم بها، وتصلي بنا، وتقضي بيننا بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، ونصبر حتى تضع زوجته حملها ويكون ما أشرت به، على أنها إن وضعت جارية كنت أحق الناس بهذا الأمر لفضلك ودينك وعلمك».

حقق الله أمره... وأرسى المولى إدريس قواعد الرسالة لدولة المغرب

الإسلامية، وآلت الأمانة إلى شعب آمن بتلك الرسالة وتشبع بها والتف حول أهدافها، ولم يحدث ما كان قد خطط له يحيى البرمكي ونفذه الشماخ. فالشعب المغربي بايع المولى إدريس الأزهر وهو ما يزال حملاً في رحم أمه كنزة. وتعهد سلفاً أن يكون خلفاً لوالده. وهكذا، وفي انتظار المولود شكل المغاربة لأول مرة في التاريخ الإسلامي مجلساً للوصاية ووصياً على هذا المجلس هو راشد الأمين الذي أدى الأمانة، وقام بها على أكمل وجه وأوفاه. وتمثلت في هذا الرجل تلك الصفة الخالدة للوفاء والولاء التي كانت وبقيت ولا تزال بحمد الله سمة المغاربة المسلمين المؤمنين.

وولد المولى إدريس الأزهر يوم الاثنين ثالث رجب عام ١٧١هـ، فكفله مولاه راشد وتعهده تربية ورعاية وتثقيفاً وإعداداً للمهمة التي تنتظره.

وكان المولى إدريس الأزهر استمراراً لوالده وكان أول ملك مغربي الأم والنشأة والمسقط. كان نتاج تلك المصاهرة الزكية الطاهرة بين المولى إدريس وكنزة بنت زعيم أوروبة، مصاهرة من الدم بعد مصاهرة الروح والعهد والالتحام!

أول عاصمة... وأول حكومة

كان المولى إدريس الأزهر على موعد وهو بعد في يفاعته، مع إتمام رسالة والده في بناء أسس الدولة بعد قيامها واستقرار وجودها، وهكذا فإن الحديث عن المولى إدريس الأزهر ليس بالحديث عن إمام مختلف عن أبيه، بل حديث عن رسالة أبيه في شخصه، وحديث عن قوام وأسس وقواعد الدولة التي أنشأها والده، فهو سر أبيه بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وعلى هدي هذه الحقيقة يكمن فهم أبعاد ودلالات المنجزات التي حققها المولى إدريس الأزهر، كبناء أول عاصمة للدولة الجديدة، وإقامة أول «حكومة» بها وزراء ومستشارون في عهد المغرب الإسلامي وتنظيم الحياة المدنية، واستقبال النازحين من علماء

وفقهاء ونبهاء ورجال السياسة من أفريقيا ومن الأندلس ومن المشرق العربي، كأول بادرة في تاريخ المغرب الإسلامي لاستقبال كل مضطهد أو مظلوم، وفتح الأبواب لهجرة الأدمغة إلى المغرب لا للاستفادة من خبرتهم كأجانب، بل ولإتاحة كل الفرص لهم للاندماج في الكيان الوطني كمواطنين مسلمين في بلد إسلامي ووسط أمة إسلامية، كذلك قام المولى إدريس الأزهر باستكمال ما بدأه والده في نشر العقيدة الإسلامية في طول المغرب وعرضه وتطهير ما بقي في المغرب من بؤر الخوارج، وتعريب الدولة المغربية لساناً وثقافة وتربية ومعاملات، وإبراز وجه المغرب في بعده الحضاري المتفتح.

وكان المولى إدريس الأزهر هو الملك الذي بنى مركز دولة المغرب الجديدة خارجياً، مثلما دعم وأرسى أسسها داخلياً، فقد أصبح المغرب في عهده دولة لها نظامها المتكامل وسيادتها السياسية والاقتصادية والمالية وممثلوها ومؤسساتها، وتجلى أثر هذه الهيبة وتلك المكانة فيما أصبح يدبر للدولة الجديدة من مكائد للنيل من مقومات وجودها ووحدتها وإثارة الفتن هنا وهناك لإشغالها وإنهاكها كمدخل لبسط الهيمنة من جديد على المغرب.

وقد بدأت هذه المكائد على يد إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقيا كما يصطلح على تسميته المؤرخون القدامى أو والي الخليفة العباسي على ما كان يعرف بأفريقيا في المصطلح السياسي آنذاك، أي المغرب العربي ابتداء من برقة إلى طنجة، وكان إبراهيم بن الأغلب هذا أقوى وأنفذ الولاة الذين عرفتهم منطقة المغرب العربي منذ دخول الإسلام إلى ذلك الحين، وكان يتمتع بأكبر قدر من الاستقلال والتصرف، ويحظى بكامل ثقة العباسيين، وهو الذي كان قد اجتمع بالشماخ قبل قدومه إلى المغرب وأعد معه تفاصيل خطة اغتيال المولى إدريس، وكان مقر حكمه وإقامته في تونس، وحين رأى فشل الخطة التي استهدفت اغتيال المولى إدريس، ورأى المغاربة وقد بايعوا إدريس الثاني وهو حمل في بطن أمه، وكيف أن الفراغ الذي كان يأمل حدوثه لم يقع، وأن المغاربة ظلوا

على وفائهم وولائهم وتشبثهم بعهدهم، دبر خطة لاغتيال راشد ظاناً منه أنه هو العقبة والأداة التي تقف في وجهه لاستعادة هيمنته على المغرب كوالٍ للخليفة، ولكنه هذه المرة لجأ إلى وسيلة جديدة هي الإغراء بالمال لاستمالة بعض المغاربة وامتلاك ضعف بعض النفوس لإحداث ثغرة في جدار الوحدة الوطنية للمغاربة وضرب بعضهم ببعض، وهكذا استطاع أن يجد من ينفذ له هذه المؤامرة، فقتل المولى راشد رحمه الله واجتثت رأسه وحملت إلى إبراهيم بن الأغلب، وحدث هذا حسب بعض الروايات في السنة التي بويع فيها المولى إدريس الأزهر وهو يومئذ ابن إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر، وإذا اعتمدنا على هذه الرواية وهي في نظرنا تبدو أقرب إلى منطق الأحداث وتسلسلها، فإن إبراهيم بن الأغلب قد نفذ خطته في وقت دقيق وحاسم، وأن الخطة كانت تشتمل على العناصر التالية:

- اغتيال راشد الرأس المدبر رئيس مجلس الوصاية.

- استمالة بعض القادة النافذين وإغراؤهم بالمال والنفوذ وفي مقدمتهم إسحاق بن محمد الأوروبي زعيم أوروبة المشهور وجد المولى إدريس من أمه.

- إحياء الدعوة من جديد لحمل الناس على خلع بيعتهم للمولى إدريس وتجديدها للخليفة العباسي.

وبذلك يتم إجهاض الدولة الجديدة التي أسسها المولى إدريس الأكبر.

وأمام هذه الخطة المحبوكة، وجدت الإرادة المغربية نفسها أمام مواجهة اختبار صعبة وخطيرة، اختبار الإيمان والوفاء من جهة، واختبار الإرادة السياسية الوليدة من جهة أخرى.

فماذا كان رد المغاربة:

أولاً: قام بكفالة المولى إدريس بعد مقتل رفيق أبيه، ومربيه، والساهر عليه، راشد، مواطن مغربي آخر لم تورد الروايات التاريخية تفاصيل عنه، وهو

أبو خالد يزيد بن الياس العبدي، ويفهم من تركيب الاسم أنه كان من رجال أوروبة، ولربما كان أحد الذين كان يستعين بهم راشد في إدارة شؤون الدولة ومجلس الوصاية.

ثانياً: الإسراع بعقد البيعة للمولى إدريس الأزهر وهو ما يزال فتى في الحادية عشرة وخمسة أشهر من عمره، لوضع حد للفراغ الدستوري من جهة، ووضع حد لنمو واستفحال الأطماع تحت تأثير الإغراء المالي، ووضع الجميع أمام الأمر الواقع من جهةٍ أخرى.

فهل كان هذا الرد في مستوى الأحداث والأخطار المحدقة بالدولة الجديدة الوليدة؟

لقد قلت إن المولى إدريس الأزهر كان سر أبيه، وأقول الآن إنه كان أيضاً استمراراً نورانياً لأبيه ـ الظاهرة.

فعندما بايعه شعبه صعد نفس المنبر الذي خطب فيه أبوه عندما بويع وقال:

«الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه وأعوذ بالله من شر نفسي ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. أيها الناس إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا».

وعند انتهاء خطبته، تزاحم الناس حوله وإليه، يبايعونه ويقبلون كفه تبركاً وإظهاراً للولاء والمحبة، وهم أشد ما يكونون إعجاباً وإكباراً لهذا الملك الفتى شبيه أبيه في سمته وإشراقة وجهه وفصاحة لسانه وقوة شخصيته. وتواردت عليه

الوفود من كل صوب تجدد البيعة له، وتعلن التفافها حول قيادته.

سياسة الملك

وكان التحدي الأول الذي واجهه تحد داخلي، تمثل فيما بذله ابن الأغلب من جهد وتخطيط لاستمالة رجال قومه عليه واستعدائه لهم بالخروج عن طاعة ولائهم وبيعتهم، وكان من بين هؤلاء رجل يدعى بهلول بن عبد الواحد المضغري، وكان هذا من خاصة المقربين للمولى إدريس ومن مجلس مشورته وأركان دولته، وقد استطاع ابن الأغلب استهواءه بالمال وتحريضه على خلع ما بعنقه لإدريس وإعلانها لهارون الرشيد. وهنا أبان المولى إدريس الأزهر ليس فقط من الحكمة التي يقتضيها تطويع الصعاب، بل وضع، في نظري، قاعدة متينة وأساسية من قواعد السياسة الملكية بالمغرب، ألا وهي سلوك سبيل اللين لا ضعفاً ولكن تسامحاً وإرشاداً، وفرد أجنحة الرحمة وسعة الصدر إيقاظاً لنوازع الخير في النفوس حتى تغلب على ما فيها من شر، وهكذا شمل برحمته وسماحته ذلك الخارج عن الطاعة، وبدل أن ينزل به العقاب ويسلط عليه سيف العذاب ألزمه بالاعتزال في بيته، أي فرض عليه ما يعرف في عالم اليوم بالإقامة الإجبارية ليتركه في مواجهة نفسه وضميره ليرجع إلى رشده إن كان ما فعله تأثيراً مفروضاً عليه لا تأثراً حمله على ما فعل، وكانت النتيجة أن بهلول بن عبد الواحد المضغري استنجد برحمة إدريس وسابغ سماحته وسعى لنيل رضاه باستعطافه بقرابته من رسول الله ﷺ، فعفى عنه المولى إدريس وأعاد له حريته واعتباره وضمن مودته وصدق ولائه.

وبقدر ما كان المولى إدريس عطوفاً رحيماً حكيماً على من توسم فيه الندم والتوبة، كان شديداً حاسماً تجاه جده من أمه إسحاق الأوروبي الذي شق عصا الطاعة لحفيده وأعلن موالاته لابن الأغلب، فما كان منه إلا أن حسم الأمر بما تستوجبه المصلحة العامة التي تعلو وتسمو فوق أي اعتبار وأية عاطفة حتى لو كان المستهدف للعقاب هو أقرب الناس إليه، وهووالد أمه بالذات، ولقد كان

ذلك شاقاً عليه كإنسان بدون شك ولكن الحزم الذي لا مفر من استعماله وتنفيذه شرعاً وسياسة ومسؤولية لا يملك حق التصرف فيها أو التهاون في أدائها.

ولعل هذه الحادثة، أي تنفيذ حق الشرع في جده، كانت أحد الأسباب التي حدت به إلى الابتعاد عن مدينة وليلي وبناء عاصمة جديدة بعيدة عنها تكون مستقر حكمه ومقامه، ولكنه ترك هناك ضريح والده المؤسس شاهداً على ما كان لذلك المكان من تاريخ مجيد وذكر تليد لميلاد ونشأة الدولة المغربية الإسلامية.

وكان التحدي الثاني الذي واجه المولى إدريس تحدياً خارجياً ذا اتجاهين ومركزين، من المشرق ممثلاً في والي الخليفة العباسي القوي ابن الأغلب في تونس، ومن الشمال ممثلاً في حاكم الأندلس وخليفتها الحكم بن هشام الأموي، فالمغرب يوجد بينهما مستهدفاً منهما، وكلا الرجلين يملكان قوة الجيش والمال والسلطة وادعاء الشرعية فيما يطمحان إليه من إخضاع المغرب لسلطتيهما. لقد كانت الشرعية المغربية أمام امتحان عسير عليها أن تواجهه لفرض وجودها واحترامها وبقائها واستقرارها.

فكيف واجه المولى إدريس الأزهر هذا التحدي الخارجي؟

كان ذكره قد شاع وعدله وسماحته وشهامته قد طبقت أنوارها الآفاق، ولله جنود السماوات والأرض، يعز من يشاء ويذل من يشاء. فما هي إلا سنة من تقلده مهام القيادة حتى توافدت عليه الوفود من تونس، مقرُّ ابن الأغلب، ومن الأندلس مقر الحكم بن هشام، وفود من الفرسان والعلماء والوجهاء ومن أهل الورع والتقوى، شدت الرحال إليه طلباً لعدله، واحتماء بشرف نسبه، وتقرباً لخدمته وإعانته على نشر دعوة الإسلام وتثبيت أركان دولته في المغرب على بيعة الرضوان وطاعة الإمام، وكانت هذه الوفود وفود مهاجرين أو لاجئين سياسيين، كل واحد من أفرادها ذاق إما مرارة الاضطهاد المذهبي الديني، أو معاً. وكان من بينهم محدثان عالمان جليلان أحدهما عامر بن محمد بن سعيد القيسي، والثاني هو يحيى الليثي. واحد أتى من الشرق والآخر جاء من الأندلس.

الملك العالم

وهكذا سن المولى إدريس الأزهر تلك السُّنة الزكية المباركة بملازمة الملوك المغاربة للعلماء وجعلهم عماد مشورته وأساس دعوته ورسالته.

وهكذا اشتد ساعد المولى إدريس الأزهر برجال كانوا عوناً له في نشر دعوته وأداء رسالته واستتباب الأمن الروحي لأمته، وأكرم المولى إدريس وفادة القادمين عليه وأنزلهم عنده منزلة التقدير والاعتبار، وعهد إلى بعضهم بمسؤوليات جسيمة، واستعان بخبرتهم وكفاءتهم على تشييد اللبنات الأولى لمؤسسات الدولة كالقضاء والوزارة وديوان الملك. وكان لهجرة تلك الوفود إلى المغرب وفي حمى المولى إدريس أثرها المعنوي الذي لا يخفى، فالمغرب أصبح دولة مهابة الجانب، وفيها ملك عادل تقي من آل رسول الله، ودولة يسودها الأمن وترفرف عليها ألوية التسامح، فلا عصبية ولا اضطهاد وإنما عدل واحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وكان لهذا الواقع القوي أثره على خصوم الدولة المغربية فنزعوا إلى المهادنة بدل المواجهة، وكفوا عن التحرش واستبدلوه بتحين فرص للضعف أو التراجع، وهكذا عمد المولى إدريس الأزهر إلى مصالحة ابن الأغلب والحد عن غلواء أطماعه واستجلاب مهادنته بدل محاربته، وقد كان المولى إدريس بذلك يصدر عن إيمان نابع من قلبه لتجنيب المسلمين مغبة المقاتلة والمخاصمة وإراقة الدماء دفعاً للحقد والضغينة بينهم، كما كان يصدر عن إيمانه بالرسالة التي ينوء بها والتي يجب عليه أن يعبىء لها كل قواه وكل الموازد المتاحة له من رجال ومال وسلاح، ألا وهي رسالة استكمال توحيد المغرب تحت راية الإسلام ودعوته، واجتثاث شأفة الخوارج.

وبعد أن ضمن سلامة جبهة المغرب الشرقية، عمد إلى إبقاء الجبهة الشمالية المواجهة لدولة الأمويين بالأندلس بعيدة عن مخطط الحملة التي قادها لتطهير النواحي الأخرى من حكم الخوارج التي لا يفتح أمامه واجهات كثيرة في

وقت واحد وحتى لا يثير عليه وعلى بلاده قوة الأمويين الذين كانوا يعتبرون منطقة شمال المغرب المواجهة للثغر الأندلسي عمقاً استراتيجياً لأمنهم ونفاذ سلطتهم، لأنهم يعرفون أن الخطر إنما يتهددهم من هذه الناحية، فعملوا على بث نفوذهم بها، ومؤازرة خلفائهم البورغواطيين بهذه المنطقة. وترك المولى إدريس للزمن وتغيير الظروف أن تهيىء الأسباب المناسبة لتوحيد جميع مناطق المغرب تحت راية الشرعية وفي ظل الوحدة الوطنية وتطهير الوطن كله من بذور الفرقة ودعاة الفتنة.

من ولاء الطبيعة... إلى ولاء العقيدة

هكذا أمن جانب الأمويين بالأندلس وتفرغ لبناء الجبهة الداخلية وتأمين وحدتها الروحية والدينية وتأسيس قواعد الدولة وبناء مؤسساتها الراسخة، ومن أهم هذه المؤسسات في نظري هي خلق تلك الروح الجماعية بوجود نظام، وشرعية، ودولة وكيان سياسي وطني، وتفتيت الإقطاع والعصبية الجهوية أو القبلية واستبدالها بالوعي الوطني، وبالمصلحة العليا للوطن، وبلورة ذلك الولاء الطبيعي للأرض، إلى ولاء وطني للأرض والإنسان والسيادة والوطنية، وكان سبيله إلى ذلك هو الشورى والاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله كقاعدة روحية وكتنظيم ونظام يكفل الحرية والعدالة والأمن والاطمئنان.

إنَّ بناء هذه المؤسسة كان عملاً تاريخياً باهراً أنجزه المولى إدريس الأزهر، وأقام على أركانه قواعد دولة المغرب الإسلامية.

وتوفي إدريس الأزهر وعمره ست وثلاثون سنة، ودفن بالمسجد ـ الذي ساهم بيده في حفر أساسه وبناء أسواره ـ وخلف من الولد اثني عشر ذكراً، كانوا هم بذور دوحة الشرفاء التي ورقت أغصانها وسرى عبير أزهارها في المغرب كله، ليصبح هذا البلد دون غيره من بلاد الإسلام وأرضه موطن أكبر عدد من آل البيت وأسره.

لبنة النظام الفيديرالي

وانتشر أولاد المولى إدريس على عهد خلفه ابنه الأكبر سيدي محمد، انتشروا في نواحي المغرب من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، واختص كل واحد منهم، إلا الأصغرون سناً، بناحية يسير شؤونها ويرعى أمر الله من أهلها، ويسهر على استتباب الأمن فيها، وكان هذا أول تقسيم إداري للمملكة في عهود نشأتها الأولى، ومن الناحية العلمية فإن هذا التقسيم يمكن اعتباره أول لبنة لنظام الدولة الفيديرالي، أو اللامركزية، فكل أمير من أمراء هذه النواحي كان يدير شؤون ناحيته بقدر واسع من السلطة واستقلال القرار في مجالات الحياة العامة للمواطنين، ولا شك أن هذا التنظيم الذي سنه المولى محمد بن إدريس بن إدريس كان نواة ما عرفه المغرب بعد ذلك من أشكال تنظيم السلطة المحلية، وهو تنظيم عرف بنماذج مختلفة في أشكالها وإطارها وحدودها، ولكن الفكرة ظلت ثابتة كاختيار أظهر فائدته وجدواه من الناحية العملية، وأكد تطابقه للرغبات والحاجات والتقاليد الديمقراطية عند المغاربة، وإن كان هذا التنظيم أو هذا النظام صالحاً في كل زمان وفي كل مكان ولجميع الناس، فإنه للمغرب كان فوق ذلك اختياراً موافقاً لطبيعة المغرب الجغرافية، ولطبائع المغاربة.

وينبغي أن نقول أن نظام اللامركزية في ظل نشأة الدولة الجديدة كان لا بد في محك الاختبار وترسيخ التجربة وتأصيلها، أن يفرز تجاوزات وأخطاء وتصرفات هي من طبيعة البشر، وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير الأحداث التي عرفتها الدولة الجديدة، وتناولها المؤرخون كظواهر للفتنة والصراع على السلطة مما أدى بالتراكم وضعف إرادة أو قوة الحسم، إلى أن تبرز على السطح مرة أخرى زعامات وقيادات اقتطعت هذه الناحية أو تلك لسلطتها، ونزع بعضها إلى «امتلاك» الشرعية لنفسه بدل الشرعية القائمة، وتزامنت هذه الأحداث في المغرب مع ظهور عدد من الأمارات المستقلة في الشرق وحتى في المغرب العربي كالأغالبة الذين استقلوا بالحكم عن الخلافة العباسية. كانت هناك إذاً

ثلاث خلافات: العباسيون في الشرق، والأمويون في الأندلس، والفاطميون في المغرب الأدنى والأوسط، ولكن المغرب رغم تأثره بما كان يشهده العالم الإسلامي حوله، ورغم الانعكاسات السياسية الخارجية عليها، ظل متماسكاً وقادراً على مواجهة العواصف وتجاوزها والتمسك بوحدته والدفاع عن كيانه والتشبث بقداسة نظامه المستقل والمعبر عن ذاته وشخصيته.

لقد أرسى الإدريسان قواعد البقاء والاستمرار للمغرب وللمغاربة في ظل رسالة الإسلام، ويسر الله لهما ما تعجز عنه إرادة البشر وحدها، ذلك لأن العناية الإلهية قدرت لمسيرة المولى إدريس الأكبر من مكة إلى المغرب أن تكون مسيرة فتح حقيقية، فتح الله بها على يد المغاربة آفاقاً ودياراً وشعوباً للإسلام ولحضارته وعالميته.

نظرة عامة عن الدولة

لم يلبث إدريس أن حل بالمغرب الأقصى حيث نزل بوليلي[1] عند إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الذي رحب به وقبل دعوته. وهكذا تمت بيعته سنة ١٧٢ وبمساعدة هذه القبيلة التي تنتسب إلى البرانس، تمكن إدريس

---

(١) وليلي: مدينة أثرية يرجع تاريخها إلى العصر الروماني تقع بجبل زرهون على بعد ٣كلم من زاوية المولى إدريس الأكبر.
وهي مدينة مستطيلة الشكل تتدرج بناءاتها في سفح الجبل وتعد أعظم أثر روماني قائم بهذه البلاد ولا زال المنقبون يشتغلون في حفرياتها منذ عدة سنوات. ورمموا ما وجدوا بها من أطلال كقوس النصر وباب كاراكالا والأزقة والدور ومعاصر الزيتون والكنيسة الخ.
ومن بين القطع التي وقع اكتشافها مصنوعات فنية من الطين والخزف ورؤوس بعض التماثيل وكلب من البرونز ونقوش وفسيفساء وأروقة وقنوات المياه وأحواض رخامية وقطع نقدية إلى غير ذلك. وتوجد بعض هذه القطع في جناح خاص بها وبالمتحف الأثري بالرباط. وكان المغاربة يسمون هذه المدينة قصر فرعون. أما اسمها الروماني فهو فوليبيليس. وقد دمرها زلزال أشبونة الشهير سنة ١٧٧٥.
وتبلغ مساحتها نحو ٤٠ هكتاراً وكانت لها ثمانية أبواب و٤٠ برجاً. وخلال العصر الروماني كانت مركزاً للحكام الرومانيين ثم أخذت في الاضمحلال حتى دخلها المولى إدريس.
تقع على بعد ٣٠كلم شمال مكناس.

من الزحف إلى تامسنا لمحاربة البرغواطيين، ونشر الإسلام بين القبائل البربرية التي كانت لا تزال تدين بغير الإسلام. وفي سنة ١٧٣ انتهى إلى تلمسان حيث بايعه أميرها محمد بن خزر، وأسس بها مسجداً، كان لا يزال قائماً في عهد ابن خلدون على ما ذكره في تاريخه (مجلد ٤). وقد تم اكتشاف المسجد الإدريسي سنة ١٩٧٤م.

قد ضايق العباسيون الأدارسة منذ قيام دولتهم حتَّى أنهم عملوا على تأسيس دولة الأغالبة في أفريقيا لهذا الغرض[1] وقد كان هناك اصطدام حقيقي بجيوش العباسيين قبل أن يضطر الرشيد إلى توجيه سليمان بن جرير. وقد استعمل على أفريقيا روح بن حاتم وأمره بأن يغزو مناطق النفوذ الإدريسي، فلم يحصل على طائل[2].

دور العظمة: إدريس الثاني (١٧٧ ـ ٢١٣هـ/ ٧٩٣ ـ ٨٢٨):

ترك إدريس الأول الذي دفن بزرهون جنيناً في بطن أمه كنزة، ولم تلبث أن وضعت هذه ولداً فسمي باسم والده بينما تولى أمور الحكم راشد بموافقة البربر. حتَّى إذا كانت سنة ١٨٨ تمت مبايعته وهو بعد في مطلع العقد الثاني من عمره. وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من استمالة بعض البربر الذين حرضهم على قتل راشد، فأتوه برأسه سنة ١٨٦ بينما قام بكفالة إدريس بعده رجل يدعَى بيزيد بن إلياس العبدي، وروى صاحب الاستقصا أن راشد لم يمت إلا بعد مبايعة إدريس[3] سنة ١٨٨. ولم تلبث وفود العرب أن قدمت على إدريس الثاني من الأندلس وأفريقيا. والظاهر أنه لم يطمئن كثيراً إلى البربر. فقد اتخذ من هؤلاء العرب بطانته وعين منهم وزيراً هو عمير بن مصعب الأزدي القادم من

---

(١) اصطخري: المسالك والممالك، ص٣٧.

(٢) زياني، ترجمان معرب، ص٢٦١.

(٣) انظر أيضاً: السنوسي: الدرر السنية، ص٨١، والحلبي، الدر النفيس ورقة ٧٥م، خزانة عامة الرباط، وابن الخطيب، أعمال، ٣، ١٩٧.

الأندلس كما استكتب عبد الله بن مالك الخزرجي واستقضى عامر القيسي الوارد من الأندلس أيضاً.

وبينما كان إدريس يستعد لبناء مدينة فاس، كان إبراهيم بن الأغلب يهيىء الخطط لإثارة البربر ضده بزعامة بهلول المضغري الذي كان من كبار رجال الدولة، ولم يتأخر إدريس الثاني عن مكاتبة ابن الأغلب ملتمساً منه أن يخلي بينه وبين المغرب، فتركه وشأنه[1]، كما أن إدريس استمال بهلولاً من جديد بيما قتل إسحاق بن محمد الأوروبي الموالي لابن الأغلب وقد ظلت أوروبة وفية للأدارسة حتَّى بعد مقتل زعيمها هذا حيث نرى أن علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف قد التجأ إليها بعد ثورة عبد الرزاق الخارجي المديوني الصفري[2].

ولما كانت سنة ١٩٢ اختط أو أتم اختطاط مدينة فاس التي سيأتي الكلام عليها في موضوع الحضارة في عهد الأدارسة، ثم راح إدريس يحارب صفرية البربر ويقضي على دعوتهم[3]. وكانت وفاته سنة ٢١٣ بعد أن امتد حكمه من السوس الأقصَى إلى وادي شلف.

محمد بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٢١/٨٢٨ ـ ٨٣٦):

ترك إدريس الثاني ١٢ ولداً ذكراً. وقد عهد بالأمر إلى ابنه محمد الذي قسم المغرب بين إخوته، بإشارة كنزة جدته[4]، وكان في هذا التقسيم ضرر على الدولة، إذ لم يلبث أن خرج على محمد بن إدريس بأزمور، أخوه عيسَى الذي دعا الناس إلى نفسه، وتدخل عندئذ عمر صاحب تكساس، بأمر من أخيه محمد

---

(١) انظر بهذا الشأن: ابن الخطيب أعمال الأعلام، ٣، ص١٤، و١٩٦.

(٢) محمد التنسي، نظم الدرر، ص٨٣، راجع أيضاً ابن الأبار، الحلة السيراء، ١، ١١١.

(٣) روض القرطاس، ١، ٢٩، ٣٠.

(٤) يذكر الزياني في الترجمان المعرب أن كنزة هي بنت عبد الحميد أو إسحاق بن عبد الحميد الأوربي رئيس قبيلة أوروبة، وقد تزوج بها إدريس الأول. وكانت شديدة الحنو على ابنها إدريس الثاني حيث كانت تتولى إطعامه وطبيخه خوفاً من تسميمه. (الهمذاني، البلدان، ص٤٠).

بعد أن رفض القاسم بن إدريس أن يواجه شقيقه عيسَى وهكذا تعين على عمر أن يزحف إلى أزمور وطنجة ويستولي عليهما ليضيفهما إلى ما بيديه، بقرار من أخيه محمد. واعتزل القاسم في مسجد بناه قرب أصيلا حيث ضل يتعبد الله سائر حياته، بينما لم يلبث عمر الذي أخلص الطاعة لأخيه، أن اخترمته المنية سنة ٢٢٠، وتلاه محمد سنة ٢٢١هـ.

علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤هـ/ ٨٣٦ ـ ٨٤٨):

عهد إليه أبوه محمد قبل وفاته؛ ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر رغم أنه ولي صغيراً في العاشرة من عمره، بل إن الأحوال كانت مرضية في عهده، نظراً لاجتماع الكلمة عليه، وكان يلقب بحيدرة، وهو لقب الإمام علي (ع).

دور الضعف (٢٣٤ ـ ٨٤٨/٣٧٥ ـ ٩٨٥)

يحيَى بن محمد وولده يحيَى:

تولى يحيَى سنة ٢٣٤. وفي عهده اتسع العمران بفاس، وبني مسجد القرويين، ثم تولَىٰ بعده ابنه يحيَى الذي أساء السيرة، فأغضب بذلك أهل فاس ومات بعدوة الأندلس التي اختفَى بها فراراً من نقمتهم ولم يضبط تاريخ وفاة هذين الملكين.

علي بن عمر:

هو جد الحموديين، وقد انتقل به الملك من بني محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس. وثار ضده عبد الرزاق الخارجي الصفري من مَديونة بناحية فاس، وأصله من وشقة بالأندلس، ولم يستطع علي أن يتغلب عليه، فدخل الخارجي فاس، بينما استغاث سكان عدوة القرويين بيحيَى بن القاسم بن إدريس ولا يعرف شيء كثير عن مصير علي بن عمر بعد استيلاء يحيَى بن القاسم على فاس.

يحيَى بن القاسم بن إدريس مات سنة (٢٩٢/ ٩٠٤م):

طرد عبد الرزاق الخارجي من فاس، ويقول ابن خلدون أن الربيع بن سليمان قد اغتاله سنة ٢٩٢. وكان يحيَى هذا يلقب بالصرام أو العدام، وفي عهده ساءت الحالة الاقتصادية إلى حد بالغ الخطورة، وانتشرت الأوبئة والأمراض.

يحيَى بن إدريس بن عمر (مات سنة ٣٣٢/ ٩٤٣م):

كان على شيء كثير من العلم بالفقه والحديث، وقد شمل بسلطته عموم المغرب الأقصَى، وهو ابن أخي علي بن عمر وفي أيامه استتب الأمر للفاطميين بأفريقيا، وطمعوا في بسط نفوذهم على المغرب، واستعانوا في ذلك بمصالة بن حبوس صاحب تاهرت، وعجز يحيَى بن إدريس عن الصمود أمامه فتنازل للفاطميين عن الأمر، غير أن مصالة أقره أميراً على فاس وحدها وعين على باقي المغرب ابن عمه موسَى بن أبي العافية المكناسي صاحب تازا؛ وكان يكره يحيَى لعطف سكان المغرب عليه، فكاد له حتَّى نفاه إلى أصيلا بأمر من مصالة، حتَّى إذا حاول أن يبرىء نفسه أمام الفاطميين بتوجهه إلى أفريقيا وجد الثورة قائمة عليهم هناك، يحركها أبو يزيد. وهلك أثناء تلك الثورة.

حسن بن محمد الحجام (مات سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م):

هو من عقب إدريس الثاني، ثار سنة ٣١٠ بفاس ضد الوالي الذي عينه عليها موسَى بن أبي العافية، ولكنه ما لبث أن وقع في قبضة حامد الأوروبي الذي اعتقله ليتقرب بذلك إلى موسَى. ثم ندم على اعتقاله، وأطلق سراحه ودعاه إلى الإفلات، فرمَى بنفسه من السور فقتل؛ بينما هرب حامد الأوروبي إلى المهدية. أما موسَى فقد نفى الأدارسة من فاس إلى الريف حيث ضيق عليهم الخناق في حجر النسر وهو عبارة عن حصن عظيم بناه أحدهم سنة ٣١٧. ولم يوافق البربر موسَى على القضاء على الأدارسة نهائياً. وبعد بضع سنوات أصبح نفوذ ابن أبي العافية يشمل المغربين الأقصَى والأوسط.

تدخل المروانيين [الأمويين]

رغب عبد الرحمٰن الناصر في أن يشمل بنفوذه المغرب. فراسل موسَى بن أبي العافية الذي لم يكن يعتمد على نسب قرشي ليحول الخلافة لصالحه، وتكررت الاتصالات عن طريق مبعوثي عبد الرحمٰن حتَّى وافق موسَى على الثورة على الفاطميين. وخطب في المساجد للناصر. فجرد إليه الفاطميون جيشاً عظيماً برياسة حميد المكناسي، وكانت الهزيمة على موسَى. ثم سرحوا جيشاً ثانياً بقيادة ميسور الخصي، بعد أن أثار أحمد الجدامي بفاس عليهم لصالح الأمويين. وتعقب ميسور موسى الذي أصبح شريداً في الشمال الشرقي من المغرب ومات حوالي سنة ٣٤١هـ.

أدارسة الريف وتداول النفوذ الفاطمي والأموي

منذ انحاز أدارسة فاس إلى أدارسة الريف سنة ٣١٣ أصبحوا تابعين تارة للفاطميين وتارة للأمويين. وأصبحوا يستقرون بحجر النسر. وطيلة إمارة موسَى بن أبي العافية، لم يكن لهم أي نفوذ سياسي حتَّى في منطقة الريف نفسها. أما بعد فراره إلى شرق المغرب، فقد بايعوا القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس الذي دعا للفاطميين فتركز بذلك نفوذه في المغرب على العموم، واتخذ من «حجر النسر» عاصمة، وتوفي سنة ٣٣٧، فتولى ابنه أبو العيش أحمد الذي دعا للأمويين. ولم يكتف عبد الرحمٰن الناصر بذلك، بل طلب منه أن يتخلَّى له عن طنجة، لتكون تحت نفوذه المباشر. حتَّى إذا رفض أبو العيش جرد إليه جيشاً، فلم ير بداً من التخلي نهائياً عن الحكم ليلتحق بالأندلس كمجاهد للإسبان ومات سنة ٣٤٨. وخلال ذلك، أصبح يتداول إمارة فاس بنو يفرن ومغراوة الذين كانوا يتعاطفون مع الأمويين. غير أن أدارسة الريف حاولوا في يأس أن يستمروا في إمارتهم الصغيرة بحجر النسر، فعينوا عليهم الحسن بن كنون. وفي سنة ٣٤٧ أرسل الفاطميون أشهر قوادهم جوهر الصقلي على رأس جيش واجه جيش زناتة الموالي للناصر في تاهرت، وكان على رأس

هذا الجيش، يعلي اليفرني الذي اغتاله بعض قواد كتامة. ثم زحف جوهر إلى سجلماسة فاستولى عليها، واستمر في فتحه للمغرب حتى اقتحم فاس[1] ورجع إلى المهدية بعد أن نكل بالزناتيين. أما الحسن بن كنون، فلم يكن من الممكن أن تثبت إمارته من غير تبعية للفاطميين أو الأمويين. وقد فضل الأولين لبعدهم النسبي عن المغرب، ولكراهته للأمويين. ولم يلبث الحكم المستنصر أن بعث بجيش إلى المغرب في غيبة القائد الفاطمي، ثم اتبعه بجيش ثان يرأسه مولاه غالب فلم يجد الحسن بداً من التنازل عن البصرة وقلعة حجر النسر، ثم نفاه غالب إلى الأندلس وطرد جميع الأدارسة من هذه القلعة، حتَّى إذا كانت سنة ٣٦٥، لم يستطب الحكم بقاء الحسن بن كنون بالأندلس، فسمح له بالذهاب إلى مصر حيث استنجد بالعزيز الفاطمي الذي أمر عامله بأفريقيا بلكين الصنهاجي أن يمده بجيش يقتحم به المغرب، وأثناء ذلك كان الأمر في الأندلس قد صار إلى المنصور بن أبي عامر فبعث بجيش لحرب ابن كنون، فيئس هذا من بسط نفوذه على المغرب، والتمس الرجوع إلى الأندلس من جديد، ولكن المنصور بعث إليه من اغتاله سنة ٣٧٥هـ وبه انتهت دولة الأدارسة بالمغرب.

دويلات في عهد الأدارسة

الواقع أن المغرب لم يخلص كله للأدارسة، فلئن استطاعوا أن يمدوا نفوذهم شرقاً إلى تلسمان. فقد كانت ناحية تامسنا خارجة عن ملكهم يتحكم في شؤونها البرغواطيون بينما كان في سجلماسة بنو مدرار وبنو صالح في نكور، وبنو عصام في سبتة.

وقد عجز الأدارسة عن إخضاع البرغواطيين الذين استمرت دولتهم حوالي

---

(١) في هذه الحملة قبض جوهر على عامل الفاطميين السابق بسجلماسة الذي استقل بحكمها وتلقب بالشاكر لله، كما قبض على عامل فاس من قبل عبد الرحمٰن الناصر الأموي وجعل كل منهما في قفص فطيف بهما في المنصورية (صبرة) (انظر المؤنس، ص٦٤، وأعمال الأعلام، ٣، ٢٢٠ وأنيس ١، ١٣٣).

أربعة قرون، وامتد نفوذهم من أبي رقراق إلى حدود سوس. وحتَّى جيش المنصور بن أبي عامر لم يستطع اقتحام بلادهم ولا إخضاعهم لنفوذ الأمويين. واستمروا يؤدون طقوسهم الغريبة في حرية تامة، يمتنعون عن أكل البيض، ولا يتناولون رأس السمك ولا لحم الديك. ويصومون يوم الخميس من كل أسبوع ويصلون عشر صلوات في اليوم. وعاملوا بقسوة قطاع الطرق واللصوص، كما أخضعوا لسيطرتهم القبائل الإسلامية المجاورة لهم.

أما بنو صالح[1]، فهم نسل صالح بن منصور الذي بنى حفيده سعيد مدينة نكور في الشمال، وكان صالح قد اقتطع ناحية تمسامان وأقره عليها الوليد بن عبد الملك، حتَّى إذا بنيت نكور، أصبحت مركزاً للدعاية الإسلامية التي شملت قبائل غمارة. وبقي أكثر الغماريين مخلصين لدويلة بني صالح الذين تعاقبوا على نكور أزيد من مائتي سنة، حتَّى قضَى عليهم الفاطميون في مطلع القرن الرابع الهجري وعلى العموم فقد كانت علاقتهم طيبة بالأمويين أصحاب الأندلس، وحتَّى الأدارسة لم يبطشوا بهم نظراً لإخلاص الغماريين لهم.

وأما بنو عصام فهم بربر استقلوا بسبتة منذ سنة ١٢٣هـ وبقيت بأيديهم إلى أن استولى عليها الناصر الأموي بعد قرنين ونيف.

وعلى كل حال فإن قسماً كبيراً من المغرب خرج عن سلطة الأدارسة، أو على الأصح، استمر في خروجه على الأدارسة، أما الصحراء المغربية، فلا نكاد نعرف شيئاً عن تدخل الأدارسة في شؤونها باستثناء منطقة كوليمين التي عين عليها أحد إخوة محمد بن إدريس؛ ولكن من المؤكد أن نشر الإسلام في ربوع الصحراء خلال القرن الثالث، يرجع الفضل فيه إلى الأدارسة.

الأدارسة والثقافة العربية الإسلامية في المغرب: فاس

نستطيع القول بأن قيام إمامات الأدارسة في المغرب الأقصى وجزء من

---

(١) راجع بشأن دولتهم، ابن الخطيب أعمال ٣، ١٧١، ١٧٩. البكري، مسالك، ٩٠، ٩٩، ابن عذاري، بيان ١، ٢٤٦ ـ ٢٥٢.

المغرب الأوسط يعتبر نقطة البداية الحقيقية لتعريب المغرب الفعلي، وأول ظاهرة نلاحظها نتيجة لقيام تلك الإمامات هي بداية ما يمكن أن يسمى بمصالحة بين العرب والبربر في المغرب الأقصى، فبعد الفتنة المغربية وما شهدناه من صراع بين عناصر العرب وبعض عناصر البربر خلال هذه الفتنة، وما أدت هذه الفتنة إليه من عداوة بين الجانبين كما رأينا في معركة الأشراف ثم في معركتي القرن والأصنام ظلت نفوس العرب والبربر متوترة تفيض بالتخوف وعدم الثقة، وهاتان المعركتان الأخيرتان كانتا كما قلنا إنقاذاً لعروبة أفريقيا ومذهب السنة والجماعة فيها على يد حنظلة بن صفوان الكلبي. فهنا، أي في أفريقيا، كان انتصار مذهب السنة والجماعة بدء المصالحة بين العرب والبربر، أما فيما وراء نهر شلف غرباً فقد ترك مصير العروبة والإسلام فيه للأقدار فلم تكن هناك دولة قائمة أو نظام عربي سائد في أي جزء من المغربين الأوسط والأقصى، إنما هي المشيخات القبلية البربرية المستعربة في كل مكان. وبين القبائل اندس عرب كثيرون بعضهم سنة وبعضهم خوارج، وقد كان لهؤلاء العرب أثر في التعريب ولكنه قليل، فما عدا ما كان من أمر إمارة نكور التي أقامها صالح بن منصور الحميري في بلاد غمارة، وسنتحدث عنها بعد قليل، والظاهرة السياسية الكبيرة التي لاحظناها وأشرنا إليها مراراً في المغرب الأقصى، هي زندقة برغواطة، وكانت عقبة في سبيل التعريب وفي سبيل سيادة السنة والجماعة.

وعندما وصل إدريس الأول إلى طنجة ثم إلى وَلِيلي كانت العلاقات بين العرب والبربر في هذه النواحي واهية جداً فأحياها وجود هذا الشريف العلوي، الذي رأى فيه البربر حفيداً من حَفَدة رسول الله ﷺ يحمل إليهم الخير والبركة والقوة التي تخلِّصهم من أعدائهم البرغواطيين، ولكنه كان في نفس الوقت ممثلاً للعروبة؛ فتفتحت قلوب الناس للعرب من جديد، وتوالى وصول العرب من أفريقيا والأندلس إلى دولة إدريس الأول، وقد أعجبهم منه نشاطه وتفانيه وورعه، فهذا الشاب لم يكد يستقر في وليلي حتى غزا ريف تامسنا وكان جزءاً من مواطن برغواطة، ثم اتجه إلى الشرق فغزا إقليم فازاز أو

أزرو، ثم استولى على ممر تازا فتلمسان في المغرب الأوسط، ثم ترك هذه لابن عمه سليمان.

واستمر هذا النشاط في أيام إدريس الثاني حيث زادت حركة المصالحة بين العرب والبربر خلالها، وأسرع التعريب بفضل اتجاهه العربي واستقدامه نحو خمسمائة أسرة عربية من الأندلس والمشرق وأفريقيا ثم أخذت هذه الحركة أبعاداً أوسع بكثير بإنشاء مدينة فاس.

أما الحركة الأدبية، فقد عرفت نشاطاً عظيماً حفظت لنا منه المراجع نبذاً قليلة متفرقة، ولكنها تنبىء بحق عن الروح التي كانت تسود الأدب في ذلك العصر.

وقد عرف عهد الأدارسة معظم أبواب الأدب التقليدية، غير أن الشعر السياسي كان طاغياً على أبواب الأخرى، نظراً للصراع القائم بين مختلف النزعات آنئذٍ، وكان بين أمراء الأدارسة عدد كبير من الأدباء والشعراء، ومنهم إدريس الثاني. ومن شعره الأبيات التالية التي يعاتب فيها بهلولاً الخارجي الذي خرج عن بيعته ودعا لإبراهيم بن الأغلب:

أبهلول قد شممت نفسك خَطة	تبدلت منها عولة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره	فأصبحت منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بكيد ابن أغلب	غدا آخذاً بالسيف كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خالياً	ومناك إبراهيم شوك قتاد

وقد حضر داود الجعفري المتوفى سنة ٢٦١ إلى جانب إدريس الثاني في إحدَى غزواته مع الصفرية فلاحظ تقلبه على السرج وقلة استقراره، فأجابه إدريس بقوله: «ذاك مني زمع إلى القتال وصرامة فيه، فلا تظنه رعباً» ثم تمثل بيتين نسبا إلى الإمام علي، وهما:

أليس أبونا هاشم شد أزره	وأوصَى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتَّى تملنا	ولا نشتكي مما يؤول من النصب

وينم أدب المولى إدريس الثاني عن حماسته الفياضة وعزة نفسه وثباته في الحرب. ولدينا أبيات أخرى لإبراهيم بن القاسم بن إدريس يعاتب أمويي الأندلس على استكانتهم لاستبداد المنصور بن أبي عامر، وإن كان الأدارسة يكرهون كلاً من الفريقين، بيد أن تدخل المنصور كان أشد عليهم من تدخل ملوك بني أمية:

فيما أرَى عجباً لمن يتعجب ... جلت مصيبتنا وضاق المذهب
أيكون حياً من أمية واحد ... ويسوس هذا الملك هذا الأحدب؟
تمشي عساكرهم حوالي هودج ... أعواده فيهن قِرْدٌ أشهب

وقد اشترك البربر بطبيعة الحال، في الحركة الأدبية. وهكذا نرى سعيد بن هشام المصمودي يخاطب البرغواطيين في وقعة بهت التي قتل فيها عدد كبير من البربر، ونلاحظ في هذه القصيدة الطويلة التي قدم لنا منها ابن عذارى بضعة أبيات تقليداً واضحاً لمعلقة عمرو بن كلثوم وزنا وقافية. بالإضافة إلى تقارب المناسبتين. بل نلاحظ أكثر من ذلك وأهم، تأثير القرآن في أسلوب الشاعر الذي يقول:

قفي قبل التفرق فاخبرينا ... وقولي واخبري خبراً مبيناً
هموم برابر خسروا وضلوا ... وخابوا، لا سقوا ماء معينا
يقولون النبي أبو عفير ... فأخزَى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر يوم بهت ... على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات بهم ثكالى ... وعاوية ومسقطة جنينا
هنالك يونس وبنو أبيه ... يوالون البوار معظمينا
فليس اليوم ردتكم ولكن ... ليالي كنتم مستيسرينا[1]

الشكوَى

ظهر الألم في شعر الأدارسة الذين أحسن الأولون منهم بحنين إلى

(١) أي من أصحاب ميسرة.

مواطنهم الأصلية. وفي الأبيات التالية يعبّر إدريس الثاني عن شوقه إلى آل البيت:

لو مد صبري بصبر الناس كلهم ... لكل في روعتي أو ضل في جزعي
بان الأحبة فاستبدلت بعدهم ... هماً مقيماً وشملاً غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم ... على ضميري مجبول على الفزع
تأوي همومي إذا حركت ذكرهم ... إلى جوانح جسم دائم الهلع

ويقول شاعر آخر سكن بين البربر في ورغة وسماهم أعاجم(!):

ألا هل أتَى أهل المدينة أنني ... بورغة بين الأعجمين غريب
إذا قلت شيئاً قيل: ماذا تريده؟ ... لهم بين أحرار الوجوه قطوب![1]

حول الأدارسة

يقول الأستاذ عبد الهادي التازي:

امتدت دولة إدريس الأول من المحيط إلى قلب القطر الجزائري ولم يستثن من كل هذه المساحات سوى إمارات بني عاصم بسبتة، وبني صالح بنكور وبني مدرار بسجلماسة..

وقد تميزت الصلات بين الأدارسة من جهة وبين هذه الإمارات من جهة أخرى بأنها كانت على ما تقتضيه تقاليد الجوار نظراً لما عرفت به تلك الإمارات من تمسك متين بهداب الشريعة وتحاشيها عن الرغبة في تسلط بعضها على البعض الآخر.

وعندما اطمأن الإمام إدريس على الأحوال في المغرب الأقصى أخذ يخطط ليجعل منفذاً لدولته على المشرق، ومن هنا اتجه نحو تلمسان حيث بايعه في رجب (١٧٢هـ ـ ٧٨٨م) عن طواعية واختيار أمير تلمسان أبو عبد الله

---

(١) انظر أبياتاً أخرى لإدريس الثاني في الحلة السيراء، لابن الأبار، ١، ٥٥.

محمد بن خزر بن صولات المغراوي، الأمر الذي كان له أثر قوي في فصل الشمال الأفريقي كله عن الخلافة العباسية منذ هذا التاريخ.

وهنا وجد نفسه وجهاً لوجه مع دولة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي كان على رأس ثاني إمارة استقلت عن بغداد في هذه الجهة. وهي دولة للخوارج الإباضية.

ولم يكن يهم الإمام إدريس الأول من دولة الرستميين أن تبسط نفوذها على المنطقة التي كانت تحكم فيها بقدر ما كان يهمه أن يكون هدفها البعيد مما يتفق وهدفه هو، فقد أصبح بحكم الواقع جاراً لها ولا بد حينئذ من أن يطمئن على رفقة الطريق.

ويظهر أن قبيلة زنانة التي كانت تتحكم في المغرب الأوسط آنئذ لم تجد ما يبرر بقاء الدولة الرستمية مع ظهور الدولة الإدريسية، ولذلك نراها تعلن تمردها على تلك، باسطة يدها لهذه، الأمر الذي دفع الرستميين إلى مواجهة الزناتيين أصحاب السيادة في البلاد(١) وبخاصة منهم بطنا مغراوة وبني يفرن بالرغم من الروابط العائلية التي كانت تشد بعضهم إلى البعض الآخر(٢).

لقد أصرت القبيلتان على طلبهما إلى الرستميين أن يندمجوا في الأدارسة كما ألحوا في ضغطهم على الأدارسة لكي يشهروا الحرب على الرستميين.

وبالرغم من وجود هذا العنصر القوي إلى جانب الأدارسة فإنهم ظلوا متشبثين بعهودهم التي قطعوها للرستميين منذ البداية وظلوا مع ذلك يحاولون حمل أنصارهم الزناتيين على تغيير موقفهم وأنه لم يكن هناك مصلحة في مناهضة جيرانهم الذين كانوا يهيمنون على جل المرافق الاقتصادية في البلاد،

---

(١) كانت زناتة كل شيء في المغرب الأوسط حتى ليعرف بوطن زناتة ومنها كان أيضاً مغراوة وجراوة قوم الكاهنة..

(٢) لا تنس أن والدة عبد الوهاب رستم الذي كان يقوم بمواجهة الزناتيين هي من زناتة من بطن بني يفرن كما أن زوجته كذلك لواتية.

وكانوا من ناحية أخرى حاجزاً أمنياً بين مملكتهم وبين إمارة الأغالبة[1] عملاء خصومهم الطبيعيين فكانت لهم بمثابة ما يسمى اليوم بالمنطقة الفاصلة التي تحميهم وتوفر لهم الأمن والاستقرار والعمل بمنأى عن التهديدات[2].

وبالرغم مما لحق الأدارسة من ظلم سياسي في مساقط رؤوسهم فإنهم عندما التحقوا بالمغرب في أعقاب وقعة فخ انصرفوا لأداء رسالتهم في هذه الجهات وما كان أحد ليثق في أن مخطط إدريس الأول كان يقصد إلى الإطاحة بدولة بني العباس في بغداد، فإن إمكانياته من جهة، وتنائي المسافات من جهة ثانية كل ذلك مما كان يبعد ـ في نظر الملاحظين ـ احتمال التفكير في أخذ وشيك بالثأر.

وعلى العكس من ذلك فإن الخليفة هارون الرشيد قلق جداً من وصول إدريس سالماً إلى بلاد المغرب، وقد زاد في مشاعره بالخوف ما بلغه من استجابات تلقائية وجماعية لتوجيهات إدريس ولما تكمل خمس سنوات على نجاته، وكان ما أرعبه دون شك التقرير اليائس الذي وصله من عامله روح بن حاتم أمير القيروان، وكان الخليفة عهد إليه بمقاومة المغرب الإدريسي. لكن الذي فتح عينيه على الخطر ما بلغه أيضاً من الفضل بن روح من أن الجيش تمرد عليه عندما أعطاه الأمر بمقاتلة إدريس، وأن الناس في بلاد المغرب يتهيبون النيل من حفدة رسول الله..! فهنا جمع الخليفة ديوانه وكان الهاجس الأسود الذي أوحى به وزيره جعفر البرمكي: أن لا وسيلة للاستعانة بالجيوش مهما كانت لإخضاع إدريس، وأن الطريق الوحيد للتخلص من الدولة الناشئة هو في إرسال مبعوث يختلط بالإمام ليجهز عليه عندما تسنح له الفرصة... وهكذا كانت المؤامرة الدنيئة الرخيصة التي نفذها عميل عرفه التاريخ بعد باسم

---

(١) ابتدأ ظهور الأغالبة أواسط جمادى الثانية (يونيه ٨٠٠) عندما كتب العهد لإبراهيم بن الأغلب من قبل الرشيد بعد استشارة أصحابه.

(٢) هذا لا يمنع أن الأدارسة قضوا على عقيدة الخوارج فيما تحت أيديهم من بلاد.

«الشماخ» وظل اسمه يحمل معاني الغدر والقذارة في كل بيت وعلى كل لسان في مغرب البلاد ومشرقها.

ونعتقد أنه لولا ذلك التصرف الأهوج من بلاط العباسيين لأمكن للأيام أن تعمل على تضميد الجروح التي خلفها قمع القائد العسكري محمد بن سليمان[1] ولأمكن أن نجد الأدارسة في لقاء محتمل مع قادة بغداد، ولأمكن بالتالي أن لا تزداد العلاقات تقدماً وتطوراً مع خصوم العباسيين في بلاد الشمال الأفريقي وفي الأندلس.

ونريد أن نستنتج من كل هذا أن إصرار الخلافة في بغداد على مضايقة العلويين الطالبيين كان مما زاد في دعم العلاقات بين الدولتين المستقلتين الإدريسية والرستمية..

ولو أن الخلافة في بغداد كانت على جانب من التدبير والتفكير على نحو ما كانت عليه في سعة الملك، لعرفت كيف تعمل على امتصاص نقمة خصومها وخاصة منهم الموتورين لكنها كانت عاجزة بالفعل عن التفكير في أمر من هذا القبيل ولهذا نراها تمعن في الاستفزاز والإثارة.

استنصار الرشيد بشارلمان

ويقول التازي:

ومن هذا القبيل بعث الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ (٨٠١) بسفارة هامة إلى إيكس لاشابيل اختار كبار أعضائها من شخصية مشرقية وشخصية مغربية أفريقية من فوساطوم[2] كانت الأولى أحد رجال ثقته من أهل فاس،

---

(١) أحد كبار القادة العسكريين الذين عهد إليهم الخليفة موسى الهادي بإخماد مقاومة الطالبيين.

(٢) ورد في المصادر القديمة أن هذه الشخصية وردت من (فوساطوم)، فذهب بعض أن القصد مدينة فاس، وهو صحيح، ولكن هذا لا يعني أن منطلق البعثة كان من فاس، ولكنه من القيروان، وإنما حشر اسم فاس لأنها كانت من الشهرة بحيث إن اسمها يعبر به عن المنطقة كلها على نحو ما نقل عن أبي عبد الله البنا الذي ألف كتابه عام ٣٧٥هـ حيث حشر اسم فاس ـ لشهرتها ـ =

وكانت الثانية تمثل إبراهيم بن الأغلب أمير القيروان، وقد تلاقيا قبل أن يلتحقا معاً ببلاط الامبراطور. .

وقد أجمعت المصادر على أن الهدف من هذه السفارة هي الاستعانة بالامبراطور شارلمان على خصوم الخليفة الذين يوجدون على حوض المتوسط: الأمويين والرستميين والإدريسيين وتذكر المصادر التي تحدثت عن هذه السفارة أنه في صدر ما عرض على الامبراطور التنازل له عن حق حماية الفلسطينيين بالأراضي المقدسة ضمن الخلافة، في مقابل مضايقة بني أمية بالأندلس الأمر الذي قد يفسره احتلال برشلونة من جانب الإفرنج، إثر هذا التاريخ، ويفسره كذلك مداهمة طرطوشا من قبل جيش بقيادة لويز ولد شارلمان عام ١٩٢هـ ٨٠٨م. . وكان هذا بعد أن عجزت عدة محاولات كان في أولها التي قام بها والي القيروان العلاء بن مغيث عام ١٥٤هـ، والتي قام بها سليمان بن يقظان وابنه يوسف عام ١٦٠هـ عندما اجتمعا بشارلمان في مدينة باديربورن.

لقد كان ذلك التعنت مما حدا بالأندلس إلى أن تستنجد بالمغرب، وهكذا فكما وردت بالأمس وفادة من يوليان على موسى بن نصير تستنجد ضد ردريكو[1] أرسل الحكم بن هشام بعثة إلى إدريس الثاني منذ سنة ١٨٨هـ (٨٠٤م) بمناسبة اعتلاء العرش وليفاتحه بأن يكونا يداً واحدة على خصومهم مما حدا بالعاهل الشاب إلى الرد على هذه السفارة بأخرى. . . وكان هذا أيضاً مما

= مع المدن التي تحد تاهرت. وما نزال نسمع إلى اليوم تعبير الأتراك عن بلاد المغرب كلها باسم فاس. . . هذا وقد ذكر أن في جملة الأخبار التي حملتها السفارة البغدادية إلى الامبراطور عودة إسحاق ترجمان سفارته السابقة ومعه فيل ضخم عرف باسم أبي العباس! وقد تبعت هذه السفارة وسفارة أخرى عام ١٩١هـ (٨٠٧م) وهي التي قدم فيها هارون الرشيد للامبراطور ساعة مائية رفيعة.

(١) ورد يوليان على المغرب ليرفع شكاة بقصة ابنته فلوريندا التي اعتدى عليها ملك الأندلس وقتئذ لذريق. وقد زين له فتح الأندلس فكان أن بعث موسى بن نصير طارق بن زياد في خامس رجب ٩٢ (٢٨ أبريل ٧١١م).

قوي من عزم عبد الوهاب بن رستم فداهم بشجاعة أبا العباس عبد اللّه بن إبراهيم الأغلبي وحاصره بطرابلس عام ١٩٦هـ (٨١١م).

لكن الطريف في العلاقات الإدريسية الرستمية أن نجد الأدارسة يوافقون جيرانهم الرستميين في أن يبعثوا بسفارة لهم إلى قرطبة عام ٢٠٧هـ (٨٢٢ ـ ٨٢٣م) تصل في يوم مشهود محفوظ في التاريخ، لغرض إظهار التضامن ضد الذين كانوا يحاولون التخلص منهم.

استنصار الأمويين بالروم

ويقول التازي:

وباسم الأمويين راحت سفارة عام ٢٢٥هـ (٨٣٩ ـ ٨٤٠م) برئاسة يحيى بن حكم البكري (الغزال)[١] من عبد الرحمن الناصر إلى امبراطور بيزنطية تيوفيليوس لإثارته ضد الخلافة، وذلك كرد فعل لما قام به هارون الرشيد من مساعٍ مع الامبراطور شارلمان[٢] (انتهى).

ويذكر محمد عبد اللّه عنان في العدد ٨٨ من السنة الثالثة من مجلة الرسالة القاهرية هذه المحالفات التي قامت بين هارون الرشيد والفرنج لمحاربة أمويي الأندلس. وبين أمويي الأندلس والبيزنطيين لمحاربة العباسيين قائلاً: «ومن ثم كانت هذه العلائق والمراسلات الدبلوماسية التي تبادلتها الخلافة العباسية مع مملكة الفرنج، ولم تكن بلا ريب بعيدة عن الفكرة المشتركة في التعاون على سحق الدولة الأموية الجديدة في الأندلس. وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية ومناوئتها في المشرق على عقد التفاهم والصلات الودية فكانت بين أمراء بني أمية وقياصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسية هامة. ففي سنة (٨٣٩م)

---

(١) الغزال بفتح الزاي والغين المشددة.

(٢) عرف بلاط الأمويين بالأندلس سفارات عديدة كان ممن أهمها سفارة صاحب القسطنطينية التي وردت في صفر ٩٤٩هـ.

بعث الامبراطور تيوفيلوس إلى عبد الرحمٰن بن الحكم أمير الأندلس سفراء بهدية فخمة ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق. وكانت هذه المحاولة الدبلوماسية من جانب القسطنطينية على أثر اضطرام الخصومة والحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وعبث المأمون ثم المعتصم في أراضيها. فرد عبد الرحمٰن بن الحكم على القيصر بهدية فخمة وبعث إليه سفيره يحيى بن الغزال، وهو من كبار رجال الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف» (انتهى).

وللكاتب المغربي محمد بن تاويت رأي في سبب ترحيب إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوروبي بدعوة إدريس وتبنيها ومناصرتها هي أن عبد الحميد المذكور كان معتزلياً وأنه كان للاعتزال ركائز في المغرب. قال ابن تاويت من مقال له في مجلة دعوة الحق: نجد هناك موجة من الاعتزال طغت في بلاد المغرب أيضاً، ويذكر ياقوت وغيره أن الواصلية من المعتزلة كانت في المغرب تربو على ثلاثين ألفاً، فكانت هذه تضرب في بلاد المغرب طولاً وعرضاً وهي تدعو إلى مبدئها بألسنة حداد غير أشحة ببيانها المعروف، ولقد رأينا من شعراء الاعتزال من يشيد بزعيم الواصلية فيقول:

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر

وكان جمع من الاعتزال أتى بالواصلية إلى المغرب، ذكر التاريخ منهم: زيد بن سنان الزناتي الذي كان يعيش في أوائل القرن الثاني، وقد تركزت جماعتهم أخيراً في أيزرج قرب تاهرت.

وعلى العموم فإن هؤلاء المعتزلة انتشروا في جهات من المغرب، فأقاموا لهم مراكز عديدة في المغرب الأقصى وفي مزواب والزاب، وكونوا إمارة بمكان يذكره الجغرافيون القدامى باسم «ايزرج» وهي تلي تاهرت كما يقول ابن خرداذبه، وذكر أنها كانت لعهده بيد إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي، وغيره

يذكره بمحمد بن محمد. كما كان نفوذهم يقوى في المغرب الأقصى ويتركزون في طنجة ووليلي التي وجد عليها إدريس بن عبد اللّه أميرها عبد الحميد بن إسحاق الأوروبي المعتزلي، وكان اعتزاله هذا مما مهد لإدريس أن يقيم دولته في يسر وطاعة لما بين الاعتزال والعلوية من صلة (انتهى).

ولنا أن نعلق على قول ابن تاويت بأن من الممكن بأن يكون من نسبوا إلى الاعتزال في المغرب هم في الحقيقة من الشيعة لا من المعتزلة. وذلك لأن الكثيرين ممن كتبوا كانوا يمزجون من حيث لا يدرون بين المعتزلة والشيعة. وذلك بسبب توافق بعض الآراء بين المعتزلة والشيعة. فقد قيل مثلاً عن السيد المرتضى وهو من هو في التشيع إنه معتزلي كما قيل ذلك عن الصاحب ابن عباد. كما وجد من يقول عن المعتزلي ابن أبي الحديد شارح النهج إنه شيعي.

على أن ابن تاويت نفسه عاد فأشار إلى شيء من هذا حين قال: «فالصلة من حيث التعليم شديدة وثيقة بين المذهبين» إلى آخر ما قال ابن تاويت.

والواقع أن المعتزلة وافقوا الشيعة في آراء معينة ليس هذا مكان تفصيلها. كما خالفوهم في أمور أساسية. ويقابل الفريقين فيما اتفقا عليه أهل السنة المعبر عنهم بالأشاعرة لأن الناطق بلسانهم عند احتدام المناظرة كان أبو الحسن الأشعري.

وينقل ابن تاويت عن قدامة بن جعفر في كتابه: الخراج وصناعة الكتابة، أن مملكة الأدارسة كانت موطناً للاعتزال، إذ يقول قدامة: «إن وراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوماً بلد المعتزلة وعليهم رئيس عادل، وعدلهم فائض وسيرتهم حميدة ودارهم طنجة ونواحيها، والمستولي عليها في هذا الوقت ولد محمد بن إدريس».

ويزيد ابن تاويت قائلاً: «كما أن معاصره ـ (معاصر قدامة) ابن خرداذبه ـ يقول بوجودهم ـ أي المعتزلة ـ في إيزرج. ونحوه يقول به ابن الفقيه الهمذاني معاصرهم أيضاً. وفي القرن الرابع يزور المقدسي المغرب فيتحدث عن الشيعة

فيقول: نظرت في كتاب الدعائم فإذا هم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول، وهذه الأصول هي مذهب الإدريسية وغلبتهم بكورة السوس الأقصى. وينقل ابن عذاري في الجزء الثاني عن ابن حزم أن الأدارسة هم أصحاب الاعتزال والشيعة في المغرب، وزاد فنسب إليهم حتى الخارجة (انتهى).

ونسبة الخارجة إلى الأدارسة هي من تفاهات ابن حزم ـ وما أكثر تفاهاته ـ ومن سطحيته في التفكير ـ وما أكثر السطحية في تفكيره.

لقد رأى اتفاق الأدارسة (الشيعة) في بعض القول مع المعتزلة فقال عنهم: إنهم أصحاب الاعتزال والشيعة ثم ارتأى أنهم ما داموا أصحاب مذهبين فليكونوا أصحاب مذهب ثالث. هكذا بكل بساطة، دون أن يفكر أن الجمع بين عقيدة الأدارسة وعقيدة الخوارج هو كالجمع بين النار والماء.

قال (سيديو) في كتاب تاريخ العرب: «ظل الأدارسة قابضين على ما ملكوه من سنة ٨٠٣ إلى ٩٤٩م مقيمين في البلاد التي هي مدينة لهم بجليل الأعمال، فأسسوا مدينة فاس التي أضحى مسجدها مقدساً لدى جميع الأهالي المجاورين ونال شهرة عظيمة في زمن قليل واشتملت مدينة فاس على مدارس ومكتبات تساوقت هي والحركة العلمية التي حمل لواءها بنو العباس في الشرق، وغدت مستودعاً واسعاً بين عرب أسبانيا وعرب أفريقيا».

والحقيقة أن قيام الدولة الإدريسية في المغرب أدى إلى نتائج جليلة، فإن ما أصاب تلك الرقعة قبل الأدارسة لم يثبت قدم الإسلام فيها وحال دون انتشاره انتشاراً واسعاً، فبفضل الأدارسة انتشر الإسلام حتى بلغ كل مكان[١] وبفضلهم قامت الحركة العلمية فأنشأت المدارس والمكتبات، كما توسع العمران وأسست المدن مما أدى إلى التوسع في تحضير البلاد وازدهار المدنية.

---

(١) يقول صاحب الاستقصا عن إدريس الأول: لما استوثق له الأمر زحف إلى البربر وأكثرهم على غير دين الإسلام فأسلموا على يده.

ولولا الظروف القاهرة التي أحاطت بهم فحصرت جهودهم وشلت هممهم لكان لهم شأن أبعد من هذا الشأن.

والعمل الأكبر الذي يتوج كفاح الأدارسة هو تعميمهم الإسلام بين القبائل البربرية وترسيخ قدمه فيها، حتى أصبحت من أشد قبائل المغرب الأقصى شكيمة وأحسنها بلاء في الدفاع عن بيضة الإسلام، وكان أكثرها على غير ملة الإسلام، لأن الحكام الفاتحين قبل ذلك كانوا يعاملون البربر أسوأ معاملة، ولما وصل إدريس الأكبر إلى المغرب أقام في بلادهم وتزوج إليهم وولد له ثم لأولاده من أمهات بربريات اندمجوا هم وأحفادهم من بعدهم في القبائل البربرية، ويقول غير واحد من المؤلفين والمؤرخين في هذا الصدد، ـ أي في صدد اندماج أعقاب إدريس الأول في قبائل البربر «تبرير ولده» وهم ـ أعني هؤلاء الأدارسة المندمجين في البربر ـ الذين قاموا بنشر الدعوات إلى الدين الحنيف في تلك الأقطار الشاسعة فأنشؤوا دولتين من أشهر الدول الإسلامية في تلك البلاد[١].

ومن أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح دعوة الأدارسة واعتناق البربر للإسلام اعتناقاً عاماً على أيديهم ما كان يلقاه البربر من عمال الأمويين والعباسيين من الظلم الفادح والاستغلال البشع مما يتنافى مع الإسلام ويصوره بأبشع الصور، لذلك ظل المغرب كله، الأقصى منه[٢] والأوسط[٣] والأدنى[٤] في ثورات دائمة لا يقر له قرار، وكان أحراره يفتشون عن متنفس لهم، فكثيراً ما كانوا يؤيدون دعوة الخوارج ويثورون معهم، وللدلالة على فساد الحكم الأموي وسوء المعاملة التي كان الأمويون يعاملون بها الرعايا ومنهم قبائل البربر فيبعدونهم بذلك عن الإسلام ويدفعونهم للثورات نقص ما رواه المؤرخون مما

---

(١) الشبيبي في ابن الفوطي.

(٢) ما يعرف اليوم بدولة المغرب.

(٣) الجزائر.

(٤) تونس.

كان مظهر الحكم يومذاك، فمن هذا أن يزيد بن أبي مسلم دينار (مولى الحجاج الثقفي) جعله الحجاج كاتبه وصاحب شرطته، وفي عهد يزيد بن عبد الملك ولاه يزيد على بلاد المغرب، فسار هناك بسيرة الحجاج، ومن أفعاله أن الحجاج كان قد وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم إلى قراهم ورساتيقهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام. وأراد يزيد بن أبي مسلم أن يفعل عين ما فعله الحجاج ويطبق ذلك على البربر. فاستفظع البربر هذا الأمر ولم يصبروا عليه فتآمروا فيه وأجمعوا على قتله فقتلوه[1].

وفي عهد هشام بن عبد الملك، كان عمر بن عبد الله المرادي والياً على طنجة والمغرب الأقصى، فأساء السيرة في البربر وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم أنه الفيء فنفرت قلوب البربر وأحسوا أنهم طعمة للعرب[2] وقد كان الولاة بعامة يرهقون البربر بما يطالبونهم به من المطالب الظالمة، فمن ذلك مثلاً أنه كانت تشوقهم الجلود العسلية اللون، فكانوا يتغالون في جمع ذلك حتى كان القطيع من الغنم يهلك ذبحاً لا لشيء إلا لاتخاذ الجلود العسلية من سخاله، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، ويقول صاحب الاستقصا «فكثرعيثهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا على الانتفاض». والجلود العسلية هي مثل ما كانوا يطلبونه، فقد كانوا يفتنون بطلب أنواع من طرف المغرب بمثل هذه الأساليب.

فلما وصل إدريس الأكبر وقامت دولة الأدارسة عرف البربر أن الإسلام الصحيح ليس هو الذي كان يمثله أولئك الحكام الطغاة، وأنه ليس إلا عدلاً وتسامحاً ورحمة فأقبلوا يدخلون فيه أفواجاً على أيدي الأدارسة أحفاد محمد وعلي.

وقد خلفت هذه القبائل البربرية دولة الأدارسة بعد ذلك في مراكش وما

---

(١) الطبري.

(٢) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى.

يليها من بلاد الأندلس وأسست غير دولة من دول البربر كدولة الموحدين وبني مرين والمرابطين. ولبعض هذه الدول البربرية مواقف مشهورة في الدفاع عن بيضة الإسلام في الأندلس والنكاية بمن هاجمها من طغاة الفرنجة مثل ملوك أرغان وقشتالة في غرب الأندلس. وقد توارثت هذه القبائل إلى اليوم ولاء أهل البيت والإخلاص لهم، وما أكثر بيوت العلويين على اختلاف بطونهم في المغرب، وما زالوا يتمتعون بحرمة وافرة(١).

وبعد هذا نترك الكلام للدكتور حسين مؤنس:

ما زالت الدولة الإدريسية تنتظر من يكتب تاريخها ويحدد دورها في بناء المغرب العربي، ولا زال أصحاب كتب التاريخ الإسلامي العام ينظمونها في سلك الدويلات التي تقاسمت نواحي المغرب الإسلامي ابتداء من منتصف القرن الهجري الثاني جاعلين إياها صنواً لدولة بني الأغلب أو دولة بني رستم التاهرتيتين أو حتى دولة بني مدرار أصحاب سجلماسة، ويفوتهم في أثناء هذا العرض السريع المتواضع أن يتبينوا مكانها كحجر الزاوية في بناء إسلام المغرب وعروبته، وما قامت به من دور عظيم في مد رقعة الإسلام في شمال المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط والقضاء على نزعات الخارجية التي اجتاحت هذه النواحي من أواخر القرن الهجري في إرساء أسس الإسلام الصحيح، وتثبيت دعائم العروبة ولغتها وثقافتها في بلد أصبح بفضل الأدارسة الدرع الواقي للجناح الغربي من مملكة الإسلام.

والحقيقة أن كتابة هذا التاريخ والقيام بحقه عسيرة كل العسر، فإن المعلومات عن دولة الأدارسة قليلة لا تزيد على صفحات عند أبي عبيد البكري وابن الأثير وابن خلدون وابن عذاري وصاحب روض القرطاس والغويري وابن الآبار وابن حمادة، وهذا النزر اليسير من المعلومات بعد ذلك متناقض متعارض

---

(١) الشبيبي في ابن الفوطى.

سطحي يصعب معه الوصول إلى الحقائق والأصول التي يطلبها من يقوم على كتابة التاريخ بحقه ولا يكتفي بظواهر الأحداث وبسائط الوقائع.

وقد ألم ا. ف. جوتييه بتاريخ الأدارسة في كتابه المعروف عن القرون الغامضة من تاريخ المغرب، وربط قيام دولتهم بما كان لبلدة وليلي Volubilis من دور كبير في تاريخ المغرب الأقصى على أيام الرومان، وشطح بالموضوع على طريقته في تصور التاريخ، وزاد الأمر بذلك تعقيداً، وعلى هذه الشطحات بنى جورج مارسيه ما قاله عن الأدارسة في كتابه عن المغرب خلال العصور الوسطى، وطوع المادة اليسيرة التي جمعها لتلك النظرية الضالة التي ما زال الفرنسيون متشبثين بها من أيام هنري فورنل، وهي نظرية زورها أصحابها لتأييد ما كانت فرنسا ترمي إليه من فصل المغرب عن الكيان العربي، وقد كذب الله ظنونهم وله الحمد.

نظرة عامة في تاريخ الأدارسة

وقد تبينت جانباً من هذه الصعوبة عندما مست الحاجة إلى تقويم شجرة النسب الإدريسي لتحقيق بعض الأخبار التي أوردها أبو عبد اللّه بن الآبار في كتابه المبدع «الحلة السيراء». وقد اعتمدت أول الأمر على «جمهرة» ابن حزم، وعندما شرعت في تحقيق ما جاء فيها ومقارنته بما ذكره أبو عبيد البكري وابن عذاري وابن الأثير وابن خلدون والنويري من أحداث التاريخ الإدريسي تبينت أن صاحب «الجمهرة» قد وقع في أخطاء كثيرة وخلط في أنساب الأدارسة، ثم راجعت ذلك كله على ما في روض القرطاس، واستطعت أن أقوم معظم فروع الشجرة وأربطها إلى الجذع الإدريسي على نحو معقول. وقد أخرت الرجوع إلى روض القرطاس لأن صاحبه من أقل المؤرخين تدقيقاً وضبطاً. وقد عانيت من أخطائه الشيء الكثير.

وتتجلى صعوبة ضبط هذا النسب عندما تصل إلى الجيل السادس وما بعده من أجيال الأدارسة، فإن الأمر هنا يختلط اختلاطاً شديداً لكثرة الفروع وتشابه

الأسماء، فإن الأدارسة كان لهم ولع بأسماء معينة نجدها في كل فرع تقريباً مثل القاسم ويحيى وعلي ومحمد وأحمد وكنون وإدريس والحسين، ويزيد الأمر تعقيداً أن الرجل منهم قد يسمي ابنين من أبنائه باسم يحيى واثنين باسم القاسم واثنين باسم علي وهكذا، والمؤرخون يميزون بعضهم عن بعض بقولهم القاسم الأكبر والقاسم الأصغر أو يحيى الأكبر ويحيى الأصغر وهكذا، وواضح أن ازدواج الأسماء هذا راجع إلى تعدد الزوجات.

أضف إلى ذلك تفرق فروع هذا البيت في نواحي المغرب الأقصى ابتداء من جيله الثالث، فقد ولى محمد بن إدريس بن إدريس إخوته الكبار داود ويحيى وعيسى وعمر وحمزة والقاسم وعلياً على نواحي مملكته، فأصبح كل منهم وكأنه صاحب الناحية التي ولي عليها، وأقام فيها وصاهر أهلها، ونشأ أبناؤهم واتصلت أنسابهم واشجة في أنساب أهل القبائل، ويبدو ذلك بصورة واضحة في أبناء علي وعمر والقاسم، وقد بلغ هذا الامتزاج مع القبائل مبلغ الاندماج الكامل واتخاذ الأنساب المحلية، فظهرت في أسماء فرع القاسم أسماء كنون وأبي العيس، وفي فرع علي أسماء ونعال وفك الله وتعود الخير، وحمل بعض سلائلهم نسبات محلية مثل أحمد الكرتي من أبناء القاسم بن إدريس بن إدريس ويحيى الجوطي وهو من أحفاد القاسم هذا، وتسلسلت من أحفاد علي حيدرة بن محمد بن إدريس بن إدريس بيوت الأشراف العلميين والمشيشيين والوزانيين، ومثل ذلك كثير.

ثم إن تاريخ الأدارسة لم يسر في خط متصل، ولم يتركز في عاصمة واحدة، وهو في تقطعه أشبه بسراج في مهب الريح، إذا هدأت سكنت شعلته واستقامت وارتفعت، وإذا هبت عبثت بها فمالت في كل ناحية، وربما خبت حتى تكاد تخفى، ثم تعود إلى الاستقامة والارتفاع من جديد. والحق أن دولة الأدارسة لم تكن في مهب ريح فحسب، بل كانت في ملتقى عواصف وأنواء فتعرضت في حياة محمد بن إدريس لعواصف الحرب بين الإخوة، وتعرضت في حياة يحيى بن محمد بن إدريس لمأساة كادت تطيح بها، وانتقل الملك من

فرع محمد بن إدريس إلى فرع أخيه، ثم إلى فرع أخيهما القاسم عقب ثورة عبد الرزاق الفهري، ثم عاد إلى فرع عمر بعد مقتل يحيى العدام سنة ٢٩٢هـ - ٩٠٥م وانتقال الملك إلى يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، وهنا تصل الدولة إلى ذروتها.

وقد شاءت المقادير أن يتوافق هذا الأوج مع ظهور الفاطميين، فقد كان هؤلاء منذ استقام لهم الأمر في هذه الناحية التي قام لهم الملك فيها، فطفقوا يبحثون عن مستقر آخر لسلطانهم، ومضت جيوشهم تضرب شرقاً وغرباً، وبعثوا قوادهم يجوسون خلال نواحي المغرب، واستشعر بنو أمية الأندلسيون خطرهم، فتجردوا لدرئه، وكان ميدان الصراع بين الدولتين ذلك الجزء الشمالي من المغرب الأقصى الذي أقام فيه بنو إدريس ملكهم، ولم يكن الأدارسة على قوة تمكنهم من الثبات في ذلك الصراع، ولم يلبث أمرهم في فاس أن انتهى على يد مصالة بن حبوس وموسى بن أبي العافية فيما بين سنتي ٣٠٨هـ (٩٢١ - ٩٢٢م) و٣٣٢هـ (٩٤٤م)، وقد كانت دولة الأدارسة في فاس قد صحت صحوة قصيرة بعد ذلك على يد الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، ولكنها كانت إيماضة عابرة دامت نحو السنتين، ثم تلاشت سنة ٣١٣هـ (٩٢٥م) على يد موسى بن أبي العافية.

وقد تجرد ابن أبي العافية هذا للقضاء على بقاياهم في نواحي المغرب فأجلاهم عن النواحي التي كانت بعض فروعهم قد تأصلت فيها مثل شالة وأصيلا، وتجمع الباقون منهم في قلعة حجر النسر، وهي قلعة ابتناها محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) على أصح الأقوال

وفي هذا الحصن وما حوله أقام بنو إدريس من فرع محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم في ضمول تاركين بقية المغرب الأقصى لآل أبي العافية، فلما تلاشت دولة هؤلاء سنة ٣٦٠هـ (٩٧١م) تنفس بنو إدريس الصعداء وخرجوا من

معقلهم وعاد لهم السلطان على كثير من نواحي المغرب الأقصى، وقد تولى ذلك القاسم كنون بن محمد باني قلعة الحجر، وبه بدأ ما يعرف بالدور الثاني من تاريخ الأدارسة، وهو في حقيقة الأمر الدور الرابع أو الخامس، فما أكثر ما مر به تاريخ هذه الدولة من أدوار، وعلى أي حال فقد كان دوراً باهتاً مضطرباً كان الأدارسة فيه تارة في طاعة بني أمية القرطبيين وتارة ضحية لأتباع الفاطميين، وفي بعض الأحيان نجد أمراء الأدارسة بين رجال الناصر الأموي يعيشون في قرطبة ويخرجون للجهاد مع جيش الخليفة الأموي، وفي أحيان أخرى نجدهم محاربين لهم، وفي أيام الحكم المستنصر الأموي استولى قائده غالب المعروف بفارس الأندلس على حجر النسر، واستسلم له الحسن بن كنون بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣ ـ ٩٧٤م)، وانتقل إلى قرطبة هو وآله حيث عاشوا في كنف المستنصر، وتجرد غالب لاستنزال من بقي منهم من معاقله وإجلائهم إلى قرطبة.

وحياة الحسن بن كنون هذا مأساة طويلة هي أشبه بالقصص فقد وقعت النفرة بينه وبني الحكم المستنصر، فأخرجه هذا الأخير مع أهله إلى المشرق، فمضى إلى مصر، ولقي الخليفة الفاطمي العزيز نزار بن المعز بعد سنة ٣٦٥هـ (٩٧٦م) وكان الأمل يراود حسناً في محاولة السلطان في المغرب الأقصى مرة أخرى، وصادفت هذه الرغبة اتجاه العزيز إلى مناوأة بني أمية الأندلسيين، فأعانه على ما طلب، وخرج إلى المغرب الأقصى حيث زوده بلكين بن زيري بقوة يسيرة استطاع أن يقيم لنفسه بها أمراً، ولكن المنصور بن أبي عامر وصي الدولة الأموية إذ ذاك لم يزل يحتال عليه حتى استقدمه على أمان، ثم غدر به وقتله وهو في الطريق إلى قرطبة في جمادى الأولى سنة ٣٧٥هـ (أكتوبر سنة ٩٨٥م).

وكانت تلك هي نهاية الملك في الفروع الرئيسية من آل إدريس وقد ظهر لهم ملك بعد ذلك في فرع بعيد يعرف بالحمودي نسبه إلى حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس، وقد ظهر أمر هذا

الفرع في جنوب الأندلس وسبتة وطنجة عقب انتشار عقد الخلافة الأموية، فلم يتردد من طلب الأمر من أولئك الحموديين في اتخاذ لقب الخلافة، وكانت لهم في اضطرابات الفتنة الكبرى في الأندلس وقائع ومجالات انتهت كما يقول ابن حزم في رجب سنة ٤٤٨هـ (نوفمبر ١٠٥٦م) وبقي من بقي منهم «شريداً طريداً في غمار العامة»[١].

الشريف الإدريسي ورجار

وواضح أن عبارة ابن حزم هذه فيها مبالغة ظاهرة، فإن زوال الملك والسلطان من أيدي سلائل الأدارسة ليس معناه أنهم أصبحوا مشردين طريدين، وإنما معناه العيش كما يطلبه سائر الناس محتفظين بما يضفيه عليهم حسبهم من المهابة والاحترام، وابن حزم يذكر من هؤلاء نفراً ممن طلبوا العلم وظهر أمرهم فيه مثل محمد قاضي القيروان، وهو ليس ابن الحسن الحجام كما يقول ابن حزم، ولكنه كان من أعقابه، ولدينا أبعد من ذلك الشريف الإدريسي، وهو واضح النسبة إلي بيت إدريس من فرع الحموديين أي من جذم عمر بن القاسم بن إدريس بن إدريس، ومع أننا لا نعرف من نسبته إلا أباه وجداً واحداً من أجداده ـ فهو محمد بن محمد بن عبد اللّه ـ إلا أن نسبه الإدريسي الحمودي لا يمكن إنكاره، فقد كان أمراً معروفاً على أيامه، ولم تقتصر شهرته به على بلاد المسلمين بل عرفه به رجار الثاني صاحب صقلية الذي ألف له الشريف الإدريسي كتاب «نزهة المشتاق».

وقد تعودنا أن ننظر إلى دخول الشريف الإدريسي في خدمة ملك نصراني وعيشه في كنفه وتأليفه له كتاباً في الجغرافية كأنه أمر طبيعي لا غرابة فيه، والحق أنه في ذاته مشكلة، فإن القول المتواتر هو أن رجار استدعى الشريف الإدريسي ليصنع له صورة الأرض ويؤلف له كتاباً في شرحها، ولا نعرف كيف سمع رجار

---

(١) الجمهرة، وقد أخطأ ابن حزم في تحديد ذلك التاريخ (راجع بعض التفاصيل في بني حمود في أواخر هذا البحث).

بأمره ولا كيف استدعاه، فإن الإدريسي لم يشتهر بالجغرافية قبل أن يستدعيه رجار، فهو لم يؤلف فيها قبل ذلك كتاباً، ولا سمع أحد في بلاد المسلمين نفسها أنه متضلع فيها، فكيف يتصل أمر علمه بهذا الملك النصراني، وعلى فرض أنه سمع به فكيف يستدعيه؟ لقد كان الإدريسي قد فرغ إذ ذاك من رحلته الشرقية وعاد إلى المغرب ومضى يتجول في أنحائه حيناً، ثم مضى إلى الأندلس ودرس في قرطبة، ولا ندري إن كان قد ظل في الأندلس أو عاد إلى سبتة، وإنما الذي نعلمه أنه ظهر بعد ذلك في صقلية ودخل في خدمة رجارومضى يعمل في رسم صورة الأرض، فهل علم رجار بمكانه فبعث يستدعيه كما يستدعى الأساتذة والعلماء اليوم من معاهدهم وجامعاتهم لينشروا علمهم في بلاد أخرى؟.

إننا نتناقل ذلك ونأخذه قضية مسلمة على عهدة سطور قليلة مشكوك في قيمتها، بعضها منسوب إلى خليل بن أيبك الصفدي وبعضها الآخر منسوب إلى ابن العماد الأصبهاني عن ابن بشرون أو منقول عن حاجي خليفة في كشف الظنون، وهي سطور قلائل لا تكاد تلقي على حياة الشريف الإدريسي ضوءاً، حتى سنة مولده وهو في القول المتعارف سنة ٤٩٣هـ ـ ١٠٩٩ ـ ١١٠٠م مرجعها الراهب الماروني ميخائيل الغزيري صاحب الفهرس اللاتيني القديم لمخطوطات الأسكوريال، ذكرها دون أن يشير إلى مرجعه فيها، وتناقلها الناس عنه بعد ذلك دون محاولة البحث عن حقيقتها.

ولكن الثابت أن الشريف الإدريسي عاش وعمل في صقلية في بلاط رجار الثاني، وليس لدينا ما يسمح لنا بالقول بأن الإدريسي لجأ بنفسه إلى رجار وطلب الدخول في خدمته، وقد استبعدنا أن يكون رجار قد سمع به واستدعاه، فلا بد أن تكون هناك طريق أخرى وصل بها الإدريسي إلى رجار وحظي عنده وكسب ثقته وعمل معه في ذلك الميدان الجغرافي، وكان رجار مشغوفاً به متطلعاً إلى التوسع فيه.

وعبثاً نحاول أن نجد مفتاحاً لهذا السر في مقدمة «نزهة المشتاق» فإن الإدريسي فيها متحفظ تحفظاً شديداً حتى لا يكاد يذكر اسمه نفسه أو يشير إلى نصيبه في العمل الجغرافي الكبير الذي قام به، وقد بدا لي بعد أن قرأت هذه المقدمة أكثر من مرة أن الإدريسي إما أن يكون قد وجد حرجاً كبيراً في تقديم كتابه إلى الملك النصراني فصاغ مقدمته في هذا الأسلوب المبهم الذي لا ينم عن شخصه أو أن غيره قام عنه بهذا التقديم، فكتب هذه الفاتحة التي نجدها بين أيدينا، وربما كان هذا الفرض الثاني أقرب إلى المعقول، فإننا نستبعد أن يقول الشريف الإدريسي: «. . . الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته» أو «فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت مملكته. . .» فمهما كان من تقدير الإدريسي لرجار فما نحسب أنه كان يرى أنه جدير بأن يلقب بألقاب خلفاء الإسلام كالمعتز والمقتدر، أو تخلع عليه صفة خاصة بالبيت النبوي الكريم، نعم إن «العلوية» تقرأ هنا بضم العين وسكون اللام، ولكنها تبدو لنا على أي حال هنا غريبة على لسان علوي شريف.

أدارسة صقلية

ولا بد على أي حال أن رجار عرف من أمر الإدريسي شيئاً قبل أن يدعوه للعمل معه، وهذه المعرفة لا يمكن أن تكون كتاباً في الجغرافية كتبه الشريف ووصل إلى يد رجار، فوقف منه على مكانة من العلم، فإننا لم نسمع بمثل هذا الكتاب، وإنما الطريق الوحيد هو أن يكون رجار قد عرف الشريف الإدريسي معرفة شخصية قبل أن يدعوه إلى العمل معه.

ويبدو هذا الفرض مستبعداً لأول وهلة، ولكننا إذا درسنا تاريخ الإسلام في صقلية خلال حقبته الأخيرة عثرنا على شعاع من الضوء ينير لنا جوانب هذه المشكلة بعض الشيء، بل يضع يدنا على حقيقة هامة جديرة بعناية المهتمين بتاريخ الأدارسة، وهي وجود بيت إدريسي علوي فيها كان له سلطان كبير ودور

واسع في تاريخها حتى النصف الثاني للقرن الخامس الهجري إلى أواخر القرن السادس.

ذلك أننا نلاحظ في أخبار غزو النرمان لصقلية وجود بيت من سروات المسلمين وقادتهم يعرف ببيت حمود كان ينشر سلطانه على أجرجنت girgent وقصريانه castrogiovanni. وما حولهما من بلاد وسط الجزيرة ـ كما يقول ميكيلي أماري[١] ـ خلال الفترة التي تقدمت فيها جيوش رجار الأول لانتزاعها من أيدي المسلمين ابتداء من سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١م) وما بعدها.

وذكر أماري أن أولئك الحموديين أدارسة علويون وأنهم من نفس بيت بني حمود المغاربة الأندلسيين الذين ينتسب إليهم الشريف الإدريسي، وأن ذكرهم متوارد في النصوص اللاتينية والإيطالية من ذلك الحين إلى أيام فردريك الثاني إمبراطور الدولة التيوتونية المعروف ببارباروسا ـ أي ذي اللحية الحمراء ـ، فهم يسمون بآل شموت chamut أو Hamutus وأضاف أماري أن البيت الذي أسس هذه الأسرة لا بد أن يكون قد وفد إلى صقلية بعد زوال أمر البيت الحمودي في الأندلس والمغرب.

ومن أسف أن مراجعنا العربية لم تأتنا بنبأ عن أوليات هذا البيت الإدريسي في صقلية، وعمادنا هنا على المراجع الفرنجية التي أرخت لغزو النرمان لصقلية، وهذه المراجع تؤيد ما ذكره ابن الأثير في كلامه عن سقوط قصريانه وأجرجنت من أنه «لم يثبت بين أيديهم ـ أي أمام النرمان ـ غير قصريانه وأجرجنت، فحصرهما الفرنج، ولم يبق عندهم ما يأكلونه، فأما أهل أجرجنت فسلموها إلى الفرنج، وبقيت قصريانه بعدها ثلاث سنين، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم، فتسلمها الفرنج لعنهم الله سنة ٤٨٤هـ، وملك رجار جميع الجزيرة»، ثم تنفرد المراجع النصرانية بعد ذلك بالقول بأن صاحب البلدتين كان

---

(١) Sicilia (Fienze, 1868)III. 172. Michele Amari, Storia di Musulmani.

رجلاً يسمى القاسم بن حمود وأنه هو الذي قام بتسليم قصريانه إلى رجار الأول بعد أن استنفد وسائل الدفاع، ولم يبق من التسليم مفر.

وليس لدينا ما يمنع من قبول رأي أماري من وجود ذلك البيت الحمودي الإدريسي في صقلية، فقد ذكر ابن حزم أن أمر بني حمود انتهى في الأندلس في رجب سنة ٤٤٨هـ، وبقي من بقي منهم شريداً طريداً في غمار العامة، وفي ذلك الحين كان المرابطون قد ثبتوا أقدامهم في جنوب المغرب الأقصى ومضوا يتطلعون للامتداد شمالاً، ففي سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) تمت بيعة أبي بكر بن عمر اللمتوني على جنوبي المغرب الأقصى حتى وادي درعة، وفي سنة ٤٦٢هـ (١٠٦٩ ـ ١٠٧٠م) كانوا قد تمكنوا من الأراضي الممتدة شمالاً إلى مجرى نهر تانسفت وضاقت بهم أغمات وريكة، فبدىء في بناء مراكش في رجب من تلك السنة، وفي أواخر سنة ٤٦٢هـ ـ ١٠٧٠م تقدم يوسف بن تاشفين ابن عم الأمير أبي بكر بن عمر شمالاً حتى وصل إلى وادي ملوية، وفي ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ (نوفمبر ١٠٧٢م) تنازل أبو بكر بن عمر عن الإمارة ليوسف بن تاشفين، وانفرد هذا بالملك وبدأ التوسع السريع إلى الشمال، فاستولى على فاس سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٤م)، وفي السنة التالية استولى على تلمسان، ودخل شمال المغرب الأقصى كله في حكم المرابطين.

وفي هذه الظروف لم يعد للباقين من بني إدريس أمل في السلطان فانزوى من استطاع الانزواء منهم في ناحيته، وفر من فر، فيما عدا ولد من أولاد إدريس بن علي بن حمود يذكر البكري أنه كان يعيش خاملاً بمدينة المرية بالأندلس عندما استدعاه جماعة بني ورتدي إلى مليلة ونواحيها، فعبر البحر إليهم وظل على سلطان بينهم بضع سنوات.

وإذا نحن تأملنا ما يذكره البكري من تاريخ الأدارسة بمناسبة كلامه عن فاس وحجر النسر تبينا أن كل النواحي الواقعة بين فاس وسبتة، وتتوسطها حجر النسر كانت أشبه بإقطاعيات لنفر من بني إدريس معظمهم من فرع القاسم بن

إدريس عن طريق ابنه محمد، فقرية افتس على نهر أولكس إلى غربي حجر النسر تسمى مدينة جنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم، وكانت في منطقة تابعة لقبيلة كتامة، وكذلك زهكوجة على مقربة من سوق كتامة تسمى مدينة إبراهيم بن محمد أي إنها كانت إقطاعاً لوالد الذي ذكرناه، وقرية تشومس إلى جوارهما كانت إقطاعاً لميمون بن القاسم، وهو ميمون بن أحمد بن القاسم جنون، وكانت تسمى بمدينة ميمون، ومن هذا الموضع إلى سبتة كانت قسمة بين بني إبراهيم بن محمد، فأما أحمد بن إبراهيم بن محمد فكان له ما امتد من إجاجي إلى سبتة في حين ملك الأب وبقية الأبناء دار طنجة إلى حد سبتة، وما دام الإدريسي من سبتة فيحتمل جداً أن يكون من أبناء هؤلاء، وهذه الحوادث التي نذكرها كانت في حدود ٤٦٠هـ (١٠٦٧ ـ ١٠٦٨م) أما سبتة فقد كان يتولى الأمر فيها رجل يسمى سواجات البرغواطي، وأصله من قبيلة غمارة، ثم دخل بعد ذلك في قبيلة برغواطة وانتسب إليها، وغمارة كانت العماد الذي قامت عليه دولة الأدارسة، حتى ليجعلهما ابن خلدون شيئاً واحداً: والخبر عن دولة الأدارسة وهي غمارة وتصاريف أحوالهم. . . »، وكان سواجات أول الأمر مولى من موالي الحموديين، فجعلوه على سبتة، فانقلب عليهم وطلب السلطان لنفسه، وقتل بعضهم وحبس بعضهم الآخر بعد أن زال أمر بني حمود، ولهذا يغلب على ظننا أن أسرة الشريف الإدريسي لم يطل بها المقام في ذلك البلد، والغالب أنهم طلبوا الأمان عند بعض ذوي قرباهم الذين ذكرناهم فيما قرب من سبتة من البلاد، وربما كان هذا أيضاً هو السبب في خروج الشريف الإدريسي إلى المشرق في تلك السن الباكرة، وقد رجحنا أن يكون قد خرج إليه مع أبيه طلباً للنجاة من أحوال غير مؤاتية من ناحية والتماساً للحج وطلب العلم من ناحية أخرى.

والرأي السائد أن نسبه يرتفع إلى حمود، أي إلى فرع عمر بن إدريس بن إدريس، وربما كان هذا هو الأقرب إلى الصحة، فإن القول به متواتر على الألسن دون أن يكون لدينا عليه دليل واحد يمكن التعويل عليه، وقد بحثت دون

جدوى في كتاب شذور الذهب في خبر النسب لابن رحمون التهامي بن أحمد بن محمد عن خيط أستطيع الاهتداء به، وإنه من الغريب أن نسابة كهذا يتصدى لتتبع سلائل البيت الإدريسي وهو منهم ـ فهو من الشرفاء العلميين ـ ثم يغيب عنه ذكر أشهر من عرف بهذا النسب، كأن اسمه لم يخطر له على بال، ولو أنه كتب في عصر تقدم لعذرناه، ولكنه كتب كتابه سنة ١١٠٥هـ (١٦٩٣ ـ ١٦٩٤م)، وذكر الشريف الإدريسي ذائع في عشرات الكتب بين يديه.

وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب الحموديون الصقليون، وقد رأينا أن أول ذكر لهم في حوليات صقلية الإسلامية كان سنة ٤٧٩هـ ـ ١٠٨٧م، فلا بد أنهم دخلوا صقلية قبل ذلك بسنوات لا نستطيع تحديدها، ولكنها ليست بكثيرة على أي حال، فإن أمر بني حمود قد انتهى كما ذكر ابن حزم في رجب سنة ٤٤٨هـ (نوفمبر ١٠٥٦م)، وتفرق الباقون منه بعد ذلك التاريخ، وخلال السنوات القليلة التي كان المرابطون يتقدمون فيها إلى الشمال مؤذنين بالقضاء الأخير على كل أمل للحموديين وغيرهم في طلب السلطان.

وقد اجتذب هذا الفرع إلى صقلية ما شاع في ذلك الحين من تفرق أمر المسلمين هناك وسنوح الفرصة لطلب السلطان، وكانت في الحموديين جرأة على المخاطر يعرفها من يلم بتاريخهم أثناء الفتنة الكبرى في الأندلس، وقد ذكر ابن الأثير أن أجرجنت وقصريانه كانتا منذ سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٥ ـ ١٠٣٦م) في طاعة القائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس، وأن ابن الحواس هذا قتل سنة ٤٥٣هـ (١٠٦١ ـ ١٠٦٢م) أو بعدها بقليل، فصارتا إلى أيوب بن تميم بن المعز الزيري، ولم يستطع أيوب وأخوه البقاء في الجزيرة، فعادا إلى أفريقيا سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م)، وبقيت الناحية دون رئيس، حتى نسمع بذكر القاسم بن حمود عند استيلاء رجار الأول على قصريانه وأجرجنت بعد ذلك بثماني عشرة سنة، فلا بد أنه انتهز فرصة خلو الموضع من رئيس مسلم، فاستعان بجاه نسبه وخدمته ملكاته فوصل إلى الرئاسة، وهذا يستلزم أن يكون موجوداً هناك قبل ذلك، إذ ليس معقولاً أن يدخل الجزيرة ويستولي على السلطان في ناحية منها

مباشرة، والمعقول أن يقال إنه دخلها سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) أو نحوها.

القاسم بن علي بن حمود الصقلي:

وهذا الحمودي الإدريسي الذي هاجر إلى صقلية ووصل إلى السادة في ناحية أجرجنت وقصريانه هو القاسم بن حمود، والمفهوم أن المراد بذلك أنه القاسم من أبناء حمود، أو القاسم الحمودي، ولا نستطيع تتبع نسبه إلى أي من فروع الحموديين الكثيرة، لأن القواسم فيهم كثيرون جداً، ويزيد الأمر تعقيداً أنه كان يلقب بابن الحجر، وهو لقب لا يمكن أن يفسر إلا بأنه كان من أدارسة حجر النسر، والحموديون لم يكونوا من أهل حجر النسر، وقد حاول أماري تفسيره فقال: إن الحجر هنا كناية عن الكرم وإن المراد هنا أنه كان يلقب ابن الكريم، وهو تفسير ظاهر الافتعال.

وتذهب المراجع اللاتينية والنرمانية القديمة التي رجع إليها أماري في تتبع أخبار استيلاء النرمان على صقلية إلى أن القاسم بن حمود هذا بعد أن أسلم قصريانه إلى رجار الأول اعتنق النصرانية مع أهله أجمعين، وخاف على نفسه بعد ذلك من مسلمي البلد، فطلب إلى رجار أن ينقله إلى بلد من بلاده في شبه الجزيرة الإيطالية، فنقله إلى بلدة ميلاطو حيث عاش إلى أن مات، وهذا قول ظاهر الاختلاق، فإن بني القاسم بن حمود ظلوا بعد ذلك أصحاب أجرجنت وقصريانه تحت سلطان النرمان، وكان لهم دور كبير في شؤون الجزيرة بعد ذلك كما سنرى، ثم إن ابن جبير الرحالة لقي رئيساً من رؤساء هذا البيت بعد ذلك بقرن من الزمان في ذي القعدة سنة ٥٨٠هـ (مارس ١١٨٥م) ووصفه بالجلالة واتساع الجاه ثم قال: «ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور في نفوس النصارى أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقي في الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله، اتباعاً له واقتداءً به، تكفل الله بعصمته جميعهم، ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه» فكيف يقال بعد هذا إن جده قد تنصر هو وأهله جميعاً من مائة سنة؟

ويسمى القاسم هذا في بعض النصوص بأبي القاسم، وربما كان المراد أنه كان من سلائل أحد القواسم الحموديين، وسنرى من إشارة لابن ظفر أن أباه كان يسمى علياً.

وقد اطمأن القاسم أو أبو القاسم بن علي بن حمود في ظل رجار الأول وظل له سلطانه على قصريانه وأجرجنت، شأنه في ذلك شأن الكثير من رؤساء مسلمي صقلية الذين أبقاهم النرمان على حالهم ما دانوا بالطاعة لهم، ولم يكن ذلك تسامحاً صرفاً من النرمان وإنما كانت سياسة أملتها عليهم ظروفهم، فإن النرمان كانوا قلة في وسط الجموع النصرانية التي غزوا بها الجزيرة، فقد كانوا هم النواة والرؤساء، أما معظم جندهم ورجالهم فقد كانوا أخلاطاً من الإيطاليين وأهل الجزر والمغامرين، وكان استيلاؤهم على الجزيرة اغتصاباً لا من المسلمين وحدهم بل من البيزنطيين الذين كانوا يرون أن الجزيرة من أملاكهم، ولم يكن لهم سند إلا إذن البابوية لهم في انتزاع الجزيرة من أيدي المسلمين وكانوا قد خرجوا لغزو الجزيرة من جنوبي إيطاليا، وكان سلطانهم هناك غير معترف به من أباطرة التيوتون الذين كانوا يدعون هم الآخرون أنهم أصحاب إيطاليا، أي إن مركزهم في إيطاليا وصقلية لم يكن معترفاً به من أحد، ثم إن السند الذي كانوا يعتمدون عليه، وهو إذن البابا لهم في انتزاع الجزيرة من أيدي المسلمين لم يلبث أن تداعى، فقد اختلفوا مع البابوية وحاربوها، فأسقطت عنهم حمايتها، ولم يعد لهم من سند بعد ذلك إلا ما يكسبونه من حسن ظن أهل الجزيرة ومعظمهم من المسلمين، ورجل مثل أبي القاسم بن حمود لم يكن مجرد رعية لرجار الأول، وإنما كان عماداً من العمد التي قام عليها حكمه، خاصة وقد كان رجلاً شهماً دافع عن ناحيته فأحسن الدفاع، ولم يسلمها للأعداء إلا بعد أن طاول إلى الحد الأقصى، وهذه الشهامة جديرة بأن تلقى في نفس أعدائه من النرمان شهامة وفروسية.

وليس معنى ذلك أننا نجرد رجار ورجاله من فضيلة التسامح، فقد كان بالفعل متسامحاً لا مع المسلمين وحدهم بل مع معظم رعاياه، فإن المسيحيين

منهم كانوا طوائف شتى، فيهم من يدين بالولاء للكنيسة الرومانية، وفيهم من يتبع بطريق القسطنطينية، ولكن رجار لم يصرف إلى ذلك بالاً، واهتم بصالح دولته وعرشه فحسب، والحق أن النرمان كانوا بدعاً في اتساع الذهن وبعد الذكاء بين معاصريهم أجمعين، فقد غزت طائفة أخرى منهم إنجلترا قبل ذلك بإحدى وعشرين سنة، قادهم إليها أميرهم وليم الفاتح، فكان مسلكهم في الجزر البريطانية هو نفس مسلك روبرت جسكارد منشىء الدولة النرمانية في جنوب إيطاليا ووسطها، وابن عمه رجار الأول الذي قام بغزو صقلية، وهو مسلك يتلخص في الاجتهاد في استئلاف الرعية والتقرب منها والانتفاع بخير عناصرها واقتباس ما يجدونه من النظم والعادات ومظاهر الحضارة وترك الناس أحراراً فيما يتبعون من عقيدة ثم ميل إلى القانون واهتمام بالتزامه وإلزام الناس به، يحوطون ذلك كله بذكاء يميل إلى الخبث حتى يصبح لؤماً، إذا دعت الحاجة، وشجاعة تصل إلى التهور في أحيان كثيرة، وقد امتازوا كذلك بتطلع إلى كل ما هو طريف وجديد جعلهم في كل مكان نزلوه رعاة لأهل العلم والفن، حتى لقد نشأ في البلاد التي سادوها من شمال غربي فرنسا وإنجلترا طراز من طرز العمارة يسمى الطراز النرماني، وليس لهم فيه إلا تشجيع من ابتكروه، هذا إلى من احتضنوهم من أهل العلم من كل ملة ونحلة، وما ألف هؤلاء من الكتب باسمهم، ومن بين هؤلاء يبدو شريفنا الإدريسي أعظم من شرف بلاطهم بالعمل فيه.

والحياة مع ملوك كهؤلاء لم تكن عسيرة على أبي القاسم وآله وبقية المسلمين في الجزيرة، فإن النرمان لم يكونوا يطلبون إلا الولاء والمعاونة والنصح، وكان مسلمو صقلية مستعدين لتقديم هذه في مقابل حريتهم الدينية، ولهذا فلا غرابة في أن نجد أبا القاسم بن علي الحمودي وطائفة أخرى من المسلمين في مكان الصدارة والتكرمة، ولم تقتصر صدارتهم على نواحيهم، بل كان لهم شأن كبير في البلاط وشؤون الدولة الكبرى، جنباً إلى جنب مع من كان هناك من البيزنطيين والإيطاليين والنرمان.

ولكن المتاعب تأتي عادة من المنافسين والأنداد، وفي تلك العصور كان الوصول إلى مركز ممتاز أو التمتع بنعمة جاه معناه الوصول إلى المتاعب والشقاء بالحسد والسعايات وما يأتي منها، وليس لدينا من أخبار أبي القاسم بن علي بن حمود ما يسمح لنا بتفصيل شيء عن حياته مع النرمان أكثر مما قلناه، ولكن لدينا شيئاً عن ابنه أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود، ويبدو أن محمداً هذا ورث مكان أبيه لا في أجرجنت وقصريانه وحدهما، بل في البلاط والدولة أيضاً.

محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود:

ونحب أن ننبه الأذهان إلى أننا لا نتحدث هنا عن أسرة مالكة أو عن دولة يتوارث الملك فيها الأبناء عن الآباء، بل عن بيت عربي إسلامي أرادت له المقادير أن يعيش في كنف ملك نصراني ومكنت له من الاحتفاظ بما كان لأفراده من الأملاك والمكانة قبل الدخول في طاعة هذا الملك، وهذه في ذاتها ظاهرة فريدة في بابها جديرة بالدراسة، فلم يكن الحموديون وحدهم في هذه الظروف، وإنما كانت هناك أُسَر عربية إسلامية أخرى في صقلية مثل بني التمنة، وكانت هناك أسر مماثلة فيما وقع تحت سلطان النرمان من بلاد أفريقيا مثل المهدية وبونة وقابس وطرابلس.

وهذا الشيء الذي نعرفه عن أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن علي أتانا عفواً، فقد كان هذا الرجل صاحباً لفقيه صقلية الأكبر محمد بن أبي محمد بن ظفر (٤٩٧ ـ ٥٦٧هـ ـ ١١٠٤ ـ ١١٧١م)، وكان الفقيه يجله ويقدره، وله ألَّف طائفة من كتبه أهمها «سلوان المطاع في عدوان الأتباع»، وهو كتاب حافل بالدلالات، ينطق بها عنوانه وموضوعه وسياق كلامه وفاتحته، فالعنوان يدل على أنه ألَّف لرجل عدا عليه أتباعه أو انقلبوا عليه وأنزلوا به ضرراً، فاحتاج إلى من يسليه عما نزل به، ومادة الكتاب تدور حول هذا المحور بالفعل وتفصل الأمر بعض التفصيل، أما فاتحته فتعرفنا به لأن ابن ظفر يقول عنه

إنه «سائد السادة، وقائد القادة، أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن علي العلوي القرشي» وكل لفظ هنا له معناه، فالسيد هنا ليس صفة ولكنه لقب معناه أن محمد بن أبي القاسم هذا كان من الأشراف الإقطاعيين Signore feadati حسب النظام الإقطاعي العام الذي كان سائداً في أوروبا كلها إذ ذلك، وأن إقطاعه كان خبزاً له، والخبز في مصطلحنا الإقطاعي هو ما يقابل لفظ fief في المصطلح الإقطاعي الغربي، إقطاع الأرض في مقابل وظيفة أو خدمة يؤديها المقطع للملك، والوظيفة في حالتنا هذه قيادة عسكرية وحكومة على موضعه، ولهذا يلقبه ابن ظفر بقائد القواد أو قائد القادة.

ويبدو أن هذه المعاملة الحسنة التي لقيها بنو القاسم بن حمود من جانب النرمان ترجع إلى ما أبدوه من الشهامة والاستبسال، ثم ما أظهروه بعد ذلك من العقل والحكمة، فاستسلموا على شروط الأمان والاطمئنان إلى الإسلام وضمان حقوق من معهم من المسلمين، فكانوا بهذا أحكم من قائد عربي مسلم آخر يسميه جودفروا مالاترا ـ مؤرخ الغزو النرماني «بينا فيرت Benavert»، وهو اسم طالما حير الباحثين أصله العربي، وغالبيتهم على أنه ابن عباد، وهو رأي مستبعد لاختلاف ما بين الصيغتين الإفرنجية والعربية، وهو عندنا أقرب إلى أن يكون «ابن ورد»، وأيًّا كان اسمه فقد كان هذا الرجل رئيساً على قطانية قبل دخول النرمان، فلما أقبلوا تصدى لهم وحاربهم حرباً عنيفة هلك فيها من رجالهم مئات، وقتل نفر من قوادهم منهم هوجو دي جيرسي ugo di jersey الذي كان رجار الأول قد أقامه نائباً عنه في الجزيرة عندما عاد إلى قلورية calaluria سنة ٤٦٧ ـ ٤٦٨هـ (١٠٧٥م)، وما زال ابن ورد يصاول النرمان حتى عجز أمامه القائد النرماني جوردان واضطر إلى الاستعانة عليه برجار، فأقبل بكل قواه، وتعاون الاثنان على القائد العربي واستوليا على قطانية، وانتقل ابن ورد إلى نوط Not واستمر في المقاومة حتى قتل بسقوط آخر معاقل الجزيرة سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م)، بعد أن أصاب أهلها من المسلمين بلاء شديد.

ولم يكن أبو القاسم بن علي بن حمود يستطيع أن يفعل فعل ابن ورد،

لأن هذا الأخير كان من أهل صقلية الذين تطاولت العهود بهم فيها، فهو يعرف نواحيها جميعاً وتربطه بالرؤساء في كل ناحية صلات قديمة مكنت له من الاستعانة بهم والانتقال إلى حصونهم ونواحيهم ليستمر في الدفاع، فبعد أن سقطت قطانية انتقل إلى نوط ثم إلى بتيرة Butera أما أبو القاسم بن حمود فقد كان حديث عهد بالجزيرة لا يعرف من شؤونها إلا ما عرف خلال السنوات القليلة التي قضاها فيها، ولم يكن في استطاعته بعد سقوط أجرجنت وقصريانه أن ينتقل إلى ناحية أخرى، فليس له رجال وأنصار ومحاربون ينتقلون معه من ناحية إلى ناحية كما كانت الحالة مع ابن ورد، ثم إنه كان سليل بيت عرف السياسة والحكم، وقد أدرك لهذا أن الاستمرار في المقاومة بعد أن هلك الناس وانقطع الأمل في الفرج لن يؤدي إلا إلى ضياع ما بقي من أموال الناس وذراريهم دون جدوى، فآثر أن يسلم على صلح وعهد، وحفظ بهذا نفسه ومن كان معه.

ولا يغيبن عن بالنا أن المسلمين إذ ذاك كانوا لا يتصورون سواء في المغرب أو الأندلس أو المشرق أو صقلية أن أمر الإسلام في ناحية من نواحيه يمكن أن يزول إلى غير رجعة أو أن النصرانية إذا غلبت على ناحية من نواحيه ستستمر في حكمها إلى الأبد، وإنما هي نكسات من الدهر الخؤون وتمحيص من الله للمسلمين، ثم تشرق الشمس مرة أخرى وتعود البلاد للإسلام، وهذا شعور ظل يملأ نفوس المسلمين في كل مناسبة أصاب بلادهم فيها مكروه، ويعبر عنه مؤرخونا بقولهم بعد ذكر سقوط أي بلد من بلاد الإسلام «أعاده الله للإسلام»، وأبلغ من عبر عنه ابن عاصم في كتابه المثير للأشجان «جنة الرضا فيما قدر الله وقضى»، وهو عنوان حزين أشبه بأن يكون نهاية للأمل، وهو أبلغ في هذا المعنى من قصيدة أبي البقاء الرندي ذات الصيت البعيد.

ونفهم من كلام ابن ظفر في فاتحة «سلوان المطاع» أن محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود كان يمر إذ ذاك بمحنة ليس سببها أن السلطان غضب عليه أو أن أحوال من معه من المسلمين ساءت، وإنما سببها أن بعض رجاله وأتباعه انقلبوا عليه وأحرجوا أمره وعرضوه لغضب رجار، وهو هنا رجار

الثاني، فإن الأول كان قد مات قبل ذلك سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م)، وكان رجار الثاني هذا أكيس من أبيه وأقدر وأوسع عقلاً وقلباً، وهو صاحب الشريف الإدريسي وممدوح نفر من شعراء صقلية والمغرب، ولهذا لم يكن محمد بن أبي القاسم يخشاه بقدر ما كان يخشى أولئك الأتباع الذين انقلبوا عليه وسعوا إليه بالمضرة، ولهذا يقول ابن ظفر في التقديم «. . . والحمد لله جاعل الصبر للنجاح ضميناً، والمحبوب في المكروه كميناً، الذي ضرب دون أسرار الأقدار حجاباً مستوراً، وقضى أن الخير على الفطن لا يزال حجراً محجوراً، وأوطأ المسلمين لمشاياه ممهوداً وثيراً، وأمطأ المتبرمين بقضاياه كنوداً وعثوراً، وقال سبحانه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾. وهذه كلها عبارات مواساة وتصبير، وتقسيم الكتاب ليس مقسماً إلى فصول بل إلى سلوانات: «السلوانة الأولى في التفويض، والسلوانة الثانية في التأسي، والسلوانة الثالثة في الصبر والسلوانة الرابعة في الرضا، والسلوانة الخامسة في الزهد»، ثم يفصح ابن ظفر بعض الشيء عما دعا إلى تأليف الكتاب فيقول: «وبعد فإن ملكاً ميمون السيرة، حميد الفكرة، شديد العبرة، شغف العلم حباً، توثب خارجي على رعيته فاقتطع منهم حزباً، وأنس من وجوه أتباعه شغباً، فسألني في تلك الحال أن أؤنسه بكتاب يشتمل على حكم وآداب. . .».

ويبدو من خلال الضباب الذي يخيم على تاريخ المسلمين في صقلية خلال هذه الحقبة الأخيرة أن أمور محمد بن أبي القاسم استقرت من جديد وصفا له الجو واطمأن خاطره، فنجده إلى جانب رجار الثاني في مكان عزيز يتولى ناحيته ويشمل من فيها من المسلمين بحمايته. ويشترك في تدبير الأمور مع كبار رجال الدولة، وتتسع حاله، وتكثر أمواله، حتى يفد عليه الشعراء من بلاد صقلية وبعض نواحي المغرب ينتجعون فضله ويتوسمون نداه، فيشير عليهم بأن يختصوا رجار ببعض أمداحهم، وقد حفظ المؤرخون لنا أسماء بعضهم وبعض أشعارهم ومثال ذلك عبد الرحمٰن بن رمضان الشاعر المعروف بالقاضي وعبد الرحمٰن بن محمد بن عمر البشيري الصقلي وأبو حفص عمر بن حسن

النحوي الصقلي وغيرهم ممن أورد عماد الدين أبو عبد اللّه محمد بن حامد الأصبهاني أطرافاً من أشعارهم في «الخريدة» بل بلغ من كثرتهم أن العماد سئم ذكر بقيتهم وقال: «فما أوثر مديح الكفر».

ويكاد أن يكون من المرجح عندنا أن محمد بن أبي القاسم الحمودي هذا كان هو وسيلة الشريف الإدريسي إلى رجار فهو حمودي، شريف مثله، وقد دللنا في الفصل الخاص بالإدريسي من بحثنا عن «الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» على أن الشريف الإدريسي عندما خرج من المشرق عائداً إلى المغرب مر بصقلية وأقام فيها ردحاً من الزمن، فإن القسم الخاص بصقلية من «نزهة المشتاق» يضم معلومات وملاحظات تدل على أنه عرفها قبل وفوده عليها لعمل صورة الأرض وتأليف شرحها المسمى «نزهة المشتاق»، وقد رجحنا لهذا أن يكون الشريف قد نزل بالجزيرة منتجعاً لقريبها الحمودي، وعرف هذا ولعه بالجغرافية والأعشاب واتساع باعه فيهما، ومن المعقول أن يكون قد قدمه إلى رجار الثاني كما كان يقدم إليه من يفد عليه من الشعراء، وقد كان هذا معنياً بهذين العلمين شديد الطلب لهما، فلما لقي الإدريسي دعاه إلى المقام عنده للعمل معه في الجغرافية، وهنا ـ أحسب ـ موضع العبارة التي ذكرها خليل بن أيبك الصفدي في «الوافي بالوفيات» وقال إن رجار الثاني قال للشريف الإدريسي: «أنت من بيت الخلافة، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك، ومتى كنت عندي أمنت على نفسك»، فاستقرت هذه الكلمة في نفس الإدريسي، ومضى إلى المغرب ثم إلى قرطبة ليستكمل دراسة الجغرافية، وقد أثبتنا أن مقام الإدريسي في قرطبة وجنوب الأندلس كان قبل سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢ ـ ١١٤٣م) أي قبل وفوده على صقلية وشروعه في العمل مع رجار، ويبدو أن الإدريسي لاحظ أثناء تلك الإقامة في الأندلس استقرار الأمر للمرابطين وحسن بلائهم في الدفاع عن الإسلام، وأحس ألاَّ أمل في العودة إلى السلطان، فمضى إلى صقلية لينصرف إلى عمله العلمي، وقد حمل في نفسه أحسن الأثر للمرابطين، ولذا فهو لا يزال يثني عليهم في كتابه، ولا بد أنه لم يرض عن

الموحدين بعد ذلك لقيامهم على المرابطين وعملهم على القضاء عليهم، ولهذا فهو شديد النقد لهم، لا يكاد يغادر فرصة للحملة عليهم إلا ابتدرها.

وقد ظلت أحوال المسلمين طيبة في صقلية طالما عاش رجار الثاني، وهذا واضح على الأقل من عمل الإدريسي معه وما كان يلقاه من الكرامة عنده حتى قال الصفدي: «إنه رتب له كفاية لا تكون إلا للملوك، وكان يجيء إليه راكب بغلة، فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه، فيأتي فيجلسان معاً»، وهذا الإكرام للإدريسي لم يكن مقصوداً به شخصه وحده، وإنما كان رجار ينظر من روائه إلى غرض آخر، وهو كسب ثقة رعاياه من المسلمين بتقريب هذا العلامة الشريف العلوي والحفاوة به ومعاملته معاملة الأمراء فإن الشريف الإدريسي لم يكن يطلب هذا كله ولا نظر إليه، وإنما كان عالماً وجد فرصة مؤاتية للعمل وتشجيعاً عليه فانصرف إليه، وبديهي أن هذه الكرامة أيضاً كانت من نصيب قريبه ورئيس المسلمين في صقلية إذا ذاك: محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود.

أحوال صقلية بعد وفاة رجار الثاني

غير أن أحوال المسلمين في صقلية بدأت تتغير بعد وفاة رجار الثاني وتولي ابنه غليالم الأول في سنة ١١٥٢م (٥٤٧ ـ ٥٤٨هـ)، فإن الولد لم يرث من ملكات أبيه إلا القليل، وقد كان كسولاً عنيفاً متعالياً وبخيلاً، كما يقول معاصروه من المؤرخين النصارى، ولم يحسن إلى جانب ذلك اختيار نصائحه ورجال دولته، ولهذا فقد شقي به رعاياه جميعاً مسلمين وغير مسلمين ثم إن الظروف كانت قد تغيرت من حوله، فقد اشتد ساعد الامبراطورية التيوتونية لانتزاع جنوبي إيطاليا من النرمان، ومن ناحية أخرى استقام الأمر للموحدين وأقبلوا يضمون شتات المغرب ويستعيدون ما كان النرمان قد استولوا عليه من مواضع على الساحل الإفريقي، ومالت طائفة من رجال الدولة من النصارى إلى الأباطرة أو الباباوات، وطبيعي أن تميل أفئدة المسلمين إلى الموحدين أو

الأيوبيين، وهو ميل طبيعي من جماعة إسلامية غلبت على أمرها وباتت ترجو الخلاص، وسنرى بعد قليل أن آل حمود الصقليين لم يقتصروا على مجرد الرجاء، بل سعوا بالفعل نحو الخلاص.

والمهم لدينا الآن أن ظنون غليالم الأول ساءت فيمن حوله من كبار رجال الدولة، فوقعت الفتنة فيما بينهم من ناحية، وبينهم وبينه من ناحية أخرى، وكان لهذا أثره على آل حمود وبقية مسلمي الجزيرة. وقد بدأت الثورة عليه من أملاكه في أبوليا وقلورية وأيدها آل كومنين أباطرة الدولة البيزنطية بأسطول، وبعد لأي ما استطاع غليالم إطفاء هذه الفتنة وعقد صلح مع البيزنطيين في سنة ١١٥٧م (٥٥٢هـ)، ثم وثب أهل صفاقس بالنرمان وتزعمهم أبو الحسن الغرياني وابنه، وقامت الثورة كذلك في معظم جهات الساحل الإفريقي، ولم تلبث جيوش الموحدين المظفرة أن أقبلت يقودها الخليفة عبد المؤمن بن علي، واستردت معاقل الشاطىء الإفريقي كلها حتى طرابلس.

وعلى أثر ذلك انقض نصارى بلرم على مسلميها على حين غفلة، وكان المسلمون يسكنون أغنى أحياء المدينة، وكان يسمى حي قصارة Cassara وأنزلوا بهم مذبحة دامية، وقتلوا منهم المئات من بينهم الشاعر يحيى بن التيفاشي القابسي، ويظن أن الإدريسي ترك بلرم في هذه الآونة، فقد كان يعيش منذ وفاة رجار الثاني على مقربة من القصر مشتغلاً بتأليف كتابه الثاني «روض الأنس، ونزهة النفس»، وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م)، وهذه آخر مرة نسمع فيها بذكر جغرافينا العظيم، وذهب العماد في «الخريدة» إلى أن هذه المذبحة كانت سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥ ـ ١١٥٦م)، ولكن الغالب أنه خلط بينها وبين فتن أخرى مما وقع للمسلمين في صقلية في هذه الفترة العصيبة.

وقد ذكر الحسن الوزان الذي عرف باسم ليون الأفريقي في رحلته أن الإدريسي مات في صقلية سنة ٥١٦هـ، وهو وهم من الناسخ صححه دي سلين إلى ٥٦٠هـ (١١٦٥ ـ ١١٦٥م)، ومن هنا نرى أن تاريخي مولد ووفاة أعظم من

أنجب العرب من الجغرافيين عن مصدرين مشكوك في سلامتهما، الأول راهب ماروني والثاني رحالة ارتد عن الإسلام.

أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود

وطبيعي أن تسوء حال آل حمود الصقليين، ولدينا عن أخبار رئيس هذا البيت في تلك الأيام خبران: أحدهما قصير أتانا به علي بن أبي بكر الهروي، وقد زار صقلية سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م)، قال: «واجتمعت بجزيرة صقلية بالقائد أبي القاسم بن حمود بن الحجر، وذكر لي أنه من ولد عمر بن عبد العزيز، وكنت مرضت في مسجد عين الشفاء وهذه العين تزار، وأحسن هذا القائد إلي، وكنت أخذت منه كتاباً إلى السلطان يحثه على آخذ هذه الجزيرة، وغرق المركب عند خروجي من هذه الجزيرة، وركبت مع قوم من الروم إلى جزيرة «قبرص» ولا ندري إن كان المراد بأبي القاسم بن حمود هنا محمد بن أبي القاسم الذي نحن بصدده أو ابناً له يسمى أبا القاسم، ونرجح الرأي الأخير، لأن صورة الاسم هنا واضحة، وبهذا الاسم سيذكره ابن جبير بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات، ويستبعد أن تطول مدة محمد بن أبي القاسم هذه الحقبة كلها، وسنرى كذلك أن الشاعر الاسكندري ابن قلاقس قد وفد على أبي القاسم هذا ومدحه وألف له كتاباً.

ولا شك أن علي بن أبي بكر الهروي أخطأ عندما قال إن أبا القاسم قا له إنه من ولد عمر بن عبد العزيز، وربما يكون قد خلط هنا بينه وبين رجل آخر، والخلط والسهو هنا ممكنان إذا ذكرنا ما يقوله الهروي من أن المركب غرقت به وهو في طريق العودة من صقلية، فانتقل إلى مركب رومي نقله إلى قبرص.

وإشارة الهروي إلى أخذه كتاباً إلى السلطان يستحثه فيه على أخذ الجزيرة جديرة بالملاحظة، والسلطان المراد هنا هو صلاح الدين الأيوبي، وكان الحمودي قد استبطأ الغوث من الموحدين، فاتجه إلى الأيوبيين.

وكان أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن حمود ـ إذا صح

ما افترضناه ـ في ذلك الحين من كبار رجال الدولة، لا يزال له مركزه وحظوته، وكانت المنافسة شديدة بينه وبين وزير بيزنطي يسمى اصطفان، وكان كل منهما يسعى بالآخر قدر ما يستطيع، ولدينا من الدلائل ما يشهد بأن الحمودي كان نداً لصاحبه، وكان لكل منهما أنصار وأعوان، وتقلبت الأحوال بهما معاً ما بين سعود ونحوس، وكان من أكبر مؤيدي أبي القاسم بن حمود جوردان بن جوردان ابن أخي رجار الأول الذي ذكرناه، وكان قد أسن إذ ذاك، ولكنه ظل محتفظاً بمكانته وحظوته، وكان كارهاً لاصطفان، الماكر المتآمر، وكان تأثير هذا الأخير على والدة غليالم الأول عظيماً.

ولا بد أن الحمودي الصقلي الذي وفد عليه الشاعر الاسكندري ابن قلاقس أبو الفتوح نصر بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي اللخمي الملقب بضياء الدين القاضي الأعز هو أبو القاسم هذا، وكان ابن قلاقس رجلاً قلقاً جوالاً لا يكاد يستقر في مكان، ولا ندري ما الذي أقدمه على صقلية، وقد ذكر ابن ميسر في تاريخه «أن رجار كان يحب مدح الشعراء ويجيزهم، فذهب إليه جماعة من الشعراء ومدحوه، منهم ابن قلاقس، وأمر أن يصنف له تاريخ، فصنف له تاريخ كبير». وعبارة ابن ميسر كما لاحظ الدكتور إحسان عباس حافلة بالخطأ، فإن ابن قلاقس لم يزر صقلية في أيام رجار، بل في أيام ابنه غليالم الأول، فقد بدأ هذا الأخير حكمه سنة ١١٥٢م (٥٤٧ أو ٥٤٨هـ)، ونزل ابن قلاقس صقلية سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧ ـ ١١٦٨م)، ولم يطلب الملك النصراني إلى ابن قلاقس أن يؤلف له كتاب تاريخ أو غيره، والمسألة كلها تبدو وكأنها صدى مضطرب لما طلبه رجار من الشريف الإدريسي.

والمعقول أن يكون ابن قلاقس قد وفد على أبي القاسم بن حمود، فقد أكرمه هذا وأضفى عليه من بره ما ألهج لسانه بمديحه، بل جعله يؤلف كتاباً يطرزه باسمه عنوانه: «الزهر الباسم، في أوصاف أبي القاسم»، وقد اتصل ابن قلاقس بثلاثة آخرين من زعماء المسلمين في الجزيرة هم القائد غارات بن جوشن، وقد وصفه في إحدى رسائله بأنه «خاصة المملكة الغليلمية بصقلية»،

والقائد السديد الحصري، والقائد ابن فاتح، ويبدو أن هؤلاء كانوا من حزب أبي القاسم بن حمود وأنصاره.

وعن طريق أبي القاسم بن حمود تعرف ابن قلاقس على جوردان وزير المملكة الصقلية ومدحه بشعر غريب فيه تكلف كقوله:

وجردنا المدائح فاستقرت ... على أوصاف جردنا الوزير
فنظمنا المفاخر كاللآلي ... وحلينا المعالي كالنحور

ومديح ابن قلاقس لأبي القاسم بن حمود يدل على أن الرجل كان إذ ذاك في حال عظيمة من القوة والغنى والسلطان، وهو يشيد ببلاغته وفصاحته في عبارات طنانة تذكرنا بعبارات الفتح بن خاقان في «القلائد» و«المطمح»، وله فيه أشعار تدل على أنه كان يتولى المهم من شؤون الدولة:

وبيمناك طير يمن وسعد ... أصفر الظهر أسود المنقار
قلم دبر الأقاليم فالكتـ ... ـب به من كتائب الأقدار
يا طراز الديوان والملك ... أصبحت طراز الديوان والأشعار

ومعنى ذلك أن أبا القاسم كان رئيس ديوان كبير تصدر عنه الأوامر والكتب إلى الأقاليم، ومعلوماتنا عن تنظيم الدولة النرمانية قليلة، وخاصة فيما يتصل بالناحية الإسلامية، أي ما يخص المسلمين منها، ولكن وثائق الدولة كانت تكتب باللغات الثلاث: العربية واللاتينية واليونانية، ولهذا فلا يستبعد أن يكون هو المشرف على القسم العربي أو الأقسام العربية من دواوين الدولة، وابن قلاقس يصفه بالبلاغة فيقول:

وتلتقي كتبه الكتائب في ... جيش من الخط صائد الصيد
بكل لفظ كأنه نفس ... غير ممل بطول ترديد
صحت معانيه فانتسبن إلى ... فضل ابتكار وحسن توليد

والغريب مع هذا أنه لا يصفه بما يوحي بمعنى القيادة العسكرية، مع أن لقبه الرسمي كان «القائد»، ولا يستبعد أن يكون هذا الثالث من رؤساء أدارسة

صقلية رب قلم لا رب سيف، وأنه انصرف بكليته إلى الكتابة والإنشاء ووظائف الإدارة، ويؤيد هذا أنه كان يقيم في بلاط الملك في بلرم عندما نزل به ابن قلاقس ولكنه لم يتخل مع ذلك عن إقطاعه وإقطاع أسرته في وسط الجزيرة.

وقد قضى ابن قلاقس نحو سنتين في صقلية تنقل خلالهما في نواحيها جميعاً، وقال الشعر في أكثر من موضع، وشعره الصقلي فيه رصانة وفحولة وخفة، وفد عليها أوائل ٥٦٣هـ (١١٦٨م)، وفي سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م) نجده في اليمن.

كلام ابن جبير عن أبي القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن حمود

والإشارة الأخيرة عن أبي القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن حمود أتانا بها الرحالة الطلعة المبدع محمد بن جبير الكناني الأندلسي، وقد أراد حسن الطالع أن يمر بصقلية أثناء عودته من رحلته الأولى التي ألف بعدها «رحلته» فقد نزل صقلية في رمضان سنمة ٥٨٠هـ (يناير ١١٨٥م) ولم يغادرها إلا في ذي الحجة من نفس السنة، وألم بالكثير من بلادها، ووصف لنا أحوال المسلمين وما عاينه في الجزيرة بأسلوبه الجميل الصادق، وأتيحت له فرصة لقاء أبي القاسم بن حمود أثناء مقامه في مدينة أطرابنش trapani في ذي القعدة من نفس السنة، وكلامه أوسع ما لدينا عن أي رجل من أولئك الحموديين، ولهذا فهو جدير منا بوقفة طويلة، ولن نستطيع أن نأتي بكلامه كله، ولهذا فسنكتفي بما يهم موضوعنا منه:

قال محمد بن جبير «ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة ـ اطرابنش ـ زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم القائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابراً عن كابر، وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العلم الصالح مريد للخير محب في أهله كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين

من الحجاج، إلى مآثر جمة، ومناقب كريمة، فارتجت هذه المدينة لوصوله». وهذا تعريف طيب بالرجل وبيته ومناقبه ومركزه في صقلية.

ثم يضيف ابن جبير إشارة غاية في الأهمية عن بعض ما وقع له من أحداث: «وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية، ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه، افتروا عليه فيها أحاديث مزورة، نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين أعزهم الله، فكادت تقضي عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه، حتى بقي دون مال. فاتفق في هذه الأيام رضا الطاغية عنه، فأمره بالنفوذ لمهام من أشغاله السلطانية، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله، وصدرت عنه عند وصوله إلى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا، فاجتمعنا به، فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يبكي العيون دماً، ويذيب القلوب ألماً، فمن ذلك أنه قال: كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي، فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين. فتأمل حالاً يؤدي بهذا الرجل ـ مع جلالة قدره وعظم منصبه ـ إلى أن يتمنى هذا التمني، مع كونه مثقلاً عيالاً وبنين وبنات، فسألنا الله عز وجل حسن التخلص مما هو فيه، ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة، وواجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقفه بين يدي الله عز وجل، وفارقناه باكياً مبكياً، واستمال نفوسنا بشرف منزعه، وخصوصية شمائله، ورزانة حصاته، وشمول مبرته وتكرمته، وحسن خلقه وخليقته، وكنا قد أبصرنا له ولأهل بيته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة الأنيقة، وشأنهم بالجملة كبير، ولا سيما هذا الرجل منهم، وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم أصلحت أحوالهم، ويسرت لهم الكراء والزاد، والله ينفعه بها، ويجازيه الجزاء الأوفى عليها، بمنه».

وهذه العبارة عظيمة الفائدة حافلة بالتفاصيل، ولكنها مع ذلك قلقة فيها تناقض كثير، ولولا أن صاحبها رجل صدوق يروي ما رأى وما سمع بأمانة لا

يرقى إليها شك لترددنا في قبول بعض ما فيها، فنحن لا نفهم كيف أن غليالم الأول استصفى أموال أبي القاسم بن حمود حتى بقي دون مال ثم يرى له ابن جبير بعد ذلك «دياراً كأنها القصور المشيدة» في بلد لم يكن مركز إقطاعه، فما بالك بما كان له ولأهله في قصريانه وأجرجنت؟ ثم إن هذا التذلل وتمني أن يباع هو وأهل بيته ليخلص مما كان فيه لا مغنى له أصلاً، فلم يكن هناك أي تضييق على المسلمين في مغادرة صقلية إذا شاؤوا، وقد هاجر بالفعل كثيرون جداً، وكيف لم يتكلم هذا الرجل مع ابن جبير في شأن استخلاص الجزيرة على أيدي الموحدين، وكان ابن جبير من رجالهم المخلصين لهم المقربين إلى أمرائهم؟

الذي أستطيع أن أفهمه من هذه العبارة هو أنها نفثة مصدور قالها أبو القاسم لأخ مسلم للتعبير عن الخوف والضيق ليس إلا، وليس معناها أنه كان في حالة الذل التي يصورها ابن جبير، ولم يكن يفكر جاداً في مغادرة الجزيرة، ففيها على الأقل أمواله وضياعه، وله فيها مكانة عالية، ولبيته تاريخ طويل، ومن العسير على رجل هذا مركزه أن يتخلى عما كان فيه ويترك معاهد أهله وأجداده ويهاجر إلى بلاد لا يعرفه فيها أحد، وربما لم تكن حاله فيها بعد ذلك أحسن بكثير مما كان فيه.

وعلى أي حال فهذه آخر إشارة لدينا عن بني حمود الأدارسة الصقليين، فقد اجتاحت الجزيرة بعد أيام غليالم الأول فتن وحروب على أيام ابنه غليالم الثاني، وانتهى الأمر بضياع أمر النرمان جملة، ودخول الجزيرة في طاعة أباطرة التيوتون مرة أخرى، وتتويج فريدريك باربروسا نفسه ملكاً عليها في بلرم، وفي أثناء هذه الفتن عم البلاء أهل الجزيرة جميعاً مسلمين وغير مسلمين، واختفت البيوت الكبرى التي قامت عليها دولة النرمان سواء أكانت بيزنطية أم نرمانية أم إسلامية.

وفي غضون هذه الاضطرابات اختفى بنو حمود، فلم نعد نسمع لهم

ذكراً، وقد يكونون غادروا الجزيرة عندما استبانت لهم استحالة المقام وضياع الأمن وانقطاع الآمال في الصلاح. قد يكونون غادروا الجزيرة في صمت وحلوا في أي بلد من بلاد الإسلام كما دخلوا صقلية واستقروا فيها في سكون، ولسان حالهم يردد هذه الأبيات الجميلة التي تنسب إلى أعظم من نزل منهم صقلية، وهو الشريف الإدريسي:

ليت شعري أين قبري؟ ... ضاع في الغربة عمري

لم أدع للعين ما تشـ ... ـتاق في بر وبحر

وخبرت الناس والأر ... ض لدى خير وشر

لم أجد جاراً ولا دا ... راً كما في طي صدري

فكأني لم أسر ... إلا بميت أو بقفر

الدولة السعدية

كان البرتغاليون قد توسعوا في سواحل المغرب فاحتلوا معظم المواقع على ساحل الأطلنطي، فطنجة وأصيلا والعرائش سقطت في أيديهم سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧١م، وقبل ذلك كانوا قد احتلوا الدار البيضاء التي كانت تعرف بـ(آنفا)[1] سنة ٨٧٤هـ = ١٤٦٩م، ثم ماسة سنة ٨٩٤هـ = ١٤٨٨م، ثم أگادير سنة ٩١١هـ = ١٥٠٥م، ثم آسفي سنة ٩١٤هـ ب ١٥٠٨م، ثم مازغان سنة ٩٢٠هـ = ١٥١٤م، وآزمور سنة ٩١٩هـ = ١٥١٣م، ثم العجوز سنة ٩٢٥هـ = ١٥١٩م. وأخذوا يغيرون على الداخل فيأسرون الرجال ويسبون النساء وينهبون القرى.

ثم ازداد عدوانهم فأغاروا على (قارودانت) على نهر السوس وتوغلوا داخل البلاد حتى أرباض مراكش.

---

(١) ظلت تحمل اسم آنفا حتى سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) حين احتلها البرتغاليون فهدموها وبنوا مكانها مدينة جديدة سموها باللغة البرتغالية بما تعريبه (الدار البيضاء) هي أكبر مدينة في شمال أفريقيا يزيد عدد سكانها على المليونين.

وهنا تلفت المغاربة يبحثون عن قيادة تجمعهم في دفع البرتغاليين عن أرضهم، ويتطلعون إلى زعيم يؤلف شملهم ويوحد أمرهم في نضال الغزاة المعتدين. فكان أن اهتدوا إلى الأشراف السعديين في تفاصيل تأتي.

لقد احتلت إسبانيا مليلة[١] وغساسة، واحتلت البرتغال سبتة والقصر، ولم يبق للمغرب في الشمال ميناء إلا تطوان[٢] التي ساق القدر لها (بنو

---

(١) مليلة: من أكبر ثغور المغرب تقع على البحر المتوسط في منتصف الطريق بين وهران وسبتة. وهي اليوم جيب إسباني يقطنها أكثر من ٨٠ ألف من الإسبان وعدد قليل من المغاربة. وقد جعل منها الإسبان قاعدة عسكرية ومركزاً من أهم مراكز الصيد ويرجع تاريخ الوجود الاستعماري الإسباني في المغرب إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، حيث قامت جماعة من المغامرين الإسبانيين من الجزر الخالدات باحتلال أول بقعة من المغرب تقع بناحية السوس الأقصى وشيدت فوقها برجاً أطلقت عليه اسم سانطا كروث ذي ماريبكينيا santa cruez de mar pequena الصليب المقدس بالبحر الصغير). وكان ذلك سنة ١٤٧٦. وكانت البرتغال الدولة الأولى التي احتلت أول مدينة مغربية هي مدينة سبتة سنة ١٤١٥، ثم احتلت مدينة القصر الصغير سنة ١٤٥٨ ثم مدينتي أصيلا وطنجة سنة ١٤٧١.

(٢) قال الدكتور إدريس خليفة في العدد ٣٢٦ من مجلة دعوة الحق المغربية من مقال له: مرحلة دفاع المغرب عن نفسه وضمن حدوده التاريخية بعد سقوط الأندلس، وتميز بمحاولات حربية مستمرة من قبل الدولتين: «إسبانيا» و«البرتغال» لاحتلال المغرب، انطلاقاً ممن شواطئه المتوسطية والأطلسية كثأر تاريخي للدولتين على المغرب، الذي ظل بالأندلس طيلة ثمانية قرون، يحميها ويمدها بحضارته وكيانه الفكري والعلمي والبشري والاستراتيجي.
وكان من غايات الحملة على المغرب القضاء على الإسلام، ونشر المسيحية في ربوعه. كما يؤكده الكاتب الإسباني (طوماس فيغيراس)، وهي السياسة التي خطط لها الملكان الكاثوليكيان: (Los Reyes Catholicos) منذ القرن الخامس عشر للميلاد، وقام على تنفيذها رجل الدولة الإسباني الداهية الماكر (Cisneros)، وكانت لا تستثني من غاياتها العمل على الاستيلاء على البقاع الإسلامية المقدسة.
وفي هذا النطاق تركت الملكة الكاثوليكية (إيزابيلا) وصية لها، وعملت السلطة البابوية المسيحية في مجال التنسيق بين الدولتين، وتقسيم مناطق النفوذ بينهما لما فيه صلاح الكنيسة الكاثوليكية.
وقد وقعت الدولتان لهذا الغرض معاهدة (Alcoçovas) بتاريخ ٤ سبتمبر ١٤٧٩، التي اعترفت فيها البرتغال للدولة الإسبانية بالحق في غزو مملكة فاس، ومعاهدة (طليطلة) بتاريخ ٦ مارس ١٤٨٠، التي تخلت فيها البرتغال لجارتها عن (جزر الكنارياس)، وتخلت الأخرى لجارتها عن أراضي (مملكة فاس).
وجاءت بعد ذلك اتفاقية (طردسياس) Tordesillas لعام ١٤٩٤، التي أكدت نفس الاتجاه، =

المنظري) الذين حطوا فيها بعد رحليهم من الأندلس، فكان في قلوبهم من الحقد على الإسبان الذين أجلوهم عن وطنهم ما يحفزهم إلى الاستبسال في حرب هؤلاء ودفعهم عن تطوان وما إليها، فكانوا ينطلقون في البحر من تطوان لمصاولة السفن الإسبانية والبرتغالية.

وفي سنة ١٤٩٦ وجّه البابا نداء إلى المسيحيين ليوالوا فتوحاتهم، فزاد ذلك من الحماسة للتوغل في المغرب فتوالى سقوط الموانىء ميناء بعد ميناء.

على أن الإسبان جذبتهم الاكتشافات الأمريكية فانصرفت طموحاتهم إليها، وظل البرتغاليون متوجهين بكل حماستهم إلى المغرب.

= وإن كان من الملاحظ أن كل دولة كانت تسابق الدولة الأخرى بموافقة ومباركة من سلطان البابا لاحتلال أي موقع مغربي يمكن احتلاله.

وفي إطار هذه السياسة التي كانت معززة بجيوش جرارة مدربة، وأساطيل قوية معبأة، وقواد عسكريين ممتازين، بجد، ومهارة، وتخطيط، وأمن، تنعم به الدولتان الاستعماريتان، وتصور واضح لهيمنتهما على العالم بعد نهاية عصر الاسترداد كانت الحملات التي شنتها الدولتان على المغرب، واحتلال عدد من الموقع الشاطئية فيه.

وأول هذه العمليات كانت عملية احتلال مدينة «سبتة» عام ٨١٨هـ ـ ١٤١٥م من قبل دولة البرتغال، وبقوا هم المحتلين لها إلى عام ١٥٨٠ عندما انتزعها الإسبان منهم بعد هزيمة البرتغاليين في معركة (وادي المخازن)، ثم محاولة احتلال «العرائش» عام ١٤١٨م، وهجومهم على «تطوان» عام ١٤٣٥م، وعلى «طنجة» عام ١٤٣٧، وتخريبهم مدينة «تطوان» في بداية القرن التاسع الهجري، واحتلال «القصر الصغير» عام ١٤٥٨، وكانت منهم محاولة أخرى لاحتلال «طنجة» عام ١٤٦٣ أو ١٤٦٤م.

وفي عام ١٤٦٨ هاجموا «آنفا» واحتلوها، ثم تخلوا عنها بعدما هدموا أسوارها، وهاجموا «أصيلا» عام ١٤٧١م، واحتلوا «طنجة» عام ١٤٧١م، واستمر احتلالهم لها إلى عام ١٦٦٢م حين سلموها كصداق لزواج الملك الإنجليزي (شارل الثالث) بالأميرة (كاترين دي براغانزا) البرتغالية، واحتلوا «أگادير» عام ٩١٠هـ ـ ١٥٠٥م، وبنوا بها حصناً سموه (فونتي)، واحتلوا آسفي عام ٩١٨هـ ـ ١٥٠٧م، و«آزمور» عام ٩١٩هـ ـ ١٥١٣م، وثغر «المعمورة» (المهدية) عام ٩٢١هـ ـ (١٥١٥م).

وفي عام ٩٨٦هـ ـ ٤ غشت ١٥٧٨ كانت **«معركة وادي المخازن الكبرى»** بين البرتغاليين بقيادة عميدهم الملك (سبستيان) والمغاربة بقيادة البطل (عبد الملك السعدي)، والتي انتصر فيها المغاربة انتصاراً ساحقاً كان سبباً في أفول دولة البرتغال، والقضاء على ملكهم.

وكان البرتغاليون أسبق إلى التوسع في المغرب من الإسبان، ومر توسعهم في مرحلتين: مرحلة الاستيلاء على الثغور الشمالية من سنة ٨١٨هـ = ١٤١٥م إلى سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧١م.

والمرحلة الثانية مرحلة الاستيلاء على الثغور الغربية الجنوبية من سنة ٩٠٨هـ = ١٥٠٢م إلى ٩١٩هـ = ١٥١٣م.

ويمكن إجمال المرحلتين على الشكل التالي:

١ ـ سبتة[١]: بسقوط الأندلس والتفكير بإجلاء الموركسيين، خشي الإسبان والبرتغاليون من احتشاد المسلمين في الثغور المغربية الشمالية، والإعداد لهجمات على (إيبيريا) لذلك سارعوا إلى احتلال هذه الثغور، فكان أن احتلت سبتة سنة ١٤١٥.

٢ ـ القصر الصغير[٢]: استولى عليه البرتغاليون سنة ١٤٥٨ وحاول المرينيون استرداده سنة ١٤٥٩ فلم يفلحوا.

٣ ـ انفا، أصيلا، طنجة[٣]: حاول البرتغاليون سنة ١٤٣٧ الاستيلاء على طنجة فساقوا أسطولاً إلى سبتة ومنها إلى طنجة فاحسن المرينيون الدفاع عنها بعد أن أنجدتهم تجمعات شعبية من الجوار، فانهزم البرتغاليون عنها.

وفي سنة ١٤٥٨ عاودوا المحاولة وكانوا هذه المرة بقيادة الملك الفونسو الخامس، فعاودتهم الهزيمة، ولكنهم احتفظوا بالقصر الصغير.

وبعد عشر سنين سنة ١٤٦٨ كان البرتغاليون يغادرونها وهي خالية شبه خراب، فتركوها ليعودوا إليها بعد أربعين سنة.

---

(١) أقرب ثغر مغربي إلى الشاطىء الإسباني بحيث لا تتجاوز المسافة بين الضفتين ١٦ ميلاً. وهي تقع على بعد ٦٠ كلم شمال تطوان. وهي أول مدينة استولى عليها البرتغال ثم استولى عليها الإسبان بعد ذلك ولا تزال في احتلالهم، فهي جيب إسباني في المغرب، ويسكنها نحو ٦٥ ألفاً من الإسبان ونحو ستة آلاف من المغاربة.

(٢) يقع على بعد ٢٤كلم جنوب طنجة، بين سبتة وطنجة. وليس فيه اليوم سوى بقايا اطلال.

(٣) أثيلا: تقع على الشاطىء الأطلنطي بين طنجة والعرائش، على بعد ٤٩ كلم من طنجة.

وأما أصيلا فقد كانت سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧١م تقاوم بضراوة القطع الثلاثمئة من الأسطول البرتغالي، والثلاثين ألف مقاتل المصاحبين له، ولكن قواها ضعفت أمام الاندفاع البرتغالي البحري البري الأقوى فدخلها البرتغاليون فاتحين، وبعد أسبوع من فتحها امتدوا إلى طنجة، ولم تتخلص منهم إلا بعد قرنين.

وكما انشغل الإسبان من قبل باستكشافات أمريكا، انشغل البرتغاليون الآن باستكشاف أفريقيا، فلم يعاودوا فتوحهم في الشواطىء المغربية إلى بداية القرن السادس عشر (العاشر الهجري). وفي ثلاثين سنة وصلوا إلى أفريقيا الاستوائية سنة ١٤٧١ وهي السنة التي احتلوا فيها أصيلا وطنجة. وفي سنة ١٤٨٢ وصلوا إلى مصب الكونغو، ثم إلى رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦ فانفتح أمامهم طريق الوصول إلى الهند.

وهكذا مرت ثلاثون سنة ونيف بعد احتلال طنجة، وقبل أن يشرع البرتغاليون في إنجاز المرحلة الثانية التي هي مرحلة احتلال الثغور الغربية الجنوبية التي تبدأ في فترة قريبة جداً من قيام الدولة السعدية[١].

وتبدأ المرحلة الثانية باحتلال أكادير سنة ١٥٠٥ ثم آسفي سنة ١٥٠٧ ثم أزمور[٢] التي سقطت سنة ١٥١٣.

وقد تمزقت البلاد وانحلت وحدتها، ولم يستطع (الوطاسيون) الذين حكموا من (١٤٧١ ـ ١٥٣٣)، وظلوا في فاس حوالي نصف قرن بعد قيام السعديين ـ لم يستطيعوا أن يعيدوا البلاد إلى وحدتها. وكان الأمر على هذا الشكل:

١ ـ مليلية (أو مليلة) وغساسة بيد الإسبان.

---

(١) السياسة والمجتمع في العهد السعدي.

(٢) تقع أزمور على ضفة أم الربيع قرب مصبه في المحيط الأطلنطي.

٢ ـ سبتة وطنجة والقصر الصغير وأصيلا وازمور وآنفا وآسفي وأكادير وغيرها بيد البرتغاليين.

وبقية البلاد تتنازعها سلطات محلية متنوعة. فقد كان نفوذ الوطاسيين قد أصبح لا يشمل إلا جزءاً من القسم الشمالي للمغرب، كما انحصر نفوذ (هنتانة) بمراكش وضاحيتها. أما في الجهات الجنوبية فقد كان الولاة يتنازعون على السلطة في صراع مسلح[١].

السعديون

هم حسنيون من سلالة محمد النفس الزكية. ولما نجحت دولتهم قامت لها خصومات عمد خصومهم إلى محاولة الطعن في أنسابهم، على ما اعتاده المتخاصمون في مثل هذه الظروف.

وكلنا نعرف المحاولة التي قام بها العباسيون بعد نجاح الفاطميين في إقامة الدولة ووصولهم بها إلى مصر، وخوف العباسيين من استمرار التقدم، فلجؤوا إلى الطعن في نسبهم ونفي صحة انتسابهم إلى فاطمة وعلي (ع).

وكذلك الشأن مع السعديين الذين ووجهوا بهذه المطاعن، فقيل أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذي تنتمي إليه حليمة السعدية مربية النبي ﷺ[٢].

وقيل أنهم إنما لقبوا بالسعديين تيمناً لأنهم سعدوا بدولتهم[٣].

على أنهم في الحقيقة من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب (ع). وقد اعترف بهذه الحقيقة أحفاد الذين أنكروها وكانوا أصل من طعن في نسب السعديين. وقد أراد واحد منهم أن يبرىء ذمة أسرته فروى عنه الزياني صاحب (الترجمان المغرب)[٤] ما يلي:

---

(١) السياسة والمجتمع في العصر السعدي.
(٢) المغرب عبر التاريخ ج٢، ص٢٤٢.
(٣) ن.م.
(٤) ص٣٤٣.

«والذي سمعته من محمد بن عبد الله رحمه الله لما جرى ذكرهم، وذكرنا له الخلاف في نسبهم قال: اسكت ولا تعد لهذه المقالة فإنهم إخواننا وبنو عمنا، وجدنا وجدهم واحد، وقريتنا وقريتهم بـ(ينبع) واحدة يقال لها بنو إبراهيم وجدهم أحمد، خرج للمغرب قبل جدنا الحسن بنحو الثلاثين سنة وهم أخوان، لكنهم لما ملكوا لم يعاملونا معاملة الأخوان، واقتصروا على التعظيم والاحترام، فكان سلفنا يحقدون عليهم إهمالهم لجانبنا. . . هذا موجب طعن سلفنا في نسبهم، وإلا فالحق أحق أن يتبع».

على أن الأمر في الخصومة لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه في الافتراء والبهتان إلى درجة التطاول على أبرز رجل في السعديين وهو: المنصور بن محمد المهدي (١٥٣٩ ـ ١٥٥٦م) بأنه لم يكن ابناً شرعياً[١].

قدومهم إلى المغرب

قدم السعديون إلى المغرب في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر) في عهد بني مرين بطلب من فريق من أبناء (دَرْعَة)[٢] التقوهم حين أدائهم

---

(١) نزهة الأخبارة ص١٠٥.

(٢) **درعة**: مدينة وولاية خصبة في جنوب المغرب الأقصى وراء جبال الأطلس، تقع شرقي إقليم السوس ويخترقها نهر طويل يعرف بوادي درعة، يصب في المحيط الأطلسي بالغرب من رأس نون. وكانت ولاية درعة في العصور الوسطى الإسلامية محطة تجارية مزدهرة ولا سيما في واردات السودان من الذهب والفضة كما كانت مركزاً علمياً اشتهر بعلمائه وزواياه، وناهيك بالزاوية الناصرية ومكتبتها الشهيرة. وإليها ينسب أبو زيد نصر بن علي بن محمد الدرعي وال أبو الحسن الدرعي. وسكان درعة خليط من العرب وبربر صنهاجة، والحياة الزراعية معتمد سكان واحات درعة. وينحصر المجال الزراعي بواحات وادي درعة في الشريط الرسوبي الضيق الذي تكون على ضفاف نهر درعة. ومن طرائف الشعر قول شاعر في درعة:

يطوف السحاب بدرعة كما ... يطوف الحجيج بالبيت الحرام

تريد النزول فلم تستطع ... لسف الدماء وأكل الحرام

وقد كانت لها أهمية محدودة قبل العصر السعدي في الثقافة والعلم، ولم تكن سوى منطقة زراعية مهمة، وبقيام الدولة السعدية صارت من مراكز النشاط الفكري وخرج منها العديد من العلماء المؤلفين.

مناسك الحج فدعوهم إلى الرحيل إليهم في المغرب. وليست لدينا تفاصيل عمن كان أول قادم منهم، وهل كان واحداً أو أكثر من واحد على أن (الزياني) يذكر أن جدهم أحمد بن محمد بن القاسم قدم إلى المغرب في القرن السادس الهحري (الثاني عشر) (الزياني، ترجمان، ص٣٤٢)، كما يقول صاحب (السياسة والمجتمع).

والمعروف أنهم في الأصل من مقاطعة (ينبع) في الحجاز، وإذا كان الدرعيون قد التقوا منهم بمن دعوه إلى بلادهم، فيقتضي أن يكون هذا اللقاء في مكة لا في ينبع. ويقول صاحب كتاب (المغرب عبر التاريخ)[1] «يبدو أنهم (الدرعيون) اتصلوا بهم وقت أداء مناسك الحج حتى يتيمَّنوا بوجودهم في استصلاح زروعهم وثمارهم» اهـ.

ونشك نحن في هذا السبب الذي يقول المؤلف أنهم دعوهم لأجله، فلا نحسب أن أولئك الأشراف كانوا خبراء زراعيين متخصصين في استصلاح الزروع والثمار، بحيث يستدعون من الحجاز إلى المغرب لأجل ذلك؛ بل نرى أنهم كانوا من أهل الفقه والصلاح والتقوى فتوسم فيهم المغاربة الخير لاستصلاح العقائد والتمسك بها. والمؤلف يستعمل كلمة (تيمّنوا) بهم، واستصلاح الزروع والثمار لا يقتضي التيمن برجاله.

والمؤلف نفسه حين يتحدث عن عوامل تأسيس الدولة السعدية يقول أن من تلك العوامل كون السعديين (أشرافاً) وأنهم لجأوا إلى إقناع الناس بشرف نسبهم حتى يبرروا أن لقيام دولتهم أساساً دينياً اهـ. .

واستصلاح الزروع والثمار لا علاقة لأصحابه بشرف النسب ونجابة الأصل، ولا يتوسل الخبير به بهذه الوسيلة ليدعو إلى نفسه. بل أن الذي يتوسل بها من يستدعى أو يدعو لنفسه إلى صلاح المجتمع والمكانة الرفيعة فيه والسيادة على أهله.

---

(١) ج٢، ص٢٤٢ ط٣.

والمكان الذي حلت به الأسرة السعدية في المغرب هو قرية (تاكمَدَارات) من نواحي درعة.

وجاء عهد أحدهم محمد بن عبد الرحمٰن الذي كان مقرئاً يقضي حياة شعبية قوامها البساطة والتعفف، منصرفاً إلى العلم متنقلاً في سبيل أخذه من مكان إلى مكان. ولما شب نجلاه أحمد ومحمد كان يصطحب أحدهما ذاهباً من تاكمدارات إلى أكادير ليقاتل مع المقاتلين زحوف البرتغال.

ويروى أنه وجه ولديه للانضمام إلى الوطاسيين المدافعين للبرتغال، في حين كان هو يقوم باتصالاته السرية في الجنوب، وإن ولديه برزا كل البروز في المدافعة ما جعلهما موضع تقدير السلطان الوطاسي أبي عبد الله محمد.

وظل الأمر كذلك حتى كان البرتغاليون قد استقروا في شمال ناحية السوس[١] وبنوا حصن (اگادير) وبدا أنهم سيتوغلون في البلاد. ورأى السوسيون الخطر الداهم ففاوضوا أحد صلحائهم محمد بن مبارك من (آقا) في أقصى الجنوب السوسي لينصبوه أميراً عليهم فتجتمع كلمتهم بقيادة موحدة في نضال البرتغاليين بعد أن تتم بيعته في المغرب كله[٢].

ولكن محمداً هذا رفض طلبهم وأشار عليهم بأن يولوا أمرهم محمد بن عبد الرحمٰن السعدي ففعلوا، وتمت البيعة سنة ٩١٥ = ١٥١٠م في (تيدسي) وهي قرية قرب (تارودانت[٣] تبعد عنها ٢٢كلم جنوب غربيها واعترف بهذه

---

(١) السوس يطلق على ناحية كبرى من نواحي جنوب المغرب بين الأطلسين الكبير والصغير في مساحة تقدر بنحو ٢٠ ألف كلم مربع. ويطلق الاسم أيضاً على واد كبير ينحدر من الأطلس الكبير وينصب جنوب أگادير في المحيط الأطلسي.

(٢) محمد بن مبارك هو تلميذ الجزولي وكانت له سلطة روحية كبيرة على سكان السوس وكانت له في (آقا) زاوية شهيرة.

(٣) تارودانت: من أقدم مدن المغرب احتلها المرابطون عند زحفهم عن المغرب إلى الصحراء، وحاصرها الموحدون، وكانت شبه مستقلة أيام المرينيين، ويوجد فيها مسجد يعد من =

البيعة الشيوخ والقضاة والفقهاء من المصامدة. ولقب محمد السعدي بلقب القائم بأمر الله.

= أعظم مساجد الشمال الأفريقي بني في عهد السعدين تبلغ مساحته ٢٥٠٠م.م وأنشأ فيها السعديون معامل السكر الذي كانت تنتجه بمقادير وافرة. وقد اتخذها محمد المهدي السعدي في أول الأمر عاصمة له وسماها المحمدية واستقر بها عدد من الملوك بعده. تقع على بعد ٨٣ك.م جنوب اگادير و٢٤٥ جنوب مراكش عبر الأطلس الكبير.

وتعتبر مدينة تارودانت من الحواضر التي لها ذكر ووجود فعال في أغلب مراحل التاريخ المغربي، فهي تقع في طريق التجارة مع السودان الغربي ودول الصحراء الكبرى، وبها يقيم نواب الحكومات المركزية من الأمراء والخلفاء والقواد، مما جعلها تكوّن حاضرة بلاد السوس الأقصى وعاصمتها التقليدية.

ومع بزوغ فجر الدولة السعدية طغت المدينة مرة أخرى على ساحة الأحداث، فكانت مهد الدعوة، ومنطلق الفتوحات، فنالها السعد بذلك، حيث جددت معالمها، وأسست بناياتها وحصونها، وشيدت منارات العلم والعبادة في جنباتها، فاستبدلت البلى والخرائب بحسن العمارة ونضارة الجنان والحدائق، وورد إليها مهرة العمال وأرباب الصنائع، كما نفقت فيها سوق العلم بتوارد مشاهير العلماء والقراء، وامتلأت مساجدها ومدارسها بالطلبة الأفارقة، فأصبحت منتدى الأدباء، ومقصد النجباء، فكان ذلك كله فاتحة عهد جديد في تاريخ هذه المدينة العريقة، حيث نشطت الحركة الفكرية والعلمية والإقتصادية بانتعاش السياسة.

وكما هو الشأن في جميع الحواضر، فإن التعليم بمدينة تارودانت يرتبط بالمساجد والكتاتيب وأشهر هذه المساجد ثلاثة.

ـ جامع القصبة. وجامع القصبة قد يكون أول مسجد أسس بهذه المدينة، لأن القصبة السلطانية لها ذكر في العهد المرابطي والموحدي، ومن غير المعقول أن تخلو من مسجد. وإلى اليوم يعتبر مسجد القصبة من المساجد الجامعة بالمدينة.

ـ ومسجد مجمع الأحباب. ويلي مسجد القصبة مسجد مجمع الأحباب، الذي يدعى في الوثائق التاريخية «بالمسجد الجديد»، تلحق به مدرسة عتيقة تلاصق مقصورة النساء إلى جهة الباب الشمالي. وقد اندثرت هذه المدرسة اليوم، وأضحت مساكن حبسية. ومن ملحقات هذا المسجد أيضاً خزانة كتب عتيقة.

ـ والجامع الكبير. ويقع الجامع الكبير في الجهة الشرقية من المدينة، وإليه تنسب الحارة القريبة منه، وحوله من جميع الجهات مساكن العلماء والطلبة والبيوتات الكبرى، وكل من دخله يعجب من اتساعه واتساق زخارفه.

ولا يعرف تاريخ بنائه، ولعل العمل الذي قام به محمد الشيخ السعدي هو تجديد بنائه وتوسيع جنباته...».

يقول الدكتور محمد حجي عن عمل محمد الشيخ السعدي:

وقد بالغ في زخرفته حتى أضحى أعظم وأفخم من جامعي المواسين وباب دكالة المستحدثين فيما بعد في مراكش.

وافتتح محمد القائم عهده بالهجوم على البرتغاليين عند (أگادير)[1] فأحرز عليهم عدة انتصارات أدت إلى أن يستقدمه أهل (الشياظمة) و(حاحا) ليقود جيوش مقاومة البرتغاليين في ديارهم وكانت وفاة محمد سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م.

خلفاء محمد القائم

تولى بعد محمد القائم ولده وولي عهده أبو العباس أحمد الأعرج، فكان أول ما عني به هو إعداد الجيش، واستطاع أبو العباس الانتصار على البرتغاليين في آسفي[2]، وإيقاف زحفهم نحو الداخل. وبدأ انسحابهم من الشواطىء المغربية في أواسط عهد أبي العباس الأعرج، وكان خروجهم من آسفي حوالي سنة ٩٣٣هـ = ١٥٢٦م وتتابع خروجهم على دفعات، وإن ظلت لهم بعض المواقع.

وأخذت جيوش أبي العباس تزحف زحفاً سلمياً خلال الحرب مع البرتغاليين، بدعوى الاستنجاد على هؤلاء بالأمير الهنتاني (ناصر بوشنتوف) الذي أسرع فأمدَّهم بالنجدات، فكان أن دخلوا مراكش سنة ٩٣٠هـ.

وقد أدى ذلك إلى اشتعال الحرب سنة ٩٣٥ بينهم وبين الوطاسيين[3]

---

(١) مدينة كبرى من مدن الساحل الأطلسي أسست قصبتها في أوائل القرن العاشر. واحتلها البرتغاليون سنة ٩١٧هـ ثم حررها السعديون فأعادوا بناءها وشيدوا قصبتها التي كان يشرف الناظر منها على سهول السوس. وقد دمرها عن آخرها الزلزال في ٢٤ شباط سنة ١٩٦٠ فأصبحت أثراً بعد عين. ولكنها استعادت حياتها فأعيد بناؤها من جديد وأصبحت خلال سنوات من أحسن المدن الساحلية في المغرب.

(٢) تقع على الشاطىء الأطلسي. احتلها البرتغاليون مراراً خلال القرن العاشر الهجري وقامت بدور مهم في حركة طرد البرتغاليين من الشواطىء خلال العصر السعدي. كما كانت مركزاً مهماً للعلاقات التجارية بين المغرب وأوروبا خلال عهد السعديين. وظلت أهم ميناء في المغرب إلى أوائل القرن العشرين. وتعد اليوم من أعظم موانىء صيد السمك في العالم وتجفيفه وتصديره إلى سائر أطراف المعمورة. وفيها أكثر من مئة معمل (للسردين). وفيها مدرسة بحرية لتخريج الضباط والفنيين البحريين. تقع على بعد ١٥٥ك.م من مدينة مراكش.

(٣) الوطاسيون (بنو وطاس) هم الذين كان لهم الحكم قبل السعديين.

الذين رفضوا تدخلهم في مراكش، فتدخل العلماء والصلحاء فتم الاتفاق على أن يعترف بسيادة الوطاسيين على الجزء الواقع فيما بين (تادلا) والمغرب الأوسط، وسيادة السعديين على ما بين تادلا والسوس. ولم يطل أمر هذا الاتفاق بل نقضه السعديون وهزموا الوطاسيين في معركة حاسمة سنة ٩٤٣هـ = ١٥٣٦م.

على أن صراعاً شب بين أبي العباس أحمد وبين أخيه محمد المهدي بسعايات بعض رجال الحاشية، أدى إلى انتصار محمد وخلع أبي العباس سنة ٧٤٦هـ.

وكان البرتغاليون لا يزالون يحتلون (اگادير) وبذلك ظلوا يهددون منطقة السوس، فاستطاع محمد المهدي الانتصار عليهم وإخراجهم من اگادير سنة ٩٤٨هـ وكان لمدافعه أثر كبير في هذا الانتصار.

وقد كان لهزيمة البرتغاليين هذه صدى بعيد في الأحداث التالية إذ ادت إلى أن يأخذ البرتغاليون بالتخلي عن مواقعهم في المغرب موقعاً بعد موقع.

ولما كانت الدولة قد قامت على أكتاف أهل السوس فقد رأى محمد المهدي[١] أن يتخذ من مدينة مراكش عاصمة له ليظل قريباً من أنصاره السوسيين فاستقر فيها سنة ٩٥١هـ وظلت منذ تلك السنة عاصمة لهم حتى انتهاء دولتهم.

وتابع محمد فتوحاته عبر الشمال فاستولى على مكناس[٢] سنة ٩٥٥ بعد استيلائه على حصن قشتاله. ثم حاصر مدينة فاس ودخلها سنة ٩٥٩ مطارداً الوطاسيين في كل مكان ونجا من الأسر أبو حسّون علي بن محمد الوطاسي،

---

(١) يقال له أيضاً محمد الشيخ، وأحياناً: محمد الشيخ المهدي.

(٢) مكناس، أو مكناسة الزيتون: من كبريات مدن المغرب. يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرون الهجرية الأولى، وفي العهد المريني اتسعت عمارتها. وقد اتخذها المولى اسماعيل عاصمة لمملكته، وظلت عاصمة مدة نصف قرن.

فحاول أولاً الاستنجاد بالبرتغاليين والإسبان فلما أخفق في ذلك حاول الاستنجاد بالأتراك. فلما رأى ذلك محمد المهدي أسرع فغزا الأتراك في معقلهم في الجزائر.

وقبل أن يحل العام ٩٥٧هـ بدأ بحصار تلمسان وكان بها يومئذ سلطان من بني عبد الواد تحت حماية الإسبان المباشرة، وظل على حصارها تسعة أشهر إلى أن أدخلها في السيادة السعدية. وهنا جاءت نجدات تركية هزمت الجيش السعدي وإسترد الأتراك تلمسان، وعندما حاول محمد المهدي معاودة غزوها فشل في ذلك فصرف النظر عن فكرة ضم المغرب الأوسط إلى الحكم السعدي، إذ كان عليه أن يجابه الأتراك والإسبان فضلاً عن الوطاسيين وبقايا البرتغاليين بالمغرب الأقصى.

أما أبو حسون فإنه منذ سنة ٩٥٦هـ انصرف إلى استرجاع دولته ففاوض نائب الملك في إسبانيا وشارلمان في ألمانيا فلم يجده ذلك شيئاً، فلجأ إلى البرتغاليين فأسعفوه بقوى بحرية فلم يلبث أن أسره الأتراك في عرض البحر. ولكنه استطاع إقناع القائد التركي بالتحالف معه، فتألفت قوة جزائرية تركية لمحاربة محمد المهدي الشيخ، فلم يقو هذا على مدافعتها فسقطت (تازة)[1] ثم فاس بيد الجيش التركي، فعاد الوطاسيون إلى حكم فاس.

وانتهى الأمر بقتل أبي حسون في معركة مع السعديين بتادلا[2] أواخر سنة ٩٦١هـ وبذلك قضي نهائياً على الدولة الوطاسية.

ظل محمد المهدي الشيخ مصمماً على عدم الاعتراف ـ ولو رمزياً ـ بالسلطة العثمانية على المغرب. ولما دعاه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ

---

(١) تازة: من أقدم المدن المغربية تقع بين فاس ووجدة بين الأطلس المتوسط وجبال الريف، اتخذها الحسن بن إدريس الثاني مقراً حربياً له ثم اعتنى بها عبد المؤمن الموحدي وخلفاؤه فجعلوها حصناً منيعاً، تقع على بعد ١٢٠كلم شرق فاس و٢٥٥ من وجدة.

(٢) تادلا: تقع على بعد ٣٠٠كلم جنوب شرق البيضاء، وهي مركز زراعي على الضفة اليمنى لوادي أم الربيع.

١٥٦٦م) إلى الدعاء له على منابر المغرب بصفته خليفة المسلمين رد عليه بأنه لا يجيبه حتى يكون بمصر إن شاء الله.

ولكن العثمانيين دبروا اغتياله في آخر سنة ٩٦٤هـ وحملوا رأسه إلى البلاط العثماني....

وتولى بعده ولده أبو محمد عبد الله الغالب، ولم تمض سنة على توليه حتى هاجم الأتراك المغرب ولكنهم فشلوا في هجومهم.

ولم يعترف ـ كأبيه ـ بخلافة العثمانيين وهادن الإسبان فناصروه أحياناً وخذلوه أحياناً أخرى، ومما أُخذ عليه ـ بحق ـ تسليمهم (حجر باديس) في الشمال فاتخذوه مقراً لمراقبة الأتراك.

ومن أياديه البيض تجرده لمعاونة (المورسكيين) المسلمين في اضطهاد الإسبان لهم، وقد أرسل لهم موفداً ولكن الإسبان اكتشفوه وقتلوه.

المورسكيون

المورسكيون: هم المسلمون الذين أرغموا على التنصر بعد سيطرة الإسبان على الأندلس وقيام (محاكم التفتيش) وفظائعها بعد سقوط غرناطة، فقد حاولت الكنيسة أول الأمر تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع والتأثيرات المادية فلم يغنها ذلك شيئاً، فانقلبت إلى العنف والمطاردة فأغلقت المساجد وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم وانتهكت عقائدهم وشريعتهم. وفي شهر تموز سنة ١٤٩٩م (٩٠٥هـ) اتخذت وسائل فعالة لتنصير المسلمين، فجاء الكردينال (همنيس) إلى غرناطة ودعا أسقفها (الدون تالاڤيرا) إلى العمل الجدي في التنصير.

وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً، ولم تحجم السلطات الكنسية والمدنية عن اتخاذ أشد وسائل العنف. ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف

دون تذمر ودون مقاومة، وسرت إليهم أعراض الثورة لا سيما في الجبال. وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية. وسرعان ما سرت الحمية في المسلمين فأعلنوا الثورة في معظم نواحي غرناطة وفي ربض البيازين وفي البشرات وغيرهما واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم وحريتهم، ولكنهم كانوا عزلاً، فكثر بينهم القتل والسبي، وقضي بالموت على مناطق بأسرها ما عدا الأطفال الذين هم دون الحادية عشرة، فقد حولوا إلى نصارى. وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة كثيراً منهم على الإذعان والتسليم فقبلوا بالتنصير المغصوب ملاذاً للنجاة. وهكذا ذاع التنصر.

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يكتم الإسلام خيفة فشددوا عليهم في البحث حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك.

وقامت محاكم التفتيش في مطاردة الموريسكيين بأعظم دور وتركت في مأساتهم أعظم الأثر.

وعم التنصر الموريسكيين وصاروا يتكلمون ويكتبون القشتالية غير أنهم لم يندمجوا بغيرهم.

وفي سنة ١٦٠٩ تقرر نفيهم إلى المغرب وأن عليهم أن يرحلوا خلال ثلاثة أيام وأن يحملوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم.

ونفذ قرار النفي في كل مكان بصرامة ووحشية.

وفي هذا الوقت الذي نكتب فيه هذا الكلام وفي الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٩٨ بالذات عرفنا عن عقد مؤتمر في إسبانيا يتعلق بالموريسكيين نذكر عنه هنا ما يلي:

بدعم من مستشارية الثقافة والتعليم في مقاطعة مدريد، أقامت «مؤسسة الجنوب للبحوث» في الفترة من ٣ إلى ٥ كانون الأول (ديسمبر) الجاري أول مؤتمر علمي حول «السياسة والموريسكيين في عهد البيت الملكي النمساوي في

إسبانيا»، أي في الفترة ما بين ١٥١٧ و١٧٠٠ ميلادية، أي بعد ما يزيد قليلاً عن عقدين على سقوط غرناطة، والذي كان في رأي معظم المشاركين في المؤتمر مقدمة لأحداث تاريخية فظيعة تدل على مدى الشر الذي كان يكمن في العقلية الأوروبية المسيحية تجاه الإسلام والمسلمين، لأن الموريسكيين في رأي معظم الباحثين لم يكونوا سوى أبناء الأمة الأندلسية التي اختلطت فيها الدماء العربية والبربرية الوافدة مع الفتح الإسلامي والدماء الأصيلة لسكان تلك البلاد قبل أن تقوم دولة الأندلس. . . تلك الأحداث التي تكررت في عالمنا المعاصر في أشكال أخرى مثل ما حدث في البوسنة والهرسك ويحدث الآن في كوسوفو.

شارك في هذا المؤتمر العديد من المستعربين الأوروبيين المتخصصين في الدراسات الموريسكية، مثل ألفارو غالمث دي فيونتس ورودولفو خيل غيرماو وماريا خيسوس روبيرا مأتا ولويس فرنانديث برنابيه بونس من إسبانيا، وجان بيير مولينات من فرنسا، وأنطونيو ديازفارينا وإيزابيل ريبيرا مينديز ولويس كارميلو من البرتغال.

من الجانب العربي شارك في المؤتمر عدد من الباحثين المتخصصين، منهم: جمال عبد الكريم من مصر، وعبد الجليل التميمي وعبد الكريم سلامة من تونس، ومحمد بن عزوز حكيم وحسين بوزينب وفاطمة رشيدي من المغرب، ومحمد عبده حتم الله من الأردن.

تناولت البحوث التي ألقاها المشاركون مختلف جوانب حياة الموريسكيين في ظل السياسة المسيحية التي مارسها ملوك إسبانيا الذين ينتمون إلى البيت الملكي النمساوي، والتي قامت خلالها محاكم التفتيش التي انتهت أخيراً بطرد ما تبقى ممن الموريسكيين في إسبانيا بعد محاولاتهم استرداد حقوقهم الشرعية كمواطنين ولدوا وتربوا على أرض الأندلس قبل أن تكون هناك دولة تسمى إسبانيا.

من بين البحوث التي نوقشت في هذا اللقاء، بحث الدكتور جمال

عبد الكريم نائب رئيس مؤسسة الجنوب والأستاذ بجامعة القاهرة، الذي أكد في بحثه على أن العودة إلى تناول أوضاع الموريسكيين في تلك الفترة هدفها الكشف عن جذور الأوضاع التي تشهدها مجتمعات إسلامية أوروبية معاصرة، عاشت لسنوات طويلة تنشد السلام مع جيرانها من المجتمعات المسيحية، ولكنها واجهت في النهاية تطبيقاً جديداً ومعاصراً لمحاكم التفتيش التي شهدها أخوة لهم على أثر سقوط دولة الإسلام في الأندلس.

تلك المحاكم لم تكن سوى أداة سياسية للقضاء على شعب بكامله لمجرد وجود تفرقة في العقائد، ليكون الموريسكيون أول شعب يواجه عملية تطهير عرقي في أوروبا طوال تاريخها، لأن الموريسكيين ـ في رأي الباحث ـ كانوا إسباناً مثلهم مثل أي إسباني آخر، وكل ما كانوا يتميزون به هو اختلاف عقيدتهم عن عقيدة ملوك إسبانيا الجدد الذين شنوا على الأندلس حرباً صليبية.

من أبرز البحوث التي قدمت جديداً في هذا المجال، وحاولت أن تلقي الضوء على محاولات الموريسكيين تطبيع علاقاتهم مع المسيحيين في ظل القوانين الجديدة التي كانت محاكم التفتيش تطبقها عليهم، جاء بحث «المؤامرات الغرناطية في الكتب الرصاصية» للباحث الإسباني لويس فرنانديث بونس الذي تناول تلك المحاولات الموريسكية لتطبيع تلك العلاقات من خلال الكتابات السرية التي تم العثور عليها في «الساكرومونتي»، تلك الكتابات التي حاولت أن تمزج المعتقد الإسلامي بالمعتقد المسيحي لتقدم للموريسكيين شكلاً يجعلهم يحافظون على ديانتهم الإسلامية الحقيقية في الخفاء، وفي الوقت نفسه يظهرهم أمام المسيحيين بمظهر «المتنصرين» خصوصاً بعد فشل محاولاتهم التمرد على الأوضاع الجديدة.

أكد الباحث أن ظهور هذه المخطوطات فتح في المجتمع الإسباني نقاشاً واسعاً توصل المشاركون فيه إلى نتائج متعارضة، وفي أحيان كثيرة متناقضة، إذ كان بعضهم يرى أنها محاولة لإيجاد مخرج «مثالي» للمتنصرين الجدد لمواجهة

حياتهم الجديدة في ظل معتقد جديد أجبرتهم عليه الأوضاع السياسية والاجتماعية الناتجة عن هزيمتهم على أيدي الملوك الكاثوليك.

لكن الباحث يؤيد الرأي القائل أن هذه الكتابات كانت تحاول أن تقدم وجهة نظر إسلامية يمكن أن تؤثر في الرأي العام الإسباني المسيحي، لأن مخطوطات «الساكرومونتي» وغيرها من المخطوطات التي أمكن العثور عليها في ما بعد مثل «إنجيل برنابا» الشهير، الذي يتبنى وجهة نظر إسلامية بحتة في ما يختص بأن النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، وتطابقه مع القرآن الكريم في العديد من المسائل منها علامات «قيام الساعة».

كل هذه الكتابات الموريسكية في رأي الباحث كانت تسير باتجاه واحد مخطط له بشكل جيد من أجل تغيير رياح المواجهة مع المسيحيين، ومحاولة تبديل وضع الموريسكيين فيه بحصولهم على حقوق ومكانة تسمح لهم بمواصلة الحياة على أرضهم التي ولدوا ونشأوا عليها. وأشار الباحث إلى أن رأيه الخاص في هذه المسألة هو أن ذلك المخطط، لو كتب له النجاح، لأمكنه أن يغير تماماً شكل المجتمع المسيحي الذي أجبر الموريسكيين في النهاية على الرحيل إلى المغرب وشمال أفريقيا.

وتماماً، كما يحدث في المؤتمرات التي يلتقي فيها باحثون من الشرق والغرب، حدث خلاف شديد بين عدد من الباحثين حول كلمة «الاستعادة» التي يستخدمها الباحثون الإسبان عند حديثهم عن الحرب الكاثوليكية التي انتهت بسقوط غرناطة وطرد المسلمين من الأندلس. فقد وردت هذه الكلمة كثيراً على لسان الباحث الإسباني ألفارو غالميث، ما دعا الباحث المغربي الدكتور حسين بوزينب إلى التدخل محاولاً أن يبين أن تلك الكلمة خاطئة ويجب عدم استخدامها لأن مسلمي الأندلس كانوا يشكلون أمة إسبانية أصيلة ولم يكونوا دخلاء على هذه الأرض كما يحاول أن يصور بعض الباحثين المسيحيين، وإن الحرب التي شنها الملوك الكاثوليك لم تكن سوى حرب استعمارية قام خلالها

شمال إسبانيا باحتلال الجنوب الذي كان في ذلك الوقت يمثل الأندلس الإسلامية.

خلال هذا الحوار أعرب عدد من الباحثين الإسبان عن تأييدهم لوجهة نظر الباحث العربي، ومنهم الإسباني رودولفو خيل غيرماو، وطالبوا بمراجعة حقيقية لبعض الكلمات التي يجري استخدامها في البحوث الخاصة بالأندلس والتي لها أصول مسيحية وتعبر عن وجهة نظر مسيحية، ولا تعبر عن حقيقة الحدث التاريخي. (انتهى).

ونعود إلى ما كنا فيه من الحديث عن السعديين.

في سنة ٩٨٠هـ (١٥٧٣م) توفي عبد اللّه الغالب فتولى بعده ابنه محمد المتوكل، ولكن أمره لم يطل فقد ثار عليه عماه أحمد وعبد الملك واستنجدا بالسلطان التركي فأحالهما على والي الجزائر الذي أرسل جيشاً لقتال المتوكل، فهُزم المتوكل سنة ٩٨٣ في وادي سبو، ثم هزم مرة ثانية في وادي الريحان قرب سلا، مما فتح أمام عمه عبد الملك أبواب فاس في أواخر سنة ٩٨٣هـ فتمت بيعته فيها في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجة سنة ٩٨٣هـ وقد اهتم عبد الملك بأمور الجيش الذي تألف من عناصر عربية وبربرية وأندلسية وتركية وأسس أسطولاً أرسى قطعه على موانىء الشمال والعرائش وسلا.

وقد حاول المتوكل أن يستقر في مراكش إلا أنه لم يستطع الثبات، وختم حياته أسوأ خاتمة بالتجائه إلى البرتغاليين وملكهم (دون سباستيان) مستنصراً به.

ويبدو من مراقبة أحداث تلك الفترة أن المطامع البرتغالية بالمغرب وبما وراء المغرب لم تكن خافية، وكان لا بد من التيقظ لها والأعداد لردها عندما تثور، ولم يبد أن المتوكل كان متنبهاً لتلك المطامع أو أنه كان في سبيل الأعداد وتجميع القوى لليوم الذي كان يلوح أنه لا محالة آت.

وقد كان مبرر قيام الدولة السعدية في الأصل هو وجود الخطر الخارجي الذي يهدد الوطن أشد تهديد.

كان للاحتلال الصليبي للسواحل المغربية صدى عميق الأثر في نفوس الشعب، فقامت دعوات إلى حمل السلاح واقتلاع المغتصبين مما احتلوه على الشاطىء المغربي، في حين كانت البلاد غارقة في فتنها الداخلية.

ومن هنا كان التطلع إلى قيادة مخلصة حازمة توحد البلاد وتحارب المد الصليبي الزاحف وفي ذلك يقول الشاعر الهبطي:

فرحم اللّه أميراً قد سلك	نهج الهدى وما سواه قد ترك
كما به أخذ الحدود والحقوق	والأمر في حرز الديار والطرق
والصون للثغور حيث الكفار	دمرهم ربي سبوا للأبكار
فإن رأى أمراً يضر بالمسلمين	سدده ولم يكن في الغافلين
حنانه أيضاً على الرعية	مثل الأب المهموم بالذريه
ما أحوج الورى لذا شر زمان	إلى إمام قائم بالقرآن
فجد علينا يا عظيم المنه	بمن يقوم في الورى بالسنّه
أمنن علينا بالإمام العادل	يهد بنيان الخنا والباطل
حتى نرى الحق المبين ظاهراً	وكلنا به يصير ظافراً

وعندما وجدت هذه القيادة في السعديين وقامت دولتهم على هذا الأساس لم يكن من الجائز السكوت على من يبدو مشكوكاً في تصرفاته وتوجهاته.

لقد قامت هذه الدولة وشعارها حماية البلاد من البرتغاليين الذين لم يخفوا في يوم من الأيام طموحاتهم في الفتح والسيطرة والتقدم إلى أقصى البلاد الإسلامية. فإذا لم يبال مالك الأمر بهذا فلا بد من التخلص منه.

هذا ما يلوح للمطالع المتتبع، لذلك صمم الأخوان عبد الملك وأحمد على خلع ابن أخيهما (المتوكل) غير المبالي بما يجري وغير المتحفز لإنماء القوى المغربية التي تستطيع إيقاف البرتغاليين عندما يمشون لاحتلال المغرب.

وقد رأينا كيف أن الأخوين لجآ لأكبر قوة إسلامية في ذلك الوقت هي قوة العثمانيين للاستنصار بها، مع علمهما بمطامع العثمانيين بالمغرب. ولكنهما

قابلا بين احتلال برتغالي واحتلال عثماني، فلم يترددا واستنجدا بالعثمانيين.

وقد صحت فراسة الأخوين بابن أخيهما، فلم يتورع عن الاستنجاد بالبرتغاليين وملكهم (دون سبستيان)، واتفق معه على تقاسم المغرب، بأن يكون للبرتغاليين: الساحل المغربي ويكون له الداخل.

ولقد رأينا كيف أن عبد الملك عمل أول ما عمل على تقوية الجيش البري وتقوية الأسطول البحري، وكيف أنه لم يضع أي وقت في التفكير بغير ذلك.

معركة وادي المخازن الحاسمة

لم يكن (دون سباستيان) بحاجة لمن يحرضه على غزو المغرب، فقد كان ذلك من تصميماته الأكيدة، ولم تكن مطامعه محدودة بالمغرب، بل كان يتطلع إلى ما وراء المغرب للوصول بفتوحه إليه.

ولم يكن انضمام المتوكل إليه هو العامل على إنفاذ الغزو، وكل ما كان لهذا الانضمام من أثر، هو أنه ثبته في التوجه إلى أفريقيا بعد أن كان قد أهملها من سبقه من الملوك لا سيما الأمير جون الثالث الذي انصرف بكل جهده نحو أمريكا الجنوبية.

على أن حاشية سبستيان والنبلاء لم يكونوا من رأيه، بل كانوا معارضين لهذا التوجه، ولكنه أصرّ عليه وأصرّ على أن يقود الغزو بنفسه، فتوجه من قادس إلى طنجة، ثم أبحر قسم من الجيش إلى أصيلا التي كان البرتغاليون قد أخلوها سنة ١٥٥١ ثم عادوا إليها في آخر سنة ١٥٧٧، أما الجيش البري فقد توغل معظمه في المنطقة الشمالية متجهاً من طنجة نحو القصر الكبير، وكان المتوكل في صميم القيادة البرتغالية ماشياً معها لاقتسام بلاده بينه وبينها.

ولهذا قلنا من قبل أن فراسة عبد الملك وأحمد في ابن أخيهما لم تخطىء، وأنهما حين عملا على إطاحته كانا يخشيان على مصير الوطن. وها هو اليوم يحقق تلك الفراسة.

لقد بولغ في عدد الجيش المهاجم، كما بولغ في عدد الجيش المدافع، وساهمت في المبالغة كل من المصادر الأجنبية والمصادر العربية. فقد قيل أن عدد الجيش البرتغالي كان ١٢٥ ألفاً وقيل مئة ألف. وهناك من أنزله إلى ٦٠ ألفاً، ومن زاد في هذا الإنزال فجعله ١٤ ألفاً.

وصاحب كتاب (المغرب عبر التاريخ) ص٢٥٩ ج٢ ط١٩٩٣ يرى أن أوسط التقديرات هي أن الجيش البرتغالي كان ما بين ٤٠ و٥٠ ألفاً وأن الجيش المغربي كان حوالي ٦٠ ألفاً وأن عدد مدافع كل من الجيشين يكاد يكون متساوياً، فمدافع البرتغاليين كانت ٣٦ مدفعاً، ومدافع المغربيين تقارب هذا العدد.

وبهذا نعلم الجهد الذي بذله عبد الملك في إعداد الجيش وتسليحه، وأنه كان جديراً بالمهمة التي ندب نفسه لها عندما صمم على إسقاط ابن أخيه المتوكل.

نفذ الجيش البرتغالي خطته بأن عبر ـ كما قلنا ـ إلى طنجة ومنها مشى إلى أصيلا[١] فاحتلها في تموز سنة ١٥٧٨ وعسكر فيها. فقرر عبد الملك أن لا يهاجم الجيش المهاجم وأن يفسح له المجال للتوغل في البلاد بعض التوغل فيبتعد بذلك عن المواقع التي يمكن أن تصلها الإمدادات بسرعة.

ويجمع المؤرخون على أنه كان في الجيش البرتغالي متطوعون إسبان وفرنسيون وإيطاليون وألمان وقليل من المسلمين من أنصار المتوكل.

ويصف المؤرخ المغربي (الوفراني) حال الناس يومذاك قائلاً:

«وكان خروج النصارى في هذه الوقعة بجيوش حافلة وجموع عديدة يقال إنه زهاء مئة ألف وخمسة وعشرين ألف مقاتل وقصدوا هلاك المغرب وحصر المسلمين وإدارة رحى الهوان على أهل الدين. فعظم ذلك على الناس وامتلأت

---

(١) أصيلاً: مدينة صغيرة على شاطىء الأطلنطي بين طنجة والعرائش، وتقع على بعد ٤٩كلم جنوب طنجة.

قلوبهم رعباً وصدورهم كرباً، وبلغت القلوب الحناجر، واشتعلت على أهل العقول نيران الهواجر» اهـ.

وأخيراً تقدم سبستيان بجيوشه نحو قصر كتامة عابراً قنطرة وادي المخازن. وهنا عمد عبد الملك إلى عمل عسكري في غاية الاحكام، فلم تكد الجيوش البرتغالية تعبر القنطرة حتى أرسل عبد الملك كتيبة من الخيل دكّت القنطرة دكاً لئلا يستطيع البرتغاليون معاودة عبورها في حالة هزيمتهم وليمكن استئصالهم كل الاستئصال.

وكان جيش السعديين يتألف من بربر وعرب وأتراك، تصحبه نخبة من الفقهاء والصلحاء انضموا إليه تنفيذاً لفريضة الجهاد، وتحميساً للمقاتلين.

وبالرغم من أن عبد الملك قد مرض خلال التعبئة مرضاً شديداً، فقد أصرّ على الحضور بنفسه في القيادة كما حضر أخوه أحمد.

ومضى البرتغاليون تتقدمهم المدفعية لحماية المشاة وتحيطهم الخيالة من الجانبين، وانتظم المشاة في شكل مربعات متماسكة.

أما الجيش المغربي فقد استفاد عبد الملك في تنظيمه من الطريقة الاستراتيجية العثمانية في الحرب حيث كان قد شارك العثمانيين في حروبهم بالجزائر وتونس، فاعتنى بالرماة وسلحهم على النمط الانكشاري، كما اعتنى بالفرسان. وكانت له معامل للسلاح والذخيرة في فاس ومراكش وتارودانت، معتمداً في إنتاجها على معادن البلاد لا سيما النحاس.

ووقع الصدام يوم آخر جمادى الأولى سنة ٩٨٦هـ (١٥٧٨م) ويصف المؤرخ المغربي صاحب (نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي) الصدام بقوله: «. . . ثم زحف عبد الملك إلى العدو بجيش المسلمين وخيل الله المسومة، وانضاف له من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة وأقبل الناس سراعاًمن الآفاق، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل فاتفقت

الفئتان وزحف بعضهم إلى بعض وحمي الوطيس وأسود الجو بنقع الجياد ودخان مدافع البارود، واشتد القتال وكثر الضرب والطعن واستمر النزال. فلما قامت الحرب على ساق والتفّت الساق بالساق توفي عبد الملك. . . ولما مات عبد الملك لم يظهر الذي كان سايس المحفة موته، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو ويقول للجند: الملك يأمركم بالتقدم. وعلم بموته أخوه فكتمه. . . ولم يزل كذلك والناس في المناضلة ومداناة القواضب واحتساء كؤوس الحمام إلى أن هبّ على المسلمين ريح النصر. . . وقتل الطاغية البرتغالي. . ولم ينج من الروم إلا عدد نزر وشرذمة قليلة، وبحث في القتلى عن محمد المتوكل فوجد غريفاً في وادي الكوس» اهـ.

ولما وقعت الهزيمة تراجع المنهزمون نحو النهر فوجدوا القنطرة قد اندكت، وترأموا إلى النهر[1] فغرق كثير منهم وفيهم دون سبستيان نفسه. وبلغ عدد قتلى البرتغاليين ٨٠٠٠ قتيل كما أسر الكثيرون.

ويسمي البرتغاليون هذه المعركة (معركة الملوك الثلاثة) لأن ثلاثة ملوك قادوها وماتوا فيها، هم: عبد الملك، ودون سبستيان، والمتوكل. ويسميها المغاربة معركة وادي المخازن.

ويذكر صاحب كتاب السياسة والمجتمع في العصر السعدي، معركة وادي المخازن بهذه التفاصيل:

بعد أن وجد المتوكل نفسه قد أصبح معزولاً من كل سند شعبي أو عسكري في الداخل، مهدوداً بسبب الحروب التي خاضها ضد عمه من غير جدوى، ثم تعقبه على إثرها في كل مكان، التجأ إلى أتراك الجزائر يطلب عونهم فرفضوا الاستجابة لطلبه. أما إسبانيا فلا يمكنها أن تجد مبرراً لمساعدته في الوقت الذي كانت علاقتها مع المعتصم هادئة عادية. وإنما كان باستطاعة

---

(١) هذا النهر فرع من نهر الكوس الذي يصب قرب العرائش.

البرتغال وحدهم أن ينهضوا بهذا العبء علّهم يدرأون عنه الخطر، ثم يسترجعون بعض ما فقدوه من التراب المغربي أو يعوضون عنه بما يريدون.

لذلك تبادل المتوكل مع دون سباستيان مراسلات بهذا الشأن عن طريق حاكم «البريجة» الذي لم يتردد في أن نصح الملك البرتغالي الشاب بالعدول عن هذه المغامرة. وكان المتوكل لا يطلب سوى نجدة عسكرية من أربعة آلاف جندي بقيادة ضابط كبير محنك[١]. إلا أن دون سباستيان فضل أن يتولى القيام بمشروع حملة كبيرة يهدف من ورائها إلى غَزو شامل للمناطق المغربية، بالرغم من معارضة قريبه فيليب الثاني ملك إسبانيا[٢].

وحسب رواية المعسكري[٣] وابن القاضي[٤] فإن الملك البرتغالي اشترط على المتوكل أن يتنازل له عن مجموع المناطق الساحلية. وقد يكون المتوكل قام باتصال مباشر مع دون سباستيان في لشبونة[٥] ثم في طنجة حيث حضر الملك البرتغالي أكثر من مرة.

وقيل أن يتهيأ سباستيان للحرب وجه خطاباً إلى نبلاء بلاده يذكرهم بماضي الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبما كان لأسلافهم من أمجاد في إنهاء هذا الوجود، ثم دعا مجموع الأمة إلى حمل السلاح ضد المغاربة لإخضاعهم.

وكان ردُّ النبلاء على نداء الملك، أن مشروعه سيصادف صعوبات جمة، من حيث أن البرتغال لن يقاتلوا جيشاً واحداً ولا ملكاً واحداً، ولكن عدة زعماء من الشعب[٦]. غير أن سباستيان لم يحفل بنصائح من نبهوه إلى خطورة

---

(١) De Castries, Sources, France, 1,464.

(٢) Ibid.

(٣) أبو راس المعسكري، الخبر المُعْرب، ص٣٦٠.

(٤) ابن القاضي، المنتقي، حسبما ورد في الإعلام للمراكشي، ٤، ١٨٧.

(٥) زياني، ترجمان، ص٣٥٤، مراكش، ن.م. وص.

(٦) De Castries, Op, Cit. pp.415 - 419.

مشروعه، وتهيأ لحرب شاملة لم يكن يهدف من ورائها إلى أن ينجد المتوكل فحسب بل وإلى أن يستجيب لنداء الدين والتاريخ أيضاً.

وهكذا قاد سباستيان نفسه جيشه متوجهاً من قادس إلى طنجة، ثم أبحر قِسم من الجيش إلى أصيلا التي كان البرتغال قد انجلوا عنها سنة ١٥٥١ ثم استرجعوها في آخر سنة ١٥٧٧ بخيانة من قائدها عبد الكريم[١]. والظاهر أنه لجأ إلى ذلك باتفاق مع المتوكل.

وتم اتصال سباستيان بطلب منه، بمحمد المتوكل في طنجة حيث كان هذا بانتظاره بها[٢]. ثم احتفظ الملك البرتغالي بولد المتوكل مولاي الشيخ كرهينة وبعث به إلى «البريجة».

وكان المعتصم قد أنهى في هذه الظروف عمليات التهدئة في المناطق السوسية. وكان يتتبع تطورات التدخل البرتغالي واتصالات المتوكل، عن كثبُ، فأسند إلى أخيه أحمد تنظيم التعبئة العامة، وإلى إبراهيم السفياني مهمة قيادة طلائع الجيش في ضواحي القصر الكبير حيث يقوي معنوية السكان هناك ويتربص لكل هجوم مباغت، ذلك أن هذه المنطقة ستصبح عما قليل مسرحاً لإحدى أعظم معارك التاريخ[٣] وإن كانت المصادر العربية لم تُعْنَ بها العناية الكافية.

والواقع أن المنطقة الشمالية من المغرب طالما تعرضت للغزو الأجنبي فردته بشجاعة أو قاومته بصمود. ومن البديهي أن يتساءل الملاحظ: لماذا ترك المعتصم القوات البرتغالية تتحرك ثم تتوغل بعد ذلك دون أن تبدأ مقاومتها في عرض البحر أولاً؟

لقد جرت الأعراف في المعارك التقليدية أن يتبادل الطرفان المراسلات

---

(١) Op. Cit. 470.

(٢) Op. Cit, 548.

(٣) ابن العياشي، زهر البستان، ص٩٦.

بينهما لتحديد موقع المجابهة. وهذا ما حصل فعلاً في معركة وادي المخازن حيث طلب المعتصم من خصمه أن يتقدم قليلاً في الداخل لأنه سيتجشم بدوره مهمة التنقل من سوس قاطعاً مراحل عديدة. وكان المعتصم يهدف إلى خطتين:

١ ـ إبعاد الجيوش البرتغالية عن الساحل ومراكز إمدادتها.

٢ ـ تكبيد العدو أكبر الخسائر بسرعة وبقطع خطوط الرجعة عنه.

ذلك أن المغرب لا يتوفر على قوة بحرية كافية، والبرتغال إحدى أعظم دول العالم أسطولاً في القرن ١٦، ولذلك سهل عليهم احتلال المراكز الساحلية من المغرب، وتعذر عليهم التوغل غالباً في الداخل. ومن ثمَّ توغل معظم الجيش البرتغالي في المنطقة الشمالية متجهاً من طنجة نحو القصر الكبير.

وراودت فكرة التراجع عدداً من المستشارين العسكريين في مجلس عقد برئاسة الملك البرتغالي، على أن يتوجه الجيش نحو العرائش، تجنباً لمعركة القصر الكبير. وبذلك يتضح أن قادة الجيش البرتغالي كانوا على يقين مقدماً من الهزيمة(١).

وقد اختلفت الروايات حول عدد فرق الجيش بالنسبة للطرفين، حيث تذكر ما بين ١٤ ألفاً و١٢٥ ألفاً لدى البرتغال(٢) و٧٠ إلى ٩٠ ألفاً لدى المغاربة(٣).

وحسب رواية أخرى ساقها دوكاستري، فإن العسكر البرتغالي كان موزعاً كما يلي:

• ٣٠٠٠ جيش الأسطول

---

(١) De Castries, Sources, France 1, 550.

(٢) زياني، ترجمان، ص٣٥٥.

(٣) De Castries, Op. Cit. P.548.

٢٠٠٠ جيش احتياطي بالجديدة

١٤٠٠٠ مشاة

٢٠٠٠ فارس

٣٠٠٠ معبدو الطرق

وهذا بالإضافة إلى ١٠٠٠ عربجي وحشد لا نهاية له من الغلمان والحشم والرقيق المغاربة وغيرهم، وفوج عظيم من بنات الهوى[١].

أما جيش المعتصم فيتألف من الفرق التالية:

٣٠٠٠ من جند الأندلس بقيادة الدغالي

٣٠٠٠ راجل

٢٥٠٠٠ فارس

١٠٠٠ رام بالبنادق والخيل (أعلاج وترك)

١٠٠٠ فارس متطوع، وعدد كبير من المغامرين كما جاء في الرواية المشار إليها[٢].

وقد احتشد الجيش المغربي تاركاً وادي المخازن عن شماله كحاجز له وغطاء، بينما ترك المعتصم الجيش البرتغالي يتخطى الوادي ليحتشد تاركاً النهر وراءه[٣]. وهذه الرواية هي التي يمكن الاطمئنان إليها عكس ما جاء في الرواية المغربية التي تقول إن البرتغال هم الذين تركوا النهر عن شمالهم، بدليل المصير الذي ستؤول إليه المعركة.

---

(١) De Castries, Op. Cit. p.474.

(٢) Op.Cit. p.548.

(٣) Op.Citp.. 488.

على أن الاعتبار العددي لم يكن له كبير وزن في موقعة كان للمدفعية فيها دور حاسم. ذلك أن عدد المدافع (٣٦) هو نفسه لدى الطرف الآخر. أما العناصر المساهمة في الجيش البرتغالي، ففيهم بالإضافة إلى البرتغال إسبان، وفرنسيون وإيطاليون وألمان.

وكان المتوكل يقود بدوره فرقة مغربية من بضع مئات. وقد نصح سباستيان بأن يستولي قبل كل شيء على العرائش وتطوان قبل أن يتوغل في الداخل ولكنه لم يعمل برأيه.

وفيما يخص ترتيب الجيش، فقد اصطف البرتغال ثلاث فرق يساند بعضها بعضاً وعلى رأس كل منها قائد، كما كان على رأس كل من الفرق الأجنبية المنضوية تحتها ضابط(١). وكان المجموع يؤلف مربعاً.

أما الجيش المغربي فقد رتبت صفوفه على شكل هلال: الرماة من المشاة، يتقدمهم جند الأندلس ثم المغاربة. وفي طرفي الهلال فرقتان كل منهما مؤلفة من ١٠ آلاف فارس، وفي المؤخرة على مسافة أبعد، باقي الخيالة في فرق صغيرة احتياطية(٢).

ولم يتواجه الجيشان في المكان مباشرة، فقد تخطت الفرق البرتغالية قنطرة وادي المخازن وعسكرت بحيث بقي النهر من ورائها كما تقدم. أما المعتصم فقد عسكر بسوق الخميس على ستة أميال من القصر، وبدأت المواجهة في ٣٠ جمادى الأولى ٩٨٦/ ٤ غشت ١٥٧٨ بعد أن هدم المغاربة القنطرة التي عبرها كل الجنود الذين حضر بهم سباستيان إلى المعركة، حتى يتعذر عليهم الانسحاب في حالة هزيمتهم.

وكان في الجيش المغربي عدد كبير من الصلحاء والعلماء، كما حضر

(١) De Castries, Op. Cit. pp.550-552.

(٢) Op.Cit.p.552.

مع سباستيان كثير من رجال الدين المسيحي. وفي كلا الفريقين كانت المدفعية تتقدم الصفوف المذكورة. وتقول الرواية المسيحية أن سباستيان قد ألقى خطبة حماسية في جيشه قبل الشروع مباشرة في المعركة، وكان القس اسكندر يحمل الصليب ثم رفعه إلى أعلى فجثا جند سباستيان على ركبهم، واستغل الجيش المغربي الفرصة بسرعة فأطلق مدافعه في اتجاه قادة الجيش البرتغالي ونخبته[1]. واستولى في لمح البصر على ٢٢ مدفعاً[2]. وكان هذا الهجوم المباغت من القوة بحيث ألقى الرعب في صفوف البرتغال الذين منوا بهزيمة ساحقة من غير اشتباك يذكر، حتى إن آلافاً منهم ألقت بنفسها في النهر فاقدة كل أمل في الحياة. واستخرجت جثة سباستيان والمتوكل من النهر بعد أن ألقيا بنفسيهما فيه أيضاً.

وتوفي عبد الملك المعتصم قبل الشروع مباشرة في المعركة التي يسميها الأوروبيون معركة الملوك الثلاثة. وكان القائد رضوان الذي رافق المعتصم من تركيا واتخذه حاجباً له يخفي عن الجيش المغربي وفاة المعتصم التي لم يطلع عليها إلا القائد التركي وأحمد المنصور. وإنما كان الجيش على علم بمرض الملك، فكان رضوان يخرج به في محفَّة ويوهم الجيش أنه يحادثه سراً ويتلقى منه التعليمات ويوجهها باسمه، ومنع على الجميع الدخول إلى سرادقه[3].

وقبل نقل رفات المعتصم إلى مراكش دفن في مكان باتجاه تطوان. أما الغنائم فلم يهتم أحمد المنصور بجمعها بل سمح للجيش بتقاسمها، وأعلنت وفاة عبد الملك بمجرد الانتهاء من عملية إلقاء القبض على الأسرى. وكان مصير القائد رضوان شبيهاً بمصير أبي مسلم الخراساني في خلافة المنصور

---

(١) Op.Cit.p.556.

(٢) Op.Cit.p.432.

(٣) ابن العياشي، زهر البستان، ص٩٨. المعسكري، الخبر المعرب، ص٣٦١.

العباسي، فقد أعدمه لأنه كان يظهر للحاشية استياءه من عدم مكافأة أحمد المنصور له على الدور الذي قام به في مصير المعركة. وكان الشيخ محمد الحبيب يقول: لو عرفت قبره لزرته.

أما جثة المتوكل فبعد استخراجها سلخت وحشيت تبناً. وكان في صفوفه من المغاربة بعض العلماء والصلحاء، وممن بينهم ابن عسكر صاحب دوحة الناشر الذي قتل في المعركة أيضاً. ومن المحتمل أن هذا الفريق من الأمة كان يرى أولوية ترشح المتوكل للملك بالنظر لقسوة أبي مروان وبطشه، لكن وحدة الأمة تجاه الخطر الخارجي فوق كل اعتبار[١].

وقد خسر البرتغال خيرة جندهم وضباطهم في موقعة وادي المخازن حيث بلغ قتلاهم ما لا يقل عن ٢٥ ألفاً. كذلك فإن الطرف المغربي كلفه الانتصار ثمناً غالياً لمقتل ١٨ ألفاً على ما جاء في رواية ساقها دوكاستري وإن كان نعتبر أن عنصر المفاجأة في إطلاق المدافع المغربية، والهزيمة العاجلة التي حلت بالجيش البرتغالي يقتضي أن تكون الخسائر المغربية أقل جداً مما رواه دوكاستري[٢] عن مصدر مشكوك في دقته.

كذلك تقول الوثائق الفرنسية[٣] أن الفرق البرتغالية والفرق الأجنبية التي ساهمت معها في المعركة كان ينقصها الحنكة والخبرة. لكن الفرق التي رافقت سباستيان كانت على أي حال تمثل نخبة جيوشه، ولا يمكن أن يحضر سباستيان من غير أن يقود أحسن العناصر لديه. ونفس المراجع تقول إن الجيش المغربي لم يكن أحسن تنظيماً من الجيش البرتغالي، غير أن النتيجة واحدة بالرغم من كل تعليق، وهي أن الجانب البرتغالي خسر كثيراً، وأن الجانب المغربي حقق انتصاراً كبيراً.

---

(١) De Castries, Sources, Angleterre, 1, 354.

(٢) De Castries, Sources, France, 1, 435.

(٣) Op. Cit. p.466.

وبينما انسحبت الفلول الناجية من البرتغال إلى أصيلا اعتنى أحمد المنصور بجثة سباستيان التي تم تحنيطها وسلمت إلى فيليب الثاني مع من افتدي من الأسرى. على أن عملية المفاداة تطلبت عدة شهور، وعلى كل فقد استغرقت دون سنة(١)، وكان الأسرى يعتقلون بحصنين بمراكش(٢)، وحسب رواية أخرى(٣) فإن جثة سباستيان سلمت إلى فيليب الثاني دون تعويض.

ونشير هنا إلى أن البرتغال كانوا على قليل من العلم باستعدادات المغرب وإمكانياته العسكرية في عهد عبد الملك المعتصم. وحتى أخبار الهزيمة التي حلت بجيشهم في وادي المخازن لم تكن تصلهم بوضوح(٤). وهناك من يعتبر هذه الهزيمة ناتجة عن العوامل الآتية(٥):

١ ـ ضعف القيادة، فقد اتُّهم الضباط بالرشوة التي حصلوا عليها من مرتزقة جندوهم دون كفاءة حربية.

٢ ـ عدم استماع الملك البرتغالي إلى آراء من نصحوه بالتريث إلى أن يتم الاستعداد للحملة بشكل أفضل.

٣ ـ لم تقم قيادة الأسطول البرتغالي بأصيلا بأي محاولة لهجوم مضاد.

٤ ـ قيادة الجيش لم يكن من الملائم أن يتولاها الملك مباشرة، لأنه قليل الخبرة وليست لديه معلومات عن وسائل وإمكانيات الطرف الآخر.

وبعد الفراغ من الأعمال المترتبة عن المعركة ودفن الملك الراحل (عبد الملك المعتصم) قام أحمد المنصور بإبلاغ عدد من الملوك والأمراء ما

---

(١) Funck Brentano, Ency. de l'Islam, Art. al-Manssour.

(٢) De Castries, Sources, France, 3, 380.

(٣) Champion, Le Maroc et ses villes d'art, p.87.

(٤) De Castries Sources France, 1, 396.

(٥) Op.Cit, p.397.

حققه المسلمون من انتصار خصوصاً الخليفة العثماني الذي ابتهج لهذا النبأ[1]. ولم يلبث المنصور أن استقبل وفوداً جاءت تهنئه باسم ملوكها من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا وإسبانيا.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن أتراك الجزائر كانوا يدبرون هجوماً جديداً على المغرب، بالرغم من التعاون الذي تحقق بينهم وبين المعتصم، ولكن مفاجأة هذا الانتصار في وادي المخازن، أوقف كل اشتباك بين الجيوش المغربية وجيرانها لمدة قرن تقريباً حيث سيتجدد الاشتباك في بداية العصر العلوي.

وكان لانتصار وادي المخازن آثار أخرى بعيدة المدى. فبالنسبة للمغرب استعاد وحدته السياسية أقوى من ذي قبل، بالرغم من وجود جيوب بقيت تحت الاحتلال. واستطاع المغرب أن يفرض هيبته من غير صعوبة أو عائق، وينعم بسلم طويل المدى في عهد الملك الجديد (أحمد المنصور)، وبفضل هذا السلم حققت أشواط أخرى في الميدان الاقتصادي والفكري.

وبالنسبة للعالم الإسلامي، لو انهزم المغرب في وادي المخازن لتيسر توغل الجيش البرتغالي في أطراف المغرب وأصبح مستعمرة برتغالية لعدة قرون فضلاً عن أن عملية تنصير أهله أو قسم منهم لا بد أن تدخل في الخط السياسي للحكام البرتغاليين. وكان هذا بالطبع، ليس من مصلحة العالم الإسلامي في شيء.

وأخيراً فقد تحقق تحول ملحوظ في موقف الاحتقار الذي كان يبديه الأوروبيون تجاه المغاربة، حتى إن الدول الأوروبية تهافتت على عقد اتفاقيات مع المغرب تخوله كثيراً من التسهيلات التجارية. وتعددت سفاراتها محملة بالهدايا إلى الملوك المغاربة. كما توقف كل اعتداء على الأراضي المغربية طيلة عهد المنصور. (انتهى).

---

(١) أفرني، نزهة الحادي، ص١٤٥.

ونحن حرصنا ونحرص على ذكرى تفاصيل معركة وادي المخازن لأننا نعتبرها من المعارك الفاصلة في تاريخ العرب والمسلمين ولأنها لم تذكر كما يجب أن تذكر في هذا التاريخ.

آثار معركة وادي المخازن

معركة وادي المخازن من المعارك الفاصلة في التاريخ، كان لها أثرها البعيد، لا على المغرب وحده، فقد حطمت الدولة البرتغالية وفككت أوصالها، ما أتاح للملك الإسباني فيليب الثاني أن يضمها إلى إسبانيا، كما رفعت من شأن المغرب وأبرزته قوة نافذة لا بد من حسبان حسابها فتواردت إليها البعثات الأجنبية طالبة ودها.

وغدا للجندي المغربي رهبة في نفوس الأوروبيين برزت في العروض المسرحية التي نظمت بعد سنة ١٥٩٠ في أوروبا، كما يبرز ذلك في شخصيات شكسبير وجورج بيلي مؤلف مسرحية (معركة القصر).

وأصبح اسم عبد الملك ملازماً للشجاعة والإقدام. وقد أشار إلى ذلك الكاتب الفرنسي montaigne، كما اتخذ من مقاومة عبد الملك لمرضه مثالاً حياً لتفوق الفكر على الألم الجسدي.

وكما شاع الاضطراب والذعر من الهزيمة في أوروبا، فقد عم السرور العالم الإسلامي، وكان من أصداء النصر في الأدب العربي شعر ونثر كهذا الذي نظمه الشاعر داود بن عبد المنعم الدغوغي الذي عاش في القرن العاشر وقد وصف المعركة وصفا دقيقاً في قصيدة طويلة يقول في مطلعها:

جنى النصر ما بين الظباء والكنائن   على سابقات المذكيات الصفائن
ومن لم يخض بحر الحروب فلا يرى   لحوزته دون العدا خير صائن
أتى سادراً يختال في غلوائه   وفي صدره للدين غلي الضغائن

وفيها يقول:

يسرب نحو المغربين جنوده | كمثل الدبا عن ماخرات السفائن
وما قصده إلا انتهاك حريمه | ودك صياصيه وبعث الدخائن
وقود أسارى المسلمين لأرضه | يقدمهم للصلب مثل القرابن
فذا مكره والله يمكر مكره | به، إذ حداه نحو تلك الأماكن
تجمع جند الله من كل وجهة | وقد غض من مدينه كل دائن
وتلوهم الأجناد والناس كلهم | تضل بهم أبصار كل معابن
من الملك المقدام فالعلماء فا | لشيوخ أولي التقوى وأهل البواطن
هنالك نصر المؤمنين مؤزر | على كلِّ ذي كفر تهجم، ضاغن
وذلك يوم مثل بدر وصنوه | حنين بأيدي المؤمنين الميامن
لقد ذاق فيه (البردقيز) من الردى | جزاء مناحيس خزايا ملاعن

ومن قوله فيها:

فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها | سوى أنفس الشجعان وسطر الميادن
إذا أردعت تلك المدافع أبرقت | صقيلات بيض الهند فوق اليمائن
فلولا البروق الخاطفات من الظبا | لما أبصرت عين خلال المداخن
قد انقضت الفرسان منا عليهم انقضا | ض صقور الجو فوق الوراشن
وسبستيان كفَّنته مياهه | هزيماً وماء النهر أفظع كافن
وحين قضى البتار في الكفر ما قضى | وأشلاؤه نتن بغير مدافن
رأيت ألوفاً من رؤوس تجمعت | ويا ليتها أيضاً جدار المآذن
بغوا فجنوا جني البغاة فأصبحوا | سماد الفيافي لأسماء الفدادن
هنالك نصر المؤمنين مؤزرا | على كل ذي كفر تهجم ضاغن

وقد نسج على منوال هذه القصيدة الشيخ محمد بن الشيخ ماء العينين قصيدة يقول منها:

خليلي عرِّجا بوادي المخازن | نجدد شكرا بين تلك المواطن

مواطن كانت للجهاد مشاهدا بهن مياه العز غير أواسن

وِمما جاء في «درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك» لأحمد بن القاضي التي تشتمل على وصف وقعة وادي المخازن شعراً:

وابن أخيه بالنصارى اعتصما وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان بجيشه ومعه الأوثان
فقيض اللّه له المنصورا ملكاً شجاعاً أسداً هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير في ساعة من الزمان ذا شهير
مات بها سبستيان اللعين فماله على الردى معين
ثم محمد الذي أتى به مات غريقاً يومه فانتبه

ولما جلس المنصور على عرش المغرب في يوم النصر قام الشاعر أبو فارس عبد العزيز القشتالي.

فأنشد قصيدته ليلة عيد المولد النبوي الشريف في تهنئة المنصور بهذا النصر ومطلعها:

هم سلبوني الصبر والصبر من شاني وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني

وبعد أن يشيد بحنكة كتائبه العسكرية في المعركة وبالانتصار الوطني الضخم:

وإن أطلعت غيم القتام جيوشه وأرزم في مركومه رعد نيران
صببن على أرض العُداة صواعقاً أسلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتائب لو يعلون رضوى لصدّعت صفاة الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصى من كل أروع معلم وكل كمي بالرديني طعان
من اللائي جرّعن العدا غصص الردى وعفّرن في وجه الثرا وجه بستيان

ويخاطب ممدوحه المنصور مباركاً له الفتح المبين ويمنّيه بفتح ما بين السودان وبغداد:

أيا ناظر الإسلام شم بارق المنا　　وبارك لروض في ذرا المجد فينان
قضى اللّه في علياك أن تملك الدنا　　وتفتحها ما بين سوس وسودان
وإنك تطوي الأرض غير مدافع　　فمن أرض سودان إلى أرض بغدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا　　ووافقت بك البشرى لأطراف عمّان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم　　أتاك استلابا تاج كسرى وخاقان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها　　وللدين تحميه بمُلك سليمان
فما المجد إلا ما رفعت سماكه　　على عمد السُّمر الطوال ومُرّان

ويقول أبو عبد اللّه محمد بن علي الهوزالي من قصيدة في مدح أبي العباس أحمد المنصور.

حروب طوت ذكر البغاة وملهم　　ومات لها ذكر البسوس وداحس
لعمرك لا أنساه يوماً شهدته　　وقد سفرت بين الكماة المداعس
وحسبك في وادي المخازن وقعة　　بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس
بيمن أبي العباس صالت سيوفنا　　على الشرك حتى ليس للشرك حارس
وضاقت بيستيان كل عويصة　　وذلت لنا منه الأنوف الغطارس
فجهز ما تحوي ذخائر ملكه　　يذود بها عن نفسه ويداعس
فلا زال سيف الحد في كف أحمد　　يذود بها عن دينه ويداعس

وظل صدى هذه المعركة يرن في العصر السعدي وخصوصاً في عهد المنصور الذي كان مزدحماً بالفتوحات. فكلما هنأ الشعراء المنصور بالفتوح أو بحلول عيد المولد النوبي كانوا يشيرون إلى معركة وادي المخازن.

فلأبي عبد اللّه محمد بن علي القشتالي مولدية في هذا الصدد ذكر فيها بجهاد المنصور بوقعة وادي المخازن يقول منها:

وجردت في ذات الالاه صوارماً　　تصولَ بها والعاجزون نيام
فكم لك من سيول مراكب　　طلعت بها كالبدر فيه تمام
وحولك عقبان الكماة تساقطت　　لبطشتها يوم الأعادي وهام

ولاح وميض المرهفات كأنه ... وميض نجوم والدياجي قتام
فأبرزت فتحاً دوخ الأرض صيته ... وزين أشتات المعالي نظام

ويقول من قصيدة أخرى:

وحسبك من وادي المخازن إذ طمته ... بحار الردى والخيل فيها جماح
فكان بها كالصقر ينقض ظافراً ... تساعد منه مخلب وجناح
له حالتا سيف وسيب كأنما ... تجمع في يمناه سم وراح

وتواصل ذكر معركة وادي المخازن حتى الشعر الحديث.

فنظم علال الفاسي قصيدة يقول في مطلعها:

بفضلكم أبطال «وادي المخازن» ... يُردد فينا اليوم صوت المآذن
ولولا جهاد منكم بعزيمة ... وتضحية كبرى بيوم «السواكن»
وما جئتموه من ثبات وحكمة ... وما بان فيكم من عظيم التضامن
لأضحت بلادي طعمة لعدوها ... كأندلس أخت الأسى والتغابن

إلى أن يقول في وصف المعركة:

من «القرويين» انتضى كل ذائد ... عن الدين قوام على الحق صائن
فما وهنوا لما رأوه ولا انثنوا ... عن الصدع بالرأي السديد للاحن
وهب سبستيان في نشوة الرضا ... يرى النصر مضموناً بأقدس ضامن
وهاجم من ثغر العرائش زاحفاً ... إلى القصر مجتازاً بوادي المخازن
وقد بث في كل الجهات عيونه ... ونظم في الأحياء شتى المكامن
ففرت جموع المسلمين كأنها ... غثاء تردى في مسالك عاين
ولكن شهماً من بني الجد لم ... يثبتهم حتى أرعووا للمساكن
وجاء «أمير المؤمنين» بجيشه ... كأنهم أسد شداد البراثن
وهبت جموع الشعب حول أمامها ... يقودهم في البذل شيخ المحاسن
وكان ضراب لم يسجل مثيله ... بما اشتد فيه من ثجيج المطاعن
وأبلى بها المنصور خير بلائه ... ودبرها بالحزم تدبير فاطن

وهبت رياح النصر في جانب الهدى وأردت سباستيان بين المطاحن

ويقول الشاعر عبد الواحد أخريف من قصيدته «الملحمة الخالدة»:

وادي المخازن يا أنشودة عبقت بعطرها صحف التاريخ والسير

فخر الملاحم في دنيا الجهاد فلا تدنو إلى شأوها ملاحم أخر

تبقى مدى الدهر شمساً لا تغيب ولا يُخفي نصاعتها غيم ولا مطر

لولاك ما كانت الأمجاد كاملة وإن تعددت الأشكال والصور

وينشد الشاعر مصطفى الطريبق:

فما يوم توانوا عن نداء ينادي للفدى ضد اللئام

مغاربة أباة ليس فيهم سوى ليث ومقتدر همام

ما خاضوا المعارك أو تصدوا لها إلا وكانوا خير حامي

معاركهم لنا ذكرى انتصار وفيها للعدا ذكرى انهزام

ومعركة المخازن خير ذكرى وفي إحيائها كل التسامي

ويقول الشاعر قدور الورطاسي:

أليس غريباً أن يشط جوارنا من البرتغال إذ تنادوا ليغضبوا

يسقون للحمام جيشاً عرمرماً غرراً «بمسلوخ» به الملك يلعب

ألم يذكروا باللّه سالف مجدنا ومالنا من قوى إذا الخصم «أشعب»

ألم يعلموا أنا نرى العيش عزة وإلا فإن الموت أولى وأعذب

ويقول الشاعر محمد الغربي:

أهيم فيك وأجني منك أشعاري كأمس يا سيد الوديان يا جاري

يظن أنك من عهد الزواحف لم تهدر ماؤك لا يجري بتيار

وأنت أنت كعهد الناس مندفع إلى الإمام بسر فيك مدرار

إن الأولى هزموا فيه العدو بما أتوا من الصبر في شهره الحار

فأتخنوهم جراحاً لا بأسلحة فتاكة بل بحصباء وأحجار

ثم يخاطب شباب الحمى من المغاربة شارحاً لهم مغزى ذكرى المخازن:

ذكرى جهاد وتحذير وتوعية وقصة تبتدي من يوم ذي قار
حتى يكون لنا مجد تحس به أسفار تاريخ لا تاريخ أسفار

ويلقب الشاعر عبد الواحد السلمي وادي المخازن بالوادي المقدس، الوادي المتحدِّي بكل شمم وأباء لكل معتد وظالم للمطمئنين الآمنين على ضفافه:

فاض من منبع الجبل يتمشى على مهل
وجرى سلسا وسال رفيقا بلا عجل
ثابت الخطو راسخا يتحدى كل الدول
تتلاشى غزاته وهو في الصدر لَم يزل

إلى أن يقول بعد وصف مدقق لغزوة المخازن محذراً من سوء المصير كل غازٍ أثيم:

قل لمن رام غزونا ها هنا الموت فارتحل
إن ترم قهر جيشنا تجد الرمس والأجل
فاعتزل إن أرضنا حُرم من يرمه ذَلْ
البطولات دأبنا خبرتنا كل الدول
إن توهمت قهرنا أو تشككت فلتسل

ويناجي الشاعر أحمد السفياني شهداء وادي المخازن من قصيدة منشداً:

قوم إذا رفعت في الحرب رايتهم استشهدوا في سبيل المجد راضينا
هذي قبورهم إن زرتها نطقت بل تلك أرواحهم منها تنادينا
أرواحهم من سما عليائها نزلت قد رفرفت وهوت شوقاً تهنينا

ثم يستعطف وادي المخازن ليذكرنا بصور الشهامة والبطولة والأمجاد الذي عاشها الوادي في وقعته الكبرى:

وادي المخازن ذكرنا بموقعة وادي المخازن قم واخطب بها فينا
وادي المخازن رتلها لنا صورا فوق الرؤوس وذكرنا بماضينا

وادي المخازن حدثنا بما بلغت من المجدِ رايتنا نلقاك صاغينا
إن الحقيقة في التاريخ يعلمها كل الورى فاقترب وناجينا

ويعتبر الشاعر محمد الخمار أن معركة وادي المخازن هي أنشودة النصر والظفر على لسان الدهر وأبطالها الصناديد هو معجزة العصور والأزمان: قائلاً:

وصرت على شفة الدهر أنشو دة المجد والنصر والظفر
فما كان يومكِ إلا كبدر وإلا كحطين أو خيبر
وما كان أبطال يومك إلا صناديد مفخرة الأعصر
أعادوا لنا المجد صرحا أقامـ ـوه بالسيف والدم والعثير

ويتسائل متعجباً الشاعر حسن الطريبق عن وادي المخازن: أي واد أي واد المجد وإباء الضيم ودماء الفداء؟؟

أي واد يسري ندى الحواشي بين جنبيه في ثرى آبائي
أي مجد على التعاقب يزجيه ويلقيه مثل ضوء السماء
خفقت كل راية ولواء فوقها إثر راية ولواء
لم تفض تلكم المخازن إلا بدماء موصولة بدماء

إلى أن يقول في ختام قصيدته بعد أن وصف هذه الملحمة الخالدة:

هكذا هكذا الرجال من المغرب في كل وقعة ولقاء

إلى غير ذلك من القصائد التي أشار إليها الدكتور عباس الجراري في كتابه «معركة وادي المخازن في الأدب المغربي» وغيرها من القصائد المنشورة في بعض الدواوين الشعرية كقصيدة عبد الكريم الطبال في ديوانه «الأشياء المتكسرة». والملاحم الشعرية مثل «وادي المخازن» للشاعر محمد طريبق و«المعركة الكبرى» للشاعر علي الصقلي.

ويقول مؤلفا كتاب الأدب المغربي عن معركة وادي المخازن: «كان السعديون قد تولوا أمر المغرب ولديهم جيش منظم مدرب على أصول الحرب

الفنية يندر وجود مثله في ذلك الحين عند الممالك المعادية كالأسبان والبرتغاليين، وهم إذ ذاك أعظم شعوب أوروبا بأساً وقوة».

وينقل المؤلفان: «إن هذه المعركة لم تكن حاسمة بالنسبة لمراكش وحدها، وإنما كانت حاسمة أيضاً بالنسبة للقارة الأفريقية كلها، كانت معركة وادي المخازن بالنسبة للمسلمين في أفريقيا من حيث الأهمية مثل معركة (لابواتيه) بالنسبة للمسيحيين في أوروبا... فقد استأصل الجيش المغربي الجيش البرتغالي... وأقبرت هذه المعركة أحلام البرتغاليين إلى الأبد، فأصبحوا بعد ذلك دولة لا شأن لها خلف حدودها بعد أن كانت أول دولة».

على أن من أعظم نتائجها اضمحلال سيطرة البرتغاليين البحرية وسقوط مراكز احتلالهم الواحدة تلو الأخرى ومنها هرمز ما بين الأعوام ١٦٢٠ ـ ١٦٤٠م. ويقول أحد المؤرخين «انتهت حملات البرتغاليين من دون مكاسب، فالثروة التي جمعها البرتغاليون من هذه الحملات والاستكشافات والاحتلال الاستعماري على رغم حجمها لم تسهم في بناء اقتصاد متين للبلاد، بل انتهت إلى انزواء البرتغال لقرون طويلة وابتعادها عن الحركات الحضارية في أوروبا خلال عصور الإصلاح الديني والتنوير حتى الثورة الصناعية».

وجاء في كتاب (المغرب عبر التاريخ) عن نتائج انتصار وادي المخازن: «وكتب المنصور[1] إلى الخليفة العثماني بالفتح وقصدته الوفود مهنئة من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا وإسبانيا...».

إلى أن يقول:

«... وكان لهذه المعركة آثار بعيدة المدى، ليس فقط بالمغرب، بل في

---

(١) هو أحمد شقيق عبد الملك الذي بويع في وادي المخازن بعد إعلان وفاة أخيه غداة المعركة، ثم جددت بيعته بفاس، وكانت بيعته فيها بعد مرور عشرة أيام على قدومه إليها. وقد لقب بالمنصور.

العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً. فبالنسبة إلى المغرب، استعادت الوحدة الوطنية قوتها طيلة حكم المنصور السعدي، كما فرضت الدولة الحاكمة هيبتها، وأمكن لها أن تحقق أعمالاً عمرانية وتوسع نطاق النشاط الاقتصادي وتبذل جهوداً موفقة في الميدان الفكري بموازاة العمل الشعبي الرائع.

وأما بالنسبة للعالم الإسلامي فقد اغتبط المسلمون كافة بهذا الانتصار العظيم الذي اتخذ إلى حد ما طابعاً دينياً، فماذا يكون مصير المغرب لو سحق جيشه في هذه الوقعة؟ لقد كان من المرجح أن يعمد البرتغال إلى سلوك سياسة التنصير قهراً وبدون هوادة، كما كان من غير المستبعد أن يوسعوا أطماعهم شرقاً فيحتلوا المغربين الأوسط والأدنَى وقد يتعاونون في ذلك مع أجناس أوروبية أخرى ليرغموا الأتراك على الانسحاب منهما.

أما بالنسبة للأوروبيين فقد تحولت كلياً نظرة الازدراء التي كانوا ينظرون بها إلى المغرب وسكانه وصارت دولهم تتنافس في خطب وده وتتقرب إليه بعقد المعاهدات والتسهيلات التجارية، وتبعث إليه بالسفراء محملين بالهدايا إلى السلطان، وتوقفت الأطماع السياسية الأجنبية لأمد طويل عن الجرأة على سيادة المغرب.

أثر معركة وادي المخازن في تطوير أدب المغرب

قال الدكتور عبد الله بنصر العلوي في مقال له. في العدد ٣٢٤ من مجلة دعوة الحق المغربية ـ قال وهو يتحدث عن الحركة الأدبية في العهد السعدي:

ولعل معركة وادي المخازن ـ باعتبارها فاصلاً بين طوري الاستقرار والنهضة، أي بين مرحلتي انتعاش الأدب ونهضته ـ ليست مجرد ظاهرة دينية لمواجهة الغزو الصليبي فحسب، كما أنها ليست مجرد ظاهرة اجتماعية لتواصل شرائح المجتمع وحرصها على الدفاع على أمن الذات وحريتها وعقيدتها فحسب، بل إنها ظاهرة للتفاعل بين عناصره، فالمعركة أتاحت للواقع المغربي عهداً ساده الشعور بالكرامة والقوة والأمن، مما مكن المجتمع ممن نهضة

شاملة، كما جعلت الفكر يستجلي من مظهر الجهاد حركة فكرية لتحرير ما احتل من أطراف العالم الإسلامي، فأنتجت إبداعاً له من الغزارة والشعرية ما يعبر عن رؤية فاعلة.

ومن ثم كانت المعركة ظاهرة أدبية، إذ أفرزت جيلاً له رؤية ـ سواء في توحدها أو تعددها ـ تتسم بمعطيات التفاعل.

لذلك نتخذ المعركة/ الظاهرة منطلقاً لتحديد الجيل أو الأجيال تلافياً لقصور المفاهيم الأخرى.

وحين نقدم على ذكر بعض أعلام جيلي ما قبل المعركة وما بعدها، لا نغفل جملة من العوائق، منها:

أ ـ إن الأجيال لا تتحدد إلا من خلال التعاقب أو التواتر بشكل حلزوني في مدة معينة. ويعني ذلك أن التواصل بينها أمر ضروري.

ب ـ إن ذكر الأعلام ليس مجرد تعداد للبعض دون الآخر، بل لا بد من وضع مقاييس للاختيار.

وأيا كان التواصل، وأيا كانت المقاييس، فلسنا أمام بحث في اجتماعية الأدب الذي يغور في مظاهر نعتبر بعضها على هامش التفاعل.

ولذلك فلا مناص من جرد لبعض الأعلام.

فمن جيل ما قبل المعركة نذكر:

ـ سعيد بن علي الحامدي.

ـ أحمد بن سعيد الحامدي.

ـ أبا القاسم بن منصور الغمري.

ـ سعيد بن إبراهيم الهلالي.

ـ عبد الواحد بن أحمد الونشريسي.

ـ موسى الوجاني.

ومن جيل ما بعدها نذكر:

ـ أبا القاسم الوزير بن محمد الغساني.

ـ أحمد بن علي القشتالي.

ـ أحمد بن محمد الغرديس التغلبي.

ـ أحمد بن القاضي.

ـ الحسن بن أحمد المسفيوي.

ـ حسين بن أبي القاسم الملوكي الدرعي.

ـ داود بن عبد المنعم الدغوغي.

ـ علي بن أحمد الشامي الخزرجي.

ـ عبد الواحد بن أحمد الحسني.

ـ عبد العزيز بن محمد التملي.

ـ عبد العزيز بن محمد القشتالي.

ـ محمد بن يوسف التملي.

ـ محمد بن علي الوجدي المعروف بالغماد.

ـ محمد بن علي الفشتالي.

ـ محمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة.

ـ محمد بن يعقوب الإيسي.

إن الجيل الأول عرف حركة انتعش فيها التصَوّف. تأسس النموذج الذي غلبت عليه عناصر الاتجاه البدوي، كما كان التفاعل مظهراً بادياً في القصائد المادحة، ومعظم شعراء هذا الجيل من الجنوب خاصة.

أما الجيل الثاني فقد اتسم بحركة نهض فيها الشعر، فمع استمرار الاتجاه البدوي ساد الاتجاه الحضري، كما كان التفاعل مجال القصائد المادحة والمولدية والواصفة.. وشعراء هذا الجيل من سائر المراكز الفكرية التي عرفها المغرب على هذا العهد.

الاحتفال بالمولد النبوي في عهد السعديين

احتفى السعديون في بلاطاتهم، بذكرى المولد النبوي الشريف احتفالاً مشهوداً رددت صداه المصادر التاريخية، وكتب التراجم التي وضعت في هذا العصر، تماماً كما احتفلت الطرق الصوفية في زواياها بهذه الذكرى إن في البادية أو في الحضر.

ويبدو أن هذه الاحتفالات المولدية لن تكتسي طابعها الرسمي وتغدو عيدا من أعياد الأمة، ومظهراً حضارياً يعكس بجلاء الشخصية المغربية، إلا في منتصف القرن العاشر، مع انتقال دفة الحكم إلى السلطان العالم أحمد المنصور الذهبي الذي أضفى على هذه الذكرى حلة قشيبة وخلع عليها رونقاً أخاذا.

فماذا عن هذه الذكرى الدينية بالمغرب عشيتئذ؟ ما هي ملامحها العامة؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نرى أن نتعقب هذه الظاهرة في جذورها الجنينية في المشرق، أولاً، ثم نعرج على احتفالات الغرب الإسلامي في محاولة لمعرفة البدايات الأولى لممارسة المولد، والعمل به كعيد أسمى ذي ميسم ديني.

تعتبر مسألة الاحتفال بمولد النبي محمد ﷺ أمراً طارئاً على الأمة الإسلامية ظهر نتيجة لقيام عوامل موضوعية كيفت تاريخ هذه الأمة.

كان الفاطميون في مصر السباقين إلى الاحتفاء بالمولد النبوي الشريف واتخذوه عيداً رسمياً من أعياد الأمة. يقول الأستاذ محمد المنوني: «وجد

الاحتفال بالمولد النبوي منذ عهد الفاطميين بمصر حيث كانوا يحتفلون ضمن ستة موالد هي مولد الرسول ﷺ وموالد آل البيت عليهم السلام علي بن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمة الزهراء والسادس مولد الخليفة الحاضر».

ويعتبر الملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٤م) أحد الذين أعطوا لظاهرة الاحتفال بالمولد دفقاً جديداً وطابعاً متميزاً، فقد كان هذا الأمير «مولعاً بعمل المولد، عظيم الاحتفال به».

وحظي الاحتفال بالمولد النبوي في الغرب الإسلامي بعناية فائقة سجلت المصادر التاريخية بعضاً من جوانب العظمة التي حف بها المغاربة هذه الذكرى، وتعتبر الدولة الحفصية في شخص السلطان إبراهيم الحفصي الذي امتدت دولته من عام ٧١٨ إلى ٧٤٧هـ أول من نسج على هذا المنوال ودعا إلى الاحتفال بالمولد النبوي. أما الأندلس فإن المؤرخين يجعلون بداية هذا الاحتفال مرتبطاً بالسلطان أبي الحجاج يوسف الأول ٧٣٣ إلى ٧٥٥هـ ملك غرناطة، وينتهي العمل بالمولد باغتيال هذا السلطان. أما تلمسان فقد عرفت احتفالات المولد بها غاية البهاء والعظمة خاصة في عهد بني زيان، أيام السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي تبتدىء دولته من عام ٧٦٠هـ، ويرجع الفضل في الدعوة لإحياء ذكرى المولد النبوي في المغرب إلى أسرة العزفيين بسبتة في القرن السابع للهجرة، الثالث عشر للميلاد.

هكذا نجد القاضي أبا العباس العَزَفي، يضع مؤلفاً ضخماً في هذه الذكرى سماه (الدُّرُّ المنظّم في مولد النبي المعظم) تتحدد أهداف هذا الكتاب حسبما نجد في المقدمة في «الدعوة إلى معرفة مولد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والاحتفال به...».

ويظهر أن الأمير أبا القاسم محمد العزفي، بادر إلى تكريس دعوة والده، بمجرد أن انتقلت إليه دفة الحكم، وعمل على إحياء المولد النبوي طيلة فترة إمارته الممتدة من (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م إلى عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م).

ويبدو أن الموحدين، اقتنعوا بدعوة العزفيين، فألفينا الملك الموحدي عمر المرتضى ينبري لإحياء المولد بمراكش، ويحيطه ببالغ التبجيل إكراماً لصاحب الذكرى، وتلبية لنداء أبي القاسم، الذي أهدى السلطان نسخة من (الدر المنظم) الذي ألفه بالاشتراك مع والده. ويشهد الاحتفال بهذه الذكرى الانطلاقة الحقيقية، مع بزوغ فجر الدولة المرينية، فقد سارع مؤسس هذه الدولة يعقوب بن عبد الحق إلى إقامة مراسم الاحتفال بهذه الذكرى في حلة من العظمة والجلال. ويبدو أن ابنه يوسف عمل بعده على تعميم هذا الاحتفال في جميع أنحاء المغرب كعيد قومي وديني من أعياد الأمة.

هكذا أضحى يوم الثاني عشر من ربيع الأول عيداً مولدياً عاماً يحتفل فيه المغرب على مختلف المستويات، فتقام الأفراح وتتضاعف الأضواء ويتجمل بما حسن الثياب وبخاصةً في عهد أبي الحسن وأبنائه أبي سالم وأبي فارس.

ولقد أدلى المنحى الصوفي بدلوه في عهد المرينيين في إحياء ليلة المولد النبوي، فرأينا أرباب الزوايا وشيوخ الطرق الصوفية يعظمون الذكرى، ويحيطونها بهالة من الفخامة والجلال. في هذا السياق يمكن أن نتحدث عن احتفالات الصوفي: أبي مروان عبد الملك الريفي فقد كان دأبه «أن يقيم بمنزله بسبتة المولد النبوي بحضور المريدين ويحتفل لذلك بالإطعام ويستعمل السماع.

ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي في عهد المنصور الذهبي

عرفت ظاهرة الاحتفال بميلاد الرسول ﷺ بالمغرب في عصر السعديين، انتعاشاً هائلاً، فقد أضحت (الذكرى) عيداً قومياً، يجسد العواطف الدينية المتأججة. هكذا رأينا الدولة لا سيما في فترات الاستقرار السياسي، وبالضبط عشية حكم السلطان أحمد المنصور تسارع إلى تكريس الاحتفال بهذه الذكرى بإيعاز من هذا الزعيم العالم، ويكفي أن نرجع إلى المصادر التاريخية التي غطت الفترة وكذا الكتب الإخبارية وكتب التراجم، لنفاجأ بهذه الأوصاف الدقيقة

والحية، والتي تعكس بجلاء عظمة الاحتفال بالمولد في عهد المنصور. يقول الأستاذ حركات: «وقد أحاط السعديون حفلات المولد بعناية فائقة، وربما لأنهم رأوا أنفسهم أحق بالاحتفال بمولد الرسول وهم سلالته، من آل عثمان الذين ليسوا كذلك، وقد احتفظ المغرب بجل التقاليد التي سنها المرينيون ثم طورها السعديون في هذه المناسبة».

يتضح إذن وبناء على ما تقدم، واستناداً إلى ما دوّنه كل من الفشتالي في مناهله، أو المقري في روضه، أو اليفرني في نزهته، أن السلطان المنصور أمكن له بما توافر بين يديه من إمكانيات هائلة، وقدرات خاصة، أن يضفي على احتفالات المولد طابعاً متفرداً. هكذا يمكن أن نتناول ظاهرة الاحتفال المنصوري بالمولد النبوي مع الباحثين من منطلقين:

أحدهما: فني يتمثل في الانتقاء في صفوف الشعراء والمثقفين الذين يؤذن لهم بالمثول أمام الحضرة السلطانية، بناء على كفاءتهم العالية ومؤهلاتهم الخلاقة في هذه المناسبة.

ثانيهما: تنظيمي ويتمثل أساساً في تلك الهالة التي تطبع احتفالات الأمة بالذكرى، فقد خصص المنصور لأجل إنجاح الاحتفال، ميزانية ضخمة، وسخر طاقات جبارة وهو ما أكسب هذا النموذج المنصوري مبدأ التمييز والفعالية.

ويبدو أن الاحتفال بالمولد النبوي في عهد السعديين، لم يبق سجين البلاط السعدي وإنما امتد ليشمل جميع الأوساط الشعبية وبخاصة في رحاب الزوايا، التي حرص شيوخها على إقامة هذا الاحتفال في البوادي والحواضر المغربية في منأى عن وصاية النفوذ السعدي وبسطوا أيديهم وبذلوا جهوداً وافية محبة في صاحب الذكرى وتعظيماً ليوم ميلاده ﷺ. هكذا رأينا شيوخ الحركة الصوفية يعدون الطعام ويجمعون الناس والمادحين والذاكرين لينالوا حظهم من هذه الولائم التي تقام في هذه الليلة الغراء[1].

---

(١) الطيب الوزاني في مجلة المناهل.

تشيع السعديين

السعديون الحسنيو النسب كانوا شيعة، ويبدو تشيعهم واضحاً في الكثير من معالمهم، فالملك السعدي أحمد المنصور (١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) أرسل رسالة إلى أحد الملوك المجاورين، أوردها صاحب كتاب (المغرب عبر التاريخ) في الصفحة ٢٦٦ من الجزء الثاني، طبعة سنة ١٩٩٣ نأخذ منها مطلعها وهو ما يلي:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد حمد لله مسهل المرام وميسر أسباب الكمال والتمام، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام، والرضى عن آله الأئمة الأعلام وخلفاء الإسلام، وعن أصحابه الذابين عن كلمته بالسنان والحسام. . . (إلى آخر ما جاء في الرسالة).

وهل من صراحة في التشيع أقوى من قوله: «آله الأئمة الأعلام وخلفاء الإسلام».

كما أن أحمد هذا قال في رسالة أخرى أرسلها إلى (سكية إسحاق) يدعوه فيها إلى الخضوع لسلطة ملك المغرب، أوردها هي الأخرى المصدر نفسها في الصفحة ٣٢٧ وفيها من علائم التشيع ما فيها.

وكما كان تشيع (الموحدين) لا يبرز في شيء كما يبرز في شعر شعرائهم، كذلك الحال في (السعديين).

فالشاعر عبد العزيز القشتالي[1] (٩٥٧ ـ ١٠٣٢هـ) يمدح المنصور السعدي مشيراً إلى فتح السودان فيقول فيما يقول:

يعنو إلى المسنون من أسيافه	قلب المعاند وهو قلب واجب
أيروم أحزاب الضلال سفاهة	غلباً لحزب الله وهو الغالب
صبت على السودان منه صواعق	فهمت على إسحاق منه مصائب

---

(١) هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد القشتالي ولد بقشتالة سنة ٩٥٧هـ وتوفي سنة ١٠٣٢هـ اتصل بالمنصور السعدي فولاه رئاسة الإنشاء في بلاطه. له كتاب (مناهل الصفا) في تاريخ السعديين، و(مدد الجيش) الذي ذيّل به (جيش التوشيح) لابن الخطيب.

يروي عن المنصور فيه (محمد)	ما أسندته إلى (الوصي) مناسب

هل أبلغ في إظهار التشيع من تلقيب علي بن أبي طالب بلقب (الوصي).

وجاء في كتاب (الأدب المغربي) وهو يوازن بين شعراء الدول الشيعية الثلاث: الفاطمية والموحدية والسعدية خلال حديثه عن شاعر السعديين (أبي عبد الله الهوزالي)[١].

«إن مدح المنصور السعدي كان ينال منه الرضا إذا ما اعتمد على تلك الجزالة التي تصل في بعض الأحيان إلى درجة الجلبة، وهي جزالة سبق أن أغرم بها الخلفاء الفاطميون في شاعرهم ابن هاني، ثم أغرم بها الخلفاء الموحدون في شاعرهم ابن حبّوس ومن أتى بعده مثل الجراوي[٢] والسلمي ثم الخطابي. ولا

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي شاعر السعديين على عهد المنصور. نشأ في كنف الدولة السعدية وكانت له مشاركة في الآداب والفنون متضلعاً في اللغة، بصيراً بنقد الكلام، وكانت له مكانة في الفتوى والقضاء الذي تولاه في صدر حياته بـ(بسكتانة) وتوفي في أوائل القرن الحادي عشر.

(٢) أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي من (تادلا) ثم فاس درس على ابن سيد وابن الأعلم وغيرهما، اشتهر بمدح عبد المؤمن الموحدي وابنه يوسف وحفيده المنصور، وقد جمع أشعاراً كثيرة ضمنها كتاباً بعنوان «صفوة الأدب وديوان العرب» على غرار الحماسة لأبي تمام. ويدعَى أحياناً بالكرواني وكانت وفاته سنة ٦٠٩هـ. وكان عبد المؤمن معجب به.

وكان الجراوي لا يعترف بالفضل لأحد، حتَّى لقد هجا قومه بني غفجوم، وهو في ذلك أشبه ما يكون بالحطيئة الذي هجا نفسه وأسرته:

يا ابن السبيل إذا مررت بتادلا	لا تنزلن على بني غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن تَرى	إلا مجاوبة الصدَى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم	لكنهم نشروا لواء اللوم
لا حظ في أموالهم ونوالهم	للسائل العافي ولا المحروم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم	إلا الصراخ بدعوة المظلوم

وقد يبالغ في مدحه مبالغات ممجوجة كقوله:

عن أمركم يتصرف الثقلان	وبنصركم يتعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم	تتحرك الأفلاك في الدوران
جاهدتم في الليل حق جهاده	ونهضتم بحماية الإيمان

غرو فإن هؤلاء جميعاً من مدعي الفاطمية والخلافة، وكانوا جميعاً بذلك الطموح الذي حقق مراميه الفاطميون في الشرق بعد الغرب، ثم وجدنا الموحدين يحلمون بتحقيقه في الشرق بعدما أحرزوا الفتوح العظيمة في الغرب، وكذلك وجدنا السعديين يحلمون بهذه الأحلام بعدما مدوا فتوحاتهم التي انتهت أيام المنصور إلى أواسط أفريقيا السوداء». (انتهى).

وللهوزالي قصيدة في مدح المنصور بعد أحد فتوحاته تلوح فيها ملامح التشيع العريق:

فتوح جنى المنصور في عرصاتها	أزاهر نصر يانع من غصونها
ولا غصن إلا من قناة قويمة	ولا زهر إلا من شباة سنانها
ولا روض إلا من حماة كماتها	ولا سقي إلا ما جرى من طعانها
كتائب منصورية قذفت بها	مرام نأت عن أرضها ومكانها
تهيم بها الأرواح حتى كأنها	تناغي عزيف الجن في دورانها
وتطوي بساطاً أرضها بقنابل	سنابكها أطوى لها من بنانها
سحائب من مرّاكش قد أثارها	صبا النصر يحدوها حراء عنانها
يؤم بها الصحراء يرتاد أمة	سدى أنفت آسادها من عرينها
فكم ملك قد رامها فتعصبت	عليه ومحت في مجون حرانها
فلما همت تلك السحائب فوقها	أفاقت وهبت من كرى هيمانها
إلى الملكِ الشهم الذي لقحت به	لقاح الحروب بكرها وعوانها
إلى ابن البتول المجتبي من نجارها	وفرع العلا المختار من حرانها
إلى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا	وفخر بنات المصطفى وهجانها

وما نذكره من الشعر لم نذكره بعد استقصاء وتتبع، لأن هذا الاستقصاء وهذا التتبع متعذرين علينا الآن، كما كانا متعذرين قبل الآن لبعدنا عن الخزائن المحتوية على ذخائر التراث التي خلفته تلك الدول وعدم استطاعتنا الوصول إلى تلك الذخائر الخطية التي تحفل بها خزائن المغرب العربي في شمال أفريقيا. والذي أخذناه من الشعر وقرأه القارىء فيما مر من القول، إنما هو نتف وقعنا

عليها مبثوثة في بعض ما انتشر من تلك الذخائر لم يتعمد ناشروها أخذه فيما نشروه وإنما جاء صدفة، ولو تعمد أحد الاستقصاء لظفر بكنوز من ذلك.

كما لا شيء لدينا من شعر عبد الواحد بن أحمد وأبي الحسن الشياظمي، هذا الشعر الشيعي الذي أشار إليه محمد بن تاويت فيما تقدم من القول.

وعلى ما قال ابن تاويت: «فقد كان للشعر الشيعي سوق رائجة أيام السعديين لا سيما منهم (المنصور) الذي زخر بلاطه بشعراء التشيع، وكافأ شارح درر السمط[1] بالآلاف على شرحه هذا».

وكل ذلك يحتاج إلى توسع في الدرس والبحث مما هو غير متيسر لنا.

ويقول إبراهيم حركات في كتابه السياسة والمجتمع في العصر السعدي (ص٦٣ ـ ٦٤) وهو يتحدث عن أبي محمد عبد الله الغالب السعدي (٩٦٤ ـ ٩٨١هـ = ١٥٥٧ ـ ١٥٧٤): «امتازت سياسة الغالب في الميدان الديني بمحاربة المذاهب غير السنية. وفي عهده ظهر فقيه يدعى أبا عبد الله الأندلسي الذي حاول أن يدعو إلى مذهب ابن حزم الظاهري بمراكش، وأمكنه أن يقنع عديداً من المثقفين بها وقد لقي معارضة شديدة من الأوساط المتشددة في المذهب المالكي حتى نجحت في اغتياله دون أن يجد من الغالب حماية».

إلى أن يقول:

«وقد ظهر في هذا العهد أيضاً طائفة شراكة... وقد تعقبهم الغالب بدون هوادة وإن لم يستطع أن يقضي على آثارهم... وكانوا يتهمون بالأباضية والإلحاد أيضاً» اهـ.

على أننا نرى وجهاً آخر لهذا الذي جرى، إن إغضاء الغالب عن أذى داعية مذهب ابن حزم واغتياله، إنما كان لما اشتهر به ابن حزم من الافتراء على الشيعة والغض من فضل علي (ع) وتفاخره بموالاة الأمويين، فقد كان جده

---

(١) درر السمط في رثاء السبط وهو في سيرة الحسين (ع).

الأعلى خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد ـ كان مولى ليزيد بن أبي سفيان. ومن تفاخر ابن حزم بهذه الموالاة وبأصله الفارسي قوله:

سما بي ساسان ودارا وبعدهم قريش العلى (أعيامها والعنابس)

أما تعقبه لـ(شراكة) فلما ذكر الكاتب (حركات) نفسه من اتهامهم بالأباضية لا لشيء آخر، فما كان للحاكم الشيعي إلا أن يتعقب انتشار الأباضية في مجال حكمه.

كلمة ختامية

لقد عاشت الدولة السعدية حتى سنة ١٠٦٩هـ = ١٦٥٨م شأنها شأن الدول أمثالها من مد وجزر، وقد بلغت أقصى ما بلغته في عهد أحمد المنصور (٩٨٦ ـ ١٠١٢هـ = ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣م) حيث تاخمت من الجنوب الشرقي بلاد مصر. وقد كان المنصور هذا يطمح إلى الوصول إلى الأندلس، بل إلى أن يقيم وحدة إسلامية. ويسجل لها أنها ماشت النهضة العسكرية في أوروبا ولم تتخلف عنها في تجهيز الجيوش، فانشأت الجيش النظامي الحديث لتظل أبداً على سلاحها حين يراد بها الشر، كما أقامت أسطولاً حربياً قوياً إلى جانب أسطولها التجاري، كانت تستحضر بواخرهما من إنكلترا وهولندا، وقد تصنع محلياً بمساعدة فنيين أجانب. وأوثقت صلتها بالعالم الخارجي فارتاد ممثلوها تركيا والشرق الإسلامي وهولندا والبرتغال وغيرها. وفتحت موانئها للتجارة الخارجية، فبلغت هذه التجارة مبلغاً عالياً، كما قامت الصناعات أحسن قيام لا سيما صناعة السكر التي ازدهرت كل الازدهار، وقد انتقلت زراعة قصب السكر وصناعته في عهدهم من المغرب إلى بلدان أخرى لا سيما القارة الأمريكية بعد اكتشافها، كما انتقلت إلى جزر (الخالدات)[١] وكان السكر السعدي يصدّر فيما يصدّر إلى انكلترا. وفي العهد السعدي اعتمد المغرب على نفسه في صناعة المدافع في ترسانة مراكش، وفيها كان يذوّب النحاس لصنع المدافع. وقد

---

(١) R.ricard, Hespéris, 1,2 - 1935 p.822.

اكتشف معدن النحاس سنة ٩٤٦هـ = ١٥٣٩م بجبل تنزار، كما صنعت المدافع من البرونز. كذلك تم صنع القنابل وبقي من العهد السعدي مدفع نقشت عليه كتابة بالعربية[١].

وكان الملوك السعديون على نصيب وافر من المعرفة والثقافة يشجعون رجال الفكر وينشؤون خزائن الكتب وينشرون العلم، وكان فيهم العلماء والشعراء.

وقد اشتهر الملوك السعديون بولعهم بالأدب، فقد كان محمد المهدي الشيخ يستظهر ديوان المتنبي، وكان لأحمد المنصور شعر كثير، كما درس الحديث والفقه والنحو اللغة والفرائض والهندسة والجبر وغير ذلك، وكان له أثر كبير في النهضة الفكرية، وقد استجاز بعض رجال مصر، وألف كتاباً في الشؤون السياسية والعسكرية وعلّق على عدة كتب في الحديث والتفسير وغيرهما. ويقول صاحب كتاب (المغرب عبر التاريخ) ج٢، ص٤٠٠ ط١٩٩٣ أنه كان في نيته وضع كتاب جامع لقصائد الشعراء من أهل البيت. كما اشتهر بجمع الكتب ووقفها، ولا يزال في خزائن (القرويين) حتى اليوم عشرات المخطوطات الموقوفة باسمه، وخزانة زيدان بن المنصور التي سطا عليها الإسبان وضموها إلى خزائن الأسكوريال من بعض ما تخلف من كتب والده.

وقد أمر المنصور جماعة من العلماء بوضع العديد من الكتب، من ذلك شرح للألفية في مجلدين كبيرين يلخص فيه مختلف الشروح المتداولة للاستفتاء عنها. وأمر زيدان بن المنصور الراهب الإيرلندي (أنطون دوسانت ماري) بترجمة كتب من اللاتينية إلى الإسبانية التي كان يتقنها معظم الملوك السعديين لتترجم إلى العربية.

وبقيت خزائن زاخرة بالكتب ألحقت بعد ذلك بالمساجد الكبرى. ويرى بعض المستشرقين أن أول مستعرب هو من معاصري السعديين وقد درس اللغة

---

(١) المغرب عبر التاريخ ج٢، ص٣٨٠ ط١٩٣٣.

العربية في مراكش سنة ١٥٩٨م واسمه (إتيان هولبير Etienne Hulbert)، وكان أول أستاذ للغة العربية في معهد الطب بباريس حين كان المقام الأول لابن سينا وابن رشد.

على أن في السعديين من هم في السوء مثل (المتوكل) في الاستنصار بالأجنبي.

أبو عبد اللّه الحسين
بن علي بن أبي طالب عليهم السلام

ثالث أئمة أهل البيت الطاهر وثاني السبطين سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي المصطفى وأحد الخمسة أصحاب العبا وسيد الشهداء وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

مولده الشريف

ولد بالمدينة في الثالث من شعبان وقيل لخمس خلون منه سنة ثلاث أو أربع من الهجرة وروى الحاكم في المستدرك من طريق محمد بن إسحق الثقفي بسنده عن قتادة أن ولادته لست سنين وخمسة أشهر ونصف من التاريخ (اهـ) وقيل ولد في أواخر ربيع الأول وقيل لثلاث أو خمس خلون من جمادى الأولى والمشهور المعروف أنه ولد في شعبان وكانت مدة حمله ستة أشهر ومر في سيرة الحسن (ع) ما روي أنه كان بين ولادة الحسن والحمل بالحسين عليهما السلام طهر واحد وأن الحسين (ع) كان في بطن أمه ستة أشهر وذكرنا منافاة ذلك للمشهور في تاريخ ولادتيهما فإن الحسن (ع) ولد في منتصف شهر رمضان والحسين (ع) لخمس خلون من شعبان على المشهور فيكون بين ميلاديهما عشرة شهور وعشرون يوماً. نعم ربما يتجه ذلك على القول بأن ولادة الحسين (ع) في أواخر ربيع الأول ولعل القائل به استنبطه من الجمع بين تاريخ

ولادة الحسن وأن بينها وبين الحمل بالحسين طهر واحد وإن مدة حمل الحسين ستة أشهر والله أعلم وروى الحاكم في المستدرك من طريق محمد بن إسحق الثقفي بسنده عن قتادة ولدت فاطمة حسيناً بعد الحسن لسنة وعشرة أشهر.

ولما ولد جيء به إلى رسول الله ﷺ فاستبشر به وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى فلما كان اليوم السابع سماه حسيناً وعق عنه بكبش وأمر أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة كما فعلت بأخيه الحسن، فامتثلت ما أمرها به، وعن الزبير بن بكار في كتاب أنساب قريش أن رسول الله ﷺ سمى حسناً وحسيناً يوم سابعهما واشتق اسم حسين من اسم حسن (اهـ) وروى الحاكم في المستدرك وصححه بسنده عن أبي رافع رأيت رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة (وبسنده) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي (ع) وصححه أن رسول الله ﷺ أمر فاطمة فقال: «**زني شعر الحسين وتصدقي بوزنه فضة وأعطي القابلة رجل العقيقة**». (وبسنده) أن رسول الله ﷺ عق عن الحسن والحسين يوم السابع وسماهما وأمر أن يماط عن رؤوسهما الأذى. وبسنده عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب قال: عق رسول الله ﷺ عن الحسين بشاة وقال: «**يا فاطمة احلقي رأسه وتصدقي بزنة شعره**» فوزناه وكان وزنه درهماً وبسنده أن النبي ﷺ عق عن الحسن والحسين عن كل واحد منهما كبشين اثنين مثليين متكافيين.

شهادته ومدة عمره

قتل (ع) شهيداً في كربلاء من أرض العراق عاشر المحرم سنة ٦١ من الهجرة بعد الظهر مظلوماً ظمآن صابراً محتسباً. قال المفيد يوم السبت والذي صححه أبو الفرج في مقاتل الطالبيين أنه استشهد يوم الجمعة قال: وكان أول المحرم الأربعاء استخرجنا ذلك بالحساب الهندي من سائر الزيجات تنضاف إليه الرواية. أما ما تعارفه العوام من أنه قتل يوم الاثنين فلا أصل له ولا وردت به رواية (اهـ) وكان عمره (ع) يوم قتل ٥٦ سنة وخمسة أشهر وسبعة أيام أو خمسة

أيام أو تسعة أشهر وعشرة أيام أو ثمانية أشهر وسبعة أيام أو خمسة أيام أو ٥٧ سنة بنوع من التسامح بعد السنة الناقصة سنة كاملة أو ٥٨ سنة أو ٥٥ سنة وستة أشهر على اختلاف الروايات والأقوال المتقدمة في مولده وغيرها. ومن الغريب قول المفيد أنّ عمره الشريف ٥٨ سنة مع ذكره أن مولده لخمس خلون من شعبان سنة أربع وشهادته كما مر فإن عمره على هذا يكون ٥٦ سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام. عاش منها مع جده رسول الله ﷺ ست سنين أو سبع سنين وشهوراً وقال المفيد: سبع سنين ومع أبيه أمير المؤمنين ٣٧ سنة قاله المفيد ومع أبيه بعد وفاة جده ﷺ ٣٠ سنة إلا أشهراً ومع أخيه الحسن ٤٧ سنة قاله المفيد ومع أخيه بعد وفاة أبيه نحو عشر سنين وقال المفيد إحدى عشرة سنة وقيل: خمس سنين وأشهراً للاختلاف في وفاة الحسن (ع) وهي مدة خلافته وإمامته.

كنيته ولقبه ونقش خاتمه

كنيته: أبو عبد الله.

لقبه: الرشيد والوفي والطيب والسيد الزكي والمبارك والتابع لمرضاة الله والدليل على ذات الله والسبط وأعلاها رتبة ما لقبه به جده ﷺ في قوله عنه وعن أخيه الحسن أنهما سيدا شباب أهل الجنة وكذلك السبط لقوله ﷺ: **«حسين سبط من الأسباط»**.

نقش خاتمه: في الفصول المهمة: «لكل أجل كتاب» وفي الوافي وغيره عن الصادق (ع) «حسبي الله» وعن الرضا (ع) «إن الله بالغ أمره» ولعله كان له عدة خواتيم هذه نقوشها.

شاعره: يحيى بن الحكم وجماعة.

بوابه: أسعد الهجري.

ملوك عصره: معاوية وابنه يزيد.

أولاده

له من الأولاد ستة ذكور وثلاث بنات. علي الأكبر شهيد كربلاء أمه

ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفية. علي الأوسط. علي الأصغر زين العابدين أمه شاهزنان بنت كسرى يزدجرد ملك الفرس ومعنى شاهزنان بالعربية ملكة النساء. وقال المفيد: الأكبر زين العابدين والأصغر شهيد كربلاء والمشهور الأول. ومحمد. وجعفر مات في حياة أبيه ولم يعقب أمه قضاعية. وعبد الله الرضيع جاءه سهم وهو في حجر أبيه فذبحه. وسكينة أمها وأم عبد الله الرضيع الرباب بنت امرىء القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم، كلبية معدية. وفاطمة أمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبد الله تيمية. وزينب.

والذكر المخلد والثناء المؤبد لعلي زين العابدين عليه السلام ومنه عقبه.

مناقبه عليه السلام

مر الكلام على جملة مما يشترك فيه مع أخيه الحسن عليهما السلام في سيرة الحسن فأغنى عن إعادته.

كرمه وسخاؤه عليه السلام

دخل الحسين (ع) على أسامة بن زيد وهو مريض وهو يقول: واغماه. فقال: وما غمك. قال ديني وهو ستون ألف درهم، فقال: هو علي. قال: إني أخشى أن أموت قبل أن يقضى، قال: لن تموت حتى أقضيها عنك، فقضاها قبل موته. ولما أخرج مروان الفرزدق من المدينة أتى الفرزدق الحسين (ع) فأعطاه الحسين أربعمائة دينار فقيل له إنه شاعر فاسق فقال: أن خير مالك ما وقيت به عرضك وقد أثاب رسول الله ﷺ كعب بن زهير، وقال في العباس ابن مرداس: اقطعوا لسانه عني. وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن سائلاً خرج يتخطى أزقة المدينة حتى أتى باب الحسين فقرع الباب وأنشأ يقول:

لم يخب اليوم من رجاك ومن ... حرك من خلف بابك الحلقه

فأنت ذو الجود أنت معدنه ... أبوك قد كان قاتل الفسقه

وكان الحسين واقفاً يصلي فخفف من صلاته وخرج إلى الأعرابي فرأى عليه أثر ضر وفاقة فرجع ونادى بقنبر فأجابه: لبيك يا ابن رسول الله ﷺ قال ما تبقى معك من نفقتنا؟ قال: مائتا درهم أمرتني بتفريقها في أهل بيتك، فقال: هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم، فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابي وأنشأ يقول:

خذها فإني إليك معتذر	واعلم بأني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصا[1]	كانت سمانا عليك مندفقه
لكن ريب الزمان ذو نكد	والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الأعرابي وولى وهو يقول:

مطهرون نقيات جيوبهم	تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
وأنتم أنتم الأعلون عندكم	علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علوياً حين تنسبه	فما له في جميع الناس مفتخر

(اهـ) وقد أوردنا هذا الخبر في لواعج الأشجان بنحو آخر ولا ندري الآن من أين نقلناه، وفيه أن الحسين (ع) سأل قنبر: هل بقي من مال الحجاز شيء؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار، فأمره أن يعطيه إياها وزيادة بعد البيتين:

لولا الذي كان من أوائلكم	كانت علينا الجحيم منطبقه

وليس فيه الأبيات الثلاثة الأخيرة مع أنها تنسب لأبي نواس في الرضا عليه السلام والله أعلم.

وعلّم أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن حبيب السلمي ولداً للحسين (ع) الحمد، فلما قرأها على أبيه أعطاه ألف دينار وألف حلة وحشا فاه دراً فقيل له في ذلك فقال وأين يقع هذا من عطائه يعني تعليمه؟ وأنشد الحسين (ع):

---

(١) الذي في الأصل (لو كان في سيرنا عصا تمتد أذن) ولا يخفى اختلال وزنه ولعل صوابه (في سيرنا لو عصا تمد أذن) أو غير ذلك والله أعلم. ـ المؤلف ـ.

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يبقيها إذا ما تولت

ودخلت على الحسين (ع) جارية فحيته بطاقة ريحان فقال لها: أنت حرة لوجه الله تعالى، فقيل له تجيئك بطاقة ريحان لا خطر لها فتعتقها قال: كذا أدبنا الله، قال الله تعالى وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها وكان أحسن منها عتقها.

وجاء إعرابي إلى الحسين (ع) فقال: يا ابن رسول الله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن أدائها فقلت في نفسي أسأل أكرم الناس وما رأيت أكرم من أهل بيت رسول الله ﷺ فقال الحسين (ع): يا أخا العرب أسألك عن ثلاث مسائل فإن أجبت عن واحدة أعطيتك ثلث المال وإن أجبت عن اثنتين أعطيتك ثلثي المال وإن أجبت عن الكل أعطيتك الكل، فقال الأعرابي: يا ابن رسول الله أمثلك يسأل مثلي وأنت من أهل العلم والشرف؟ فقال الحسين (ع): بلى سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: المعروف بقدر المعرفة، فقال الأعرابي: سل عما بدا لك فإن أجبت وإلا تعلمت منك ولا قوة إلا بالله، فقال الحسين (ع): أي الأعمال أفضل؟ فقال الأعرابي: الإيمان بالله، فقال الحسين (ع): فما النجاة من الهلكة؟ فقال الأعرابي: الثقة بالله، فقال الحسين (ع): فما يزين الرجل؟ فقال الأعرابي: علم معه حلم، فقال: فإن أخطأه ذلك؟ فقال: مال معه مروءة، فقال: فإن أخطأه ذلك؟ فقال: فقر معه صبر، فقال الحسين (ع): فإن أخطأه ذلك؟ فقال الأعرابي: فصاعقة تنزل من السماء وتحرقه فإنه أهل لذلك، فضحك الحسين (ع) ورمى إليه بصرة فيها ألف دينار وأعطاه خاتمه وفيه فص قيمته مائتا درهم وقال: يا أعرابي اعط الذهب إلى غرمائك واصرف الخاتم في نفقتك. فأخذ الأعرابي ذلك وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وفي تحف العقول: أتاه رجل فسأله فقال: إن المسألة لا تصلح إلا في

غرم فادح أو فقر مدقع أو حمالة مفظعة فقال الرجل: ما جئت إلا في إحداهن فأمر له بمائة دينار.

وفي تحف العقول: جاءه رجل من الأنصار يريد أن يسأله حاجة فقال: يا أخا الأنصار صن وجهك عن بذلة المسألة وارفع حاجتك في رقعة فإني آت فيها ما هو سارك إن شاء الله. فكتب: يا أبا عبد الله إن لفلان علي خمسمائة دينار وقد ألح بي فكلمه أن ينظرني إلى ميسرة، فلما قرأ الحسين (ع) الرقعة دخل إلى منزله فأخرج صرة فيها ألف دينار وقال له: أما خمسمائة فاقض بها دينك وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك، ولا ترفع حاجتك إلا إلى ثلاثة: إلى ذي دين أو مروءة أو حسب، فأما ذو الدين فيصون دينه، وأما ذو المروءة فإنه يستحيي لمروءته، وأما ذو الحسب فيعلم أنك لم تكرم وجهك أن تبذله له في حاجتك فهو يصون وجهك أن يردك بغير قضاء حاجتك.

وروى البخاري في صحيحه وغيره أن أسامة بن زيد أرسل مولاه حرملة من المدينة إلى الكوفة إلى علي عليه السلام يسأله شيئاً من المال وقال له إنه سيسألك ما خلف صاحبك عني فقل له يقول لك: لو كنت في شدق الأسد لأحببت أن أكون معك فيه ولكن هذا أمر لم أره (أي لم يكن من رأيه القتال) فلم يعطني شيئاً، فذهبت إلى حسن وحسين وابن جعفر فاوقروا لي راحلتي. قال ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري: اعتذر إليه بأن تخلفه لكراهية قتال المسلمين فلم ير علي أن يعطيه لتخلفه عن القتال وأعطاه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر من أموالهم من ثياب ونحوها قدر ما تحمله راحلته.

(قال المؤلف): ما اعتذر به أسامة عذر غير مقبول بعد قوله تعالى: فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، وكان ينبغي له أن يستحيي من علي عليه السلام ولا يسأله من مال المسلمين بعدما خذله وتخلف عن نصره، بل في بعض الروايات أنه لم يبايعه، وما فعله علي (ع) من منعه إن صح هو عين الصواب ونفس الاستحقاق، وما فعله الحسنان عليهما السلام وابن جعفر رضي

الله عنه هو مقتضى كرم بني هاشم ومقابلتهم الإساءة بالإحسان، فإذا كان منعه علي عليه السلام مما لا يستحقه فقد عوضوه عنه من مالهم جرياً على شيمتهم الكريمة.

وروى أحمد بن سليمان بن علي البحراني في عقد اللآل في مناقب الآل أن الحسين (ع) كان جالساً في مسجد جده رسول الله ﷺ بعد وفاة أخيه الحسن (ع) وكان عبد الله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أخرى، فجاء أعرابي على ناقة فعقلها باب المسجد ودخل فوقف على عتبة بن أبي سفيان فسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الأعرابي، إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً؟ فرفع رأسه إلى غلامه وقال إدفع إليه مائة درهم، فقال الأعرابي: ما أريد إلا الدية تماماً ثم تركه، وأتى عبد الله بن الزبير وقال له مثل ما قال لعتبة فقال عبد الله لغلامة ادفع إليه مائتي درهم فقال الأعرابي ما أريد إلا الدية تماماً ثم تركه، وأتى الحسين (ع) فسلم عليه وقال: يا ابن رسول الله إني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً؟ فقال له: يا إعرابي نحن قوم لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة، فقال: سل ما تريد. فقال له الحسين: يا إعرابي ما النجاة من الهلكة؟ قال التوكل على الله عز وجل، فقال وما الهمة؟ قال الثقة بالله، ثم سأله الحسين غير ذلك وأجاب الأعرابي فأمر له الحسين (ع) بعشرة آلاف درهم وقال له هذه لقضاء ديونك، وعشرة آلاف درهم أخرى وقال هذه تلم بها شعثك وتحسن بها حالك وتنفق منها على عيالك، فأنشأ الأعرابي يقول:

طربت وما هاج لي معبق ... ولا لي مقام ولا معشق

ولكن طربت لآل الرسو ... ل فلذ لي الشعر والمنطق

هم الأكرمون هم الأنجبون ... نجوم السماء بهم تشرق

سبقت الأنام إلى المكرمات ... فقصر عن سبقك السبق

بكم فتح الله باب الرشاد ... وباب الفساد بكم مغلق

رأفته بالفقراء والمساكين وإحسانه إليهم

وجد على ظهره (ع) يوم الطف أثر، فسئل زين العابدين (ع) عن ذلك فقال: هذا مما كان ينقل الجراب على ظهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين.

تواضعه

مر (ع) بمساكين وهم يأكلون كسراً على كساء فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم فجلس معهم وقال: لو أنه صدقة لأكلت معكم، ثم قال: قوموا إلى منزلي فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم.

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه (ع) مر بمساكين يأكلون في الصفة فقالوا: الغداء. فنزل وقال: إن الله لا يحب المتكبرين فتغدى، ثم قال لهم: قد أجبتكم فأجيبوني قالوا: نعم. فمضى بهم إلى منزله وقال للرباب خادمته أخرجي ما كنت تدخرين (اهـ).

حلمه

جنى غلام له جناية توجب العقاب فأمر بضربه فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ. قال: خلوا عنه، فقال: يا مولاي والعافين عن الناس، قال: قد عفوت عنك، قال: يا مولاي والله يحب المحسنين. قال: أنت حر لوجه الله ولك ضعف ما كنت أعطيك.

فصاحته وبلاغته (ع)

ربي الحسين عليه السلام بين رسول الله ﷺ أفصح من نطق بالضاد وأمير المؤمنين عليه السلام الذي كان كلامه بعد كلام النبي ﷺ، فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق، وفاطمة الزهراء التي تفرغ عن لسان أبيها ﷺ فلا غرو أن كان أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وهو الذي كان يخطب يوم عاشوراء وقد اشتد الخطب وعظم البلاء وضاق الأمر وترادفت الأهوال فلم يزعزعه ذلك ولا

اضطرب ولا تغير وخطب في جموع أهل الكوفة بجنان قوي وقلب ثابت ولسان طلق ينحدر منه الكلام كالسيل فلم يسمع متكلم قط قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه وهو الذي قال فيه عدوه وخصمه في ذلك اليوم: ويلكم كلموه فإنه ابن أبيه والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما انقطع ولما حصر.

اباؤه للضيم

أما إباؤه للضيم ومقاومته للظلم واستهانته القتل في سبيل الحق والعز فقد ضربت به الأمثال وسارت به الركبان وملئت به المؤلفات وخطبت به الخطباء ونظمته الشعراء، وكان قدوة لكل أبي ومثالاً يحتذيه كل ذي نفس عالية وهمة سامية ومنوالاً ينسج عليه أهل الاباء في كل عصر وزمان وطريقاً يسلكه كل من أبت نفسه الرضا بالدنية وتحمل الذل والخنوع للظلم، وقد أتى الحسين عليه السلام في ذلك بما حير العقول وأذهل الألباب وأدهش النفوس وملأ القلوب وأعيا الأمم عن أن يشاركه مشارك فيه وأعجز العالم أن يشابهه أحد في ذلك أو يضاهيه وأعجب به أهل كل عصر وبقي ذكره خالداً ما بقي الدهر، أبى أن يبايع يزيد بن معاوية السكير الخمير صاحب الطنابير والقيان واللاعب بالقرود والمجاهر بالكفر والإلحاد والإستهانة بالدين قائلاً لمروان. وعلى الإسلام السلام إذا قد بليت الأمة براع مثل يزيد، ولأخيه محمد بن الحنفية: والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية، في حين أنه لو بايعه لنال من الدنيا الحظ الأوفر والنصيب الأوفى ولكان معظماً محترماً عنده مرعي الجانب محفوظ المقام لا يرد له طلب ولا تخالف له إرادة لما كان يعلمه يزيد من مكانته بين المسلمين وما كان يتخوفه من مخالفته له وما سبق من تحذير أبيه معاوية له من الحسين فكان يبذل في إرضائه كل رخيص وغال، ولكنه أبى الإنقياد له قائلاً: إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة ومثلي لا يبايع مثله، فخرج من المدينة بأهل بيته وعياله وأولاده، ملازماً للطريق الأعظم لا

يحيد عنه، فقال له أهل بيته: لو تنكبته كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب، فأبت نفسه أن يظهر خوفاً أو عجزاً وقال: والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض، ولما قال له الحر: أذكرك الله في نفسك فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، أجابه الحسين عليه السلام مظهراً له استهانة الموت في سبيل الحق ونيل العز، فقال له: أفبالموت تخوفني وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني، وسأقول كما قال أخو الأوس وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فخوفه ابن عمه وقال: أين تذهب فإنك مقتول: فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما

أقدم نفسي لا أريد بقاءها ... لتلقى خميساً في الوغى وعرمرما

فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم ... كفى بك ذلاً أن تعيش فترغما

يقول الحسين (ع): ليس شأني شأن من يخاف الموت ما أهون الموت علي في سبيل نيل العز وإحياء الحق ليس الموت في سبيل العز إلا حياة خالدة، وليست الحياة مع الذل إلا الموت الذي لا حياة معه، أفبالموت تخوفني هيهات طاش سهمك وخاب ظنك لست أخاف الموت إن نفسي لأكبر من ذلك وهمتي لأعلى من أن أحمل الضيم خوفاً من الموت وهل تقدرون على أكثر من قتلي؟ مرحباً بالقتل في سبيل الله ولكنكم لا تقدرون على هدم مجدي ومحو عزي وشرفي فإذاً لا أبالي بالقتل. وهو القائل: موت في عز خير من حياة في ذل، وكان يحمل يوم الطف وهو يقول:

الموت خير من ركوب العار ... والعار أولى من دخول النار

والله من هذا وذا جاري

ولما أحيط به بكربلاء وقيل له: إنزل على حكم بني عمك، قال: لا والله! لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، فاختار المنية على الدنية وميتة العز على عيش الذل، وقال: إلا أن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وجدود

طابت وحجور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. أقدم الحسين (ع) على الموت مقدماً نفسه وأولاده وأطفاله وأهل بيته للقتل قرباناً وفاء لدين جده ﷺ بكل سخاء وطيبة نفس وعدم تردد وتوقف قائلاً بلسان حاله:

إن كان دين محمد لم يستقم — إلا بنفسي يا سيوف خذيني

روى المدائني: إن الحسن لما صالح معاوية قال أخوه الحسين: لقد كنت كارهاً لما كان طيب النفس على سبيل أبي حتى عزم علي أخي فأطعته وكأنما يجذ أنفي بالمواسي.

وقال ابن أبي الحديد: سيد أهل الإباء الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية: أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، عرض عليه الأمان وأصحابه، فأنف من الذل وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لا يقتله، فاختار الموت على ذلك. وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوي البصري يقول: كأن أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين (ع):

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده — إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه — هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مُستنقع الموت رجله — وقال لها من تحت أخمصّك الحشر
تردى ثياب الموت حمراً فما أتى — لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج أيضاً: ومن مثل الحسين بن علي عليهما السلام؟ قالوا يوم الطف: ما رأينا مكثوراً قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه. كان كالليث المحرب يحطم الفرسان حطماً، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطي بيده، فقاتل حتى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم والتوثقة بالإيمان المغلظة، وهو الذي سن للعرب الإباء واقتدى به بعده أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم.

شجاعته

أما شجاعته فقد أنست شجاعة الشجعان وبطولة الأبطال وفروسية الفرسان من مضى ومن سيأتي إلى يوم القيامة، فهو الذي دعا الناس إلى المبارزة فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل مقتلة عظيمة، وهوالذي قال فيه بعض الرواة: والله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله وإن كانت الرجالة لتشد عليه فيشد عليها بسيفه فتنكشف عن يمينه وعن شماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب، ولقد كان يحمل فيهم فينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر، وهو الذي حين سقط عن فرسه إلى الأرض وقد أثخن بالجراح، قاتل راجلاً قتال الفارس الشجاع يتقي الرمي ويفترص العورة. ويشد على الشجعان وهو يقول: أعلي تجتمعون، وهو الذي جبن الشجعان وأخافهم وهو بين الموت والحياة حين بدر خولي ليحتز رأسه فضعف وأرعد. وفي ذلك يقول السيد حيدر الحلي:

عفيراً متى عاينته الكماة ... يختطف الرعب ألوانها

فما أجلت الحرب عن مثله ... قتيلاً يجبن شجعانها

وهو الذي صبر على طعن الرماح وضرب السيوف ورمي السهام حتى صارت السهام في درعه كالشوك في جلد القنفذ وحتى وجد في ثيابه مائة وعشرون رمية بسهم وفي جسده ثلاث وثلاثون طعنة برمح وأربع وثلاثون ضربة بسيف.

أهل بيته

أما أهل بيته من أبنائه وإخواته وبني أخيه وبني عمه فكانوا خيرة أهل الأرض وفاء وإباء وشجاعة وإقداماً وعلو همم وشرف نفوس وكرم طباع، أبوا أن يفارقوه وقد أذن لهم وفدوه بنفوسهم بذلوا دونه مهجهم وقالوا له لما أذن لهم بالانصراف: ولم نفعل ذلك لنبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبداً، ولما قال لبني

عقيل: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم، اذهبوا فقد أذنت لكم، قالوا: سبحان الله! فما يقول الناس لنا، وما نقول لهم إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ما صنعوا، لا والله ما نفعل، ولكنا نفديك بأنفسنا وأحوالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك، فقتلوا جميعاً بين يديه مقبلين غير مدبرين، وهو الذي كان يقول لهم، وقد حمي الوطيس واحمر البأس مبتهجاً بأعمالهم: صبراً يا بني عمومتي صبراً يا أهل بيتي فوالله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً. فلله درهم من عصبة رفعوا منار الفخر ولبسوا ثياب العز غير مشاركين فيها وتجلببوا جلباب الوفاء، وضمخوا أعوام الدهر بعاطر ثنائهم ونشروا راية المجد والشرف تخفق فوق رؤوسهم، وجلوا جيد الزمان بأفعالهم الجميلة، وأمسى ذكرهم حياً مدى الأحقاب والدهور مالئاً المشارق والمغارب ونقشوا على صفحات الأيام سطور مدح لا تمحى وإن طال العهد وعاد سنا أنوارهم يمحو دجى الظلمات ويعلو نور الشمس والكواكب.

أصحابه

وأما أصحابه فكانوا خير أصحاب فارقوا الأهل والأحباب وجاهدوا دونه جهاد الأبطال وتقدموا مسرعين إلى ميدان القتال قائلين له أنفسنا لك الفداء نقيك بأيدينا ووجوهنا يضاحك بعضهم بعضاً قلة مبالاة بالموت وسروراً بما يصيرون إليه من النعيم، ولما أذن لهم في الانصراف أبوا وأقسموا بالله لا يخلونه أبداً ولا ينصرفون عنه قائلين: أنحن نخلي عنك وقد أحاط بك هذا العدو؟ وبم نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ وبعضهم يقول: لا والله لا يراني الله أبداً وأنا أفعل ذلك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضاربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة ولم أفارقك أو أموت معك وبعضهم يقول: والله لو علمت أني أقتل فيك ثم أحيا ثم أحرق حياً يفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك وبعضهم يقول: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت

ألف مرة وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن أهل بيتك. وبعضهم يقول: أكلتني السباع حياً إن فارقتك ولم يدعوا أن يصل إليه أذى وهم في الأحياء ومنهم من جعل نفسه كالترس له ما زال يرمى بالسهام حتى سقط. وأبدوا يوم عاشوراء من الشجاعة والبسالة ما لم ير مثله فأخذت خيلهم تحمل وإنما هي اثنان وثلاثون فرساً فلا تحمل على جانب من خيل الأعداء إلا كشفته.

بعض أخباره (ع)

روى صاحب كشف الغمة أنه لما قتل معاوية حجر بن عدي رحمه الله وأصحابه لقي في ذلك العام الحسين فقال: يا أبا عبد الله هل بلغك ما صنعت بحجر وأصحابه من شيعة أبيك؟ قال: لا، قال: إنا قتلناهم وكفناهم وصلينا عليهم، فتبسم الحسين (ع) ثم قال: خصمك القوم يوم القيامة يا معاوية أما والله لو ولينا مثلها من شيعتك ما كفناهم ولا صلينا عليهم وقد بلغني وقوعك بأبي حسن وقيامك به واعتراضك بني هاشم بالعيوب وأيم الله لقد أوترت غير قوسك ورميت غير غرضك وتناولتها بالعداوة من مكان قريب ولقد أطعت أمرأ ما قدم إيمانه ولا حدث نفاقه وما نظر لك فانظر لنفسك أو دع «يريد عمرو بن العاص» (اهـ).

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن نافع بن الأزرق (وهو من رؤساء الخوارج) قال له: صف لي الٰهك الذي تعبد فقال: يا نافع من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس مائلاً إذا كبا عن المنهاج ظاعناً بالإعوجاج ضالاً عن السبيل قائلاً غير الجميل، يا ابن الأزرق أصف إلٰهي بما وصف به نفسه، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير مستقصى، يوحد ولا يبعض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إلٰه إلا هو الكبير المتعال. فبكى ابن الأزرق وقال: ما أحسن كلامك، فقال له: بلغني أنك تشهد على أبي وعلى أخي بالكفر وعلي، قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام ونجوم الأحكام، فقال له

الحسين (ع): إني سائلك عن مسألة، قال سل: فسأله عن قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فقال: يا ابن الأزرق من حفظ في الغلامين فقال أبوهما، فقال الحسين: أبوهما خير أم رسول الله؟ فقال ابن الأزرق: قد أنبأ الله تعالى عنكم إنكم قوم خصمون (اهـ).

المكاتبة بينه وبين معاوية

روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة والكشي في كتاب الرجال أن مروان بن الحكم كتب إلى معاوية وهو عامله على المدينة: أما بعد فإن عمرو بن عثمان ذكر أن رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي وأنه لا يأمن وثوبه وقد بحثت عن ذلك فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا فاكتب إلي برأيك. فكتب إليه معاوية: بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر الحسين فإياك أن تعرض للحسين في شيء واترك حسيناً ما تركك فإنا لا نريد أن نعرض له بشيء ما وفى ببيعتنا ولم ينازعنا سلطاننا فاكمن عنه ما لم يبد لك صفحته. وكتب معاوية إلى الحسين (ع): أما بعد فقد انتهت إلي أمور عنك إن كانت حقاً فإني أرغب بك عنها ولعمر الله إن من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها ونفسك فاذكر وبعهد الله أوف فإنك متى تنكرني أنكرك ومتى تكدني أكدك فاتق شق عصا هذه الأمة وأن يردهم الله على يديك في فتنة فقد عرفت الناس وبلوتهم فانظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ﷺ ولا يستخفنك السفهاء والذين لا يعلمون. فلما وصل الكتاب إلى الحسين (ع) كتب إليه: أما بعد قد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير فإن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني فإنه رقاه إليك الملاقون المشاءون بالنميم المفرقون بين الجمع وكذب الغاوون، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن الأعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين الملحدين

حزب الظلمة وأولياء الشياطين: ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في الله لومة لائم؟ ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم جرأة على الله واستخفافاً بعهده؟ أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه، فقتلته بعدما أمنته وأعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال؟ أو لست المدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد من ثقيف فزعمت أنه ابن أبيك وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر؟ فتركت سنة رسول الله ﷺ تعمداً وتبعت هواك بغير هدى من الله ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك؟ أو لست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية أنهم على دين علي صلوات الله عليه فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي. فقتلهم ومثل بهم بأمرك ودين علي هو دين ابن عمه ﷺ الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك وبه جلست مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف، وقلت فيما قلت أنظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد واتق شق عصا هذه الأمة وأن تردهم إلى فتنة، وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد ﷺ أفضل من أن أجاهدك، فإن فعلت فإنه قربة إلى الله، وإن تركته فإني أستغفر الله لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري، وقلت فيما قلت إن أنكرتك تنكرني وإن أكدك تكدني، فكدني ما بدا لك فإني أرجو أن لا يضرني كيدك وأن لا يكون على أحد أضر منه على نفسك لأنك قد ركبت جهلك وتحرصت على نقض عهدك، ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا

وقتلوا ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا فقتلتهم مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم مت قبل أن يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا، فأبشر يا معاوية بالقصاص واستيقن بالحساب واعلم أن لله تعالى كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وليس الله بناس لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ونفيك أولياءه من دورهم إلى داز الغربة وأخذك للناس ببيعة ابنك غلام حدث يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ما أراك إلا قد خسرت نفسك وبترت دينك وغششت رعيتك وأخربت أمانتك وسمعت مقالة السفيه الجاهل وأخفت الورع التقي والسلام.

قال الكشي: فلما قرأ معاوية الكتاب قال: لقد كان في نفسه ضب ما أشعر به، فقال يزيد: يا أمير المؤمنين أجبه جواباً يصغر إليه نفسه تذكر فيه أباه بشر فعله، قال: ودخل عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقال معاوية: أما رأيت ما كتب به الحسين قال: وما هو قال: فأقرأه الكتاب فقال: وما يمنعك أن تجيبه بما يصغر إليه نفسه. وإنما قال ذلك في هوى معاوية. فقال يزيد: رأيت يا أمير المؤمنين رأيي فضحك معاوية وقال: أما يزيد فقد أشار علي بمثل رأيك، قال عبد اللّه: قد أصاب يزيد، فقال معاوية: أخطأتما أرأيتما لو إني ذهبت لعيب علي محقاً فما عسيت أن أقول فيه ومثلي لا يحسن أن يعيب بالباطل وما لا يعرف ومتى ما عبت رجلاً بما لا يعرفه الناس لم يحفل به ولا يراه الناس شيئاً وكذبوه وما عسيت أن أعيب حسيناً ووالله ما أرى للعيب فيه موضعاً وقد رأيت أن أكتب إليه أتوعده وأتهدده ثم رأيت أن لا أفعل.

وكان لمعاوية عين بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس فكتب إليه أن الحسين بن علي أعتق جارية له وتزوجها فكتب معاوية إلى الحسين من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي أما بعد: فإنه بلغني إنك تزوجت جاريتك وتركت إكفاءك من قريش من تستنجبه للولد وتمجد به في الصهر فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت. فكتب إليه الحسين (ع):

أما بعد فقد بلغني كتابك وتعييرك إياي بأني تزوجت مولاتي وتركت أكفائي من قريش فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ولا غاية في نسب وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدي بأمر التمست فيه ثواب الله ثم ارتجعتها على سنة نبيه ﷺ وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنا به النقيصة فلا لوم على امرىء مسلم إلا في أمر مأثم وإنما اللوم لوم الجاهلية.

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال: لشد ما فخر عليك الحسين قال: لا ولكنها ألسنة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر وتغرف من البحر (اهـ).

رده على معاوية حين أراد البيعة ليزيد

روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن معاوية لما أراد البيعة ليزيد قدم المدينة، فدخل عليه الحسين وابن عباس فسأل الحسين عن حال بني أخيه وأسنانهم فأخبره ثم خطب معاوية خطبة ذكر فيها النبي ﷺ وقال في آخرها: قد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وقد علم الله ما أحاول به في أمر الرعية من سد الخلل ولم الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين وأحمد الفعل هذا معناي في يزيد وفيكما فضل القرابة وحظوة العلم وكمال المروءة وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ما أعياني مثله وعند غيركما مع علمه بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذي يرجح بالصم الصلاب وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة قدم على الصديق والفاروق ومن دونهما من أكابر الصحابة وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل من لم يقارب القوم. وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة فمهلاً بني عبد المطلب فأنا وأنتم شعباً نفع وجد وما زلت أرجو الإنصاف في اجتماعكما فما يقول القائل إلا بفضل قولكما فردا على ذي رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة في عتابكما واستغفر الله لي ولكما.

قال فتيسر ابن عباس للكلام ونصب يده للمخاطبة فأشار إليه الحسين (ع) وقال على رسلك فأنا المراد ونصيبي في التهمة أوفر فأمسك ابن عباس.

فقام الحسين فحمد الله وصلى على الرسول ثم قال: أما بعد يا معاوية فلن يؤدي القائل وأن أطنب في صفة الرسول ﷺ من جميع جزءاً وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكب عن استبلاغ البيعة وهيهات هيهات يا معاوية فضح الصبح فحمة الدجى وبهرت الشمس أنوار السرج ولقد فضلت حتى أفرطت واستأثرت حتى أجحفت ومنعت حتى بخلت وجرت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه من نصيب حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه. فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش والحمام السبق لأترابهن والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً ودع عنك ما تحاول فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ولات حين مناص ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ومنعتنا عن آبائنا تراثاً ولقد لعمر الله أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول ﷺ فأذعن للحجة بذلك ورده الإيمان إلى النصف فركبتم الأعاليل وفعلتم الأفاعيل وقلتم كان ويكون حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله ﷺ وتأميره له وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وببعثه له وما صار لعمرو يومئذ حتى أنف القوم أمرته وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله فقال ﷺ لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول في أوكد الأحوال وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب أم كيف ضاهيت بصاحب تابعاً وحولك من يؤمن في صحبته ويعتمد في دينه وقرابته وتتخطاهم إلى مسرف مفتون تريد أن تلبس الناس

شبهة يسعد بها الباقي في دنياه وتشقى بها في آخرتك إن هذا لهو الخسران المبين واستغفر الله لي ولكم.

قال فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال: ما هذا يا ابن عباس ولما عندك أدهى وأمر فقال ابن عباس: لعمر الله إنها لذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء ومن البيت المطهر فاسأله عما تريد فإن لك في الناس مقنعاً حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين.

إقامة الذكرى لقتل الحسين (ع) والبكاء عليه كل عام

قد قضى العقل والدين باحترام عظماء الرجال أحياء وأمواتاً وتجديد الذكرى لوفاتهم وشهادتهم وإظهار الحزن عليهم لا سيما من بذل نفسه وجاهد حتى قتل لمقصد سامٍ وغاية نبيلة، وقد جرت على ذلك الأمم في كل عصر وزمان وجعلته من أفضل أعمالها وأسنى مفاخرها، فحقيق بالمسلمين بل جميع الأمم أن يقيموا الذكرى في كل عام للحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فإنه من عظماء الرجال وأعاظمهم في نفسه ومن الطراز الأول، جمع أكرم الصفات وأحسن الأخلاق وأعظم الأفعال وأجل الفضائل والمناقب علماً وفضلاً وزهادة وعبادة وشجاعة وسخاء وسماحة وفصاحة ومكارم أخلاق واباء للضيم ومقاومة للظلم وقد جمع إلى كرم الحسب شرف العنصر والنسب، فهو أشرف الناس أباً وأماً وجداً وجدة وعماً وعمة وخالاً وخالة، جده رسول الله ﷺ سيد النبيين وأبوه علي أمير المؤمنين وسيد الوصيين وأمه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين وأخوه الحسن المجتبى وعمه جعفر الطيار وعم أبيه حمزة سيد الشهداء وجدته خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأمة إسلاماً وعمته أم هانىء وخاله إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وخالته زينب بنت رسول الله ﷺ. وقد جاهد لنيل أسمى المقاصد وأنبل الغايات وقام بما لم يقم بمثله أحد قبله ولا بعده فبذل نفسه وماله وآله في سبيل إحياء الدين وإظهار فضائح المنافقين واختار المنية على الدنية وميتة العز على حياة الذل ومصارع الكرام على طاعة اللئام

وأظهر من أباء الضيم وعزة النفس والشجاعة والبسالة والصبر والثبات ما بهر العقول وحير الألباب واقتدى به في ذلك كل من جاء بعده حتى قال القائل:

وإن الأولى بالطف من آل هاشم تآسوا فسنوا للكرام التآسيا

وحتى قال آخر كأن أبيات أبي تمام ما قيلت إلا في الحسين (ع) وهي قوله:

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

«الأبيات المتقدمة» وحقيق بمن كان كذلك أن تقام له الذكرى في كل عام وتبكي له العيون دماً بدل الدموع.

الحسين (ع) معظم حتى عند الخوارج أعداء أبيه وأخيه وليس أعجب ممن يتخذ يوم عاشوراء يوم فرح وسرور واكتحال وتوسعة على العيال لإخبار وضعت في زمن الملك العضوض اعترف بوضعها النقاد وسنها الحجاج بن يوسف عدو الله وعدو رسوله، وأي مسلم تطاوعه نفسه أو يساعده قلبه على الفرح في يوم قتل ابن بنت نبيه وريحانته وابن وصيه؟ وبماذا يواجه رسول الله ﷺ وبماذا يعتذر إليه وهو مع ذلك يدعي محبة رسول الله ﷺ وآله ومن شروط المحبة والفرح لفرح المحبوب والحزن لحزنه. ولو أنصف باقي المسلمين ما عدوا طريقة الشيعة في إقامة الذكرى للحسين (ع) كل عام وإقامة مراسم الحزن يوم عاشوراء، فهل كان الحسين (ع) دون جاندارك التي يقيم لها الإفرنسيون الذكرى في كل عام وهل عملت لأمتها ما عمله الحسين لأمته أو دونه. الحسين (ع) سن للناس درساً نافعاً، ونهج لهم سبيلاً مهيعاً في تعلم الإباء والشمم وطلب الحرية والاستقلال، ومقاومة الظلم، ومعاندة الجور، وطلب العز ونبذ الذل، وعدم المبالاة بالموت في سبيل نيل الغايات السامية، والمقاصد العالية، وأبان فضائح المنافقين، ونبه الأفكار إلى التحلي بمحاسن الصفات، وسلوك طريق الأباة والاقتداء بهم وعدم الخنوع للظلم والجور والاستعباد.

وبكى زين العابدين على مصيبة أبيه عليهما السلام أربعين سنة وكان

الصادق (ع) يبكي لتذكر مصيبة الحسين (ع) ويستنشد الشعر في رثائه ويبكي، وكان الكاظم (ع) إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام منه، فإذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه، وقال الرضا (ع): إن يوم الحسين أقرح جفوننا وأسال دموعنا وأورثنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، وقد حثوا شيعتهم وأتباعهم على إقامة الذكرى لهذه الفاجعة الأليمة في كل عام، وهم نعم القدوة وخير من اتبع وأفضل من اقتفي أثره وأخذت منه سنة رسول الله.

وقال السيد علي جلال الحسيني المصري المعاصر في كلام له في مقدمة كتاب الحسين: التقطنا منه هذه الكلمات، وفيها جملة من صفات الحسين (ع) واستحسان إقامة الذكرى له: إن الأمة التي تعنى بسير عظمائها ومن امتاز منها بأمر في الدين أو تفرد بعمل من أعمال الدنيا وتعرف أخبارهم تحفظ تاريخ حياتها وتستفيد منه، والسيد الإمام أبو عبد اللّه الحسين (ع) ابن بنت رسول الله ﷺ وريحانته وابن أمير المؤمنين علي (ع) ونشأة بيت النبوة له أشرف نسب وأكمل نفس، جمع الفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال من علو الهمة ومنتهى الشجاعة وأقصى غاية الجود وأسرار العلم وفصاحة اللسان ونصرة الحق والنهي عن المنكر وجهاد الظلم والتواضع عن عز والعدل والصبر والحلم والعفاف والمروءة والورع وغيرها، واختص بسلامة الفطرة وجمال الخلقة ورجاحة العقل وقوة الجسم. وأضاف إلى هذه المحامد كثرة العبادة وأفعال الخير، كالصلاة والصوم والحج والجهاد في سبيل الله والإحسان. وكان إذا أقام بالمدينة أو غيرها مفيداً بعلمه مرشداً بعمله مهذباً بكريم أخلاقه مؤدباً ببليغ بيانه سخياً بماله متواضعاً للفقراء معظماً عند الخلفاء مواصلاً للصدقة على الأيتام والمساكين منتصفاً للمظلومين مشتغلاً بعبادته، مشى من المدينة على قدميه إلى مكة حاجاً خمساً وعشرين مرة، وعاش مدة يقاتل مع أبيه أصحاب الجمل فجنود معاوية فالخوارج، فكان الحسين في وقته علم المهتدين ونور الأرض، فأخبار حياته فيها هدى للمسترشدين بأنوار محاسنه المقتفين آثار فضله، ولا شك أن

الأمة تنفعها ذكرى ما أصابها من الشدائد في زمن بؤسها كما يفيدها تذكر ما كسبته من المآثر أيام عزها. ومقتل الحسين من الحوادث العظيمة وذكراه نافعة وإن كان حديثه يحزن كل مسلم ويسخط كل عاقل. وقال في الكتاب المذكور:

ومن عجيب أمره (ع) أن يقتله شيعته ثم يجددون الحزن عليه في جميع بلاد المسلمين كل عام من يوم قتله إلى الآن.

(أقول): حاش لله أن يكون الذين قتلوه هم شيعته، بل الذين قتلوه بعضهم أهل طمع لا يرجع إلى دين، وبعضهم أجلاف أشرار، وبعضهم اتبعوا رؤساءهم الذين قادهم حب الدنيا إلى قتاله، ولم يكن فيهم من شيعته ومحبيه أحد، أما شيعته المخلصون فكانوا له أنصاراً وما برحوا حتى قتلوا دونه ونصروه بكل ما في جهدهم إلى آخر ساعة من حياتهم، وكثير منهم لم يتمكن من نصره أو لم يكن عالماً بأن الأمر سينتهي إلى ما انتهى إليه، وبعضهم خاطر بنفسه وخرق الحصار الذي ضربه ابن زياد على الكوفة وجاء لنصره حتى قتل معه، أما أن أحداً من شيعته ومحبيه قاتله فذلك لم يكن، وهل يعتقد السيد علي جلال إن شيعته الخلص كانت لهم كثرة مفرطة؟ كلا، فما زال أتباع الحق في كل زمان أقل قليل ويعلم ذلك بالعيان وبقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. ومن ذلك تعلم الخطأ في قوله: ثم يجددون الحزن عليه الخ وهذه هفوة من هذا السيد الذي أجاد في أكثر ما كتبه عن الحسين (ع) في كتابه المذكور لكنه تبع في هذا الكلام عن سلامة نية من يريد عيب الشيعة بكل وسيلة ويستنكر تجديد الحزن على الحسين (ع) في كل عام. ثم قال ونعم ما قال: «كما إن حياة الحسين (ع) منار المهتدين فمصرعه عظة المعتبرين وقدوة المستبسلين. ألم تر كيف اضطره نكد الدنيا إلى إيثار الموت على الحياة وهو أعظم رجل في وقته لا نظير له في شرقها ولا غربها. وأبت نفسه الكريمة الضيم واختار السلة على الذلة فكان كما قال فيه أبو نصر بن نباتة:

والحسين الذي رأى الموت في العز   حياة والعيش في الذل قتلا

ومع التفاوت الذي بلغ أقصى ما يتصور بين فئته القليلة وجيش ابن زياد في العدد والمدد قد كان ثباته ورباطة جأشه وشجاعته تحير الألباب ولا عهد للبشر بمثلها كما كانت دناءة أخصامه لا شبيه لها. وما سمع منذ خلق العالم ولن يسمع حتى يفنى أفظع من ضرب ابن مرجانة من ابن سمية بقضيب ثغر ابن بنت رسول الله ورأسه بين يديه بعد أن كان سيد الخلق عليه الصلاة والسلام يلثمه، ومن آثار العدل الإلهي قتل عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء كما قتل الحسين يوم عاشوراء وأن يبعث برأسه إلى علي بن الحسين كما بعث برأس الحسين إلى ابن زياد. وهل أمهل يزيد بن معاوية بعد الحسين إلا ثلاث سنين أو أقل. وأي موعظة أبلغ من أن كل من اشترك في دم الحسين اقتص الله تعالى منه فقتل أو نكب. وأي عبرة لأولي الأبصار أعظم من كون ضريح الحسين حرماً معظماً وقبر يزيد بن معاوية مزبلة. وتأمل عناية الله بالبيت النبوي الكريم يقتل أبناء الحسين ولا يترك منهم إلا صبي مريض أشفى على الهلاك فيبارك الله في أولاده فيكثر عددهم ويعظم شأنهم. والذين قتلوا مع الحسين من أهل بيته رجال ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه كما قال الحسن البصري: وكانوا جرثومة الشهامة والشمم والقدوة في الصبر والحرب والكرم:

وإن الأولى بالطف من آل هاشم   تآسوا فسنوا للكرام التآسيا

وكل من أصابته الشدائد جعل رئيس هؤلاء الكرام أسوة كمصعب بن الزبير وبني المهلب وغيرهم. ومقتل الحسين (ع) بغض بني أمية إلى الناس وأيد حجة أعدائهم وزعزع أوتاد ملكهم وكان أكبر أسباب زوال دولتهم. والحسين (ع) هو الذي عبّد للأمم طريق الخروج على ولاة الفسق والجور ودعا إلى جهاد الظلم من استطاع إليه سبيلاً فجاد بنفسه وبذل مهجته لإقامة الحق والعدل والسنة مقام الباطل والاستبداد والأهواء. ولو قدرت ولاية الحسين (ع) لكانت خيراً للأمة في حكومتها وحياتها وأخلاقها وجهادها، وشتان ما بين السبط الزكي والظالم السكير يزيد القرود والطنابير، وهل يستوي الفاسق الجائر والعادل الإمام؟ وأين الذهب من الرغام؟ لكن اقتضت الحكمة الإلهية سير

الحوادث بخلاف ذلك وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له، واقتضت أيضاً أن يبقى أثر جهاد الحسين (ع) على ممر الدهور كلما أرهق الناس الظلم تذكره من ندب نفسه لخدمة الأمة فلم يحجم عن بذل حياته متى كانت فيه مصلحة لها».

الاعتذار عمن خذله

قال السيد علي جلال الحسيني في كتاب الحسين: الصحابة الموجودون في عصر الحسين كانوا يعلمون فسق يزيد وظلمه فمنهم من رأى الخروج عليه كابن الزبير ومنهم من امتنع عن مبايعته كعبد الله بن عمرو بن العاص حتى دعا نائب أمير مصر بالنار ليحرق عليه بابه، ومنهم من أبى الخروج عليه وقعدوا عن نصرة الحسين، وهؤلاء كان عدم خروجهم اجتهاداً منهم، وهم إن قعدوا عما رآه الحسين حقاً فلم ينصروا الباطل ولا لوم عليهم فيما فعلوا.

(أقول): بل اللوم عليهم حاصل والاجتهاد في مقابل النص باطل، ومن خذل الحق فهو كمن نصر الباطل وكلاهما عن الصواب مائل لا يعذره عاقل، أما ابن الزبير فما كان خروجه إلا طلباً للملك ولو كان لنصر الحق لنصر الحسين وقد كان الحسين أثقل الناس عليه بمكة.

قال: واللوم على أهل العراق فهم المسؤولون عما صنعوا لأنهم أخلفوا الحسين ما وعدوه ثم خذلوه وقاتلوه وقتلوه.

(أقول): إذا كان الحسين على الحق، وهو على الحق، فنصرته واجبة على كل أحد سواء من وعده النصرة وغيرهم، أهل العراق وغيرهم.

قال: ومن غريب أمر شيعة الحسين إنهم خذلوه حياً ونصروه ميتاً فإنهم بعد قتله ندموا على ما فرطوا في حقه وسموا أنفسهم التوابين وقاموا لأخذ ثأره فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد.

(أقول): وأعجب منهم عموم أمة جده الذين خذلوه حياً وميتاً ولم ينصروه ولم يستبينوا الرشد لا في ضحى الغد ولا في غيره فمن خذله حياً ثم ندم وتاب

وطلب بثأره أحسن حالاً ممن خذله وبقي مصراً على ذنبه ولم يتب ولم يندم وأقام على طاعة أعداء الله، على أن هؤلاء التوابين أكثرهم لم يكن مخلى السرب لينصره بل كان محجوراً عليه من قبل ابن زياد وأتباعه وكان لا يمكنه الوصول إليه إلا بشدة. . .

بكاء علي بن الحسين زين العابدين على أبيه عليهما السلام

روى ابن شهراشوب في المناقب عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال: بكى علي بن الحسين عشرين سنة وما وضع بين يديه طعام إلا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف أن تكون من الهالكين، قال (ع): إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة (ورواه) ابن قولويه في الكامل بسنده عن الصادق (ع) مثله إلا أنه زاد بعد عشرين سنة أو أربعين سنة. (قال) ابن شهراشوب وفي رواية: أما آن لحزنك أن ينقضي فقال له: ويحك إن يعقوب النبي ﷺ كان له اثنا عشر ابناً فغيب الله واحداً منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه واحدودب ظهره من الغم وكان ابنه حياً في دار الدنيا، وأنا نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر رجلاً من أهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني (قال) وقد ذكر في الحلية نحوه وقيل: إنه بكى حتى خيف على عينيه. وقيل له: إنك لتبكي دهرك فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي (اهـ).

بكاء أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق على مصيبة جده الحسين (ع)

روى ابن قولويه في الكامل بسنده عن ابن خارجة قال: كنا عند أبي عبد الله جعفر الصادق (ع) فذكرنا الحسين بن علي (ع) فبكى أبو عبد الله وبكينا ثم رفع رأسه فقال: قال الحسين بن علي أنا قتيل العبرة لا يذكرني مؤمن إلا بكى (وروى) في الكتاب المذكور بسنده عن مسمع كردين قال: قال لي أبو

موسى الرضا (ع) بمرو فقال له: يا ابن رسول الله إني قد قلت فيكم قصيدة وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك فقال عليه السلام: هاتها فأنشده:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فلما بلغ إلى قوله:

أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات

بكى أبو الحسن الرضا (ع) وقال له: صدقت يا خزاعي.

حداد بني هاشم ونسائهم على الحسين (ع) حتى قتل ابن زياد

عن الصادق (ع) أنه قال: ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت ولا رئي في دار هاشمي دخان خمس سنين حتى قتل عبيد اللّه بن زياد. وعن فاطمة بنت علي أمير المؤمنين (ع) أنها قالت: ما تحنأت امرأة منا ولا أجالت في عينها مروداً ولا امتشطت حتى بعث المختار برأس عبيد اللّه بن زياد. وروى ابن قولويه في كامل الزيارة بسنده عن أبي عبد اللّه جعفر الصادق (ع) أنه قال: ما اختضبت منا امرأة ولا أدهنت ولا اكتحلت ولا رجلت حتى أتانا رأس عبيد اللّه بن زياد وما زلنا في عبرة بعده وكان جدي «يعني علي بن الحسين (ع)» إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه.

الحزن يوم عاشوراء سنة وجعله عيداً أقبح البدع

من السنة يوم عاشوراء إظهار الحزن والجزع والبكاء والجلوس لذلك؛ **أولاً**: لأن فيه مواساة لرسول الله ﷺ الذي لا شك في أنه حزين في ذلك اليوم جزعاً على ولده وفلذة كبده ومن كان في حياته يحبه أشد الحب ويعزه ويكرمه ويلاعبه ويداعبه ويحمله على كتفه والذي كان بكاؤه يؤذيه ولم يرض من أم الفضل أن تناله بشيء يبكيه وأي مسلم يرغب عن مواساة نبيه في حزنه على حبيبه وولده وفلذة كبده أم أي طاعة أعظم وأجل وأفضل عند الله تعالى وأحب

إليه وأشد تقريباً لديه من مواساة أفضل رسله في حزنه على ولده الذي بذل نفسه لأحياء دينه، **ثانياً**: إنه ثبت عن أئمة أهل البيت النبوي أنهم أقاموا المآتم في مثل هذا اليوم بل في كل وقت وحزنوا وبكوا لهذه الفاجعة .وحثوا أتباعهم على ذلك فقد ثبت عن الإمام الرضا (ع) أنه قال: كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام منه فإذا كان العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وقد مر بكاء الصادق (ع) لما أنشده السيد الحميري حتى بكى حرمه من خلف الستر ومر بكاء زين العابدين بعد قتل أبيه عليهما السلام طول حياته واحتجاجه لما ليم في ذلك بأن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم كان نبياً ابن نبي وقد بكى على فراق ولده يوسف حتى ذهب بصره واحدودب ظهره وابنه حي في دار الدنيا قال: وأنا رأيت أبي وأخي وسبعة عشر رجلاً من أهل بيتي صرعى مقتولين فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي؟ وتقدم بكاء سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام لذلك وهم نعم القدوة ولنا بهم أحسن الأسوة. أما اتخاذ يوم عاشوراء يوم عيد وفرح وسرور وإجراء مراسيم الأعياد فيه من طبخ الحبوب وشراء الألبان والاكتحال والزينة والتوسعة على العيال فهي سنة أموية حجاجية وهي من أقبح البدع وأشنعها وإن كان قد اختلق فيها علماء السوء وأعوان الظلمة شيئاً من الأحاديث فإنما ذاك في عهد الملك العضوض عداوة لرسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ومراغمة لشيعتهم ومحبيهم وتبعهم من تبعهم غفلة عن حقيقة الحال وكيف يرضى المسلم لنفسه أن يفرح في يوم قتل ابن بنت نبيه وفي يوم يحزن فيه رسول الله ﷺ وأهل بيته كما مر في مطاوي ما تقدم ولم يكن جعل يوم عاشوراء عيداً معروفاً في الديار المصرية وأول من أدخله إليها صلاح الدين الأيوبي كما حكاه المقريزي في خططه والظاهر أن الباعث عليه كان أمراً سياسياً وهو مراغمة الفاطميين الذين سلبهم صلاح الدين ملكهم فقصد إلى محو كل أثر لهم. ومن السنة في يوم عاشوراء ترك السعي في الحوائج وترك ادخار شيء فيه.

خروجه من المدينة

قال المفيد: روى الكلبي والمدائني وغيرهما من أصحاب السيرة قالوا: لما مات الحسن (ع) تحركت الشيعة بالعراق وكتبوا إلى الحسين (ع) في خلع معاوية والبيعة له فامتنع عليهم وذكر أن بينه وبين معاوية عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة فإذا مات معاوية نظر في ذلك. فلما مات معاوية منتصف رجب سنة ستين من الهجرة وتخلف بعده ولده يزيد وكان الوالي في ذلك الوقت على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق من بني أمية وعلى الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري وعلى البصرة عبيد اللّه بن زياد. كتب يزيد إلى ابن عمه الوليد بن عتبة والي المدينة مع مولى لمعاوية يقال له ابن أبي زريق يأمره بأخذ البيعة على أهلها وخاصة على الحسين (ع) ولا يرخص له في التأخر عن ذلك ويقول: إن أبى عليك فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه. وكان معاوية قبل وفاته قد حذر يزيد من أربعة: الحسين بن علي وعبد اللّه بن الزبير وعبد اللّه بن عمر وعبد الرحمٰن بن أبي بكر ولا سيما من الحسين وابن الزبير أما ابن الزبير فهرب إلى مكة على طريق الفرع هو وأخوه جعفر ليس معهما ثالث وأرسل الوليد خلفه أحد وثمانين راكباً فلم يدركوه وكان ابن عمر بمكة. وأما الحسين (ع) فأحضر الوليد مروان بن الحكم واستشاره في أمره. فقال: إنه لا يقبل ولو كنت مكانك لضربت عنقه، فقال الوليد: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، ثم بعث إلى الحسين (ع) في الليل فاستدعاه فعرف الحسين (ع) الذي أراد فدعا بجماعة من أهل بيته ومواليه وكانوا ثلاثين رجلاً وأمرهم بحمل السلاح وقال لهم: إن الوليد قد استدعاني في هذا الوقت ولست آمن أن يكلفني فيه أمراً لا أجيبه إليه وهو غير مأمون فكونوا معي فإذا دخلت فاجلسوا على الباب فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه لتمنعوه عني، فصار الحسين (ع) إلى الوليد فوجد عنده مروان بن الحكم فنعى إليه الوليد معاوية فاسترجع الحسين (ع) ثم قرأ عليه كتاب يزيد وما أمره فيه من أخذ البيعة منه ليزيد، فلم يرد الحسين (ع) أن يصارحه بالامتناع من

البيعة وأراد التخلص منه بوجه سلمي، فورى عن مراده وقال: إني أراك لا تقنع ببيعتي سراً حتى أبايعه جهراً فيعرف ذلك الناس، فقال له الوليد: أجل؛ فقال الحسين (ع): تصبح وترى رأيك في ذلك، فقال له الوليد: انصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس، فقال له مروان: والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ولكن احبس الرجل فلا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه، فلما سمع الحسين (ع) هذه المجابهة القاسية من مروان الوزغ ابن الوزغ صارحهما حينئذ بالامتناع من البيعة وأنه لا يمكن أن يبايع ليزيد أبداً، فوثب الحسين (ع) عند ذلك وقال لمروان: ويلي عليك يا ابن الزرقاء أنت تأمر بضرب عنقي، كذبت والله ولؤمت، ثم أقبل على الوليد فقال: أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم؛ ويزيد فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة؛ ثم خرج يتهادى بين مواليه وهو يتمثل بقول يزيد بن المفرع:

لا ذعرت السوام في غسق الصبـ ... ـح مغيراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطي مخافة الموت ضيماً ... والمنايا يرصدنني أن أحيدا

حتى أتى منزله. وقيل: إنه أنشدهما لما خرج من المسجد الحرام متوجهاً إلى العراق، وقيل غير ذلك، فقال مروان للوليد: عصيتني لا والله لا يمكنك مثلها من نفسه أبداً، فقال له الوليد: ويحك إنك أشرت علي بذهاب ديني ودنياي والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها وإني قتلت حسيناً، سبحان الله أقتل حسيناً لما أن قال لا أبايع، والله ما أظن أحداً يلقى الله بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم. فقال مروان: فإذا كان هذا رأيك فقد أصبت فيما صنعت، يقول هذا وهو غير حامد له على رأيه، قال المؤرخون: وكان الوليد يحب العافية. والحقيقة أنه كان متورعاً عن أن ينال الحسين (ع) منه سوء لمعرفته بمكانته لا مجرد حب العافية. ولما

بلغ يزيد ما صنع الوليد عزله عن المدينة وولاها عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق فقدمها في رمضان.

وأقام الحسين (ع) في منزله تلك الليلة وهي ليلة السبت لثلاث بقين من رجب سنة ستين فلما أصبح خرج من منزله يستمع الأخبار، فلقيه مروان فقال له: يا أبا عبد الله إني لك ناصح فأطعني ترشد، فقال الحسين (ع): وما ذاك قل حتى أسمع، فقال مروان: إني آمرك ببيعة يزيد بن معاوية فإنه خير لك في دينك ودنياك، فقال الحسين (ع): إنا لله وإنا إليه راجعون وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد. وطال الحديث بينه وبين مروان حتى انصرف وهو غضبان فلما كان آخر نهار السبت بعث الوليد الرجال إلى الحسين (ع) ليحضر فيبايع فقال لهم الحسين (ع): أصبحوا ثم ترون ونرى فكفوا تلك الليلة عنه ولم يلحوا عليه فخرج في تلك الليلة وقيل في غداتها وهي ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب متوجهاً نحو مكة. ولما علم ابن الحنفية عزمه على الخروج من المدينة لم يدر أين يتوجه، فقال له: يا أخي أنت أحب الناس إلي وأعزهم علي ولست والله أدخر النصيحة لأحد من الخلق وليس أحد من الخلق أحق بها منك لأنك مزاج مائي ﷺ ونفسي وروحي وبصري وكبير أهل بيتي ومن وجبت طاعته في عنقي لأن الله قد شرفك علي وجعلك من سادات أهل الجنة تنح ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فإن تابعك الناس وبايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن اجتمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك وإني أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة غرضاً فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضعيها دماً وأذلها أهلاً، فقال له الحسين (ع): فأين أذهب يا أخي؟ قال: تخرج إلى مكة فإن اطمأنت بك الدار بها فذاك وإن تكن الأخرى خرجت إلى بلاد اليمن فإنهم أنصار جدك وأبيك وهم أرأف الناس وأرقهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً فإن اطمأنت بك الدار

وإلا لحقت بالرمال وشعف الجبال وجزت من بلد إلى بلد حتى تنظر ما يؤول إليه أمر الناس ويحكم الله بيننا وبين القوم الفاسقين فإنك أصوب ما تكون رأياً حين تستقبل الأمر استقبالاً، فقال الحسين (ع): يا أخي والله لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية، فقطع محمد بن الحنفية عليه الكلام وبكى، فبكى الحسين (ع) معه ساعة، ثم قال: يا أخي جزاك الله خيراً فقد نصحت وأشفقت وأرجو أن يكون رأيك سديداً موفقاً وأنا عازم على الخروج إلى مكة وقد تهيأت لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي أمرهم أمري ورأيهم رأيي وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عيناً عليهم لا تخفي عني شيئاً من أمورهم.

وأقبلت نساء بني عبد المطلب فاجتمعن للنياحة لما بلغهن أن الحسين (ع) يريد الشخوص من المدينة، حتى مشى فيهن الحسين (ع) فقال: أنشدكن الله أن تبدين هذا الأمر، معصية لله ولرسوله، قالت له نساء بني عبد المطلب: فلمن نستبقي النياحة والبكاء فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن ورقية وزينب وأم كلثوم جعلنا الله فداك من الموت يا حبيب الأبرار من أهل القبور.

ولما عزم الحسين (ع) على الخروج من المدينة مضى في جوف الليل إلى قبر أمه فودعها ثم مضى إلى قبر أخيه الحسن (ع) ففعل كذلك وخرج معه بنو أخيه وأخوته وجل أهل بيته إلا محمد بن الحنفية وعبد اللّه بن جعفر.

وخرج (ع) من المدينة في جوف الليل وهو يقرأ (فخرج منها خائفاً يترقب قال: رب نجني من القوم الظالمين) ولزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته: لو تنكبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير كي لا يلحقك الطلب فقال: لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض، فلقيه عبد اللّه بن مطيع فقال له: جعلت فداك أين تريد؟ قال: أما الآن فمكة وأما بعد فإني أستخير الله قال: خار الله لك وجعلنا فداك فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشؤومة بها قتل

أبوك وخذل أخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه، الزم الحرم فأنت سيد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً ويتداعى إليك الناس من كل جانب، لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي؛ فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك. وكان دخوله (ع) إلى مكة يوم الجمعة لثلاث مضين من شعبان فيكون مقامه في الطريق نحواً من خمسة أيام لأنه خرج من المدينة لليلتين بقيتا من رجب كما مر.

ودخلها وهو يقرأ (ولما توجه تلقاء مدين قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) فأقام بمكة باقي شعبان وشهر رمضان وشوالاً وذا القعدة وثماني ليال من ذي الحجة. وأقبل أهل مكة ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق يختلفون إليه وابن الزبير بها قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين (ع) فيمن يأتيه اليومين المتواليين وبين كل يوم مرة ولا يزال يشير عليه بالرأي وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لأنه قد علم أن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين (ع) باقياً في البلد وإن الحسين (ع) أطوع في الناس منه وأجل.

دعوة أهل الكوفة

ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين (ع) من البيعة أرجفوا بيزيد، وعقد اجتماع في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فلما تكاملوا قام سليمان فيهم خطيباً وقال في آخر خطبته: إنكم قد علمتم بأن معاوية قد هلك وصار إلى ربه وقدم على عمله وقد قعد في موضعه ابنه يزيد وهذا الحسين بن علي قد خالفه وصار إلى مكة هارباً من طواغيت آل سفيان وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله وقد احتاج إلى نصرتكم اليوم فإن كنتم تعلمون إنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه قالوا: بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه فأرسلوا وفداً من قبلهم وعليهم أبو عبد اللّه الجدلي وكتبوا إليه معهم (بسم الله الرحمٰن الرحيم للحسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد البجلي وحبيب بن مظاهر وعبد اللّه بن وال وشيعته من المؤمنين والمسلمين سلام عليك أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك من قبل

الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها فيأها وتأمر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وعتاتها فبعداً له كما بعدت ثمود وأنه ليس علينا إمام غيرك فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ولو قد بلغنا إنك أقبلت أخرجناه حتى يلحق بالشام إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله يا ابن رسول الله وعلى أبيك من قبلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقيل إنهم سرحوا الكتاب مع عبد اللّه بن مسمع الهمداني وعبد اللّه بن وال وأمروهما بالنجاء فخرجا مسرعين حتى قدما على الحسين (ع) بمكة لعشر مضين من شهر رمضان ثم لبثوا يومين وأنفذوا قيس بن مسهر الصيداوي وعبد الرحمٰن بن عبد اللّه بن شداد الأرحبي وعمارة بن عبد اللّه السلولي إلى الحسين (ع) ومعهم نحو مائة وخمسين صحيفة من الرجل والاثنين والأربعة وهو مع ذلك يتأنى ولا يجيبهم، فورد عليه في يوم واحد ستمائة كتاب وتواترت الكتب حتى اجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب، ثم لبثوا يومين آخرين وسرحوا إليه هاني بن هاني السبيعي وسعيد بن عبد اللّه الحنفي وكانا آخر الرسل وكتبوا إليه (بسم الله الرحمٰن الرحيم) للحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين أما بعد فحيهلا فإن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل ثم العجل العجل والسلام. ثم كتب معهما أيضاً شبث بن ربعي التميمي وحجار بن أبجر العجلي ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيباني وعزرة بن قيس الأحمسي وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير بن عطارد بن حاجب ابن زرارة التميمي (أما بعد) فقد اخضر الجناب وأينعت الثمار فإذا شئت فأقبل على جند لك مجند والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك.

(وفي رواية) إن أهل الكوفة كتبوا إليه آن لك هنا مائة ألف سيف فلا تتأخر وتلاقت الرسل كلها عنده فقال الحسين (ع): لهاني وسعيد خبراني من اجتمع على هذا الكتاب الذي سير إلي معكما فقالا: يا ابن رسول الله شبث بن ربعي

وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم وعزرة بن قيس وعمرو بن الحجاج ومحمد بن عمير بن عطارد (وكل هؤلاء خرج لقتال الحسين (ع)» وهم من أعيان الكوفة ووجوهها، فعندها قام الحسين (ع) فصلى ركعتين بين الركن والمقام وسأل الله الخيرة في ذلك ثم كتب مع هاني بن هاني وسعيد بن عبد اللّه (بسم الله الرحمن الرحيم) من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين أما بعد فإن هانياً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلكم أنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق والهدى وأنا باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل فإن كتب إلي أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم فإني أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله تعالى فلعمري ما الإمام إلا الحاكم بالكتاب القائم بالقسط الدائن بدين الحق الحابس نفسه على ذلك لله والسلام.

ودعا الحسين (ع) ابن عمه مسلم بن عقيل، وقيل إنه كتب معه جواب كتبهم فسرحه مع قيس بن مسهر الصيداوي ورجلين آخرين وأمره بالتقوى وكتمان أمره واللطف، فإن رأى الناس مجتمعين مستوسقين عجل إليه بذلك، فأقبل مسلم رحمه الله حتى أتى المدينة واستأجر دليلين من قيس فأقبلا به يتنكبان الطريق وأصابهما عطش شديد فعجزا عن النسير فأومآ له إلى سنن الطريق ومات الدليلان عطشاً فكتب مسلم إلى الحسين (ع) من الموضع المعروف بالمضيق وهو ماء لبني كلب مع قيس بن مسهر أما بعد فإني أقبلت من المدينة مع دليلين فجارا عن الطريق فضلا واشتد علينا العطش فلم يلبثا أن ماتا وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبت وقد تطيرت من توجهي هذا فإن رأيت أعفيتني منه وبعثت غيري والسلام. فكتب إليه الحسين (ع): قد خشيت أن لا يكون حملك لي الاستعفاء إلا الجبن فامض لوجهك الذي وجهتك فيه. فقال مسلم: أما هذا فلست أتخوفه على نفسي. فأقبل حتى مر بماء لطيء فنزل ثم ارتحل عنه فإذا برجل يرمي

الصيد فنظر إليه وقد رمى ظبياً حين أشرف له فصرعه فقال مسلم: نقتل عدونا إن شاء الله. ثم أقبل حتى دخل الكوفة فنزل دار المختار وأقبلت الناس تختلف إليه فكلما اجتمع إليه منهم جماعة قرأ عليهم كتاب الحسين (ع) وهم يبكون وبايعه الناس حتى بايعه منهم ثمانية عشر ألفاً فكتب إلى الحسين (ع) أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وإن جميع أهل الكوفة معك وقد بايعني منهم ثمانية عشر ألفاً فعجل الإقبال حين تقرأ كتابي هذا والسلام، وجعل الناس يختلفون إليه حتى عُلم بمكانه فبلغ النعمان بن بشير ذلك (وكان والياً على الكوفة من قبل معاوية فأقره يزيد عليها وكان صحابياً حضر مع معاوية حرب صفين وكان من أتباعه وقتله أهل حمص في فتنة ابن الزبير وكان والياً عليها) فصعد المنبر وخطب الناس وحذرهم الفتنة فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية فقال له: إنه لا يصلح ما ترى إلا الغشم إن هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين فقال له النعمان: أن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعزين في معصية الله، ثم نزل: فكتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول: إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك و يعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعف، وكتب إليه عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر بن سعد بنحو ذلك، فدعا يزيد سرجون الرومي مولى معاوية (وكان سرجون مستولياً على معاوية في حياته) واستشاره فيمن يولي على الكوفة وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد وهو يومئذ وال على البصرة وكان معاوية قد كتب لابن زياد عهداً بولاية الكوفة ومات قبل إنفاذه فقال سرجون ليزيد: لو نشر لك معاوية ما كنت آخذاً برأيه قال: بلى قال: هذا عهده لعبيد الله على الكوفة فضم يزيد البصرة والكوفة إلى عبيد الله وكتب إليه بعهده وسيره مع مسلم بن عمرو الباهلي وكتب إلى عبيد الله معه: أما بعد فإنه كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل فيها يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل طلب

الخرزة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه والسلام. فخرج مسلم بن عمرو حتى قدم على عبيد الله بالبصرة فأمر عبيد الله بالجهاز من وقته والتهيؤ والمسير إلى الكوفة من الغد.

كتاب الحسين (ع) إلى أهل البصرة

وكتب الحسين إلى رؤساء الأخماس بالبصرة وإلى أشرافها مع ذراع السدوسي ومع مولى للحسين (ع) اسمه سليمان ويكنى أبا رزين فكتب إلى مالك بن مسمع البكري والأحنف بن قيس ويزيد بن مسعود النهشلي والمنذر بن الجارود العبدي ومسعود بن عمر الأزدي بنسخة واحدة (أما بعد) فإن الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به ﷺ وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا فأغضينا كراهية للفرقة محبة للعافية ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه فإن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت فإن تجيبوا دعوتي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد. فجمع يزيد بن مسعود بني تميم وبني حنظلة وبني سعد فلما حضروا قال: يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم فقالوا: بخ بخ أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر حللت في الشرف وسطاً وتقدمت فيه فرطاً قال: فإني قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه وأستعين بكم عليه فقالوا: إذا والله نمنحك النصيحة ونجد لك الرأي فقل نسمع فقال: إن معاوية قد مات فأهون به الله هالكاً ومفقوداً ألا وأنه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم وقد كان أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أن قد أحكمه وهيهات الذي أراد اجتهد والله ففشل وشاور فخذل وقد قام ابنه يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدعي الخلافة على المسلمين ويتأمر عليهم بغير رضى منهم مع قصر حلم وقلة علم لا يعرف من الحق موطىء قدمه فأقسم الله قسماً مبروراً لجهاده على الدين أفضل

من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي ابن رسول الله ﷺ ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنه وقدمه وقرابته يعطف على الصغير ويحنو على الكبير فأكرم به راعي رعية وإمام قوم وجبت لله به الحجة وبلغت به الموعظة وقد كان صخر بن قيس (وهو الأحنف) انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ﷺ ونصرته والله لا يقصر أحد عن نصرته إلا أورثه الله تعالى الذل في ولده والقلة في عشيرته، وها أنذا قد لبست للحرب لامتها وأدرعت لها بدرعها من لم يقتل يمت ومن يهرب لم يفت فأحسنوا رحمكم الله رد الجواب. فتكلمت بنو حنظلة فقالوا: أبا خالد نحن نبل كنانتك وفرسان عشيرتك إن رميت بنا أصبت وإن غزوت بنا فتحت لا تخوض والله غمرة إلا خضناها وتلقى والله شدة إلا لقيناها ننصرك والله بأيدينا ونفديك بدمائنا إذا شئت فافعل. وتكلمت بنو سعد بن يزيد قالوا: أبا خالد إن أبغض الأشياء إلينا خلافك والخروج عن رأيك وقد كان صخر بن قيس(الأحنف) أمرنا بترك القتال يوم الجمل فحمدنا رأيه فأمهلنا نراجع الرأي فنأتيك برأينا. وتكلمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك لا نرضى إن غضبت ولا نوطن إن ظعنت والأمر إليك فادعنا نجبك ومرنا نطعك والأمر لك إذا شئت. فقال: والله يا بني سعد لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبداً ولا زال سيفكم فيكم.

ثم كتب إلى الحسين (ع): وصل إلي كتابك وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك والفوز بنصيبي من نصرتك وإن الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير أو دليل على سبيل نجاة وأنتم حجة الله على خلقه ووديعته في أرضه تفرعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها فأقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذللت لك أعناق بني تميم وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها وكظها وقد ذللت لك رقاب بني سعد وغسلت درن صدورها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع.

فلما قرأ الحسين (ع) الكتاب قال: ما لك آمنك الله يوم الخوف وأعزك

وأرواك يوم العطش الأكبر. فلما تجهز المشار إليه للخروج إلى الحسين (ع) بلغه قتله قبل أن يسير فجزع من انقطاعه عنه.

ومما يلاحظ هنا أن بني حنظلة وبني عامر الذين أجابوا يزيد بن مسعود إلى القيام معه لم يكن في كلامهم كلمة واحدة تدل إلى أن قيامهم لنصرة الحق ولكون الحسين (ع) إمام حق تجب نصرته والجهاد معه نصرة للدين والحق بل يلوح من كلامهم أن إطاعتهم له لكونه رئيساً لهم فبنو حنظلة لا يخوض غمرة إلا خاضوها ولا يلقى شدة إلا لقوها وبنو عامر لا يرضون إن غضب ولا يوطنون إن ظعن وهكذا حال أكثر الناس، أما هو فكلامه يدل على معرفته بحق الحسين (ع) وإن قيامه معه لمحض نصرة الحق والدين. (وكتب) إليه الأحنف: أما بعد فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون. (وأما) المنذر بن الجارود فإنه جاء بالكتاب والرسول إلى عبيد اللّه بن زياد في عشية الليلة التي يريد ابن زياد أن يذهب في صبيحتها إلى الكوفة لأن المنذر خاف أن يكون دسيساً من عبيد اللّه (وبئس ما فعل) وكانت بحرية بنت المنذر زوجة عبيد اللّه فأخذ عبيد اللّه الرسول فصلبه، ثم إنه خطب الناس وتوعدهم على الخلاف وخرج من البصرة واستخلف عليها أخاه عثمان.

مجيء ابن زياد إلى الكوفة

وأقبل إلى الكوفة ومعه مسلم بن عمرو الباهلي رسول يزيد وشريك بن الأعور الحارثي وقيل كان معه خمسمائة فتأخروا عنه رجاء أن يقف عليهم ويسبقه الحسين (ع) إلى الكوفة فلم يقف على أحد منهم وسار فلما أشرف على الكوفة نزل حتى أمسى ودخلها ليلاً مما يلي النجف وعليه عمامة سوداء وهو متلثم فدخلها من جهة البادية في زي أهل الحجاز ليوهمهم أنه الحسين (ع) والناس قد بلغهم إقبال الحسين (ع) فهم ينتظرونه فظنوا حين رأوا عبيد الله أنه الحسين (ع) فقالت امرأة الله أكبر ابن رسول الله ﷺ فتصايح الناس وقالوا إنا معك وكانوا أكثر من أربعين ألفاً وأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا

عليه وقالوا: مرحباً بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم، فرأى من تباشرهم بالحسين (ع) ما ساءه وازدحموا عليه حتى أخذوا بذنب دابته فقال لهم عبد الله بن مسلم الباهلي لما كثروا: تأخروا هذا الأمير عبيد الله بن زياد، وحسر اللثام عن وجهه وقال: أنا عبيد الله، فتساقط القوم ووطىء بعضهم بعضاً وسار حتى وافى القصر بالليل فأغلق النعمان بن بشير عليه وعلى خاصته فناداه بعض من كان مع ابن زياد ليفتح لهم الباب فاطلع عليه النعمان وهو يظنه الحسين (ع) فقال أنشدك الله ألا تنحيت والله ما أنا بمسلم إليه أمانتي ومالي في قتالك من أرب فجعل لا يكلمه ثم إنه دنا فتدلى النعمان من شرف القصر فجعل يكلمه فقال ابن زياد: افتح لا فتحت فقد طال ليلك يا نعيم، ففتح له النعمان فدخل وضربوا الباب في وجوه الناس وانفضوا وأصبح ابن زياد فنادى في الناس الصلاة جامعة فاجتمعوا فخطبهم وتوعد العاصي بالعقوبة والمطيع بالإحسان وقال: الصدق ينبىء عنك لا الوعيد ونزل وأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً فقال: اكتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره وألغيت تلك العرافة من العطاء. ولما سمع مسلم بن عقيل مجيء عبيد الله إلى الكوفة ومقالته التي قالها خرج من دار المختار إلى دار هاني بن عروة في جوف الليل فأخذ أنصاره يختلفون إليه في دار هاني على تستر واستخفاء وألح عبيد لله في طلب مسلم ولا يعلم أين هو، وكان شريك بن الحارث الهمداني لما جاء من البصرة مع عبيد الله بن زياد نزل دار هاني فمرض فأرسل إليه ابن زياد أنه يريد أن يعوده فقال لمسلم إذا جلس أخرج إليه فاقتله ونهاه هاني ولما أراد الخروج تعلقت به امرأة لهاني وبكت في وجهه وناشدته الله أن يفعل وخرج ابن زياد ومات شريك من مرضه ذلك ولما خفي على ابن زياد أمر مسلم عمد إلى التجسس فدعا غلاماً له اسمه معقل ودفع إليه أربعة آلاف درهم وأمره بحسن التوصل إلى أصحاب مسلم وأن يدفع إليهم المال ليستعينوا به ويظهر لهم أنه منهم من أهل حمص فجاء إلى مسلم بن

عوسجة فاغتر بكلامه وأدخله على مسلم بن عقيل فأخبر ابن زياد بكل ما أراد وبلغ الذين بايعوا مسلماً خمسة وعشرين ألف رجل فعزم على الخروج، فقال هانيء لا تعجل، وخاف هانيء عبيد الله على نفسه فانقطع عن مجلسه وتمارض فدعا ابن زياد محمد بن الأشعث وحسان بن أسماء بن خارجة وعمرو بن الحجاج الزبيدي وكان هانىء متزوجاً رويحة بنت عمرو هذا فقال لهم: ما يمنع هانىء من زيارتنا؟ قالوا: إنه مريض قال: بلغني أنه برىء وأنه يجلس على باب داره فالقوه ومروه أن لا يدع ما عليه من حقنا فإنيّ لا أحب أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب. وقالوا: ما يمنعك من لقاء الأمير فإنه قد ذكرك، قال: المرض، قالوا: بلغه أنك برئت، وأقسموا عليه أن يذهب معهم، فذهب، ولم يكن حسان يعلم بشيء مما كان، وكان محمد بن الأشعث عالماً به فلما دخل على ابن زياد قال: إيه يا هانىء ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له الجموع والسلاح في الدور حولك وظننت أن ذلك يخفى عليّ، فأنكر هانىء أن يكون قد فعل، فدعا ابن زياد معقلاً، فعلم هانىء أنه كان عيناً عليهم فسقط في يده ساعة ثم راجعته نفسه وجعل يعتذر إلى ابن زياد بأنه دعا مسلماً إلى منزله وإنما جاءه يسأله النزول فاستحيا من رده وداخله من ذلك ذمام وأنه يذهب الآن فيخرجه، فقال ابن زياد: والله لا تفارقني حتى تأتيني به فقال لا والله لا أجيئك به، أجيئك بضيفي تقتله. وخلا به مسلم بن عمرو الباهلي ليقنعه بأن يأتي به فأبى، فقال ابن زياد والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك، قال إذاً تكثر البارقة حول دارك، فقال: والهفاه عليك أبالبارقة تخوفني؟ وهانىء يظن أن عشيرته سيمنعونه، ثم قال: ادنوه مني، فاستعرض وجهه بالقضيب حتى كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم جبينه وخده على لحيته وسالت الدماء على ثيابه ووجهه ولحيته وكسر القضيب، وضرب هانىء يده على قائم سيف شرطي وجاذبه الشرطي ومنعه، فقال عبيد الله: أحروري سائر اليوم، قد حل دمك، جروه. فجروه فألقوه في بيت من بيوت الدار وأغلقوا عليه بابه وجعلوا عليه حرساً، فقام إليه

حسان بن خارجة فقال: أرسل غدر سائر اليوم؟! أمرتنا أن نجيئك بالرجل حتى إذا جئناك به فعلت به هذا؟ فقال عبيد الله: وإنك لها هنا فأمر به فضرب وتعتع وأجلس ناحية، فقال محمد بن الأشعث: رضينا بما رأى الأمير، لنا كان أم علينا إنما الأمير مؤدب. وبلغ عمرو بن الحجاج أن هانياً قد قتل فأقبل في مذحج حتى أحاط بالقصر فقال ابن زياد لشريح القاضي: ادخل على صاحبهم فانظر إليه ثم أعلمهم أنه حي ففعل فقالوا: أما إذا لم يقتل فالحمد لله وانصرفوا.

وهكذا يتمكن الظالم من ظلمه بأمثال محمد بن الأشعث من أعوان الظلمة وأمثال شريح من قضاة السوء المظهرين للدين المصانعين الظلمة اللابسين جلود الكباش وقلوبهم قلوب الذئاب وبأمثال مذحج الذين اغتروا بكلام شريح وانصرفوا ولم يأخذوا بالحزم. ولما ضرب عبيد الله هانئاً وحبسه خاف أن يثب به الناس فخرج فصعد المنبر ومعه أشراف الناس وشرطه وحشمه وخطب خطبة موجزة وحذر الناس وهددهم.

خروج مسلم في الكوفة

وكان مسلم أرسل إلى القصر من يأتيه بخبر هانىء فلما أخبر أنه ضرب وحبس، قال لمناديه: ناد يا منصور أمت، وكان ذلك شعارهم فنادى فاجتمع إليه أربعة آلاف كانوا في الدور حوله. وقال المسعودي اجتمع إليه في وقت واحد ثمانية عشر ألف رجل فسار إلى ابن زياد فما نزل ابن زياد حتى دخلت النظارة المسجد يقولون جاء ابن عقيل فدخل عبيد الله القصر مسرعاً وأغلق أبوابه وقدم مسلم مقدمته وعبأ أصحابه ميمنة وميسرة ووقف هو في القلب وأقبل نحو القصر وتداعى الناس واجتمعوا حتى امتلأ المسجد والسوق وضاق بعبيد الله أمره وبعث إلى وجوه أهل الكوفة فجمعهم عنده وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون رجلاً من أشراف الناس وخاصته وجعل من في القصر مع ابن زياد يشرفون على أصحاب مسلم وأصحاب مسلم يرمونهم بالحجارة ويشتمونهم ويفترون على عبيد الله وأمه وأبيه، فدعا ابن زياد كثير بن شهاب وأمره أن يخرج

فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع راية أمان وأمر جماعة من الأشراف بمثل ذلك وحبس باقي وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لقلة من معه وأقام الناس مع ابن عقيل يكثرون حتى المساء وأمرهم شديد، وأمر ابن زياد من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس فيمنوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ويخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وجعل كثير يخذل الناس ويخوفهم بأجناد الشام فأخذوا يتفرقون، وكانت المرأة تأتي ابنها وأخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويجيء الرجل إلى ابنه وأخيه ويقول: غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب، حتى أمسى ابن عقيل في خمسمائة فلما اختلط الظلام جعلوا يتفرقون، فصلى المغرب وما معه إلا ثلاثون نفساً فتوجه نحو باب المسجد فلم يبلغه إلا ومعه عشرة أنفس فخرج من الباب فإذا ليس معه أحد. ومن هنا يعلم أن مسلماً رضوان الله عليه لم يقصر في حزم ولا تدبير وأنه أصيب من جهة خذلان أهل الكوفة، فمضى على وجهه متلدداً في أزقة الكوفة حتى باب امرأة اسمها طوعة ولها ولد اسمه بلال كان قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظره فسلم عليها ابن عقيل فردت عليه السلام وطلب منها ماء فسقته وجلس ودخلت ثم خرجت فقالت: يا عبد الله ألم تشرب قال: بلى، قالت: فاذهب إلى أهلك فسكت ثم أعادت مثل ذلك فسكت فقالت: سبحان الله يا عبد الله ثم عافاك الله إذهب إلى أهلك فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابي ولا أحله لك. فقام وقال: يا أمة الله ما لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة فهل لك في أجر ومعروف ولعلي مكافيك بعد اليوم قالت: وما ذاك قال: أنا مسلم بن عقيل قالت أنت مسلم قال نعم قالت: أدخل فدخل إلى بيت في دارها غير الذي تكون فيه وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعش، وجاء ابنها فرآها تكثر الدخول في البيت والخروج منه فاستراب بذلك ولم يزل بها حتى أخبرته، وجعل ابن زياد لا يسمع لأصحاب ابن عقيل صوتاً كما كان يسمع فقال لأصحابه أن يشرفوا فينظروا هل يرون أحداً فلم يروا أحداً ونزعوا الخشب من سقف المسجد ودلوا شعل النار والقناديل فلم يروا

أحداً فأخبروه بتفرق القوم فخرج بأصحابه إلى المسجد ونادى مناديه برئت الذمة من رجل من الشرط والعرفاء والمناكب والمقاتلة صلى العتمة إلا في المسجد فامتلأ المسجد من الناس فصلى بهم وأقام الحرس خلفه ثم صعد المنبر وقال: إن ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ومن جاء به فله ديته اتقوا الله عباد الله ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا، يا حصين بن تميم ـ وهو صاحب شرطته ـ ثكلتك أمك إن ضاع باب من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به وقد سلطتك على دور أهل الكوفة. ثم دخل القصر فلما أصبح جلس مجلسه وأذن للناس فدخلوا عليه وأقبل محمد بن الأشعث فقال له: مرحباً بمن لا يستغش ولا يتهم وأقعده إلى جنبه، وجاء ابن تلك المرأة فأخبره عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بمكان مسلم من أمه، وكانت أمه أم ولد للأشعث بن قيس فأعتقها وتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالاً فبين بلال وأولاد الأشعث علاقة بسبب تلك المرأة، ولعل بعضهم كان أخا بلال لأمه، فجاء عبد الرحمٰن فأخبر أباه سراً وهو عند ابن زياد فعرف ابن زياد سراره فبعث سبعين رجلاً حتى أتوا الدار التي فيها مسلم فلما سمع مسلم وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال علم أنه قد أتي فخرج إليهم بسيفه واقتحموا عليه الدار فشد عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ثم عادوا إليه فشد عليهم كذلك فأخرجهم مراراً وقتل منهم جماعة واختلف هو وبكر بن حمران ضربتين فضرب بكر فم مسلم فقطع شفته العليا وأسرع السيف في السفلى وفصلت له ثنيتاه وضربه في رأسه ضربة منكرة وثناه بأخرى على حبل العاتق كادت تطلع إلى جوفه فأشرفوا عليه من فوق البيوت يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في أطنان القصب ويلقونها عليه، فلما رأى ذلك قال: أكل ما أرى من الأجلاب لقتل مسلم بن عقيل يا نفس اخرجي إلى الموت الذي ليس عنه محيص، فخرج عليهم مصلتاً سيفاً في السكة فقاتلهم فناداه ابن الأشعث لك الأمان وهو يقاتلهم ويتمثل:

أقسمت لا أقتل إلا حراً ... وإن رأيت الموت شيئاً نكرا

أخـــاف أن أكــــذب أو أغـــرا	أو أخـلـط الـبـارد سـخـن مـرا
رد شـعـاع الـشـمـس فـاسـتـقـرا	كـل امـرىء يـومـاً مـلاق شـرا
أضـــربــكـــم ولا أخـــاف ضـــرا

فقال له ابن الأشعث: إنك لا تكذب ولا تغر وكان قد أثخن بالحجارة وعجز عن القتال فأسند ظهره إلى جنب تلك الدار وأعاد عليه ابن الأشعث لك الأمان، وقيل إنهم تكاثروا عليه بعد أن أثخن بالجراح فطعنه رجل من خلفه فخر إلى الأرض فأخذ أسيراً وحمل على بغلة وانتزع ابن الأشعث سيفه وسلاحه، وفي ذلك يقول بعض الشعراء يهجو ابن الأشعث:

وتـركـت عـمـك أن تـقـاتـل دونـه	فـشـلا ولـولا أنـت كـان مـنـيـعـا
وقـتـلـت وافـد آل بـيـت مـحـمـد	وسـلـبـت أسـيـافـاً لـه ودروعـا

فيئس عند ذلك من نفسه ودمعت عيناه وبكى، فقيل له: إن الذي يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثلما نزل بك لم يبك، فقال: والله ما لنفسي بكيت ولا لها من القتل أرثي وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفا، ولكني أبكي لأهلي المقبلين إلي، أبكي الحسين وآل حسين، ثم قال لابن الأشعث هل عندك خير؟ تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلغ حسيناً فإني لا أراه إلا وقد خرج اليوم أو هو خارج غداً وأهل بيته، ويقول له إن ابن عقيل بعثني إليك وهو أسير في أيدي القوم لا يرى أنه يمسي حتى يقتل وهو يقول لك ارجع فداك أبي وأمي بأهل بيتك ولا يغررك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، قال ابن الأشعث والله لأفعلن - وكذب - وجيء به إلى باب القصر وقد اشتد به العطش وعلى الباب قلة فيها ماء بارد فقال اسقوني من هذا الماء فقال له مسلم بن عمرو الباهلي والد قتيبة أمير خراسان: أتراها ما أبردها لا والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم، ومنعهم أن يسقوه فقال له ابن عقيل: لأمك الثكل ما أجفاك وأفظك وأقسى قلبك أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني. وأرسل عمرو بن حريث غلاماً له فأتاه بقلة عليها منديل وقدح فصب فيه ماء وقال له: إشرب فأخذ كلما شرب

امتلأ القدح دماً من فمه فلا يقدر أن يشرب فعل ذلك مرة أو مرتين فلما ذهب في الثالثة ليشرب سقطت ثناياه في القدح، فقال: الحمد لله لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته ثم أدخل على ابن زياد فلم يسلم عليه بالأمرة فقال له الحرسي: سلم على الأمير فقال: اسكت ويحك والله ما هو لي بأمير فقال ابن زياد: لا عليك سلمت أم لم تسلم فإنك مقتول قال: إن قتلتني فلقد قتل من هو شر منك من هو خير مني، قال قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام، فقال: إما أنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن، وإنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك. فقال: يا عاق يا شاق شققت عصا المسلمين وألقحت الفتنة، قال: كذبت إنما شق عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد وأما الفتنة فإنما ألقحتها أنت وأبوك زياد بن عبيد عبد بني علاج من ثقيف، قال: إيه ابن عقيل أتيت الناس وهم جميع وأمرهم ملتئم فشتت أمرهم وفرقت كلمتهم، قال: كلا لست لذلك أتيت ولكنكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف وتأمرتم على الناس بغير رضا منهم وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف وننهى عن المنكر وندعهم إلى حكم الكتاب والسنة وكنا أهل ذلك. فأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم علياً والحسن والحسين وعقيلاً، فقال له مسلم: أنت وأبوك أحق بالشتيمة فاقض ما أنت قاض يا عدو الله، فقال ابن زياد: اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثم أتبعوه جسده، فصعد به وهو يكبر ويستغفر الله ويسبحه ويصلي على رسوله ﷺ، فضرب عنقه وأتبع رأسه جثته. وقام ابن الأشعث فشفع في هاني فوعده ابن زياد ثم بدا له فأمر بهاني بعد قتل مسلم فقال: أخرجوه إلى السوق فاضربوا عنقه. أخرجوه وهو مكتوف. فجعل يقول وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم ثم جذب يده فنزعها من الكتاف ووثبوا إليه فشدوه وثاقاً وضربه مولى تركي لعبيد الله بن زياد يقال له رشيد فقتله. قال المسعودي: وهو يصيح يا آل مراد وهو شيخها وزعيمها وهو يومئذ يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل وإذا أجابتها أحلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع فلم يجد زعيمهم

منهم أحداً شللاً وخذلاناً وقال الشاعر يرثي هانئاً ومسلماً ويذكر ما نالهما:

إذا كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانىء في السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه ... وآخر يهوي في طمار قتيل
أصابهما فرخ البغي فأصبحا ... أحاديث من يسعى بكل سبيل
تري جسداً قد غير الموت لونه ... ونضح دم قد سال كل مسيل
فتى كان أحيا من فتاة حيية ... واقطع من ذي شفرتين صقيل
أيركب أسماء[1] الهماليج آمناً ... وقد طلبته مذحج بذحول

وكان خروج مسلم في الكوفة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية وقتله يوم الأربعاء يوم عرفة لتسع خلون منه.

خروج الحسين إلى العراق

وأمر ابن زياد بجثة مسلم وهانىء فصلبتا بالكناسة وبعث برأسيهما إلى يزيد بن معاوية وأخبره بأمرهما فأعاد يزيد الجواب إليه يشكره على فعله وسطوته ويقول له: قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة فضع المناظر والمسالح واحبس على الظنة وخذ على التهمة واكتب إلي في كل ما يحدث (وكان) يزيد بن معاوية قد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص من المدينة إلى مكة في عسكر عظيم وولاه أمر الموسم وأمّره على الحاج كلهم فحج بالناس وأوصاه بقبض الحسين (ع) سراً وإن لم يتمكن منه يقتله غيلة وأمره أن يناجز الحسين عليه السلام القتال إن هو ناجزه، فلما كان يوم التروية قدم عمرو بن سعيد إلى مكة في جند كثيف فلما علم الحسين (ع) بذلك عزم على التوجه إلى العراق وكان قد أحرم بالحج وقد وصله قبل ذلك كتاب مسلم بن عقيل ببيعة أهل الكوفة له، فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وقصر من شعره وأحل من إحرام الحج وجعلها عمرة مفردة لأنه لم يتمكن من إتمام الحج مخافة أن يقبض

(١) هذا يدل على أن الذي جاء بهانىء إلى ابن زياد هو أسماء بن حسان بن أسماء بن خارجة كما هو أحد الروايتين لا حسان بن أسماء.

عليه فخرج من مكة يوم الثلاثاء وقيل يوم الأربعاء يوم التروية لثمان مضين من ذي الحجة فكان الناس يخرجون إلى منى والحسين (ع) خارج إلى العراق ولم يكن علم بقتل مسلم بن عقيل لأن مسلماً قتل في ذلك اليوم الذي خرج فيه الحسين (ع) إلى العراق. ولما عزم الحسين عليه السلام على الخروج من مكة إلى العراق قام خطيباً في أصحابه فكان مما قال: الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين لن تشذ عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تقر بهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا. إني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى «وجاءه» أبو بكر عمر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام المخزومي فنهاه عن الخروج إلى العراق فقال له الحسين (ع): جزاك الله خيراً يا ابن عم قد اجتهدت رأيك ومهما يقض الله يكن. وجاءه عبد الله بن عباس فنهاه عن الخروج أيضاً فقال أستخير الله وانظر ما يكون (ثم) أتاه مرة ثانية فأعاد عليه النهي وقال إن أبيت إلا الخروج فاخرج إلى اليمن فقال الحسين (ع) يا ابن عم إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق وقد أزمعت وأجمعت المسير ثم خرج ابن عباس فمر بابن الزبير وأنشد:

يا لك من قبرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري ... هذا حسين خارج فابشري

(وجاءه) عبد الله بن الزبير فأشار عليه بالعراق ثم خشي أن يتهمه فقال لو أقمت لما خالفنا عليك، فلما خرج ابن الزبير قال الحسين عليه السلام: إن هذا ليس شيء أحب إليه من أن أخرج من الحجاز «ثم» جاءه عبد الله بن عمر فأشار عليه بصلح أهل الضلال وحذره من القتل والقتال فقال له: يا أبا عبد الرحمٰن أما علمت أن من هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجل الله عليهم بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام، اتق

الله يا أبا عبد الرحمٰن ولا تدعن نصرتي. وكان الحسين (ع) يقول وايم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني، والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرام[1] المرأة (وجاءه) محمد بن الحنفية في الليلة التي أراد الحسين (ع) الخروج في صبيحتها عن مكة فقال له: يا أخي إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من بالحرم وأمنعه فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت، فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد، فقال: أنظر فيما قلت، فلما كان السحر ارتحل الحسين (ع) فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ بزمام ناقته وقد ركبها فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك. قال: بلى. قال: فما حداك على الخروج عاجلاً قال: أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتك فقال: يا حسين اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً، فقال محمد بن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال، فقال إن الله قد شاء أن يراهن سبايا. فسلم عليه ومضى. (وسمع) عبد الله بن عمر بخروجه فقدم راحلته وخرج خلفه مسرعاً فأدركه في بعض المنازل فقال: أين تريد يا ابن رسول الله؟ قال: العراق. قال: مهلاً ارجع إلى حرم جدك. فأبى الحسين (ع) فلما رأى ابن عمر إباءه قال: يا أبا عبد الله اكشف لي عن الموضع الذي كان رسول الله ﷺ يقبله منك. فكشف الحسين (ع) عن سرته فقبلها ابن عمر ثلاثاً وقال: أستودعك الله يا أبا عبد الله فإنك مقتول في وجهك هذا (ولما) خرج الحسين (ع) من مكة اعترضته رسل عمرو بن سعيد بن العاص أمير الحجاز من قبل يزيد، عليهم أخوه

---

(١) الفرام خرقة الحيض. ـ المؤلف ـ.

يحيى بن سعيد ليردوه فأبى عليهم وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط ثم امتنع عليهم الحسين (ع) وأصحابه امتناعاً شديداً ومضى الحسين (ع) على وجهه فبادروا وقالوا: يا حسين ألا تتقي الله تخرج من الجماعة وتفرق بين هذه الأمة فقال: لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون. (وعن) علي بن الحسين عليهما السلام قال خرجنا مع الحسين (ع) فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا وقتله (وكتب) عمرو بن سعيد وهو والي المدينة بأمر الحسين (ع) إلى يزيد فلما قرأ الكتاب تمثل بهذا البيت:

فإن لا تزر أرض العدو وتأته ... يزرك عدو أو يلومنك كاشح

(ثم) سار عليه السلام حتى مر بالتنعيم فلقي هناك عيراً تحمل هدية قد بعث بها بحير بن ريسان الحميري عامل اليمن إلى يزيد بن معاوية وعليها الورس والحلل، فأخذ الهدية وقال لأصحاب الجمال: من أحب أن ينطلق معنا إلى العراق وفينا كراه وأحسنا معه صحبته ومن أحب أن يفارقنا أعطيناه كراه ما قطع من الطريق، فمضى معه قوم وامتنع آخرون، فمن فارقه أعطاه حقه ومن سار معه أعطاه كراه وكساه وإنما أخذها لأنها من مال المسلمين ومرجع أمورهم إليه لا إلى يزيد الذي ليس أهلاً للخلافة «ثم» سار عليه السلام حتى أتى الصفاح فلقيه الفرزدق الشاعر وقال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص أنه لقيه ببستان بني عامر قال الفرزدق: حججت بأمي سنة ستين فبينما أنا أسوق بعيرها حتى دخلت الحرم إذ لقيت الحسين عليه السلام خارجاً من مكة معه أسيافه وأتراسه فقلت: لمن هذا القطار فقيل للحسين بن علي فأتيته وسلمت عليه وقلت له: أعطاك الله سؤالك وأملك فيما تحب بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أعجلك عن الحج؟ فقال: لو لم أعجل لأخذت، ثم قال لي: أخبرني عن الناس خلفك فقلت: الخبير سألت، قلوب الناس معك وأسيافهم عليك والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء. فقال: صدقت لله الأمر من قبل ومن بعد وكل يوم هو في شأن إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على

أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يبعد من كان الحق نيته والتقوى سيرته فقلت له: أجل بلغك الله ما تحب وكفاك ما تحذر، وسألته عن أشياء من نذور ومناسك فأخبرني بها وحرك راحلته وقال: السلام عليك (وألحق) عبد الله بن جعفر الحسين عليه السلام بابنيه عون ومحمد وكتب على أيديهما كتاباً يقسم عليه فيه بالرجوع ويقول: إني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك وإن هلكت اليوم طفىء نور الأرض فإنك علم المهتدين. وصار عبد الله إلى عمرو بن سعيد أمير المدينة فسأله أن يكتب للحسين (ع) أماناً ويمنيه البر والصلة فكتب له وأنفذه مع أخيه يحيى بن سعيد فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر وجهدا به في الرجوع فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأمرني بما أنا ماض له فقالا له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت بها أحداً وما أنا محدث بها أحداً حتى ألقى ربي عز وجل. فلما أيس منه عبد الله بن جعفر أمر ابنيه عوناً ومحمداً بلزومه والمسير معه والجهاد دونه ورجع هو إلى مكة، وسار الحسين (ع) نحو العراق مسرعاً لا يلوي على شيء حتى بلغ وادي العقيق فنزل ذات عرق فلقيه رجل من بني أسد يسمى بشر بن غالب وارداً من العراق فسأله عن أهلها فقال: خلفت القلوب معك والسيوف مع بني أمية فقال: صدق أخو بني أسد إن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (ولما) بلغ الحسين (ع) إلى الحاجز من بطن الرمة كتب كتاباً إلى جماعة من أهل الكوفة منهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وغيرهم وأرسله مع قيس بن مسهر الصيداوي وذلك قبل أن يعلم بقتل مسلم يقول فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم من الحسين بن علي إلى أخوانه من المؤمنين والمسلمين سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلٰه إلا هو (أما بعد) فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا فسألت الله أن يحسن لنا الصنيع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم وجدوا فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن

شاء الله تعالى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته «وكان» مسلم بن عقيل قد كتب إليه قبل أن يقتل بسبع وعشرين ليلة. فأقبل قيس بكتاب الحسين (ع) «وكان» ابن زياد لما بلغه مسير الحسين (ع) من مكة إلى الكوفة بعث الحصين بن تميم صاحب شرطته حتى نزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان وما بين القادسية إلى القطقطانة وإلى جبل لعلع قال الناس هذا الحسين يريد العراق (فلما) انتهى قيس إلى القادسية اعترضه الحصين بن تميم ليفتشه فأخرج قيس الكتاب وخرقه فحمله الحصين إلى ابن زياد فلما مثل بين يديه قال له: من أنت قال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه قال: فلماذا خرقت الكتاب؟ قال: لئلا تعلم ما فيه قال: وممن الكتاب وإلى من؟ قال: من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم، فغضب ابن زياد وقال والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر فتسب الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطعتك إرباً إرباً، فقال قيس أما القوم فلا أخبرك بأسمائهم وأما سب الحسين وأبيه وأخيه فأفعل (وكان قصده أن يبلغ رسالة الحسين (ع) إلى أهل الكوفة) فصعد قيس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وأكثر من الترحم على علي والحسن والحسين ولعن عبيد الله بن زياد وأباه ولعن عتاة بني أمية ثم قال: أيها الناس إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم وقد خلفته بالحاجر فأجيبوه. فأمر به ابن زياد فرمي من أعلى القصر فتقطع فمات. فبلغ الحسين عليه السلام قتله فاسترجع واستعبر بالبكاء ولم يملك دمعته ثم قرأ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ ثم قال: جعل الله له الجنة ثواباً. اللهم اجعل لنا ثوابك إنك على كل شيء قدير. ثم أقبل الحسين (ع) من الحاجر حتى انتهى إلى ماء من مياه العرب فإذا عليه عبد الله بن مطيع العدوي وهو نازل به فلما رأى الحسين (ع) قام إليه فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أقدمك؟ واحتمله فأنزله فقال له الحسين (ع): كان من موت معاوية ما قد بلغك كتب إلي أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم. فقال له عبد الله: أذكرك الله يا ابن

رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش، أنشدك الله في حرمة العرب، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابوا بعدك أحدا أبداً، والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك وحرمة قريش وحرمة العرب، فلا تفعل، ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبني أمية. (وكان) عبيد الله بن زياد أمر فأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحد يخرج. وأقبل الحسين (ع) لا يشعر بشيء حتى لقي الأعراب فسألهم، فقالوا: لا والله ما ندري غير أنا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج، فسار تلقاء وجهه «وكان» زهير بن القين البجلي قد حج في تلك السنة وكان عثمانياً فلما رجع من الحج جمعه الطريق مع الحسين (ع) (فحدث) جماعة من فزارة وبجيلة قالوا: كنا مع زهير بن القين حين أقبلنا من مكة فكنا نساير الحسين (ع) فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسير معه إلى مكان واحد أو ننزل معه في منزل واحد، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدم زهير، فنزلنا يوماً في منزل لم نجد بداً من أن ننزل معه فيه فنزل هو في جانب ونزلنا في جانب آخر، فبينا نحن جلوس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين (ع) حتى سلم ثم دخل فقال: يا زهير إن أبا عبد الله بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان منا ما في يده كأن على رؤوسنا الطير كراهة أن يذهب زهير إلى الحسين (ع) قال أبو مخنف فحدثتني دلهم بنت عمرو وهي امرأة زهير قالت: فقلت له الله أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت، فأتاه زهير على كره فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه فأمر بفسطاطه وثقله ورحله فحول إلى الحسين (ع) ثم قال لامرأته أنت طالق الحقي بأهلك فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلا خير وقد عزمت على صحبة الحسين (ع) لأفديه بروحي وأقيه بنفسي، ثم أعطاها مالها وسلمها إلى بعض بني عمها ليوصلها إلى أهلها، فقامت إليه وبكت وودعته وقالت خار الله لك أسألك أن تذكرني في القيامة عند جد الحسين (ع) وقال لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني وإلا فهو آخر العهد مني، إني سأحدثكم حديثاً: إنا غزونا

بلنجر ـ وهي بلدة ببلاد الخزر ـ ففتح الله علينا وأصبنا غنائم ففرحنا فقال لنا سلمان الفارسي: إذا أدركتم قتال شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم مما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فأستودعكم الله، ولزم الحسين (ع) حتى قتل معه.

(ولما) نزل الحسين (ع) الخزيمية أقام بها يوماً وليلة ثم سار حتى نزل الثعلبية فبات بها فلما أصبح إذا برجل من أهل الكوفة يكنى أبا هرة الأزدي قد أتاه فسلم عليه ثم قال: يا ابن رسول الله ما الذي أخرجك عن حرم الله وحرم جدك محمد ﷺ فقال الحسين (ع): ويحك يا أبا هرة إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت وشتموا عرضي فصبرت وطلوا دمي فهربت وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية وليلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً وليسلطن الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة فحكمت في أموالهم ودمائهم «وروى» عبد اللّه بن سليم والمذري بن المشعل الأسديان قالا: لما قضينا حجنا لم يكن لنا همة إلا اللحاق بالحسين (ع) لننظر ما يكون من أمره فأقبلنا ترقل بنا ناقتانا مسرعين حتى لحقناه بزرود فلما دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين (ع) فوقف الحسين كأنه يريده ثم تركه ومضى فقال أحدنا لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا لنسأله فإن عنده خبر الكوفة فمضينا إليه فقلنا: ممن الرجل قال أسدي قلنا له: ونحن أسديان، ثم قلنا له أخبرنا عن الناس من ورائك قال: لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة ورأيتهما يجران بأرجلهما في السوق. فأقبلنا حتى لحقنا الحسين (ع) فسايرناه حتى نزل الثعلبية ممسياً فجئنا فقلنا له: رحمك الله إن عندنا خبراً إن شئت حدثناك علانية وإن شئت سراً فنظر إلينا وإلى أصحابه ثم قال: ما دون هؤلاء سر فقلنا: قد والله استبرأنا لك خبره وكفيناك مسألته وهو امرؤ منا ذو رأي وصدق وعقل وإنه حدثنا أنه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم وهانىء ورآهما يجران في السوق بأرجلهما، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون رحمة الله عليهما، يردد ذلك مراراً، فقلنا له: ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك

إلا انصرفت من مكانك هذا فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك، فنظر إلى بني عقيل فقال: ما ترون فقد قتل مسلم؟ فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق، فأقبل علينا الحسين (ع) وقال: لا خير في العيش بعد هؤلاء، فعلمنا أنه قد عزم رأيه على المسير فقلنا له: خار الله لك، فقال: رحمكما الله وارتج الموضع بالبكاء لقتل مسلم بن عقيل وسالت الدموع عليه كل مسيل، فلما كان السحر قال لفتيانه وغلمانه: أكثروا من الماء فاستقوا وأكثروا وكان لا يمر بماء إلا أتبعه من عليه، ثم ارتحلوا فسار حتى انتهى إلي زبالة فأتاه بها خبر عبد اللّه بن بقطر[1] وهو أخو الحسين (ع) من الرضاعة[2] قال الطبري: وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذته خيل الحصين فسيره من القادسية إلى ابن زياد وقيل: بل أرسله الحسين (ع) مع مسلم فلما رأى مسلم الخذلان بعثه إلى الحسين يخبره بما انتهى إليه الأمر فقبض عليه الحصين وأرسله إلى ابن زياد فقال له ابن زياد: اصعد فوق القصر والعن الكذاب ابن الكذاب ثم انزل حتى أرى فيك. فصعد فأعلم الناس بقدوم الحسين (ع) ولعن ابن زياد وأباه فألقاه من القصر فتكسرت عظامه وبقي به رمق فأتاه عبد الملك بن عمير اللحمي قاضي الكوفة فذبحه بمديته فعيب عليه، فقال: أردت أن أريحه. فلما أبلغ الحسين (ع) خبره أخرج إلى الناس كتاباً فقرأه عليهم وفيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم (أما بعد) فإنه قد أتاني خبر فظيع. قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد اللّه بن بقطر وقد خذلنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف في غير حرج ليس عليه ذمام. فتفرق الناس عنه وأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة ونفر يسير ممن انضموا إليه، وكان اجتمع إليه مدة مقامه بمكة نفر من أهل الحجاز ونفر من أهل البصرة وإنما فعل ذلك لعلمه بأن أكثر من اتبعوه إنما اتبعوه ظناً أنه يقدم بلداً قد استقامت له طاعة أهله فكره أن يسيروا معه

---

(١) بالباء الموحدة كما ضبطه ابن الأثير.

(٢) قيل كانت أمه حاضنة للحسين (ع) ولم يكن رضع منها ولكنه سمي رضيعاً له لحضانة أمه له.

إلا وهم يعلمون ما يقدمون عليه وقد علم أنه إذا بين لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه (وقيل) إن خبر مسلم وهانىء أتاه في زبالة أيضاً. ولقيه الفرزدق بعدما رجع من الحج فسلم عليه وقال: يا ابن رسول الله كيف تركن إلى أهل الكوفة وهم الذين قتلوا ابن عمك مسلم بن عقيل وشيعته فاستعبر الحسين (ع) باكياً ثم قال: رحم الله مسلماً فلقد صار إلى روح لله وريحانه وتحياته ورضوانه أما إنه قد قضى ما عليه وبقي ما علينا وأنشأ يقول:

لئن تكن الدنيا تعد نفيسة	فإن ثواب اللّه أعلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت	فقتل امرىء بالسيف في اللّه أفضل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً	فقلة حرص المرء في السعي أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها	فما بال متروك به المرء يبخل

(فلما) كان وقت السحر أمر الحسين (ع) أصحابه فاستقوا ماء وأكثروا ثم ثار من زبالة حتى مر ببطن العقبة فنزل عليها فلقيه شيخ من بني عكرمة وهو لوذان[1] فسأله: أين تريد؟ فقال له الحسين (ع): الكوفة. فقال الشيخ: أنشدك الله أما انصرفت، فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطؤوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً فأما على هذا الحال التي تذكر فإني لا أرى لك أن تفعل فقال له الحسين (ع): يا عبد اللّه ليس يخفى علي الرأي ولكن الله تعالى لا يغلب على أمره، ثم قال (ع): والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرق الأمة (ثم) سار حتى نزلوا شراف، فلما كان في السحر أمر فتيانه فاستقوا من الماء فأكثروا.

---

(١) الذي في إرشاد المفيد يقال له عمرو بن لوذان والذي في تاريخ الطبري، ثم سار حتى مر ببطن العقبة فنزل بها قال أبو مخنف فحدثني لوذان أحد بني عكرمة أن أحد عمومته سأل الحسين (ع) أين تريد إلى آخر ما ذكره المفيد. وعليه فالظاهر أن صواب العبارة فلقيه شيخ من بني عكرمة وهو عم لوذان كما ذكرناه فصحف عم بعمرو وزيد عليه يقال له عمرو، والله أعلم.

التقاؤه بالحر

ثم سار منها حتى انتصف النهار، فبينا هو يسير إذ كبر رجل من أصحابه، فقال الحسين (ع): الله أكبر، لم كبرت؟ قال: رأيت النخل فقال له جماعة من أصحابه: والله إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط، فقال لهم الحسين (ع): فما ترونه؟ قالوا: نراه والله أسنة الرماح وآذان الخيل، قال: وأنا والله أرى ذلك، ثم قال (ع): ما لنا ملجأ نلجأ إليه فنجعله في ظهورنا ونستقبل القوم بوجه واحد؟ فقالوا له: بلى هذا ذو حسم وهو جبل إلى جنبك فمل إليه عن يسارك فإن سبقت إليه فهو كما تريد فأخذ إليه ذات اليسار وملنا معه فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادي الخيل فتبيناها وعدلنا عن الطريق فلما رأونا عدلنا عدلوا إلينا كأن أسنتهم اليعاسيب وكأن راياتهم أجنحة الطير فاستبقنا إلى ذي حسم فسبقناهم إليه وذلك على مرحلتين من الكوفة وأمر الحسين (ع) بأبنيته فضربت وجاء القوم زهاء ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حر الظهيرة والحسين وأصحابه معتمون متقلدو أسيافهم فقال الحسين (ع) لفتيانه: اسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفاً أي اسقوها قليلاً فأقبلوا يملؤون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس فإذا عب فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه وسقوا آخر حتى سقوها عن آخرها. قال علي بن الطعان المحاربي: كنت مع الحر يومئذ فجئت في آخر من جاء من أصحابه، فلما رأى الحسين (ع) ما بي وبفرسي من العطش قال: انخ الراوية، والراوية عندي السقاء ثم قال: يا ابن الأخ أنخ الجمل[1] فأنخته فقال: اشرب، فجعلت كلما شربت سال الماء من السقاء فقال الحسين (ع): اخنث السقاء أي أعطفه فلم أدر كيف أفعل فقام فخنثه بيده فشربت وسقيت فرسي، وقال الحسين (ع) للحر: ألنا أم علينا؟ فقال: بل عليك يا أبا عبد الله، فقال

---

(١) الرواية في لسان أهل الحجاز اسم للجمل الذي يستقى عليه وفي لسان أهل العراق اسم للسقاء الذي فيه الماء فلذلك لم يفهم مراد الحسين عليه السلام حتى قال له انخ الجمل.

الحسين (ع): لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (وكان) مجيء الحر من القادسية (وكان) عبيد اللّه بن زياد بعث الحصين بن تميم وأمره أن ينزل القادسية ويقدم الحر بين يديه في ألف فارس يستقبل بهم الحسين فلم يزل الحر موافقاً للحسين حتى حضرت صلاة الظهر فأمر الحسين (ع) الحجاج بن مسروق أن يؤذن فلما حضرت الإقامة خرج الحسين (ع) في إزار ورداء ونعلين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم إن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم، فسكتوا فقال للمؤذن: أقم فأقام الصلاة فقال للحر: أتريد أن تصلي بأصحابك قال: لا بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك فصلى بهم الحسين (ع) ثم دخل فاجتمع إليه أصحابه وانصرف الحر إلى مكانه الذي كان فيه فدخل خيمة قد ضربت له واجتمع إليه جماعة من أصحابه وعاد الباقون إلى صفهم الذي كانوا فيه فأعادوه ثم أخذ كل رجل منهم بعنان دابته وجلس في ظلها (فلما) كان وقت العصر أمر الحسين (ع) أن يتهيأوا للرحيل ففعلوا ثم أمر مناديه فنادى بالعصر وأقام فاستقدم الحسين (ع) وقام فصلى ثم سلم وانصرف إليهم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله عنكم ونحن أهل بيت محمد أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان وإن أبيتم إلا الكراهية لنا والجهل بحقنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به علي رسلكم انصرفت عنكم. فقال له الحر: أنا والله ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر، فقال الحسين (ع) لبعض أصحابه: يا عقبة بن سمعان أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إلي، فأخرج خرجين مملوءين صحفاً فنثرت بين يديه، فقال له الحر: إنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك

الكوفة على عبيد اللّه، فقال له الحسين (ع): الموت أدنى إليك من ذلك، ثم قال لأصحابه: قوموا فاركبوا فركبوا وانتظر هو حتى ركبت نساؤه، فقال لأصحابه: انصرفوا، فلما ذهبوا لينصرفوا حال القوم بينهم وبين الانصراف، فقال الحسين (ع) للحر: ثكلتك أمك ما تريد؟ فقال له الحر: أما لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان، ولكن ما لي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما أقدر عليه، فقال له الحسين (ع): فما تريد؟ قال: أريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيد اللّه بن زياد، فقال: إذاً والله لا أتبعك، فقال: إذاً والله لا أدعك، فترادا القول ثلاث مرات فلما كثر الكلام بينهما قال له الحر: إني لم أؤمر بقتالك إنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ولا يردك إلى المدينة بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى الأمير عبيد اللّه بن زياد فلعل الله أن يرزقني العافية من أن أبتلي بشيء من أمرك فخذها ها هنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسية فتياسر الحسين وسار والحر يسايره فقال الحسين (ع): إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير بقول ولا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتولوا عن طاعة الرحمٰن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله وإني بهذا الأمر وقد أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم إنكم لا تسلموني ولا تخذلوني فإن وفيتم لي ببيعتكم فقد أصبتم حظكم ورشدكم وأنا الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ونفسي مع أنفسكم وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم ولكم بي أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي منكم بنكر لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغتر بكم فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام (فقال) له الحر: أذكرك الله في نفسك فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن فقال له

الحسين (ع): أفبالموت تخوفني وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فخوفه ابن عمه وقال: أين تذهب إنك مقتول فقال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى | إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه | وفارق مثبوراً وودع مجرما
أقدم نفسي لا أريد بقاءها | لتلقى خميساً في الوغى وعرمرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم | كفى بك ذلاً إن تعيش وترغما

(فلما) سمع الحر ذلك تنحى عنه وجعل يسير ناحية عن الحسين (ع) (ولم) يزل الحسين سائراً حتى انتهوا إلى عذيب الهجانات فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة لنصرة الحسين على رواحلهم وهم عمرو بن خالد الصيداوي ومجمع العائذي وابنه وجنادة بن الحارث السلماني ومعهم غلام لنافع بن هلال الجملي، وهو يجنب فرساً لنافع يقال له: الكامل وكان نافع خرج إلى الحسين (ع) قبلهم فلقيه في الطريق وأوصى أن يتبع بفرسه المسمى بالكامل ومعهم دليل يقال له: الطرماح بن عدي الطائي على فرسه وكان قد امتار لأهله من الكوفة ميرة فخرج بهم على غير الطريق حتى إذا قاربوا الحسين (ع) حدا بهم الطرماح فقال:

يا ناقتي لا تذعري من زجري | وشمري قبل طلوع الفجر
بخير ركبان وخير سفر | حتى تحلي بكريم النجر
الماجد الحر الرحيب الصدر | أتى به الله لخير أمر
ثمة أبقاه بقاء الدهر

فلما وصلوا إلى الحسين (ع) أراد الحر حبسهم أو ردهم إلى الكوفة فمنعه الحسين (ع) من ذلك وقال: لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي إنما هؤلاء أنصاري وهم بمنزلة من جاء معي فإن بقيت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك، فكف الحر عنهم، ثم سألهم الحسين (ع) عن خبر الناس فقالوا: أما الأشراف فقد

استمالهم ابن زياد بالأموال فهم إلب واحد عليك وأما سائر الناس فأفئدتهم لك وسيوفهم مشهورة عليك، قال: فهل لكم علم برسولي قيس بن مسهر؟ قالوا: نعم قتله ابن زياد، فترقرقت عينا الحسين (ع) ولم يملك دمعته ثم قال: منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلاً واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك ورغائب مذخور ثوابك (وقال) له الطرماح بن عدي: أذكرك الله في نفسك لا يغرنك أهل الكوفة فوالله إن دخلتها لتقتلن وإني لأخاف أن لا تصل إليها وما أرى معك كثير أحد ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء لكفى، ولقد رأيت قبل خروجي من الكوفة جمعاً عظيماً يريدون المسير إليك فأنشدك الله إن قدرت أن لا تقدم إليهم شبراً فافعل وطلب منه أن يذهب معه إلى بلاد قومه حتى يرى رأيه وأن ينزل جبلهم أجأ ويبعث إلى من بأجأ وسلمى وهما جبلان لطيء، فجزاه الحسين (ع) وقومه خيراً وقال له: إن بيننا وبين القوم قولاً لا نقدر معه على الانصراف، فإن يدفع الله عنا فقديماً ما أنعم علينا وكفى، وإن يكن ما لا بد منه ففوز وشهادة من الله، وسار الطرماح مع الحسين (ع)، ثم ودعه ووعده أن يوصل الميرة لأهله ويعود لنصره فلما عاد بلغه خبر قتله في عذيب الهجانات فرجع (وفي رواية) إن الحسين (ع) قال لأصحابه: هل فيكم أحد يعرف الطريق على غير الجادة، فقال الطرماح بن عدي: نعم يا ابن رسول الله أنا أخبر الطريق قال: سر بين أيدينا، فسار الطرماح أمامهم وجعل يرتجز[1]:

يا ناقتي لا تذعري من زجري ... وامضي بنا قبل طلوع الفجر

بخير فتيان وخير سفر ... آل رسول الله آل الفخر

---

(١) هكذا ذكرت هذه الأبيات في لواعج الأشجان ولا أعلم الآن من أين نقلتها وقوله حتى تحلي بالحاء المهملة يدل على أنه قالها قبل وصوله إلى الحسين (ع) ورسمها تجلي بالجيم تصحيف والذي ذكره الطبري أن الطرماح قال الأبيات السابقة قبل وصولهم إلى الحسين فلما انتهوا إليه أنشدوه إياها لكن بدون زيادة على ما تقدم فإن صحت الزيادة فالظاهر أن الطرماح لما أنشدها ثانياً زاد عليها ولعل الزيادة من غيره والله أعلم.

السادة البيض الوجوه الزهر الطاعنين بالرماح السمر
الضاربين بالسيوف البتر حتى تحلي بكريم النجر
الماجد الجد الرحيب الصدر أصابه اللّه بخير أمر
عمره اللّه بقاء الدهر يا مالك النفع معاً والضر
أيد حسيناً سيدي بالنصر على الطغاة من بقايا الكفر
على اللعينين سليلي صخر يزيد لا زال حليف الخمر
وابن زياد العهر بن العهر

روائع البطولة

(ولم) يزل الحسين (ع) سائراً حتى انتهى إلى قصر بني مقاتل فنزل به (فلما) كان آخر الليل أمر فتيانه فاستقوا من الماء ثم أمر بالرحيل فارتحل من قصر بني مقاتل ليلاً. قال عقبة بن سمعان: فسرنا معه ساعة فخفق وهو على ظهر فرسه خفقة ثم انتبه وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً فأقبل إليه ابنه علي الأكبر(١) فقال: يا أبه جعلت فداك مم حمدت واسترجعت؟ قال: يا بني إني خفقت خفقة فعن لي فارس على فرس وهو يقول القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا، فقال له: يا أبه لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد، قال: إذاً لا نبالي أن نموت محقين. فقال له الحسين (ع): جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده.

(فلما) أصبح نزل فصلى الغداة ثم عجل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفر بهم، فيأتيه الحر فيرده وأصحابه، فجعل إذا ردهم نحو الكوفة رداً شديداً امتنعوا عليه وارتفعوا فلم يزالوا يتياسرون كذلك حتى انتهوا إلى نينوى، فإذا راكب على نجيب له عليه السلاح متنكب قوساً مقبل من الكوفة، وهو مالك بن النسر الكندي فوقفوا جميعاً ينتظرونه فلما انتهى إليهم سلم على الحر

(١) كان للحسين ولدان باسم علي وهذا الأكبر أما الأصغر فهو الملقب زين العابدين.

وأصحابه ولم يسلم على الحسين (ع) وأصحابه، ودفع إلى الحر كتاباً من ابن زياد فإذا فيه: أما بعد فجعجع بالحسين (أي ضيق عليه) حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام. فعرض لهم الحر وأصحابه ومنعوهم من السير وأخذهم الحر بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا قرية فقال له الحسين (ع): ألم تأمرنا بالعدول عن الطريق؟ قال: بلى ولكن كتاب الأمير عبيد الله قد وصل يأمرني فيه بالتضييق عليك وقد جعل علي عيناً يطالبني بذلك، فنظر يزيد بن زياد بن مهاصر الكندي وكان خرج إلى الحسين (ع) من الكوفة قبل أن يلاقيه الحر إلى رسول ابن زياد فعرفه فقال له: ثكلتك أمك ماذا جئت به؟ قال: أطعت إمامي ووفيت ببيعتي، فقال له ابن مهاصر: بل عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك وكسبت العار والنار وبئس الإمام إمامك قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ فإمامك منهم، فقال الحسين (ع) للحر: دعنا ويحك ننزل هذه القرية أو هذه يعني نينوى والغاضرية أو هذه يعني شفية فقال: لا أستطيع هذا رجل قد بعث علي عيناً.

فقال زهير بن القين للحسين (ع): إني والله لا أرى أن يكون بعد الذي ترون إلا أشد مما ترون يا ابن رسول الله إن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم فلعمري ليأتينا من بعدهم مالا قبل لنا به، فقال الحسين (ع): ما كنت لأبدأهم بالقتال فقال له: سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنها حصينة وهي على شاطىء الفرات فإن منعونا قاتلناهم فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم، فقال الحسين (ع): ما هي؟ قال: العقر، قال: اللهم إني أعوذ بك من العقر، قال له: فسر بنا يا ابن رسول الله حتى ننزل كربلاء فإنها على شاطىء الفرات فنكون هناك فإن قاتلونا قاتلناهم واستعنا الله عليهم، قال: فدمعت عينا الحسين (ع) ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء. ثم خطب أصحابه وقيل أنه خطب هذه الخطبة بذي حسم وقيل في كربلاء فحمد الله وأثنى عليه وقال: إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا

تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما.

فقام زهير بن القين فقال: قد سمعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها (ووثب) نافع بن هلال الجملي فقال: والله ما كرهنا لقاء ربنا وإنا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك (وقام) برير بن خضير فقال: والله يا ابن رسول الله لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك وتقطع فيك أعضاؤنا ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة.

وصوله كربلاء

ثم إن الحسين (ع) قام وركب وكلما أراد المسير يمنعونه تارة ويسايرونه أخرى حتى بلغ كربلاء يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين فلما وصلها قال: ما اسم هذه الأرض؟ فقيل: كربلاء فقال: اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء. ثم أقبل على أصحابه فقال: الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون، ثم قال: أهذه كربلاء؟ قالوا: نعم يا ابن رسول الله، فقال: هذا موضع كرب وبلاء، أنزلوا، ها هنا مناخ ركابنا ومحط رحالنا ومقتل رجالنا ومسفك دمائنا، فنزلوا جميعاً ونزل الحر وأصحابه ناحية. ثم إن الحسين (ع) جمع ولده وأخوته وأهل بيته ثم نظر إليهم فدمعت عيناه ثم قال: اللهم إنا عترة نبيك محمد ﷺ وقد أزعجنا وطردنا وأخرجنا عن حرم جدنا وتعدت بنو أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين (وكتب) الحر إلى عبيد الله بن زياد يعلمه بنزول الحسين بكربلاء، فكتب ابن زياد إلى الحسين: أما بعد فقد بلغني يا حسين نزولك بكربلاء وقد كتب إلي أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسد الوثير ولا

أشبع من الخمير أو ألحقك باللطيف الخبير أو ترجع إلى حكمي وحكم يزيد والسلام (فلما) قرأ الحسين الكتاب ألقاه من يده وقال: لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فقال له الرسول: الجواب يا أبا عبد اللّه. فقال له: ما عندي جواب. فرجع الرسول إلى ابن زياد فأخبره فاشتد غضبه وجهز إليه العساكر وجمع الناس في مسجد الكوفة وخطبهم ومدح يزيد وأباه وذكر حسن سيرتهما ووعد بتوفير العطاء وزادهم في عطائهم مائة مائة وأمر بالخروج إلى حرب الحسين (ع).

مجيء ابن سعد لقتاله

فلما كان من الغد وهو اليوم الثالث من المحرم قدم عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف وكان ابن زياد قد ولاه الري وأرسل معه أربعة آلاف لقتال الديلم فلما جاء الحسين (ع) قال له: سر إليه فإذا فرغت فسر إلى عملك فاستعفاه فقال: نعم إلا أن ترد إلينا عهدنا فاستمهله واستشار نصحاءه فنهوه عن ذلك فبات ليلته مفكراً فسمعوه وهو يقول:

دعاني عبيد اللّه من دون قومه — إلى خطة فيها خرجت لحيني
فواللّه لا أدري وإني لواقف — أفكر في أمري على خطرين
أأترك ملك الري والري رغبة — أم أرجع مذموماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها — حجاب وملك الري قره عيني

وجاءه حمزة بن المغيرة بن شعبة وهو ابن أخته فقال له: أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم عند ربك وتقطع رحمك فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كلها لو كان لك خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين. فقال له ابن سعد: إني أفعل إن شاء الله وجاء ابن سعد إلى ابن زياد فقال: إنك وليتني هذا العمل يعني الري وتسامع به الناس فإن رأيت أن تنفذ لي ذلك وتبعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من لست خيراً منه. وسمى له أناساً، فقال له ابن زياد: لست أستشيرك في من أبعث إن سرت بجندنا وإلا

فابعث إلينا بعهدنا قال: فإني سائر. وقبل أن يحارب الحسين (ع). «وسار» ابن سعد إلى قتال الحسين (ع) بالأربعة الآلاف التي كانت معه (وانضم) إليه الحر وأصحابه فصار في خمسة آلاف «ثم» جاءه شمر في أربعة آلاف «ثم» أتبعه ابن زياد بيزيد بن ركاب الكلبي في ألفين والحصين بن تميم السكوني في أربعة آلاف وفلان المازني في ثلاثة آلاف ونصر ابن فلان في الفين، (فذلك) عشرون ألف فارس تكملت عنده إلى ست ليال خلون من المحرم، وبعث كعب بن طلحة في ثلاثة آلاف وشبث بن ربعي الرياحي في ألف وحجار بن أبجر في ألف فذلك خمسة وعشرون ألفاً، وما زال يرسل إليه بالعساكر حتى تكامل عنده ثلاثون ألفاً ما بين فارس وراجل. هكذا ذكره المفيد في الإرشاد وهو المروي عن الصادق (ع). وقال الطبري في التاريخ: أقبل ابن سعد في أربعة آلاف من أهل الكوفة حتى نزل بالحسين، وقال سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص كان ابن زياد قد جهز عمر بن سعد لقتال الحسين في أربعة آلاف وجهز خمسمائة فارس فنزلوا على الشرائع، وقال المسعودي كان جميع من حضر مقتل الحسين من أهل الكوفة خاصة. ثم قال الطبري: إن أصحاب ابن سعد كانوا ستة آلاف مقاتل.

«أقول» كلام سبط بن الجوزي ليس فيه دلالة على أن جميع أصحاب ابن سعد كانوا أربعة آلاف لأن الذين جاؤوا معه كانوا أربعة آلاف في جميع الروايات ثم أتبعه ابن زياد ببقية العسكر كما قال المفيد وانضم إليه الحر بمن معه والقول بأنهم كانوا ستة آلاف مردود بما مر عن المفيد والمثبت مقدم على النافي (ثم) كتب إليه: إني لم أجعل لك علة في كثرة الخيل والرجال فانظر لا أصبح ولا أمسي إلا وخبرك عندي غدوة وعشية، وكان يستحثه لستة أيام مضين من المحرم، وأراد ابن سعد أن يبعث إلى الحسين رسولاً يسأله ما الذي جاء به فعرض ذلك على جماعة من الرؤساء فكلهم أبى استحياء من الحسين (ع) لأنهم كاتبوه فقام إليه كثير بن عبد الله الشعبي وكان فارساً شجاعاً لا يرد وجهه شيء، فقال: أنا أذهب إليه والله إن شئت لأفتكن به. فقال عمر: ما أريد أن تفتك به

ولكن اذهب فسله ما الذي جاء به؟ فأقبل فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين (ع): أصلحك الله يا أبا عبد اللّه قد جاءك شر أهل الأرض وأجرأه على دم وأفتكه. وقام إليه فقال له: ضع سيفك. قال: لا والله ولا كرامة إنما أنا رسول فإن سمعتم مني وإلا انصرفت، قال: فآخذ بقائم سيفك ثم تتكلم، قال: لا والله لا تمسه، قال: أخبرني بما جئت به وأنا أبلغه عنك ولا أدعك تدنو منه فإنك فاجر، فاستبّا وانصرف إلى عمر بن سعد فأخبره، فأرسل قرة بن قيس الحنظلي، فلما رآه الحسين (ع) مقبلاً قال: أتعرفون هذا؟ قال حبيب بن مظاهر: نعم هذا رجل من حنظلة تميم وهو ابن أختنا وقد كنت أعرفه بحسن الرأي وما كنت أراه يشهد هذا المشهد، فجاء حتى سلم على الحسين (ع) وبلغه رسالة عمر بن سعد، فقال له الحسين (ع): كتب إلي أهل مصركم هذا أن أقدم فأما إذا كرهتموني فإني أنصرف عنكم، فقال له حبيب بن مظاهر: ويحك يا قرة أين ترجع إلى القوم الظالمين، أنصر هذا الرجل الذي بآبائه أيدك الله بالكرامة فقال له: ارجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي، فانصرف إلى ابن سعد فأخبره فقال: أرجو أن يعافيني الله من أمره وكتب إلى ابن زياد بذلك فلما قرأ الكتاب قال:

الآن إذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد أن أعرض على الحسين أن يبايع ليزيد هو وجميع أصحابه فإذا هو فعل ذلك رأينا رأينا فقال ابن سعد: قد خشيت أن لا يقبل ابن زياد العافية.

منعه من الماء

«وورد» كتاب ابن زياد في الأثر إلى ابن سعد أن حل بين الحسين وأصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي عثمان بن عفان. فبعث عمر في الوقت عمرو بن الحجاج في خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين عليه السلام وأصحابه وبين الماء ومنعوهم أن يستقوا

منه قطرة وذلك قبل قتل الحسين عليه السلام بثلاثة أيام. فلما اشتد العطش على الحسين (ع) وأصحابه أمر أخاه العباس بن علي عليهما السلام فسار في عشرين رجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فجاؤوا حتى دنوا من الماء ليلاً وأمامهم نافع بن هلال الجملي يحمل اللواء، فقال عمرو بن الحجاج: من الرجل؟ قال: نافع، قال: ما جاء بك؟ قال: جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه، قال: فاشرب هنيئاً، قال: لا والله لا أشرب منه قطرة والحسين عطشان هو وأصحابه، فقالوا: لا سبيل إلى سقي هؤلاء إنما وضعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء فقال نافع لرجاله: املؤوا قربكم فملؤوها، وثار إليهم عمر بن الحجاج وأصحابه فحمل عليهم العباس ونافع بن هلال فكشفوهم وأقبلوا بالماء، ثم عاد عمرو بن الحجاج وأصحابه وأرادوا أن يقطعوا عليهم الطريق فقاتلهم العباس وأصحابه حتى ردوهم وجاؤوا بالماء إلى الحسين عليه السلام، وقال سبط بن الجوزي إنهم اقتتلوا على الماء ولم يمكنوهم من الوصول إليه (وضيق) القوم على الحسين (ع) حتى نال منه العطش ومن أصحابه، فقال له برير بن خضير الهمداني: يا ابن رسول الله أتأذن لي أن أخرج إلى القوم، فأذن له فخرج إليهم فقال: يا معشر الناس إن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابه وقد حيل بينه وبين ابنه، فقالوا: يا برير قد أكثرت الكلام فاكفف والله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله، فقال الحسين (ع): اقعد يا برير «ثم» وثب الحسين (ع) متوكئاً بأعلى قائم سيفه ونادى بأعلى صوته فقال: أنشدكم الله هل تعرفونني؟ قالوا: نعم أنت ابن رسول الله ﷺ وسبطه، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدي رسول الله ﷺ؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن أمي فاطمة بنت محمد ﷺ؟ قالوا: اللهم نعم. قال أنشدكم الله هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب (ع)؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد أول نساء هذه الأمة إسلاماً؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن سيد الشهداء حمزة عم أبي؟ قالوا:

اللهم نعم. قال: فأنشدكم الله هل تعلمون أن هذا سيف رسول الله ﷺ أنا متقلده؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن هذه عمامة رسول الله ﷺ أنا لابسها؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله هل تعلمون أن علياً كان أول القوم إسلاماً وأعلمهم علماً وأعظمهم حلماً وأنه ولي كل مؤمن ومؤمنة؟ قالوا: اللهم نعم. قال: فيم تستحلون دمي وأبي الذائد عن الحوض يذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الصاد[1] عن الماء ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة؟ قالوا: قد علمنا ذلك كله ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً «فلما» خطب هذه الخطبة وسمع بناته وأخواته كلامه بكين وارتفعت أصواتهن فوجه إليهن أخاه العباس وعلياً ابنه وقال لهما أسكتاهن فلعمري ليكثرن بكاؤهن.

المراسلة بينه وبين ابن سعد

وأرسل الحسين عليه السلام إلى عمر بن سعد مع عمرو بن قرظة الأنصاري أني أريد أن أكلمك فالقني الليلة بين عسكري وعسكرك فخرج إليه ابن سعد في عشرين وخرج الحسين (ع) في مثلها فأمر الحسين (ع) أصحابه فتنحوا وبقي معه أخوه العباس وابنه علي الأكبر وأمر ابن سعد أصحابه فتنحوا وبقي معه ابنه حفص وغلام له فقال له الحسين (ع): ويلك يا ابن سعد أما تتقي الله الذي إليه معادك أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك إلى الله. فقال ابن سعد: أخاف أن تهدم داري فقال الحسين: أنا أبنيها لك فقال: أخاف أن تتخذ ضيعتي. فقال الحسين: أنا أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز. فقال: لي عيال وأخاف عليهم ثم سكت ولم يجبه إلى شيء فانصرف عنه الحسين وهو يقول: مالك ذبحك الله على فراشك عاجلاً ولا غفر لك يوم حشرك فوالله إني لأرجو أن لا تأكل من بر العراق إلا يسيراً فقال: في

---

(١) الصاد بلفظ حرف الهجاء البعير الذي أصابه الصيد وهو داء يلوي العنق كذا في الفائق للزمخشري.

الشعير كفاية عن البر مستهزئاً بذلك القول، وأرسل إليه مرة أخرى إني أريد أن ألقاك فاجتمعا ليلاً بين العسكرين وتناجيا طويلاً والتقى الحسين وعمر بن سعد مراراً ثلاثاً أو أربعاً ثم كتب عمر إلى ابن زياد: (أما بعد) فإن الله قد أطفأ النائرة وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة هذا الحسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى أو أن يسير إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه وفي هذا لك رضا وللأمة صلاح «وعن» عقبة بن سمعان أنه قال: والله ما أعطاهم الحسين (ع) أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسير إلى ثغر من الثغور ولكنه قال: دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه أو أذهب في هذه الأرض العريضة (قال) فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال هذا كتاب ناصح لأميره مشفق على قومه فقام إليه شمر بن ذي الجوشن وقال أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت فأنت أولى بالعقوبة وإن عفوت كان ذلك لك، فقال له ابن زياد: نعم ما رأيت الرأي رأيك اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي فإذا فعلوا فليبعث بهم إلي سلماً وإن أبو فليقاتلهم فإن فعل فاسمع له وأطع وإن أبى فأنت أمير الجيش فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه. وكتب إلى ابن سعد: إني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتعتذر عنه ولا لتكون له عندي شافعاً، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم لي سلما وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون فإن قتلت حسيناً فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم ولست أرى إن هذا يضر بعد الموت شيئاً ولكن على قول قد قتله لو قد قتلته لفعلت هذا به فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا والسلام. فلما قرأ

ابن سعد الكتاب قال له: ما لك ويلك لا قرب الله دارك وقبح الله ما قدمت به علي والله إني لأظنك أنت نهيته أن يقبل ما كتبت به إليه وأفسدت علينا أمراً كنا قد رجونا أن يصلح، لا يستسلم والله حسين، إن نفس أبيه لبين جنبيه، فقال له شمر بن ذي الجوشن: أخبرني بما أنت صانع أتمضي لأمر أميرك وتقاتل عدوه وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر قال: لا ولا كرامة لك ولكن أنا أتولى ذلك فدونك فكن أنت على الرجالة، (ونهض) عمر بن سعد إلى الحسين (ع) عشية يوم الخميس لتسع مضين من المحرم (وجاء) شمر حتى وقف على أصحاب الحسين (ع) فقال: أين بنو أختنا يعني العباس وجعفر وعبد اللّه وعثمان أبناء علي (ع) فقال الحسين (ع): أجيبوه وإن كان فاسقاً فإنه بعض أخوالكم، وذلك إن أمهم أم البنين كانت من بني كلاب وشمر من بني كلاب، فقالوا له: ما تريد؟ فقال لهم: أنتم يا بني أختي آمنون فلا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحسين والزموا طاعة يزيد، فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له، وناداه العباس ابن أمير المؤمنين عليهما السلام: تبت يداك ولعن ما جئتنا به من أمانك يا عدو الله أتأمرنا أن نترك أخانا وسيدنا الحسين بن فاطمة وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء، فرجع الشمر إلى عسكره مغضباً (وكان) ابن خالهم عبد اللّه بن أبي المحل بن حرام وقيل جرير بن عبد اللّه بن مخلد الكلابي قد أخذ لهم أماناً من ابن زياد وأرسله إليهم مع مولى له وذلك أن أمهم أم البنين بنت حرام زوجة علي (ع) هي عمة عبد اللّه هذا فلما رأوا الكتاب قالوا: لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان ابن سمية (ثم) نادى عمر بن سعد: يا خيل الله اركبي وبالجنة أبشري فركب الناس ثم زحف نحوهم بعد العصر والحسين (ع) جالس أمام بيته محتب بسيفه إذ خفق برأسه على ركبتيه فسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخي أما تسمع هذه الأصوات قد اقتربت فرفع الحسين (ع) رأسه فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ الساعة في المنام فقال: إنك تروح إلينا فلطمت أخته وجهها ونادت بالويل فقال لها الحسين (ع): ليس لك الويل يا أخية اسكتي رحمك الله (وفي رواية) إنه (ع) جلس فرقد ثم استيقظ

وقال: يا أختاه رأيت الساعة جدي محمداً وأبي علياً وأمي فاطمة وأخي الحسن وهم يقولون: يا حسين إنك رائح إلينا عن قريب «وقال» له العباس: يا أخي أتاك القوم فنهض ثم قال: يا عباس اركب أنت حتى تلقاهم وتقول لهم ما بالكم وما بدا لكم وتسألهم عما جاء بهم. فأتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر فسألهم فقالوا: قد جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض علية ما ذكرتم فوقفوا ورجع العباس إليه بالخبر ووقف أصحابه يخاطبون القوم ويعظونهم ويكفونهم عن قتال الحسين (ع) فلما أخبره العباس بقولهم قال له: ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا العشية لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم إني كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار، وأراد الحسين (ع) أيضاً أن يوصي أهله فسألهم العباس ذلك فتوقف ابن سعد فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي: سبحان الله والله لو أنهم من الترك أو الديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم فكيف وهم آل محمد وقال له قيس بن الأشعث بن قيس: أجبهم لعمري ليصبحنك بالقتال.

الأبطال

فأجابوهم إلى ذلك فجمع الحسين (ع) أصحابه عند قرب المساء (قال) زين العابدين (ع) فدنوت منه لأسمع ما يقول لهم وأنا إذ ذاك مريض فسمعت أبي يقول لأصحابه: أثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فاجعلنا لك من الشاكرين (أما بعد) فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني خيراً ألا وإني لأظن يوماً لنا من هؤلاء، ألا واني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في سواد

هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يريدون غيري. قال له أخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر: ولم نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك! لا أرانا الله ذلك أبداً، بدأهم بهذا القول أخوه العباس بن أمير المؤمنين وأتبعه الجماعة عليه فتكلموا بمثله ونحوه (ثم) نظر إلى بني عقيل فقال: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم اذهبوا فقد أذنت لكم. قالوا: سبحان الله فما يقول الناس لنا وما نقول لهم إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن معهم برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ما صنعوا، لا والله ما نفعل ذلك ولكننا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك (وقام) إليه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال: أنحن نخلي عنك وقد أحاط بك هذا العدو؟ وبم نعتذر إلى الله في أداء حقك. لا والله لا يراني الله أبداً وأنا أفعل ذلك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضاربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة ولم أفارقك أو أموت معك (وقام) سعيد بن عبد الله الحنفي فقال: لا والله يا ابن رسول الله لا نخليك أبداً حتى يعلم الله إنا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد ﷺ والله لو علمت إني أقتل فيك ثم أحيا ثم أحرق ثم أذرى يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم أنال الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً (وقام) زهير بن القين وقال: والله يا ابن رسول الله لوددت إني قتلت ثم نشرت ألف مرة وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن نفس هؤلاء الفتيان من إخوانك وولدك وأهل بيتك، (وتكلم) جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً وقالوا: أنفسنا لك الفداء نقيك بأيدينا ووجوهنا فإذا نحن قتلنا بين يديك نكون قد وفينا لربنا وقضينا ما علينا (ووصل) الخبر إلى محمد بن بشير الحضرمي في تلك الحال بأن ابنه قد أسر بثغر الري فقال: عند الله احتسبه ونفسي ما كنت أحب أن يؤسر وأبقى بعده فسمع الحسين (ع) قوله: فقال رحمك الله أنت في حل من بيعتي فاعمل في فكاك ابنك فقال: أكلتني السباع حياً إن فارقتك، قال: فأعط ابنك هذا هذه الأثواب

البرود يستعين بها في فداء أخيه فأعطاه خمسة أثواب برود قيمتها ألف دينار فحملها مع ولده. وأمر الحسين (ع) أصحابه أن يقربوا بين بيوتهم ويدخلوا الأطناب بعضها في بعض ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم قد حفت بهم إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوهم (وروى) أبو مخنف عن علي بن الحسين زين العابدين (ع) قال: إني لجالس في تلك العشية التي قتل أبي في صبيحتها وعمتي زينب عندي تمرضني إذ اعتزل أبي في خباء له وعنده جون مولى أبي ذر وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول[1]:

يـا دهـر أف لـك مـن خـلـيـل كـم لـك بـالإشـراق والأصـيـل

مـن صـاحـب وطـالـب قـتـيـل والـدهـر لا يـقـنـع بـالـبـديـل

وكـل حـي سـالـك الـسـبـيـل مـا أقـرب الـوعـد مـن الـرحـيـل

وإنـمـا الأمـر إلـى الـجـلـيـل

فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد فخنقتني العبرة فرددتها ولزمت السكوت وعلمت أن البلاء قد نزل، وأما عمتي فإنها لما سمعت وهي امرأة ومن شأن النساء الرقة والجزع لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت إليه ونادت: واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فنظر إليها الحسين (ع) فقال لها: يا أخية لا يذهبن حلمك الشيطان. فقالت: بأبي وأمي تستقل نفسي فداك. فرد غصته وترقرقت عيناه بالدموع ثم قال: «لو ترك القطا ليلاً لنام» فقالت: يا ويلتاه أفتغتصب نفسك اغتصاباً فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي

(١) يوجد في بعض الروايات أن الحسين عليه السلام جلس يصلح سيفه ويقول: (يا دهر أف لك من خليل) الأبيات والصواب ما رواه أبو مخنف من أن جوناً هو الذي كان يصلح سيف الحسين (ع) ولم يكن الحسين ليتعاطى إصلاح سيفه بنفسه ولم يكن أصحابه وخدمه وحشمه ليدعوه يفعل ذلك فما في هذه الرواية اشتباه نشأ من قول الراوي وهو يصلح سيفه فظن أن الضمير راجع إلى الحسين وإنما هو راجع إلى جون.

ولطمت وجهها وأهوت إلى جيبها فشقته وخرت مغشياً عليها فقام إليها الحسين (ع) فصب على وجهها الماء حتى أفاقت وقال لها: يا أخية اتقي الله وتعزي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون وإن أهل السماء لا يبقون وإن كل شيء هالك إلا وجهه الذي خلق الخلق بقدرته ويبعث الخلق ويعيدهم وهو فرد وحده، جدي خير مني وأبي خير مني وأمي خير مني وأخي خير مني ولي ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة. فعزاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أخية إني أقسمت عليك فأبري قسمي، لا تشقي علي جيباً ولا تخمشي علي وجهاً ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت «وفي رواية» إنها لما سمعت الأبيات قالت: يا أخي هذا كلام من أيقن بالقتل فقال: نعم يا أختاه. فقالت زينب: واثكلاه ينعي إلي الحسين نفسه. وبكى النسوة ولطمن الخدود وشققن الجيوب وجعلت أم كلثوم تنادي وامحمداه واعلياه وا أماه وا أخاه وا حسيناه وا ضيعتنا بعدك يا أبا عبد اللّه «وقام» الحسين وأصحابه الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون وباتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد فعبر إليهم في تلك الليلة من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً «قال» بعض أصحاب الحسين (ع) مرت بنا خيل لابن سعد تحرسنا وكان الحسين (ع) يقرأ ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب فسمعها رجل من تلك الخيل يقال له عبد اللّه بن سمير فقال: نحن ورب الكعبة الطيبون ميزنا منكم فقال له برير بن خضير: يا فاسق أنت يجعلك الله من الطيبين فقال له: من أنت ويلك قال: أنا برير بن خضير فتسابا (فلما) كان وقت السحر خفق الحسين (ع) برأسه خفقة ثم استيقظ فقال: رأيت كأن كلاباً قد جهدت لتنهشني وفيها كلب أبقع رأيته أشدها علي وأظن أن الذي يتولى قتلي رجل أبرص.

صفة القتال

(وأصبح) الحسين (ع) فعبأ أصحابه بعد صلاة الغداة «وكان» معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً وقيل ثمانية وأربعون راجلاً (وفي رواية) ثمانون راجلاً (وعن) الباقر (ع) إنهم كانوا خمسة وأربعين فارساً ومائة راجل (وقيل) وكانوا سبعين فارساً ومائة راجل (فجعل) زهير بن القين في الميمنة وحبيب بن مظاهر في الميسرة وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت في ظهورهم «وأمر» بحطب وقصب كان من وراء البيوت أن يترك في خندق كانوا قد حفروه هناك في ساعة من الليل وأن يحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم فنفعهم ذلك (وأصبح) ابن سعد في ذلك اليوم وهو يوم الجمعة أو يوم السبت فعبأ أصحابه فجعل على ميمنته عمرو بن الحجاج وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن وعلى الخيل عزرة بن قيس وعلى الرجالة شبث بن ربعي وأعطى الراية دريداً مولاه وجعل على ربع أهل المدينة عبد اللّٰه الأزدي وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمٰن الجحفي وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي «وأمر» الحسين (ع) بفسطاط فضرب وأمر بجفنة فيها مسك كثير وجعل عندها نورة ثم دخل ليطلي فروي أن برير بن خضير الهمداني وعبد الرحمٰن بن عبد ربه الأنصاري وقفا على باب الفسطاط ليطليا بعده فجعل برير يضاحك عبد الرحمٰن فقال له عبد الرحمٰن: يا برير ما هذه ساعة باطل. فقال برير: لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً وإنما أفعل ذلك استبشاراً بما نصير إليه، فوالله ما هو إلا أن نلقى هؤلاء القوم بأسيافنا نعالجهم بها ساعة ثم نعانق الحور العين (ثم) ركب الحسين (ع) دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه (وركب) أصحاب عمر بن سعد وأقبلوا يجولون حول بيوت الحسين (ع) فيرون الخندق في ظهورهم والنار تضطرم في الحطب والقصب الذي كان ألقي فيه فنادى شمر بأعلى صوته: أتعجلت النار قبل يوم القيامة فقال الحسين (ع): من هذا كأنه شمر؟ قالوا: نعم، قال: أنت أولى بها صليا. ورام مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم فمنعه الحسين (ع) من ذلك فقال: دعني حتى

أرميه فإنه الفاسق من أعداء الله وعظماء الجبارين وقد أمكن الله منه. فقال له الحسين (ع): لا ترمه فإني أكره أن أبدأهم بقتال (وأقبل) رجل من عسكر ابن سعد يقال له: ابن أبي جويرية المزني فلما رأى النار تتقد نادى: يا حسين أبشروا بالنار فقد تعجلتموها في الدنيا (ثم) برز تميم بن حصين الفزاري فنادى: يا حسين ويا أصحاب حسين أما ترون ماء الفرات يلوح كأنه بطون الحيات والله لا ذقتم منه قطرة حتى تذوقوا الموت جرعاً (ولما) ركب أصحاب ابن سعد قرب إلى الحسين (ع) فرسه فاستوى عليه وكان اسم فرسه اليحموم وتقدم نحو القوم في نفر من أصحابه وبين يديه برير بن خضير فقال له الحسين (ع): كلم القوم فتقدم برير فقال: يا قوم اتقوا الله فإن ثقل محمد ﷺ قد أصبح بين أظهركم هؤلاء ذريته وعترته وبناته وحرمه فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم فقالوا: نريد أن نمكن منهم الأمير ابن زياد فيرى رأيه فيهم فقال لهم برير: أفلا تقبلون منهم أن يرجعوا إلى المكان الذي جاؤوا منه؟ ويلكم أنسيتم كتبكم وعهودكم التي أعطيتموها وأشهدتم الله عليها؟ يا ويلكم دعوتم أهل بيت نبيكم وزعمتم إنكم تقتلون أنفسكم دونهم حتى إذا أتوكم أسلمتموهم وحلأتموهم عن ماء الفرات بئس ما خلفتم نبيكم في ذريته، ما لكم لا سقاكم الله يوم القيامة فبئس القوم أنتم (فقال) له نفر منهم: يا هذا ما ندري ما تقول فقال: الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة اللهم إني أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم اللهم الق بأسهم بينهم حتى يلقوك وأنت عليهم غضبان. فجعل القوم يرمونه بالسهام فرجع إلى ورائه (وتقدم) الحسين (ع) حتى وقف بإزاء القوم فجعل ينظر إلى صفوفهم كأنهم السيل ونظر إلى ابن سعد واقفاً في صناديد الكوفة فقال: الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال فالمغرور من غرته والشقي من فتنته فلا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم وأعرض بوجهه الكريم عنكم وأحل بكم نقمته وجنبكم رحمته فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد ﷺ ثم إنكم

زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم. لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين. فقال ابن سعد: ويلكم كلموه فإنه ابن أبيه والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما انقطع ولما حصر فتقدم شمر فقال: يا حسين ما هذا الذي تقول؟ أفهمنا حتى نفهم. فقال: أقول اتقوا الله ربكم ولا تقتلوني فإنه لا يحل لكم قتلي ولا انتهاك حرمتي فإني ابن بنت نبيكم وجدتي خديجة زوجة نبيكم ولعله قد بلغكم قول نبيكم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة (قال المفيد) ثم دعا الحسين (ع) براحلته فركبها ونادى بأعلى صوته وكلهم أو جلهم يسمعون فقال: أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم علي وحتى أعذر إليكم فإن أعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم (فاجمعوا أمركم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) ثم حمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على النبي ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه فلم يسمع متكلم قط قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه ثم قال: أما بعد فانسبوني فانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يصلح ويحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمي؟ أو ليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي؟ أو لم يبلغكم ما قال رسول الله ﷺ لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة. فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق والله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، وإن كذبتموني فإن فيكم من إذا سألتموه عن ذلك أخبركم سلوا جابر بن عبد اللّه الأنصاري وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك يخبروكم إنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول، فقال له

حبيب بن مظاهر: والله إني لا أراك تعبد الله على سبعين حرفاً وأنا أشهد إنك صادق ما تدري ما يقول قد طبع الله على قلبك، ثم قال لهم الحسين (ع): فإن كنتم في شك من هذا أفتشكون في أني ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته أو مال لكم استهلكته أو بقصاص من جراحة. فأخذوا لا يكلمونه (فنادى) يا شبث بن ربعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنان وإنما تقدم على جند لك مجند؟ فقال له قيس بن الأشعث: ما ندري ما تقول ولكن انزل على حكم بني عمك فإنهم لن يروك إلا ما تحب (فقال) له الحسين (ع): لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد (أو لا أقر إقرار العبيد) (ثم) نادى: يا عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، ثم إنه أناخ راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها فأقبلوا يزحفون نحوه. وقال غير المفيد إنه (ع) ركب ناقته أو فرسه وخرج إلى الناس فاستنصتهم فأبوا أن ينصتوا حتى قال: ويلكم ما عليكم أن تنصتوا لي فتسمعوا قولي وإنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد فمن أطاعني كان من المرشدين ومن عصاني كان من المهلكين وكلكم عاص لأمري غير مستمع قولي فقد ملئت بطونكم من الحرام وطبع على قلوبكم. ويلكم ألا تنصتون ألا تسمعون؟ فتلاوم أصحاب عمر بن سعد بينهم وقالوا: انصتوا له، فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على محمد ﷺ وعلى الملائكة والأنبياء والرسل وأبلغ في المقال ثم قال: تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً حين استصرختمونا والهين فاصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً قدحناها على عدوكم وعدونا فأصبحتم إلباً على أوليائكم ويداً عليهم لأعدائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم إلا الحرام من الدنيا أنالوكم وخسيس عيش طمعتم فيه من غير حدث منا ولا رأي تفيل لنا فهلا لكم الويلات إذ كرهتمونا وتركتمونا تجهزتموها والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لما

يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم إليها كتداعي الفراش فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ونفثة الشيطان وعصبة الآثام ومحرفي الكتاب ومطفئي السنن وقتلة أولاد الأنبياء ومبيدي عترة الأوصياء وملحقي العهار بالنسب ومؤذي المؤمنين وصراخ أئمة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم وفي العذاب هم خالدون وأنتم ابن حرب وأشياعه تعضدون وعنا تخاذلون أجل والله الخذل فيكم معروف وشجت عليه أصولكم وتأزرت عليه فروعكم وثبتت عليه قلوبكم وغشيت صدوركم فكنتم أخبث ثمر شجي للناظر وأكلة للغاصب الا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، فأنتم والله هم، إلا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا قد أعذرت وأنذرت، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وكثرة العدو وخذلان النصر، ثم وصل (ع) كلامه بأبيات فروة بن مسيك المرادي فقال:

فإن نهزم فهزامون قدماً ... وإن نغلب فغير مغلبينا
وما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقي الكرام إذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم قال: أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. وخرج زهير بن القين على فرس له ذنوب شاك في السلاح فوعظهم فسبوه وأثنوا على ابن زياد فقال لهم: يا عباد الله إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية فإن كنتم لم

تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم فرماه شمر بسهم وتسابا وقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة، قال: أفبالموت تخوفني والله للموت أحب إلي من الخلد معكم، فأمره الحسين (ع) فرجع.

(ولما) رأى الحر بن يزيد أن القوم قد صمموا على قتال الحسين (ع) قال لعمر بن سعد: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي قال: فما لكم فيما عرضه عليكم رضى؟ قال: أما لو كان الأمر إلي لفعلت ولكن أميرك قد أبى، فأقبل الحر حتى وقف من الناس موقفاً ومعه رجل من قومه يقال له قرة بن قيس فقال له: يا قرة هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا، قال: فما تريد أن تسقيه؟ قال قرة: فظننت والله أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال فكره أن أراه حين يصنع ذلك، فقلت له: لم أسقه وأنا منطلق فأسقيه فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه، فوالله لو أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين (ع)، فأخذ الحر يدنو من الحسين (ع) قليلاً قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: ما تريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فلم يجبه وأخذه مثل الإفكل (وهي الرعدة)، فقال له المهاجر: إن أمرك لمريب والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك، فما هذا الذي أرى منك، فقال الحر: إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، فوالله إني لا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه قاصداً إلى الحسين (ع) ويده على رأسه وهو يقول: اللهم إليك أنيب فتب علي فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك، وقال للحسين (ع): جعلت فداك يا ابن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك إلى هذا المكان وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة، والله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت، وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك فهل ترى لي من توبة؟ فقال الحسين (ع): نعم يتوب الله عليك فانزل، قال: أنا لك فارساً خير مني راجلاً أقاتلهم على فرسي

ساعة وإلى النزول يصير آخر أمري، فقال له الحسين (ع): فاصنع يرحمك الله ما بدا لك، فاستقدم أمام الحسين (ع) ونادى أهل الكوفة ووعظهم وأنبهم فحمل عليه رجال يرمونه بالنبل فرجع حتى وقف أمام الحسين (ع). (ونادى) عمر بن سعد يا دريد ادن رايتك فأدناها ثم وضع سهماً في كبد قوسه فرمى به نحو عسكر الحسين (ع) وقال: اشهدوا لي عند الأمير إني أول من رمى وأقبلت السهام من القوم كأنها القطر فلم يبق من أصحاب الحسين (ع) أحد إلا أصابه من سهامهم (فقال) عليه السلام لأصحابه: قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه فإن هذه السهام رسل القوم إليكم، فاقتتلوا ساعة من النهار حملة وحملة حتى قتل من أصحاب الحسين (ع) جماعة. ثم صاح الحسين (ع): أما من مغيث يغيثنا لوجه الله، أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله ﷺ (وكان) يزيد بن زياد بن مهاصر الكندي ويكنى أبا الشعثاء في أصحاب ابن سعد، فلما ردوا على الحسين (ع) ما عرضه عليهم عدل إليه فقاتل بين يديه وجعل يرتجز ويقول:

أنا يزيد وأبي مهاصر ... أشجع من ليث بغيل خادر
يا رب إني للحسين ناصر ... ولابن سعد تارك وهاجر

وجثا بين يدي الحسين (ع) فرمى بمائة سهم ما سقط منها خمسة أسهم وكان رامياً وكلما رمى يقول له الحسين (ع): اللهم سدد رميته واجعل ثوابه الجنة فقتل خمسة من أصحاب عمر بالنشاب وكان أول من قتل (ثم) ارتمى الناس وتبارزوا فكان أصحاب الحسين (ع) كما قيل فيهم:

قوم إذا نودوا لدفع ملمة ... والخيل بين مدعس ومكردس
لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا ... يتهافتون على ذهاب الأنفس

(فبرز) يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد اللّه بن زياد وقالا: من يبارز فقام عبد اللّه بن عمير بن جناب الكلبي فاستأذن الحسين (ع) في مبارزتهما وكان طويلاً بعيد ما بين المنكبين فنظر إليه الحسين (ع) وقال: إني أحسبه للأقران قتالاً. وأذن له، وكان قد خرج من الكوفة ليلاً ومعه امرأته أم وهب إلى

الحسين (ع) لأنه لما رأى العساكر تعرض بالنخيلة لتسير إلى حرب الحسين (ع) قال: والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصاً وإني لأرجو أن لا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أقل ثواباً عند الله من جهاد المشركين، فأخبر زوجته فقالت: أصبت أخرج وأخرجني معك فشد على يسار فضربه بسيفه حتى برد وهو أول من قتل من أصحاب ابن سعد، فإنه لمشتغل بضربه إذ شد عليه سالم مولى عبيد الله فصاحوا به قد رهقك العبد فلم يعبأ به حتى غشيه فبدره بضربة اتقاها ابن عمير بيده اليسرى فأطارت أصابع كفه ثم شد عليه ابن عمير فضربه حتى قتله فرجع وقد قتلهما جميعاً وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا ابن كلب	حسبي بيتي في عليم حسبي
إني امرؤ ذو مرة وعصب[1]	ولست بالخوار عند النكب
إني زعيم لك أم وهب	بالطعن فيهم صادقاً والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب	

فأخذت امرأته أم وهب عمود خيمة وأقبلت نحو زوجها تقول له: فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين ذرية محمد، فأقبل إليها يردها نحو النساء فأخذت بجانب ثوبه ثم قالت: إني لن أدعك دون أن أموت معك، فناداها الحسين: جزيتم من أهل بيت خيراً ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهن فإنه ليس على النساء قتال فانصرفت إليهن.

ثم قاتل زوجها قتالاً شديداً حتى قتل رجلين آخرين، فقتله هاني بن ثبيت الحضرمي وبكير بن حي التيمي وخرجت امرأته فجلست عند رأسه تمسح التراب عن وجهه وتقول هنيئاً لك الجنة فأمر شمر غلاماً له يقال له: رستم فضرب رأسها بالعمود فماتت مكانها (وبرز) عمر بن خالد الصيداوي فقال له الحسين (ع): تقدم فإنا لاحقون بك عن ساعة. فحمل هو وسعد مولاه وجبار بن الحارث السلماني ومجمع بن عبيد الله العائذي فأوغلوا في أصحاب عمر بن سعد فعطف عليهم أصحاب ابن سعد فقطعوهم عن أصحابهم فحمل

(١) العصب بالصاد المهملة الشدة وبالضاد المعجمة الطعن والضرب.

العباس بن علي (ع) فاستنقذهم وقد جرحوا ثم حملوا فقاتلوا حتى قتلوا في مكان واحد، وحمل عمرو بن الحجاج على ميمنة أصحاب الحسين فيمن كان معه من أهل الكوفة، فلما دنا من أصحاب الحسين (ع) جثوا له على الركب وأشرعوا الرماح نحوهم فلم تقدم خيلهم على الرماح فذهبت الخيل ترجع فرشقهم أصحاب الحسين (ع) بالنبل فصرعوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين (وجاء) رجل من بني تميم يقال له عبد الله بن حوزة فقال: يا حسين أبشر بالنار فقال له الحسين (ع): كذبت بل أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، ثم رفع الحسين (ع) يديه فقال: اللهم حزه إلى النار فاضطرب به فرسه في جدول فوقع وتعلقت رجله اليسرى بالركاب وارتفعت اليمنى فشد عليه مسلم بن عوسجة فضرب رجله اليمنى فطارت وعدا به فرسه يضرب رأسه بكل حجر ومدر حتى مات وعجل الله بروحه إلى النار (وكان) مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج مع ابن سعد وقال: لعلي أصيب رأس الحسين فأصيب به منزلة عند ابن زياد، فلما رأى ما صنع بابن حوزة بدعاء الحسين (ع) رجع وقال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلهم أبداً، (ونشب) القتال (فخرج) برير بن خضير الهمداني وكان زاهداً عابداً وكان أقرأ أهل زمانه وكان يقال له سيد القراء وهو يقول:

أنا برير وأبي خضير ... لا خير فيمن ليس فيه خير

فخرج إليه يزيد بن معقل فقال له برير: هلم أباهلك ولندع الله أن يلعن الكاذب منا وأن يقتل المحق منا المبطل فتباهلا ثم تبارزا فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بريراً ضربة خفيفة فلم يضره شيئاً وضربه برير ضربة قدت المغفر ووصلت إلى دماغه فسقط، فحمل كعب بن جابر الأزدي على برير وطعنه بالرمح في ظهره وضربه بسيفه حتى قتله رضوان الله عليه (وفي) بعض الروايات أن بريراً قتل ثلاثين رجلاً، فلما رجع كعب بن جابر قالت له امرأته: أعنت على ابن فاطمة وقتلت بريراً سيد القراء لا أكلمك أبداً (ثم برز) وهب بن حباب الكلبي[1]

---

(١) هذا ذكره ابن طاوس ولم يذكره الطبري وابن الأثير والمفيد وقد بينا في حاشية لواعج =

وكانت معه أمه وزوجته فقالت أمه: قم يا بني فانصر ابن بنت رسول الله ﷺ فقال: افعل يا أماه ولا أقصر فبرز وهو يقول:

سوف تروني وترون ضربي   وحملتي وصولتي في الحرب
أدرك ثاري بعد ثار صحبي   وأدفع الكرب أمام الكرب
ليس جهادي في الوغى باللعب

(ثم) حمل ولم يزل يقاتل حتى قتل جماعة ثم رجع إلى امرأته وأمه وقال: يا أماه أرضيت فقالت: ما رضيت حتى تقتل بين يدي الحسين (ع) فقالت: امرأته بالله عليك لا تفجعني بنفسك فقالت له أمه: يا بني أعزب عن قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك تنل شفاعة جده يوم القيمة. فرجع فلم يزل يقاتل حتى قطعت يداه ثم قتل رضوان الله عليه (وقال) الحر للحسين (ع) فإذا كنت أول من خرج عليك فائذن لي أن أكون أول قتيل بين يديك[1] لعلي أن أكون ممن يصافح جدك محمداً ﷺ غداً في القيامة، فحمل على أصحاب عمر بن سعد وهو يتمثل بقول عنترة:

ما زلت أرميهم بغرة وجهه   ولبانه حتى تسربل بالدم

ثم جعل يرتجز ويقول:

إني أنا الحر ومأوى الضيف   اضرب في أعراضكم بالسيف
عن خير من حل بأرض الخيف   أضربكم ولا أرى من حيف

= الأشجان وقوع خلط من المؤرخين بين قصة عبد الله بن جناب الكلبي المتقدمة وقصة وهب هذا والصواب ما ذكرناه هنا ويحتمل كونهما رجلاً واحداً وأن وهب تصحيف أبو وهب وحباب تصحيف جناب.

(١) مقتضى الروايات أنه قتل جماعة قبل الحر وهو المستفاد من تاريخ ابن الأثير فلذلك حمل على أن المراد أول قتيل من المبارزين ويمكن كون الحر أول المقتولين وعدم صحة ما دل على خلاف ذلك كما لعله يفهم من إرشاد المفيد فإنه لم يذكر أن أحداً تقدم الحر في القتل سوى أن ابن عوسجة صرع قبله.

وقاتل قتالاً شديداً وقال:

إنــي أنــا الــحــر ونــجــل الــحــر أشــجــع مــن ذي لــبــد هــزبــر
ولــســت بــالــجــبــان عــنــد الــكــر لــكــنــنــي الــوقــاف عــنــد الــفــر

وجعل يضربهم بسيفه حتى قتل نيفاً وأربعين رجلاً (وكان) يحمل هو وزهير بن القين فإذا حمل أحدهما وغاص فيهم حمل الآخر حتى يخلصه ففعلا ذلك ساعة (ثم) حملت الرجالة على الحر وتكاثروا عليه فقتلوه فاحتمله أصحاب الحسين (ع) حتى وضعوه بين يدي الحسين (ع) وبه رمق فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: أنت الحر كما سمتك أمك (وخرج) من أصحاب الحسين (ع) نافع بن هلال الجملي فقاتل قتالاً شديداً وجعل يقول:

أنــا ابــن هــلال الــجــمــلــي
أنــا عــلــى ديــن عــلــي
وديــنــه ديــن الــنــبــي

(فبرز) إليه رجل يقال له مزاحم بن حريث فحمل عليه نافع فقتله وكان قد كتب اسمه على فوق نبله وكانت مسمومة فقتل بها اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً سوى من جرح.

فلم يزل يرميهم حتى فنيت سهامه ثم ضرب يده إلى سيفه وجعل يقول:

أنــا الــغــلام الــيــمــنــي الــجــمــلــي ديــنــي عــلــى ديــن حــســيــن وعــلــي
أضــربــكــم ضــرب غــلام بــطــل أن أقــتــل الــيــوم فــهــذا أمــلــي
فــذاك رأيــي وألاقــي عــمــلــي

فكسروا عضديه وأخذ أسيراً فأخذه شمر وأتى به إلى ابن سعد فقال له ابن سعد: ويحك يا نافع ما حملك على ما صنعت بنفسك قال: إن ربي يعلم ما أردت والدماء تسيل على وجهه ولحيته وهو يقول: لقد قتلت منكم اثني عشر رجلاً سوى من جرحت ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني، فانتضى شمر سيفه ليقتله فقال له نافع: والله لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله

بدمائنا فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه فقتله شمر (وخرج) عمرو بن قرظة الأنصاري فاستأذن الحسين (ع) فأذن له فبرز وهو يرتجز ويقول:

قد علمت كتيبة الأنصار ... إني سأحمي حوزة الذمار
ضرب غلام غير نكس شاري ... دون حسين مهجتي وداري[1]

فقاتل قتال المشتاقين إلى الجزاء وبالغ في خدمة سلطان السماء حتى قتل جمعاً كثيراً من حزب ابن زياد وجمع بين سداد وجهاد وكان لا يأتي إلى الحسين (ع) سهم إلا اتقاه بيده ولا سيف إلا تلقاه بمهجته فلم يكن يصل إلى الحسين (ع) سوء حتى أثخن بالجراح فالتفت إلى الحسين (ع) وقال: يا ابن رسول الله أوفيت؟ قال: نعم أنت أمامي في الجنة فاقرأ رسول الله ﷺ عني السلام وأعلمه إني في الأثر فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه.

(وبرز) جون مولى أبي ذر الغفاري وكان عبداً أسود فقال له الحسين (ع): أنت في إذن مني فإنما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا فقال: يا ابن رسول الله أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم والله أن ريحي لنتن وإن حسبي للئيم وإن لوني لأسود فتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم ثم برز وهو يقول:

كيف ترى الكفار ضرب الأسود ... بالسيف ضرباً عن بني محمد
أذب عنهم باللسان واليد ... أرجو به الجنة يوم المورد

ثم قاتل حتى قتل فوقف عليه الحسين (ع) فقال: اللهم بيض وجهه وطيب ريحه واحشره مع الأبرار وعرف بينه وبين محمد وآل محمد ﷺ.

«وبرز» عمرو بن خالد الصيداوي فقال للحسين (ع): يا أبا عبد الله قد

---

(١) قال ابن نما عليه الرحمة قوله وداري إشارة إلى عمر بن سعد لما التمس منه الحسين عليه السلام المهادنة فقال تهدم داري (اهـ) وهو استنباط حسن.

هممت أن ألحق بأصحابي وكرهت أن أتخلف وأراك وحيداً من أهلك قتيلاً فقال الحسين (ع): تقدم فإنا لاحقون بك عن ساعة. فتقدم فقاتل حتى قتل (وجاء) حنظلة بن أسعد الشبامي فوقف بين يدي الحسين (ع) يقيه السهام والرماح والسيوف بوجهه ونحره فما أحقه بقول عرقلة بن حسان الدمشقي:

ويرد صدر السمهري بصدره ... ماذا يؤثر ذابل في يذبل
وكأنه والمشرفي بكفه ... بحر يكر على الكماة بجدول

وأخذ ينادي يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين: ما لكم من الله من عاصم يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى فقال له الحسين: يا ابن سعد رحمك الله إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ونهضوا إليك يشتمونك وأصحابك فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين قال: صدقت جعلت فداك أفلا نروح إلى ربنا ونلحق بإخواننا قال: بلى رح إلى ما هو لك خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ﷺ وعلى أهل بيتك وعرف بيننا وبينك في الجنة فقال الحسين (ع) آمين آمين وتقدم فقاتل قتالاً شديداً فحملوا عليه فقتلوه.

(وبرز) مسلم بن عوسجة وهو يرتجز ويقول:

أن تسألوا عني فإني ذو لبد ... من فرع قوم من ذرى بني أسد
فمن بغانا حائد عن الرشد ... وكافر بدين جبار صمد

فقاتل قتالاً شديداً. (وصاح) عمرو بن الحجاج بالناس يا حمقاء أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان أهل المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين، لا يبرز إليهم منكم واحد، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم، فقال ابن سعد: صدقت ثم أرسل إلى الناس من يعزم عليهم أن لا يبارز رجل منكم رجلاً منهم.

(ثم) حمل عمرو بن الحجاج في أصحابه على الحسين (ع) من نحو

الفرات فاضطربوا ساعة (فصرع) مسلم بن عوسجة الأسدي رحمة الله عليه وبقي به رمق وانصرف عمرو بن الحجاج وأصحابه وانقطعت الغبرة فإذا مسلم صريع فمشى إليه الحسين (ع) ومعه حبيب بن مظاهر، فقال الحسين (ع): رحمك الله يا مسلم (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) ودنا منه حبيب بن مظاهر فقال: عز علي مصرعك يا مسلم أبشر بالجنة، فقال له مسلم: قولاً ضعيفاً بشرك الله بخير، ثم قال له حبيب: لولا إني أعلم إني في الأثر من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك، فقال له مسلم: فإني أوصيك بهذا «وأشار إلى الحسين (ع)» فقاتل دونه حتى تموت، فقال له حبيب: لأنعمنك عينا، ثم مات رضوان الله عليه، وصاحت جارية له: يا سيداه يا ابن عوسجاه، فنادى أصحاب ابن سعد مستبشرين قتلنا مسلم بن عوسجة، فقال شبث بن ربعي: ثكلتكم أمهاتكم أما إنكم تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذلون أنفسكم لغيركم أتفرحون بقتل مسلم بن عوسجة والذي أسلمت له لرب موقف له في المسلمين كريم لقد رأيته يوم آذربايجان قتل ستة من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلمين.

(ثم) تراجع القوم إلى الحسين (ع) فحمل شمر في الميسرة على ميسرة أصحاب الحسين (ع) فثبتوا له وطاعنوه وحملوا على الحسين (ع) وأصحابه من كل جانب وقاتلهم أصحاب الحسين (ع) قتالاً شديداً فأخذت خيلهم تحمل وإنما هي اثنان وثلاثون فارساً فلا تحمل على جانب من خيل الأعداء إلا كشفته فلما رأى ذلك عزرة بن قيس وهو على الخيل بعث إلى ابن سعد أما ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة إبعث إليهم الرجال والرماة. وقاتل أصحاب الحسين (ع) القوم أشد قتال خلقه الله حتى انتصف النهار فبعث ابن سعد الحصين بن تميم في خمسمائة من الرماة فاقتتلوا حتى دنوا من الحسين (ع) وأصحابه فلما رأوا صبر أصحاب الحسين (ع) تقدم الحصين إلى أصحابه أن يرشقوا أصحاب الحسين (ع) بالنبل فرشقوهم فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم وجرحوا الرجال وبقي الحسين (ع) وليس معه فارس. وحمل شمر بن

ذي الجوشن في أصحابه على أصحاب الحسين (ع) فحمل عليهم زهير بن القين في عشرة رجال من أصحاب الحسين (ع) فكشفوهم عن البيوت وقتلوا منهم وعطف عليهم شمر فقتل منهم ورد الباقين إلى مواضعهم، وكان يقتل من أصحاب الحسين (ع) الواحد والاثنان فيبين ذلك فيهم لقلتهم ويقتل من أصحاب ابن سعد العشرة فلا يبين ذلك فيهم لكثرتهم. وحمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين (ع) فطعنه بالرمح ونادى: علي بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله، فصاحت النساء وخرجن، وصاح الحسين (ع): أنت تحرق بيتي على أهلي أحرقك الله بالنار، فقال حميد بن مسلم: أتقتل الولدان والنساء والله أن في قتل الرجال لما يرضى به أميرك، فلم يقبل، فأتاه شبث بن ربعي فقال: أفزعنا النساء ثكلتك أمك. فاستحيا وانصرف، واشتد القتال بينهم، ولم يقدروا أن يأتوهم إلا من جانب واحد لاجتماع أبنيتهم وتقارب بعضها من بعض، فأرسل عمر بن سعد الرجال ليقوضوها عن إيمانهم وشمائلهم ليحيطوا بهم وأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين (ع) يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض وينهب فيرمونه عن قريب فيصرعونه فيقتلونه فقال ابن سعد أحرقوها بالنار فأحرقت، فقال لهم الحسين (ع): دعوهم يحرقوها فإنهم إذا فعلوا ذلك لم يجوزوا إليكم فكان كما قال: «وحضر» وقت صلاة الظهر فقال أبو ثمامة الصيداوي للحسين (ع): يا أبا عبد اللّه نفسي لنفسك الفداء هؤلاء اقتربوا منك ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك وأحب أن ألقى الله ربي وقد صليت هذه الصلاة، فرفع الحسين (ع) رأسه إلى السماء وقال: ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين نعم هذا أول وقتها ثم قال: سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي ففعلوا فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر: زعمت لا تقبل الصلاة من آل رسول الله ﷺ وتقبل منكم يا حمار. فحمل عليه الحصين وحمل عليه حبيب فضرب وجه فرسه بالسيف فشب به الفرس ووقع عنه الحصين فاستنقذه أصحابه وشدوا على حبيب فقتل رجلاً منهم (وقال) الحسين (ع) لزهير بن القين وسعيد بن عبد اللّه تقدما أمامي حتى

أصلي الظهر فتقدما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف فوصل إلى الحسين (ع) سهم فتقدم سعيد بن عبد اللّه ووقف يقيه النبال بنفسه ما زال ولا تخطى، فما زال يرمى بالنبل حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: اللهم العنهم لعن عاد وثمود، اللهم أبلغ نبيك عني السلام وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح فإني أردت ثوابك في نصر ذرية نبيك، ثم قضى نحبه رضوان الله عليه فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح (وقيل) صلى الحسين (ع) وأصحابه فرادى بالإيماء (وتقدم) سويد بن عمرو بن أبي المطاع وكان شريفاً كثير الصلاة ثم جعل يرتجز ويقول:

أقدم حسين اليوم تلقى أحمدا وشيخك الحبر علياً ذا الندى
وحسنا كالبدر وافى الأسعدا وعمك القرم الهمام الأرشدا
حمزة ليث اللّه يدعى أسدا وذا الجناحين تبوا مقعدا
في جنة الفردوس يعلو صعدا

فقاتل قتال الأسد الباسل وبالغ في الصبر على الخطب النازل حتى سقط بين القتلى وقد أثخن بالجراح فلم يزل كذلك وليس به حراك حتى سمعهم يقولون: قتل الحسين فتحامل وأخرج سكيناً من خفه وجعل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه فكان آخر من بقي من أصحاب الحسين (ع) «وخرج» زهير بن القين وهو يرتجز ويقول:

أنا زهير وأنا ابن القين أذودكم بالسيف عن حسين
إن حسيناً أحد السبطين من عترة البر التقي الزين
ذاك رسول اللّه غير المين أضربكم ولا أرى من شين
يا ليت نفسي قسمت قسمين

فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل جماعة فشد عليه كثير بن عبد اللّه الشعبي ومهاجر بن أوس التميمي فقتلاه فقال الحسين (ع) حين صرع زهير لا يبعدك الله يا زهير «وجاء» عابس بن أبي شبيب الشاكري ومعه شوذب مولى بني شاكر فقال: يا شوذب ما في نفسك أن تصنع قال: ما أصنع؟ أقاتل معك دون ابن بنت

رسول الله ﷺ حتى أقتل. قال: ذلك الظن بك فتقدم بين يدي أبي عبد اللّه فإن هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب فيه الأجر بكل ما نقدر عليه فإنه لا عمل بعد اليوم وإنما هو الحساب «وتقدم» شوذب فقال: السلام عليك يا أبا عبد اللّه ورحمة الله وبركاته أستودعك الله. ثم قاتل حتى قتل «وتقدم» عابس فقال: يا أبا عبد اللّه أما والله ما أمسى على وجه الأرض قريب ولا بعيد أعز علي ولا أحب إلي منك ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشيء أعز من نفسي ودمي لفعلت، السلام عليك يا أبا عبد اللّه أشهد الله إني على هداك وهدى أبيك، ثم مضى بالسيف مصلتاً نحوهم وبه ضربة على جبينه وكان من أشجع الناس وأخذ ينادي، ألا رجل لرجل فتحاماه الناس لشجاعته فقال لهم ابن سعد: أرضخوه بالحجارة فرموه بالحجارة من كل جانب فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره وشد على الناس فهزمهم بين يديه قال الراوي: فوالله لقد رأيته يطرد أكثر من مائتين من الناس ثم أحاطوا به من كل جانب فقتلوه «وبرز» حبيب بن مظاهر الأسدي فقاتل قتالاً شديداً فقتل رجلاً من بني تميم اسمه بديل بن صريم وحمل عليه آخر من تميم فطعنه فذهب ليقوم فضربه الحصين بن تميم على رأسه بالسيف فوقع ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه، فهد مقتله الحسين (ع) وقال: عند الله أحتسب نفسي وحماة أصحابي (وقال) الحصين للتميمي: أنا شريك في قتله قال: لا والله قال: أعطني الرأس أعلقه في عنق فرسي ليرى الناس إني شاركتك في قتله ثم خذه فلا حاجة لي فيما يعطيك ابن زياد فأعطاه الرأس فجال به في الناس ثم رده إليه فلما رجع إلى الكوفة علقه في عنق فرسه، فلينظر الناظر إلى أي درجة بلغت رداءة النفوس وسقوطها بهؤلاء القوم (وكان) لحبيب ابن يسمى القاسم قد راهق فجعل يتبع الفارس الذي معه رأس أبيه فارتاب به فقال: مالك تتبعني قال: إن هذا الرأس الذي معك رأس أبي فأعطني إياه حتى أدفنه فقال: إن الأمير لا يرضى أن يدفن وأرجو أن يثيبني فقال: لكن الله لا يثيبك إلا أسوأ الثواب وبكى الغلام ثم لم يزل يتبع أثر قاتل أبيه بعدما أدرك حتى قتله وأخذ بثأر أبيه وذلك إنه كان في عسكر فهجم عليه وهو في خيمة له نصف النهار فقتله

وأخذ رأسه (وخرج) جنادة بن الحارث السلماني وكان خرج بعياله وولده إلى الحسين (ع) فقاتل حتى قتل فلما قتل أمرت زوجته ولدها عمر وهو شاب أن ينصر الحسين (ع) فقالت: اخرج يا بني وقاتل بين يدي ابن رسول الله، فخرج واستأذن الحسين فقال الحسين (ع): هذا شاب قتل أبوه ولعل أمه تكره خروجه فقال الشاب: أمي أمرتني بذلك، وهذا منتهى علو النفس وصدق الولاء من هذه المرأة وابنها أن يكون زوجها قد قتل وهي تنظر إليه ثم تأمر ولدها الشاب بنصرة الحسين (ع) وهي تعلم إنه مقتول فتسوقه إلى القتل مختارة طائعة ويطيعها ابنها في ذلك فيقدم على القتل غير مبال ولا وجل ثم يرخص له الحسين (ع) في ترك القتال مخافة أن تكون أمه تكره قتاله بعدما قتل أبوه زوجها في المعركة فيأبى ويقول: أمي أمرتني بذلك، حقاً إنه لمقام عظيم وموقف جليل تزل فيه الأقدام وتذهل فيه الألباب ولثبات امرأة فيه وولد شاب يدل على سمو عظيم في نفسيهما، فبرز ذلك الشاب وهو يقول ولله دره:

أميري حسين ونعم الأمير	سرور فؤاد البشير النذير
علي وفاطمة والداه	فهل تعلمون له من نظير
له طلعة مثل شمس الضحى	له غرة مثل بدر منير

قال المؤلف: قد شطرت هذه الأبيات استحساناً لها فقلت:

(أميري حسين ونعم الأمير	أمير عظيم جليل خطير
حبيب الوصي عزيز البتول	(سرور فؤاد البشير النذير)
(علي وفاطمة والداه)	ومشبهه في البرايا شبير
سما قدره فوق كل الأنام	(فهل تعلمون له من نظير)
(له طلعة مثل شمس الضحى)	ترد الشموس بطرف حسير
له راحة مثل غيث همى	(له غرة مثل بدر منير)

وقاتل حتى قتل وحز رأسه ورمي به إلى عسكر الحسين (ع) فحملت أمه رأسه وقالت: أحسنت يا بني يا سرور قلبي ويا قرة عيني ثم رمت برأس ابنها رجلاً وأخذت عمود خيمة وحملت عليهم وهي تقول:

أنـا عـجـوز سـيـدي ضـعـيـفـه خـاويـة بـالـيـة نـحـيـفـه
أضـربـكـم بـضـربـة عـنـيـفـه دون بـنـي فـاطـمـة الـشـريـفـه

وضربت رجلين فأمر الحسين (ع) بصرفها ودعا لها، ولما رأى أصحاب الحسين (ع) أنهم قد غلبوا وأنهم لا يقدرون أن يمنعوا الحسين (ع) ولا أنفسهم تنافسوا في أن يقتلوا بين يديه «فجاءه» عبد اللّه وعبد الرحمٰن ابنا عروة الغفاريان فقالا: يا أبا عبد اللّه عليك السلام قد حازنا الناس إليك فأحببنا أن نقتل بين يديك قال: مرحباً بكما أدنوا مني، فدنوا منه وجعلا يقاتلان حتى قتلا.

وأتاه فتيان وهما سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد اللّه بن سريع الجابريان وهما ابنا عم وإخوان لأم وهما يبكيان فقال لهما: ما يبكيكما فوالله إني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريري العين فقالا: جعلنا الله فداك والله ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك نراك وقد أحيط بك ولا نقدر على أن نمنعك فقال: جزاكما الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياي بأنفسكما أحسن جزاء المتقين ثم استقدما وقالا: السلام عليك يا ابن رسول الله فقال: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته. فقاتلا حتى قتلا. (وخرج) غلام تركي كان للحسين (ع) اسمه أسلم وكان قارئاً للقرآن فجعل يقاتل حتى قتل جماعة ثم سقط صريعاً، فجاء إليه الحسين (ع) فبكى ففتح عينيه فرأى الحسين (ع) فتبسم ثم صار إلى ربه.

(وكان) يأتي الرجل بعد الرجل إلى الحسين فيقول: السلام عليك يا ابن رسول الله فيجيبه الحسين (ع) ويقول: عليك السلام ونحن خلفك، ثم يقرأ: فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. حتى قتلوا عن آخرهم ولم يبق مع الحسين (ع) سوى أهل بيته وهم: ولد علي، وولد جعفر، وولد عقيل، وولد الحسن، وولد الحسين فاجتمعوا يودع بعضهم بعضاً وعزموا على الحرب (وكانوا) سبعة عشر رجلاً في المتفق عليه، وفي حديث الرضا (ع) مع ابن شبيب وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً فيمكن أن يكون عد معهم مسلم بن عقيل فإنه وإن لم يقتل مع الحسين (ع) فكأنه قتل معه، وإذا عددنا جميع من ذكره

المؤرخون ومنهم مسلم كانوا ثلاثين أو أكثر ويأتي سرد أسمائهم وفيهم يقول سراقة الباهلي وفي مروج الذهب إنها لمسلم بن قتيبة مولى بني هاشم:

عـيـن بـكـي بـعـبـرة وعـويـل ... وانـدبـي إن نـدبـت آل الـرسـول
تـسـعـة مـنـهـم لـصـلـب عـلـي ... قـد أبـيـدوا وسـبـعـة لـعـقـيـل
وابـن عـم الـنـبـي عـونـاً أخـاهـم ... لـيـس فـيـمـا يـنـوبـهـم بـخـذول
وسـمـي الـنـبـي غـودر فـيـهـم ... قـد عـلـوه بـصـارم مـسـلـول

فأول من خرج منهم علي بن الحسين الأكبر وكان علي من أصبح الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً وكان عمره تسع عشرة سنة أو ثماني عشرة سنة أو خمساً وعشرين سنة وهو أول قتيل يوم كربلاء من آل أبي طالب، فاستأذن أباه بالقتال فأذن له ثم نظر إليه نظر آيس منه وأرخى عينيه فبكى ثم رفع سبابتيه نحو السماء وقال: اللهم كن أنت الشهيد عليهم فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه، ثم رفع صوته وتلا: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم). فشد علي على الناس وهو يقول:

أنـا عـلـي بـن الـحـسـين بـن عـلـي ... نـحـن وبـيـت الـلّـه أولـى بـالـنـبـي
تـالـلّـه لا يـحـكـم فـيـنـا ابـن الـدعـي ... أضـرب بـالـسـيـف أحـامـي عـن أبـي
ضـرب غـلام هـاشـمـي عـلـوي

فجعل يشد عليهم ثم يرجع إلى أبيه فيقول: يا أباه العطش. فيقول له الحسين (ع): اصبر حبيبي فإنك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله ﷺ بكأسه، فجعل يكر كرة بعد كرة والأعداء يتقون قتله فقتل جماعة فنظر إليه مرة بن منقذ العبدي فقال: علي آثام العرب إن هو فعل مثل ما أراه يفعل ومر بي أن لم أثكله أمه. فمر يشد على الناس كما كان يفعل فاعترضه مرة بن منقذ وطعنه بالرمح وقيل بل رماه بسهم فصرعه فنادى: يا أبتاه عليك السلام هذا جدي يقرئك السلام ويقول لك: عجل القدوم علينا. واعتوره الناس فقطعوه بأسيافهم فجاء

الحسين (ع) حتى وقف عليه وقال: قتل الله قوماً قتلوك يا بني ما أجرأهم على الرحمٰن وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفا. وخرجت زينب بنت علي عليهما السلام وهي تنادي يا حبيباه ويا ابن أخاه وجاءت فأكبت عليه فجاء الحسين (ع) فأخذ بيدها وردها إلى الفسطاط وأقبل بفتيانه وقال: احملوا أخاكم فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه (وبرز) عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب وفي مناقب ابن شهراشوب إنه أول من برز وأمه رقية بنت علي بن أبي طالب (ع) وهو يرتجز ويقول:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي ... وفتية بادوا على دين النبي
ليسوا بقوم عرفوا بالكذب ... لكن خيار وكرام النسب
من هاشم السادات أهل الحسب

فقتل عدة رجال في ثلاث حملات فرماه عمير بن صبيح الصدائي وقيل غيره بسهم فوضع عبد الله يده على جبهته يتقيه فأصاب السهم كفه ونفذ إلى جبهته فسمرها فلم يستطيع أن يحركها ثم طعنه أسيد بن مالك بالرمح في قلبه فقتله (وحمل) الناس على الحسين (ع) وأهل بيته من كل جانب (فخرج) محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وأمه زينب بنت أمير المؤمنين (ع) ثم قاتل حتى قتل عشرة أنفس فحمل عليه عامر بن نهشل التميمي فقتله (وخرج) أخوه عون بن عبد الله بن جعفر (ع) وأمه أيضاً زينب بنت أمير المؤمنين (ع) وهو يقول:

إن تنكروني فأنا ابن جعفر ... شهيد صدق في الجنان أزهر
يطير فيها بجناح أخضر ... كفى بهذا شرفاً في المحشر

ثم قاتل حتى قتل جماعة كثيرة فحمل عليه عبد الله بن قطبة الطائي فقتله[1] (وخرج) القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) وأمه أم ولد

(١) في تاريخ الطبري أن قاتله عامر بن نهشل وقاتل أخيه عبد الله بن قطبة عكس ما ذكرناه.

وهو غلام لم يبلغ الحلم فلما نظر الحسين (ع) إليه قد برز اعتنقه وجعلا يبكيان ثم استأذن عمه في المبارزة فأبى أن يأذن له فلم يزل الغلام يقبل يديه ورجليه حتى أذن له ودموعه تسيل على خديه وهو يقول:

أن تنكروني فأنا ابن الحسن سبط النبي المصطفى والمؤتمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أناس لا سقوا صوب المزن

فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل على صغر سنه ثلاثة منهم وقيل أكثر (قال) حميد بن مسلم: خرج علينا غلام كأن وجهه شقة قمر وفي يده سيف وعليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما ما أنسى إنها كانت اليسرى، فقال لي عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي: والله لأشدن عليه فقلت: سبحان الله وما تريد بذلك والله لو ضربني ما بسطت إليه يدي دعه، يكفكه هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه، فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف ففلقه ووقع الغلام إلى الأرض لوجهه ونادى: يا عماه، فجلى الحسين (ع) كما يجلي الصقر ثم شد شدة ليث أغضب فضرب عمرو بن سعد بن نفيل بالسيف فأتقاها بالساعد فقطعها من لدن المرفق فصاح صيحة سمعها أهل العسكر ثم تنحى عنه الحسين (ع) وحمل الأعداء ليستنقذوه فوطئت الخيل عمراً بأرجلها حتى مات، وانجلت الغبرة فإذا بالحسين (ع) قائم على رأس الغلام وهو يفحص برجليه والحسين يقول: بعداً لقوم قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك وأبوك، ثم قال (ع): عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك فلا ينفعك، صوت والله كثر واتره وقل ناصره، ثم حمله ووضع صدره على صدره وكأني أنظر إلى رجلي الغلام يخطان الأرض فجاء به حتى ألقاه مع ابنه علي والقتلى من أهل بيته، فسألت عنه فقيل لي: هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)، وصاح الحسين (ع) في تلك الحال: صبراً يا بني عمومتي صبراً يا أهل بيتي فوالله لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم

أبداً (وتقدم) أخوة الحسين (ع) عازمين على أن يموتوا دونه (فأول) من خرج منهم أبو بكر[1] بن علي واسمه عبيد اللّه وأمه ليلى بنت مسعود من بني نهشل فتقدم وهو يرتجز ويقول:

شيخي علي ذو الفخار الأطول   من هاشم الصدق الكريم المفضل
هذا حسين ابن النبي المرسل   عنه نحامي بالحسام المصقل
تفديه نفسي من أخ مبجل

فلم يزل يقاتل حتى قتله زحر بن بدر النخعي (ثم) برز من بعده أخوه عمر بن علي فحمل على زحر قاتل أخيه فقتله واستقبل القوم وجعل يضرب بسيفه ضرباً منكراً وهو يقول:

خلوا عداة اللّه خلوا عن عمر   خلوا عن الليث الهصور المكفهر
يضربكم بسيفه ولا يفر   وليس فيها كالجبان المنحجر

فلم يزل يقاتل حتى قتل «ولما» رأى العباس بن علي كثرة القتلى من أهله قال لإخوته من أبيه وأمه وهم عبد اللّه وعمره خمس وعشرون سنة وجعفر وعمره تسع عشرة سنة وعثمان وعمره إحدى وعشرون سنة وأمهم أم البنين بنت خالد بن حرام الكلابية واسمها فاطمة: يا بني أمي تقدموا حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله فإنه لا ولد لكم فتقدموا فقاتلوا حتى قتلوا (وبرز) من بعدهم أخوهم العباس بن علي وهو أكبرهم ويكنى أبا الفضل ويلقب بالسقا وقمر بني هاشم وهو صاحب لواء الحسين، وكان العباس وسيماً جميلاً يركب الفرس المطهم ورجلاه يخطان في الأرض فيروى أنه خرج يطلب الماء وحمل على القوم وهو يقول:

لا أرهب الموت إذا الموت رقا   حتى أوارى في المصاليت لقا
نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا   إني أنا العباس أغدو بالسقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقى

---

(١) قال الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل وقد شك في قتله.

ففرقهم وضربه زيد بن ورقاء على يمينه فقطعها فأخذ السيف بشماله وحمل وهو يرتجز ويقول:

والله إن قطعتم يميني ... إني أحامي دائماً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين ... نجل النبي الطاهر الأمين

فضربه حكيم بن الطفيل على شماله فقطعها فقال:

يا نفس لا تخشي من الكفار ... وأبشري برحمة الجبار
مع النبي السيد المختار ... قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلهم يا رب حر النار

فضربه آخر بعمود من حديد فقتله ويروى في كيفية قتله غير ذلك وهو أن الحسين (ع) لما اشتد به العطش ركب المسناة يريد الفرات وبين يديه العباس أخوه فاعترضتهما خيل ابن سعد وأحاطوا بالعباس فاقتطعوه عنه فجعل العباس يقاتلهم وحده حتى قتل، قتله زيد بن ورقاء الحنفي وحكيم بن الطفيل السنبسي بعد أن أثخن بالجراح فلم يستطع حراكاً فبكى الحسين (ع) لقتله بكاء شديداً ولنعم ما قال القائل:

أحق الناس أن يبكى عليه ... فتى أبكى الحسين بكربلاء
أخوه وابن والده علي ... أبو الفضل المضرج بالدماء
ومن واساه لا يثنيه شيء ... وجاد له على عطش بماء

ثم إن الحسين (ع) دعا الناس إلى البراز فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل مقتلة عظيمة ثم حمل على الميمنة وهو يقول:

القتل أولى من ركوب العار ... والعار أولى من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري

ثم حمل على الميسرة وهو يقول:

أنا الحسين بن علي ... آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي ... أمضي على دين النبي

«وخرج» غلام من خباء من أخبية الحسين (ع) وهو محمد بن أبي سعيد بن عقيل وفي أذنيه درتان فأخذ بعود من عيدانه وهو مذعور فجعل يلتفت يميناً وشمالاً وقرطاه يتذبذبان فحمل عليه هاني بن ثبيت الحضرمي فضربه بالسيف فقتله فصارت أمه شهربانويه تنظر إليه ولا تتكلم كالمدهوشة (ونادى) الحسين (ع): هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله ﷺ؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟ هل من معين يرجو ما عند الله في إعانتنا؟ فارتفعت أصوات النساء بالعويل (فتقدم) إلى باب الخيمة وقال لزينب: ناوليني ولدي الصغير حتى أودعه فأتي بابنه عبد اللّه وأمه الرباب بنت امرىء القيس فأخذه وأجلسه في حجره وأومأ إليه ليقبله فرماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه فقال لزينب: خذيه ثم تلقى الدم بكفيه فلما امتلأتا رمى بالدم نحو السماء ثم قال: هون علي ما نزل به إنه بعين الله. ثم حمله حتى وضعه مع قتلى أهل بيته (وفي رواية) إنه حفر له بجفن سيفه ورمله بدمه فدفنه «وعطش» الحسين (ع) حتى اشتد عليه العطش فدنا ليشرب من الماء فرماه الحصين بن تميم بسهم فوقع في فمه الشريف فجعل يتلقى الدم من فمه ويرمي به إلى السماء «وحمل» القوم على الحسين (ع) فغلبوه على معسكره وقد اشتد به العطش فركب المسناة يريد الفرات فاعترضته خيل ابن سعد وفيهم رجل من بني أبان بن دارم فقال لهم: ويلكم حولوا بينه وبين الفرات ولا تمكنوه من الماء، فحالوا بينه وبين الفرات فقال الحسين (ع): اللهم أظمئه. وفي رواية: اللهم اقتله عطشاً ولا تغفر له. فغضب الدارمي ورماه بسهم فأثبته في حنكه الشريف فانتزع الحسين (ع) السهم وبسط يديه تحت حنكه فامتلأت راحتاه من الدم فرمى به نحو السماء ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: اللهم إني أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك. ثم إن الحسين (ع) عاد إلى مكانه وقد اشتد به العطش وأقبل شمر في جماعة من أصحابه فأحاطوا به فأسرع منهم رجل يقال له مالك بن النسر الكندي فشتم الحسين (ع) وضربه على رأسه الشريف بالسيف وكان على رأسه برنس وقيل: قلنسوة فقطع البرنس ووصل السيف إلى رأسه فامتلأ البرنس

دماً ثم ألقى البرنس أو القلنسوة ودعا بخرقة فشد بها رأسه واستدعى بقلنسوة أخرى فلبسها واعتم عليها «وأخذ» الكندي البرنس وكان من خز فلما قدم على أهله أخذ يغسل عنه الدم فقالت له امرأته: أسلب ابن رسول الله يدخل بيتي؟ أخرجه عني «ورجع» شمر ومن معه عن الحسين (ع) إلى مواضعهم فمكثوا هنيهة ثم عادوا إليه فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه ثم إنهم أحاطوا به «فخرج عبد الله بن الحسن بن علي عليهم السلام من عند النساء وهو غلام لم يراهق فلحقته زينب» بنت علي عليهما السلام لتحبسه فقال لها الحسين (ع): احبسيه أختي فامتنع عليها امتناعاً شديداً وجاء يشتد إلى عمه الحسين حتى وقف إلى جنبه وقال: لا أفارق عمي، فأهوى أبجر بن كعب إلى الحسين (ع) بالسيف، فقال له الغلام: ويلك يا ابن الخبيثة أتقتل عمي؟! فضربه أبجر بالسيف فأتقاها الغلام بيده فاطنها إلى الجلد فإذا هي معلقة، فنادى الغلام يا عماه أو يا أماه فأخذه الحسين (ع) فضمه إلى صدره وقال: يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين برسول الله ﷺ وعلي وحمزة وجعفر والحسن صلّى الله عليهم أجمعين، فرماه حرملة بسهم فذبحه وهو في حجر عمه.

(ولما) بقي الحسين (ع) في ثلاثة أو أربعة من أصحابه وفي رواية رهط من أهله قال: ابغوني ثوباً لا يرغب فيه أحد أجعله تحت ثيابي لئلا أجرد منه بعد قتلي فإني مقتول مسلوب. فأتي بتبان قال: لا ذاك لباس من ضربت عليه الذلة ولا ينبغي لي أن ألبسه (وفي رواية) إنه قال: هذا لباس أهل الذمة فأخذ ثوباً خلقاً فخرقه وجعله تحت ثيابه (وفي رواية) إنه أتى بشيء أوسع منه دون السراويل وفوق التبان فلبسه فلما قتل جردوه منه (ثم) استدعى بسراويل من حبرة يمانية يلمع فيها البصر ففزرها ولبسها وإنما فزرها لئلا يسلبها بعد قتله، فلما قتل سلبها منه أبجر بن كعب وتركه مجرداً. وأقبل الحسين (ع) على القوم يدفعهم عن نفسه والثلاثة الذين معه يحمونه حتى قتل الثلاثة وبقي وحده وقد أثخن بالجراح في رأسه وبدنه فجعل يضاربهم بسيفه وحمل الناس عليه عن يمينه وشماله فحمل

على الذين عن يمينه فتفرقوا ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا (قال) بعض الرواة فوالله ما رأيت مكثوراً قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً منه. والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله وإن كانت الرجالة لتشد عليه فيشد عليها بسيفه فتنكشف عن يمينه وعن شماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب ولقد كان يحمل فيهم وقد تكلموا ثلاثين ألفاً فينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم يرجع إلى مركزه وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله (فلما) رأى شمر ذلك استدعى الفرسان فصاروا في ظهور الرجالة وأمر الرماة أن يرموه فرشقوه بالسهام حتى صار كالقنفذ فأحجم عنهم فوقفوا بإزائه وجاء شمر في جماعة من أصحابه فحالوا بينه وبين رحله الذي فيه ثقله وعياله فصاح الحسين (ع): ويلكم يا شيعة آل سفيان إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم هذه وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون، فناداه شمر: ما تقول يا ابن فاطمة؟ فقال: أقول إني أقاتلكم وتقاتلونني والنساء ليس عليهن جناح فامنعوا عتاتكم وجهالكم وطغاتكم من التعرض لحرمي ما دمت حياً. فقال شمر: لك ذلك يا ابن فاطمة. ثم صاح: إليكم عن حرم الرجل واقصدوه بنفسه فلعمري هو كفؤ كريم. فقصدوه بالحرب وجعل شمر يحرضهم على الحسين (ع) والحسين يحمل عليهم فينكشفون عنه وهو في ذلك يطلب شربة من ماء فلا يجد وكلما حمل بفرسه على الفرات حملوا عليه بأجمعهم حتى أجلوه عنه (ولما) أثخن بالجراح وبقي كالقنفذ طعنه صالح بن وهب المزني على خاصرته طعنة فسقط عن فرسه على الأرض على خده الأيمن، ثم قام وخرجت أخته زينب إلى باب الفسطاط وهي تنادي: وا أخاه وا سيداه وا أهل بيتاه (وقد) دنا عمر بن سعد فقالت: يا عمر أيقتل أبو عبد اللّه وأنت تنظر إليه؟ فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته وصرف وجهه عنها ولم يجبها بشيء. فنادت: ويلكم أما فيكم مسلم؟ فلم يجبها أحد بشيء وقاتل (ع) راجلاً قتال الفارس الشجاع يتقي الرمية ويفترص العورة ويشد على الخيل وهو يقول: أعلى قتلي تجتمعون أما والله لا

تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم (ولم) يزل يقاتل حتى أصابه اثنان وسبعون جراحة فوقف يستريح ساعة وقد ضعف عن القتال فبينا هو واقف إذ أتاه حجر فوقع على جبهته فأخذ الثوب ليمسح الدم عن جبهته فأتاه سهم مسموم له ثلاث شعب فوقع على قلبه فقال: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ﷺ. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: إلٰهي تعلم إنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيره. ثم أخذ السهم فأخرجه من وراء ظهره فانبعث الدم كأنه ميزاب فضعف ووقف وتحاماه الناس فمكث طويلاً من النهار وكلما جاءه أحد انصرف عنه كراهية أن يلقى الله بدمه (وصاح) شمر بالفرسان والرجالة: ويحكم ما تنتظرون بالرجل؟ أقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملوا عليه من كل جانب فضربه زرعة بن شريك على كتفه اليسرى وضرب الحسين (ع) زرعة فصرعه وضربه آخر على عاتقه المقدس ضربة كبا بها لوجهه وكان قد أعيا، وجعل يقوم ويكبو، وطعنه سنان بن أنس النخعي في ترقوته ثم انتزع الرمح فطعنه في بواني صدره ورماه بسهم فوقع في نحره فسقط وجلس قاعداً فنزع السهم من نحره وقرن كفيه جميعاً فكلما امتلأتا من دمائه خضب بها رأسه ولحيته وهو يقول: هكذا ألقى الله مخضباً بدمي مغصوباً علي حقي.

مقتله

قال هلال بن نافع إني لواقف مع أصحاب عمر بن سعد إذ صرخ صارخ: أبشر أيها الأمير فهذا شمر قد قتل الحسين. فخرجت بين الصفين فوقفت عليه وإنه ليجود بنفسه، فوالله ما رأيت قتيلاً مخضباً بدمه أحسن منه ولا أنور وجهاً ولقد شغلني نور وجهه وجمال هيأته عن الفكرة في قتله فاستسقى في تلك الحال فسمعت رجلاً يقول: والله لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها فسمعته يقول: أنا أرد الحامية فأشرب من حميمها لا والله بل أرد على جدي

رسول الله ﷺ فأسكن معه في داره في مقعد صدق عند مليك مقتدر وأشرب من ماء غير آسن وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم بي فغضبوا بأجمعهم حتى كأن الله لم يجعل في قلب أحد منهم من الرحمة شيئاً.

(وقال) عمر بن سعد لرجل عن يمينه أنزل ويحك إلى الحسين فأرحه (وقيل) بل قال سنان لخولي بن يزيد: احتز رأسه فبدر خولي ليحتز رأسه فضعف وأرعد فقال له سنان وقيل شمر: فت الله في عضدك ما لك ترعد؟ ونزل سنان وقيل: شمر إليه فذبحه ثم احتز رأسه الشريف وهو يقول إني لاحتز رأسك وأعلم إنك السيد المقدم وابن رسول الله وخير الناس أباً وأماً ثم دفع الرأس الشريف إلى خولي فقال: إحمله إلى الأمير عمر بن سعد، وفي ذلك يقول الشاعر:

فأي رزية عدلت حسيناً غداة تبيره كفا سنان

وجاءت جارية من ناحية خيم الحسين (ع) فقال رجل: يا أمة الله إن سيدك قتل قالت الجارية: فأسرعت إلى سيداتي وأنا أصيح فقمن في وجهي وصحن.

أسماء من اتصلت بنا أسماؤهم

من أنصار الحسين (ع) الذين قتلوا معه من بني هاشم (أولاد أمير المؤمنين (ع)):

١ ـ أبو بكر بن علي شك في قتله

٢ ـ عمر بن علي

٣ ـ محمد الأصغر بن علي

٤ ـ عبد اللّه بن علي

٥ ـ العباس بن علي

٦ ـ محمد بن العباس بن علي

٧ ـ عبد اللّه بن العباس بن علي

٨ ـ عبد اللّه الأصغر

٩ ـ جعفر بن علي

١٠ ـ عثمان بن علي وفي بعضهم خلاف.

(أولاد الحسن (ع)):

١١ ـ القاسم بن الحسن

١٢ ـ أبو بكر بن الحسن

١٣ ـ عبد اللّه بن الحسن

١٤ ـ بشر بن الحسن

(أولاد الحسين (ع))

١٥ ـ علي بن الحسين الأكبر

١٦ ـ عبد اللّه الرضيع

١٧ ـ إبراهيم بن الحسين ذكره ابن شهراشوب وذكر زيادة عن ذلك

(أولاد عبد اللّه بن جعفر)

١٨ ـ محمد بن عبد اللّه بن جعفر

١٩ ـ عون بن عبد اللّه بن جعفر

٢٠ ـ عبيد اللّه بن عبد اللّه بن جعفر

(أولاد عقيل بن أبي طالب)

٢١ ـ مسلم بن عقيل

٢٢ ـ جعفر بن عقيل

٢٣ ـ جعفر بن محمد بن عقيل ذكره ابن شهراشوب

٢٤ ـ عبد الرحمٰن بن عقيل

٢٥ ـ عبد اللّه الأكبر بن عقيل

٢٦ ـ عبد اللّه بن مسلم بن عقيل

٢٧ ـ عون بن مسلم بن عقيل

٢٨ ـ محمد بن مسلم بن عقيل

٢٩ ـ محمد بن أبي سعيد بن عقيل

(من لم يعرف بعينه)

٣٠ ـ أحمد بن محمد الهاشمي ذكره ابن شهراشوب. ويلاحظ أنه لم يكن معه من ولد العباس ولا غيرهم أحد إلا أحمد هذا.

أسماء من اتصلت بنا أسماؤهم

من أنصار الحسين (ع) من غير بني هاشم مرتبة على حروف المعجم:

١ ـ إبراهيم بن الحصين الأسدي

٢ ـ أبو الحتوف بن الحارث الأنصاري

٣ ـ أبو عامر النهشلي

٤ ـ الأدهم بن أمية العبدي

٥ ـ أسلم التركي مولى الحسين (ع)

٦ ـ أمية بن سعد الطائي

٧ ـ أنس بن الحارث الكاهلي «صحابي»

٨ ـ أنيس بن معقل الأصبحي

٩ ـ برير بن خضير الهمداني

١٠ ـ بشر بن عبد اللّه الحضرمي

١١ ـ بكر بن حي التيمي

١٢ ـ جابر بن الحجاج التيمي

١٣ ـ جبلة بن علي الشيباني

١٤ ـ جنادة بن الحارث السلماني

١٥ ـ جنادة بن كعب الأنصاري

١٦ ـ جندب بن حجير الخولاني

١٧ ـ جون مولى أبي ذر

١٨ ـ جوين بن مالك التميمي

١٩ ـ الحارث بن امرىء القيس الكندي

٢٠ ـ الحارث بن نبهان مولى حمزة

٢١ ـ الحباب بن الحارث

٢٢ ـ الحباب بن عامر الشعبي

٢٣ ـ حبشي بن قاسم النهمي

٢٤ ـ حبيب بن مظهر الأسدي

٢٥ ـ الحجاج بن بدر السعدي

٢٦ ـ الحجاج بن مسروق الجعفي

٢٧ ـ الحر بن يزيد الرياحي

٢٨ ـ الحلاس بن عمرو الراسبي

٢٩ ـ حنظلة بن أسعد الشبامي

٣٠ ـ حنظلة بن عمرو الشيباني

٣١ ـ رافع مولى مسلم الأزدي

٣٢ ـ زاهر بن عمرو الكندي مولى عمرو بن الحمق

٣٣ ـ زهير بن بشر الخثعمي

٣٤ ـ زهير بن سليم الأزدي

٣٥ ـ زهير بن القين البجلي

٣٦ ـ زياد بن عريب الصائدي

٣٧ ـ سالم مولى بني المدينة الكلبي

٣٨ ـ سالم مولى عامر العبدي

٣٩ ـ سعد بن الحارث الأنصاري

٤٠ ـ سعد مولى علي بن أبي طالب (ع)

٤١ ـ سعد مولى عمرو بن خالد الصيداوي

٤٢ ـ سعيد بن عبد الله الحنفي

٤٣ ـ سلمان بن مضارب البجلي

٤٤ ـ سليمان مولى الحسين (ع)

٤٥ ـ سوار بن منعم النهمي

٤٦ ـ سويد بن عمرو بن أبي المطاع

٤٧ ـ سيف بن الحارث بن سريع الجابري

٤٨ ـ سيف بن مالك العبدي

٤٩ ـ شبيب مولى الحارث الجابري

٥٠ ـ شوذب مولى بني شاكر

٥١ ـ الضرغامة بن مالك

٥٢ ـ عائذ بن مجمع العائذي

٥٣ ـ عابس بن أبي شبيب الشاكري

٥٤ ـ عامر بن حسان بن شريح بن سعد بن حارثة بن لام بن عمرو بن طريف بن عمرو بن بشامة بن ذهل بن جدعان بن سعد بن قطرة بن طيء. ذكر النجاشي في ترجمة حفيده أحمد بن عامر أنه قتل مع الحسين (ع) وهو غير عامر بن مسلم العبدي الآتي فذاك ابن مسلم وهذا ابن حسان وذاك عبدي وهذا طائي.

٥٥ ـ عامر بن مسلم العبدي

٥٦ ـ عباد بن المهاجر الجهني

٥٧ ـ عبد الأعلى بن يزيد الكلبي

٥٨ ـ عبد الرحمٰن الأرحبي

٥٩ ـ عبد الرحمٰن بن عبد ربه الأنصاري

٦٠ ـ عبد الرحمٰن بن عروة الغفاري

٦١ ـ عبد الرحمٰن بن مسعود التيمي

٦٢ ـ عبد الله بن أبي بكر. قال الجاحظ في كتاب الحيوان وهو شهيد من شهداء يوم الطف

٦٣ ـ عبد اللّه بن بشر الخثعمي

٦٤ ـ عبد اللّه بن عروة الغفاري

٦٥ ـ عبد اللّه بن عمير بن جنابَ الكلبي

٦٦ ـ عبد اللّه بن يزيد العبدي

٦٧ ـ عبيد اللّه بن يزيد العبدي

٦٨ ـ عقبة بن سمعان

٦٩ ـ عقبة بن الصلت الجهني

٧٠ ـ عمارة بن صلخب الأزدي

٧١ ـ عمران بن كعب بن حارثة الأشجعي

٧٢ ـ عمار بن حسان الطائي

٧٣ ـ عمار بن سلامة الدالاني

٧٤ ـ عمرو بن عبد اللّه الجندعي

٧٥ ـ عمرو بن خالد الأزدي

٧٦ ـ عمرو بن خالد الصيداوي

٧٧ ـ عمرو بن قرظة الأنصاري

٧٨ ـ عمرو بن مطاع الجعفي

٧٩ ـ عمرو بن جنادة الأنصاري

٨٠ ـ عمرو بن ضبيعة الضبعي

٨١ ـ عمرو بن كعب أبو ثمامة الصائدي

٨٢ ـ قارب مولى الحسين (ع)

٨٣ ـ قاسط بن زهير التغلبي

٨٤ ـ القاسم بن حبيب الأزدي

٨٥ ـ كردوس التغلبي

٨٦ ـ كنانة بن عتيق التغلبي

٨٧ ـ مالك بن ذودان

٨٨ ـ مالك بن عبد اللّه بن سريع الجابري

٨٩ ـ مجمع الجهني

٩٠ ـ مجمع بن عبيد الله العائذي

٩١ ـ محمد بن بشير الحضرمي

٩٢ ـ مسعود بن الحجاج التيمي

٩٣ ـ مسلم بن عوسجة الأسدي «صحابي»

٩٤ ـ مسلم بن كثير الأزدي

٩٥ ـ مقسط بن زهير التغلبي

٩٦ ـ منجح مولى الحسن (ع)

٩٧ ـ الموقع بن ثمامة الأسدي

٩٨ ـ نافع بن هلال الجملي

٩٩ ـ نصر مولى علي (ع)

١٠٠ ـ النعمان بن عمرو الراسبي

١٠١ ـ نعيم بن عجلان الأنصاري

١٠٢ ـ واضح الرومي مولى الحارث السلماني

١٠٣ ـ وهب بن حباب الكلبي

١٠٤ ـ يزيد بن ثبيط العبدي

١٠٥ ـ يزيد بن زياد بن مهاصر الكندي

١٠٦ ـ يزيد بن مغفل الجعفي

وإذا ضممناهم إلى الثلاثين من بني هاشم كانوا ١٣٦ وإذا ضممنا إليهم قيس بن مسهر الصيداوي وعبد الله بن بقطر وهاني بن عروة كانوا ١٣٩.

الأمور المتأخرة عن قتله

وأقبل القوم على سلب الحسين (ع) فأخذ قميصه إسحاق بن حوية[1] الحضرمي ووجد في قميصه (ع) مائة وبضع عشرة ما بين رمية وطعنة وضربة وقيل: وجد في ثيابه مائة وعشرون رمية بسهم وفي جسده الشريف ثلاث وثلاثون طعنة برمح وأربع وثلاثون ضربة بسيف (وعن) الصادق (ع) أنه وجد بالحسين (ع) ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة وعن الباقر (ع) أنه وجد به ثلثمائة وبضع وعشرون جراحة (وفي) رواية ثلثمائة وستون جراحة. وأخذ سراويله أبجر بن كعب التميمي، (وأخذ) ثوبه أخ لإسحاق بن حوية (وأخذ) قطيفة له كانت من خز قيس بن الأشعث بن قيس (وأخذ) عمامته الأخنس بن مرثد وقيل جابر بن يزيد (وأخذ) برنسه مالك بن النسر (وأخذ نعليه) الأسود بن خالد «وأخذ» درعه البتراء عمر بن سعد فلما قتل عمر أعطاها المختار لقاتله «وأخذ» سيفه الفلافس النهشلي من بني دارم وقيل جميع بن الخلق الأودي وقيل الأسود بن حنظلة التميمي «وأخذ» القوس الرجيل بن خيثمة الجعفي «وأخذ» خاتمه بجدل بن سليم الكلبي وقطع إصبعه مع الخاتم «ومال» الناس على الفرش والورس والحلل والإبل فانتهبوها وانتهبوا رحله وثقله وسلبوا نساءه.

(قال) حميد بن مسلم: رأيت امرأة من بكر بن وائل كانت مع زوجها في أصحاب عمر بن سعد، فلما رأت القوم قد اقتحموا على نساء الحسين (ع) في فسطاطهن وهم يسلبونهن أخذت سيفاً وأقبلت نحو الفسطاط وقالت: يا آل بكر بن وائل أتسلب بنات رسول الله؟ لا حكم إلا لله، يا لثارات رسول الله. فأخذها زوجها وردها إلى رحله. «وانتهوا» إلى علي بن الحسين زين العابدين (ع) وهو منبسط على فراش وهو شديد المرض وكان مريضاً بالذرب وقد أشرف على الموت ومع شمر جماعة من الرجالة فقالوا له: ألا نقتل هذا العليل فأراد شمر قتله فقال له حميد بن مسلم: سبحان الله أتقتل الصبيان إنما

(١) تصغير حياة وفي بعض المواضع إسحاق بن حياة.

هو صبي وإنه لما به فلم يزل يدفعهم عنه حتى جاء عمر بن سعد فصاح النساء في وجهه وبكين فقال لأصحابه: لا يدخل أحد منكم بيوت هؤلاء ولا تتعرضوا لهذا الغلام المريض ومن أخذ من متاعهن شيئاً فليردده، فلم يرد أحد شيئاً، ثم إنهم أشعلوا النار في الفسطاط فخرجت منه النساء باكيات مسلبات «ونادى» عمر بن سعد في أصحابه من ينتدب للحسين فيوطىء الخيل ظهره وصدره، فانتدب منهم عشرة وهم: إسحاق بن حوية الذي سلب قميص الحسين (ع). والأخنس بن مرثد الذي سلب عمامة الحسين (ع). وحكيم بن الطفيل الذي اشترك في قتل العباس (ع). وعمرو بن صبيح الصيداوي الذي رمى عبد الله بن مسلم بسهم فسمر يده في جبهته. ورجاء بن منقذ العبدي. وسالم بن خيثمة الجعفي. وصالح بن وهب الجعفي. الذي طعن الحسين على خاصرته فسقط عن فرسه. وواخط بن غانم. وهاني بن ثبيت الحضرمي الذي قتل جماعة من الطالبيين. وأسيد بن مالك. فداسوا الحسين (ع) بحوافر خيلهم حتى رضوا ظهره وصدره «وجاء» هؤلاء العشرة حتى وقفوا على ابن زياد فقال أسيد بن مالك أحدهم.

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر　　بكل يعبوب شديد الأسر

فقال ابن زياد: من أنتم قالوا: نحن الذين وطئنا بخيولنا ظهر الحسين حتى طحنا جناجن صدره فأمر لهم بجائزة يسيرة «قال» أبو عمرو الزاهد فنظرنا في هؤلاء العشرة فوجدناهم جميعاً أولاد زنا «وسرح» عمر بن سعد من يومه ذلك وهو يوم عاشورا برأس الحسين (ع) مع خولي بن يزيد الأصبحي وحميد بن مسلم الأزدي إلى عبيد الله بن زياد (قال) الطبري وابن الأثير فوجد القصر مغلقاً فأتى بالرأس إلى منزله فوضعه تحت إجانة ودخل فراشه وقال لامرأته النوار: جئتك بغنى الدهر هذا رأس الحسين (ع) معك في الدار فقالت: ويلك جاء الناس بالذهب والفضة[1] وجئت برأس ابن بنت رسول الله ﷺ والله لا يجمع

(١) ما زال حب الذهب والفضة وحب الدنيا رأس كل خطيئة وما زال هلاك الناس بالدينار =

رأسي ورأسك بيت. وقامت من الفراش فخرجت إلى الدار «وخولي» هذا قتله أصحاب المختار وأحرقوه بالنار وكان مختفياً في مخرجه فدلت عليه امرأته الأخرى العيوف بنت مالك وكانت تعاديه منذ جاء برأس الحسين (ع) فلما سألوها عنه قالت: لا أدري وأشارت بيدها إلى المخرج «وأمر» ابن سعد برؤوس الباقين من أصحاب الحسين وأهل بيته فقطعت، وسرح بها شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث بن قيس وعمرو بن الحجاج فأقبلوا حتى قدموا بها على ابن زياد (وروي) أن الرؤوس كانت سبعين رأساً «وروي» ثمانية وسبعين رأساً فاقتسمتها القبائل لتتقرب بها إلى ابن زياد وإلى يزيد لعنهما الله تعالى، فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً وصاحبهم قيس بن الأشعث، وجاءت هوازن باثني عشر رأساً. وقيل بعشرين وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن. وجاءت تميم بسبعة عشرة رأساً. وجاءت بنو أسد بستة عشر رأساً. وقيل بستة أرؤس. وجاءت مذحج بسبعة أرؤس. وجاء سائر الناس بثلاثة عشرة رأساً وقيل بسبعة «ثم» إن ابن سعد صلى على القتلى من أصحابه ودفنهم وترك الحسين (ع) وأصحابه بغير دفن وأقام بقية اليوم العاشر واليوم الثاني إلى زوال الشمس، ثم نادى في الناس بالرحيل، وتوجه نحو الكوفة. وحمل معه نساء الحسين (ع) وبناته وأخواته ومن كان معه من الصبيان وفيهم علي بن الحسين زين العابدين (ع) قد نهكته العلة والحسن بن الحسن المثنى وكان قد واسى عمه في القتال ونقل من المعركة وقد أثخن بالجراح وبه رمق فبرىء وقال ابن شهراشوب أسر مقطوعة يده وأخواه زيد وعمر أبناء الحسن السبط (ع) «وتدل» بعض الروايات على وجود الباقر (ع) معهم وساقوهم كما يساق سبي الروم «فقالت» النسوة: بحق الله الا ما مررتم بنا على مصرع الحسين (ع) فمروا بهم على الحسين (ع) وأصحابه وهم صرعى، فلما نظر النسوة إلى القتلى صحن وضربن

= والدرهم كما جاء في الحديث الشريف فالنوار وإن غاظها مجيء زوجها اللعين برأس ابن بنت رسول الله ﷺ إلا أنها أسفت لعدم مجيئه بالذهب والفضة والنهب من رحل ابن بنت رسول الله ﷺ.

وجوههن، ثم إن سكينة بنت الحسين (ع) اعتنقت جسد أبيها فاجتمع عدة من الأعراب حتى جروها عنه. ولما رحل ابن سعد عن كربلا خرج قوم من بني أسد كانوا نزولاً بالغاضرية إلى الحسين (ع) وأصحابه فصلوا على تلك الجثث الطواهر ودفنوها فدفنوا الحسين (ع) حيث قبره الآن ودفنوا ابنه علياً الأكبر عند رجليه وحفروا للشهداء من أهل بيته ولأصحابه الذين صرعوا حوله مما يلي رجلي الحسين (ع) فجمعوهم فدفنوهم جميعاً في حفيرة واحدة وسووا عليهم التراب. قال المسعودي: ودفن أهل الغاضرية وهم قوم من بني عامر من بني أسد الحسين وأصحابه بعد قتلهم بيوم (اهـ) أي في اليوم الذي ارتحل فيه ابن سعد من كربلاء فإنه بقي في كربلا إلى زوال اليوم الحادي عشر كما مر أما إذا كانوا جاؤوا في اليوم الثاني من رحلته فيكون الدفن من بعد القتل بيومين (ويقال) إن أقربهم دفناً إلى الحسين ولده الأكبر عليهما السلام فيزورهم الزائر من عند قبر الحسين (ع) ويومي إلى الأرض التي نحو رجليه بالسلام عليهم. ودفنوا العباس بن علي عليهما السلام في موضعه الذي قتل فيه على المسناة بطريق الغاضرية حيث قبره الآن، ودفنوا بقية الشهداء حول الحسين (ع) في الحائر (قال) المفيد عليه الرحمة ولسنا نحصل لهم أجداثاً على التحقيق والتفصيل إلا أنا لا نشك أن الحائر محيط بهم رضي الله عنهم وأرضاهم. ويقال: إن بني أسد دفنوا حبيب بن مظاهر في قبر وحده عند رأس الحسين (ع) حيث قبره الآن اعتناء به لأنه أسدي وإن بني تميم حملوا الحر بن يزيد الرياحي على نحو ميل من الحسين (ع) ودفنوه هناك حيث قبره الآن اعتناء به أيضاً ولم يذكر ذلك المفيد ولكن اشتهار ذلك وعمل الناس عليه ليس بدون مستند (وسار) ابن سعد بسبايا أهل بيت رسول الله ﷺ فلما قاربوا الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهن فأشرفت امرأة من الكوفيات وقالت: من أي الأسارى أنتن؟ فقلن لها: نحن أسارى آل محمد ﷺ فنزلت من سطحها فجمعت لهن ملاء وإزراً ومقانع. وهذه حال الزمان ونوائبه فزينب العقيلة ومن معها من عقائل آل أبي طالب كن بالأمس في الكوفة مقر خلافة أبيهن أمير المؤمنين معززات مجللات يدخلن اليوم الكوفة

بزي الأسارى وتجمع لهن إحدى الكوفيات الملاء والأزر والمقانع ليتسترن بها عن أعين النظار.

لا أضحك الله سن الدهر إن ضحكت — وآل أحمد مظلومون قد قهروا

خطبة زينب عليها السلام بالكوفة

قال خزيم بن بشر الأسدي: نظرت إلى زينب بنت علي عليهما السلام يومئذ فلم أر خفرة أنطق منها كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين (ع) وقد أومأت إلى الناس إن اسكتوا. فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس ثم قالت: الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطاهرين أما بعد يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا قطعت الرنة. إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم وهل فيكم إلا الصلف[1] النطف[2] والصدر الشنف[3] (إلا الصلف والعجب والشنف والكذب) وملق[4] الأماء وغمز[5] الأعداء أو كمرعى على دمنة[6] أو كفضة على ملحودة[7] ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد ذهبتم بعارها وشنارها[8] ولن ترحضوها[9] بغسل بعدها أبداً وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم ومنار حجتكم (محجتكم) ومدره[10] سنتكم. ألا ساء ما تزرون وبعداً لكم وسحقاً فلقد خاب

---

(١) الصلف بفتحتين ادعاء الإنسان فوق ما فيه تكبرا وهو صلف ككتف.

(٢) النطف بالتحريك التلطخ بالعيب وهو نطف أي ملتطخ بالعيب.

(٣) الشنف بالتحريك البغض والتنكر وصدر شنف أي مبغض متنكر.

(٤) الملق الاعطاء باللسان ما ليس في القلب.

(٥) الغمز الطعن.

(٦) الدمنة بالكسر الموضع القريب من الدار يضرب مثلاً لمن يروق منظره ويسوء مخبره.

(٧) أي ميتة موضوعة في اللحد.

(٨) الشنار العيب.

(٩) تغسلوها.

(١٠) المدره كمنبر زعيم القوم والمتكلم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه.

السعي وتبت الأيدي وخسرت الصفقة وبؤتم بغضب من الله وضربت عليكم الذلة والمسكنة. ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم (فرثتم)[1] وأي كريمة له أبرزتم وأي دم له سفكتم وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم بها صلعاء[2] عنقاء[3] سوءاء[4] فقماء[5] نأناء[6] وفي رواية خرقاء[7] شوهاء[8] كطلاع الأرض[9] أو ملء السماء. أفعجبتم إن مطرت السماء دماً فلعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون. فلا يستخفنكم المهل فإنه لا يحفزه[10] البدار ولا يخاف فوت الثار وإن ربكم لبالمرصاد. قال: فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم. ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يبزى[11].

خطبة علي بن الحسين عليهما السلام بالكوفة

ثم إن زين العابدين (ع) أومأ إلى الناس أن اسكتوا فسكتوا فقام قائماً فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ بما هو أهله فصلى عليه ثم قال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أنا ابن من انتهك حريمه وسلب نعيمه وانتهب

---

(١) الفري القطع والفرث التفتيت.
(٢) الصلعاء الداهية القبيحة المكشوفة.
(٣) العنقاء الداهية.
(٤) قبيحة.
(٥) عظيمة.
(٦) النأناة العجز والضعف.
(٧) الخرق ضد الرفق.
(٨) قبيحة.
(٩) أي ملؤها.
(١٠) لا يعجله.
(١١) أي لا يغلب ولا يقهر.

ماله وسبي عياله أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث، أنا ابن من قتل صبراً وكفى بذلك فخراً، أيها الناس ناشدتكم بالله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقتلتموه وخذلتموه فتباً لما قدمتم لأنفسكم وسوأة لرأيكم بأية عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم: قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من أمتي. فارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية وقال بعضهم لبعض: هلكتم وما تعلمون فقال (ع): رحم الله امرأ قبل نصيحتي وحفظ وصيتي في الله ورسوله وأهل بيته فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة فقالوا بأجمعهم: نحن كلنا سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك فمرنا بأمرك يرحمك الله فإنا حرب لحربك وسلم لسلمك لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا فقال (ع): هيهات هيهات أيتها الغدرة المكرة حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إلي كما أتيتم إلى آبائي من قبل، كلا ورب الراقصات فإن الجرح لما يندمل، قتل أبي بالأمس وأهل بيته معه ولم ينسني ثكل رسول الله ﷺ وثكل أبي وبني أبي ووجده بين لهاتي[1] ومرارته بين حناجري وحلقي وغصصه تجري في فراش[2] صدري ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا ثم قال:

لا غرو إن قتل الحسين فشيخه ... قد كان خيراً من حسين وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذي ... أصاب حسيناً كان ذلك أعظما
قتيل بشط النهر روحي فداؤه ... جزاء الذي أرداه نار جهنما

ثم قال: رضينا منكم رأساً برأس فلا لنا ولا علينا.

عند ابن زياد

وجاء سنان بن أنس النخعي إلى باب بن زياد فقال:

أوقر ركابي فضة أو ذهبا ... إني قتلت السيد المحجبا

---

(١) اللهاة اللحمة في أقصى الفم.

(٢) الفراش كل عظم رقيق بال فراش وفراشة كسحاب وسحابة.

قتلت خير الناس أماً وأبا   وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فلم يعطه ابن زياد شيئاً (وقيل) إن سنانا أنشد هذه الأبيات على باب فسطاط عمر بن سعد فحذفه بالقضيب وقال: أو مجنون أنت والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك (وقيل) المنشد لها عند ابن سعد هو شمر (وقيل) إن قاتل الحسين (ع) أنشدها عند يزيد لعنه الله والله أعلم (ثم) إن ابن زياد لعنه الله جلس في قصر الإمارة وأذن للناس إذناً عاماً وأمر بإحضار رأس الحسين (ع) فوضع بين يديه فجعل ينظر إليه ويبتسم وكان في يده قضيب فجعل يضرب به ثناياه ويقول: إنه كان حسن الثغر وقال: لقد أسرع الشيب إليك يا أبا عبد اللّه ثم قال: يوم بيوم بدر (وكان) عنده أنس بن مالك فبكى وقال: كان أشبههم برسول الله ﷺ (وكان) إلى جانبه زيد بن أرقم صاحب رسول الله ﷺ وهو شيخ كبير فلما رآه يضرب بالقضيب ثناياه قال له: ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ مالا أحصيه كثرة يقبلهما ثم انتحب باكياً، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك أتبكي لفتح الله؟ والله لولا إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك، فنهض وهو يقول: أيها الناس أنتم العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانة والله ليقتلن خياركم وليستعبدن شراركم فبعداً لمن يرضى بالذل والعار، ثم قال: يا ابن زياد لأحدثنك حديثاً أغلظ عليك من هذا. رأيت رسول الله ﷺ أقعد حسناً على فخذه اليمنى وحسيناً على فخذه اليسرى ثم وضع يديه على يافوخيهما ثم قال: اللهم إني أستودعك إياهما وصالح المؤمنين. فكيف كانت وديعة رسول الله ﷺ عندك يا ابن زياد؟

زينب وزين العابدين

وأدخل نساء الحسين (ع) وصبيانه على ابن زياد فلبست زينب (ع) أرذل ثيابها وتنكرت ومضت حتى جلست ناحية من القصر وحف بها إماؤها؛ فقال ابن زياد: من هذه، فلم تجبه فأعاد الكلام ثانياً وثالثاً يسأل عنها فلم تجبه فقال له بعض إمائها: هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأقبل عليها ابن زياد

وخاطبها بما فيه الشماتة والجفاء والغلظة والجرأة على الله ورسوله كما يقتضيه لؤم عنصره وخبث طينته وأراد تصديق كونه دعيا ابن دعي، فقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم، فأجابته زينب (ع) بما أخرسه وأخزاه وفضحه فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد ﷺ وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا، فقال: كيف رأيت فعل الله بأخيك وأهل بيتك، فقالت: ما رأيت إلا جميلاً هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتتحاجون إليه وتختصمون عنده فانظر لمن الفلج يومئذ هبلتك أمك يا ابن مرجانة. فغضب واستشاط حين أعياه الجواب، وكأنه هم بها فقال له عمرو بن حريث: أيها الأمير إنها امرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تذم على خطيئتها. فلجأ ابن زياد حينئذ إلى البذاءة وسوء القول مما هو جدير به فقال لها: لقد شفى الله نفسي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك، فرقت زينب وبكت وقالت له: لعمري لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن كان هذا شفاؤك فقد اشتفيت، وعرض عليه زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام فقال: من أنت؟ قال: علي بن الحسين فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين، فقال له علي: قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس، فقال: بل الله قتله، فقال علي بن الحسين: الله يتوفى الأنفس حين موتها، فغضب ابن زياد وقال: وبك جرأة لجوابي وفيك بقية للرد علي اذهبوا به فاضربوا عنقه، فتعلقت به عمته زينب وقالت: يا ابن زياد حسبك من دمائنا واعتنقته و قالت: لا والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني معه فقال لها علي: اسكتي يا عمة حتى أكلمه، ثم أقبل عليه فقال: أبالقتل تهددني يا ابن زياد أما علمت إن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة. ثم أمر ابن زياد بعلي بن الحسين عليهما السلام وأهل بيته فحملوا إلى دار بجنب المسجد الأعظم. فقالت زينب بنت علي عليهما السلام: لا تدخلن علينا عربية إلا أم ولد أو مملوكة فإنهن سبين كما سبينا، (ولما) أصبح ابن زياد أمر برأس الحسين (ع) فطيف به في سكك الكوفة كلها وقبائلها ولما فرغ القوم من

التطواف به في الكوفة ردوه إلى باب القصر. ثم إن ابن زياد نصب الرؤوس كلها بالكوفة على الخشب وهي أول رؤوس نصبت في الإسلام بعد رأس مسلم بن عقيل بالكوفة.

ابن زياد يبشر يزيد وعمرو بن سعيد

(وكتب) ابن زياد إلى يزيد يخبره بقتل الحسين (ع) وخبر أهل بيته (وتقدم) إلى عبد الملك بن الحارث السلمي فقال: انطلق حتى تأتي عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة (وكان أميراً عليها وهو من بني أمية) فتبشره بقتل الحسين (ع) وقال: لا يسبقنك الخبر إليه قال عبد الملك: فركبت راحلتي وسرت نحو المدينة فلقيني رجل من قريش فقال: ما الخبر؟ قلت: الخبر عند الأمير تسمعه قال: إنا لله وإنا إليه راجعون قتل والله الحسين (ولما) دخلت على عمرو بن سعيد قال: ما وراءك؟ قلت: ما يسر الأمير قتل الحسين بن علي، فقال: أخرج فناد بقتله، فناديت فلم أسمع واعية قط مثل واعية بني هاشم في دورهم على الحسين بن علي حين سمعوا بقتله، فدخلت على عمرو بن سعيد فلما رآني تبسم إلي ضاحكاً ثم تمثل بقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي وقيل: إنه لما سمع أصوات نساء بني هاشم ضحك وتمثل بذلك فقال:

عجت نساء بني زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[1]

ثم قال عمرو: هذه واعية بواعية عثمان ثم صعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم قتل الحسين (ع) وقال في خطبته: إنها لدمة بلدمة وصدمة بصدمة كم خطبة بعد خطبة وموعظة بعد موعظة حكمة بالغة فما تغني النذر، والله لوددت إن رأسه في بدنه وروحه في جسده أحياناً كان يسبنا ونمدحه ويقطعنا ونصله كعادتنا وعادته، ولم يكن من أمره ما كان ولكن كيف نصنع بمن سل سيفه يريد قتلنا إلا أن ندفعه عن أنفسنا. (فقام) عبد الله بن السائب فقال: لو كانت فاطمة حية فرأت رأس الحسين (ع) لبكت عليه فجبهه عمرو بن سعيد وقال: نحن

---

(١) الأرنب وقعة كانت لبني زبيد على بني زياد من بني الحارث بن كعب.

أحق بفاطمة منك أبوها عمنا وزوجها أخونا وابنها ابننا لو كانت فاطمة حية لبكت عينها وحرت كبدها وما لامت من قتله ودفعه عن نفسه.

إلى يزيد

وأما يزيد فإنه لما وصله كتاب ابن زياد أجابه عليه يأمره بحمل رأس الحسين (ع) ورؤوس من قتل معه وحمل أثقاله ونسائه وعياله فأرسل ابن زياد الرؤوس مع زحر بن قيس وأنفذ معه أبا بردة بن عوف الأزدي وطارق بن أبي ظبيان في جماعة من أهل الكوفة إلى يزيد. ثم أمر ابن زياد بنساء الحسين (ع) وصبيانه فجهزوا وأمر بعلي بن الحسين عليهما السلام فغل بغل إلى عنقه (وفي رواية) في يديه ورقبته، ثم سرح بهم في أثر الرؤوس مع محفر بن ثعلبة العائذي وشمر بن ذي الجوشن، وحملهم على الأقتاب وساروا بهم كما يسار بسبايا الكفار، فانطلقوا بهم حتى لحقوا بالقوم الذين معهم الرؤوس فلم يكلم علي بن الحسين عليهما السلام أحداً منهم في الطريق بكلمة حتى بلغوا الشام. فلما انتهوا إلى باب يزيد رفع محفر بن ثعلبة صوته فقال: هذا محفر بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللئام الفجرة، فأجابه علي بن الحسين عليهما السلام ما ولدت أم محفر أشر وألأم.

قال الزهري لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظرة له على جيرون فأنشد لنفسه:

لما بدت تلك الحمول وأشرقت تلك الشموس على ربى جيرون

نعب الغراب فقلت صح أو لا تصح فلقد قضيت من الغريم ديوني

وفي جواهر المطالب لأبي البركات شمس الدين محمد الباغندي كما في نسخة مخطوطة في المكتبة الرضوية المباركة: قال ابن القفطي في تاريخه إن السبي لما ورد على يزيد بن معاوية خرج لتلقيه فلقي الأطفال والنساء من ذرية علي والحسن والحسين والرؤوس على أسنة الرماح وقد أشرفوا على ثنية العقاب فلما رآهم أنشد:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت تلك الرؤوس على ربى جيرون
نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل فلقد قضيت من الرسول ديوني

يعني بذلك إنه قتل الحسين بمن قتله رسول الله ﷺ يوم بدر مثل عتبة جده ومن مضى من أسلافه. وقائل مثل هذا بريء من الإسلام ولا شك في كفره، وقال في موضع آخر قال بعض أهل التاريخ: هذا كفر صريح لا يقوله مقر بنبوة محمد ﷺ (اهـ).

ولما قربوا من دمشق دنت أم كلثوم من شمر فقالت له: لي إليك حاجة فقال: ما حاجتك قالت: إذا دخلت بنا البلد فاحملنا في درب قليل النظارة، وتقدم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحونا عنها فقد خزينا من كثرة النظر إلينا ونحن في هذه الحال، فأمر في جواب سؤالها أن تجعل الرؤوس على الرماح في أوساط المحامل بغياً منه وكفراً وسلك بهم بين النظارة على تلك الصفة حتى أتى بهم باب دمشق، فوقفوا على درج باب المسجد الجامع حيث يقام السبي. وجاء شيخ فدنا من نساء الحسين وعياله فظنهم من سبايا الكفار وقال: الحمد لله الذي أهلككم وقتلكم وأراح البلاد من رجالكم وأمكن أمير المؤمنين منكم فقال له علي بن الحسين: يا شيخ هل قرأت القرآن قال: نعم قال: فهل عرفت هذه لآية ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: قد قرأت ذلك فقال له علي: فنحن القربى يا شيخ فهل قرأت وآت ذا القربى حقه فقال: قد قرأت ذلك فقال علي: فنحن القربى يا شيخ فهل قرأت هذه الآية ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: نعم فقال له علي: فنحن القربى يا شيخ ولكن هل قرأت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: قد قرأت ذلك فقال علي: فنحن أهل البيت الذين اختصنا الله بآية الطهارة يا شيخ قال: فبقي الشيخ ساكتاً نادماً على ما تكلم به وقال: بالله إنكم هم. فقال علي بن الحسين عليهما السلام: تالله إنا لنحن هم من غير شك وحق جدنا رسول الله ﷺ إنا لنحن هم. فبكى الشيخ ورمى عمامته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد من جن

وأنس ثم قال: هل لي من توبة فقال له: نعم إن تبت تاب الله عليك وأنت معنا فقال: أنا تائب فبلغ يزيد خبره فأمر بقتله فقتل ثم أن يزيد دعا بأشراف أهل الشام فأجلسهم حوله.

عند يزيد

ثم أدخل ثقل الحسين (ع) ونساؤه ومن تخلف من أهله على يزيد وهم مقرنون في الحبال وزين العابدين(ع) مغلول فلما وقفوا بين يديه على تلك الحال قال له علي بن الحسين عليهما السلام: أنشدك الله يا يزيد ما ظنك برسول الله ﷺ لو رآنا على هذه الصفة؟ فلم يبق في القوم أحد إلا وبكى: فأمر يزيد بالحبال فقطعت وأمر بفك الغل عن زين العابدين (ع).

(ثم) وضع رأس الحسين (ع) بين يديه وأجلس النساء خلفه لئلا ينظرن إليه فجعلت فاطمة وسكينة يتطاولان لينظرا الرأس وجعل يزيد يتطاول ليستر عنهما الرأس فلما رأين الرأس صحن فصاح نساء يزيد وولولت بنات معاوية فقالت فاطمة بنت الحسين (ع): أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟ فبكى الناس وبكى أهل داره حتى علت الأصوات. وأما زينب (ع) فإنها لما رأته نادت بصوت حزين يقرح القلوب: يا حسيناه يا حبيب رسول الله يا ابن مكة ومنى يا ابن فاطمة الزهراء سيدة النسا يا ابن بنت المصطفى. فأبكت والله كل من كان حاضراً في المجلس ويزيد ساكت، ثم جعلت امرأة من بني هاشم كانت في دار يزيد تندب الحسين (ع) وتنادي: يا حبيباه يا سيد أهل بيتاه يا ابن محمداه يا ربيع الأرامل واليتامى يا قتيل أولاد الأدعياء. فأبكت كل من سمعها، ولما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد وفيها رأس الحسين (ع) جعل يتمثل بقول الحصين ابن الحمام المري:

صبرنا وكان الصبر منا سجية ... بأسيافنا تفرين هاما ومعصما

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت ... قواضب في إيماننا تقطر الدما

نفلق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ودعا بقضيب خيزران وجعل ينكت به ثنايا الحسين (ع) ثم قال يوم بيوم بدر. وكان عنده أبو برزة الأسلمي فقال: ويحك يا يزيد أتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة أشهد لقد رأيت النبي ﷺ يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول: أنتما سيدا شباب أهل الجنة فقتل الله قاتلكما ولعنه وأعد له جهنم وساءت مصيرا. فغضب يزيد وأمر بإخراجه فأخرج سحباً. وفي جواهر المطالب للباغندي أنه لما وفد أهل الكوفة بالسبايا والرؤوس ودخلوا مسجد دمشق أتاهم مروان بن الحكم فسألهم كيف صنعوا. فأخبروه ثم قام عنهم فأتى يحيى بن الحكم أخو مروان فسألهم فأعادوا له الكلام فقال: حجبتم عن محمد ﷺ يوم القيامة وقال يحيى بن الحكم وكان جالساً مع يزيد متمثلاً:

لهام بجنب الطف أدنى قرابة   من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سمية أضحى نسلها عدد الحصى   وبنت رسول اللّه ليس لها نسل

فضرب يزيد في صدره وقال اسكت. وفي رواية أنه أسر إليه وقال: سبحان الله أفي هذا الموضع ما يسعك السكوت. قال الباغندي وذكر الحافظ ابن عساكر: إن يزيد لما وضع الرأس بين يديه جعل يتمثل بأبيات ابن الزبعري وزاد يزيد فيها البيتين الأخيرين كما رواه سبط بن الجوزي عن الشعبي وينبغي أن يكون زاد فيها البيت الثاني أيضاً ولكنه غير مذكور في رواية ابن الجوزي:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحاً   ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم   وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم أنتقم   من بني أحمد ما كان فعل

خطبة زينب (ع) بالشام

فقامت زينب بنت علي عليهما السلام فقالت:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين. صدق الله

سبحانه كذلك حيث يقول: ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الإماء إن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة وإن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً لا تطش جهلاً أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف ليس معهن من حماتهن حمي ولا من رجالهن ولي، وكيف ترتجي مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأزكياء ونبت لحمه بدماء الشهداء وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والاحن والأضغان ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنياً على ثنايا أبي عبد اللّه ومكان مقبل رسول الله ﷺ تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب وتهتف بأشياخك زعمت إنك تناديهم فلتردن وشيكاً موردهم ولتودن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت. اللهم خذ لنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمتك، ولتردن على رسول الله ﷺ بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ لهم بحقهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وحسبك بالله حاكماً وبمحمد خصيماً وبجبرائيل ظهيراً، وسيعلم من سول لك ومكنك من

رقاب المسلمين أن بئس للظالمين بدلاً وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً. ولئن جرت علي الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك واستعظم تقريعك واستكبر توبيخك لكن العيون عبرى والصدور حرى ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء فهذه الأيدي تنظف من دمائنا والأفواه تتحلب من لحومنا وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل وتعفرها أمهات الفراعل ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدننا وشيكاً مغرماً حيث لا تجد إلا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد، فإلى الله المشتكى وعليه المعول فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلاّ فند وإيامك إلاّ عدد وجمعك إلاّ بدد، يوم ينادي المنادي الا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل. فقال يزيد مجيباً لها:

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

في مجلس يزيد

ثم قال يزيد لعلي بن الحسين: يا ابن الحسين أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت فقال له علي (ع) بل ما قال الله أولى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فقال يزيد لابنه خالد: أردد عليه فلم يدر خالد ما يرد عليه فقال له يزيد: ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: يا ابن معاوية وهند وصخر لقد كان جدي علي بن أبي طالب في يوم بدر وأحد والأحزاب في يده راية رسول الله ﷺ وأبوك وجدك في أيديهما رايات الكفار، ثم قال علي بن الحسين (ع): ويلك يا يزيد إنك لو

تدري ماذا صنعت وما الذي ارتكبت من أبي وأهل بيتي وأخي وعمومتي إذاً لهربت في الجبال وافترشت الرماد ودعوت بالويل والثبور أن يكون رأس أبي الحسين بن فاطمة وعلي منصوباً على باب مدينتكم وهو وديعة رسول الله ﷺ فيكم فأبشر بالخزي والندامة. قال ابن شهراشوب وموضع حبس زين العابدين هو اليوم مسجد (اهـ) وقال ابن عساكر مسجده بدمشق معروف وهو الذي يقال له مشهد علي بجامع دمشق (اهـ).

واستشار يزيد أهل الشام فيما يصنع بهم فقال له بعضهم: لا تتخذ من كلب سوء جرواً فقال له النعمان بن بشير: انظر ما كان رسول الله ﷺ يصنعه بهم فاصنعه بهم.

في دمشق

ثم أمر لهم يزيد بدار تتصل بداره وكانوا مدة مقامهم بالشام ينوحون على الحسين (ع) ثم إنه نصب الرأس بدمشق ثلاثة أيام فيما ذكره الباغندي وغيره. وعن ابن لهيعة عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن قال: لقيني رأس الجالوت فقال: والله إن بيني وبين داود لسبعين أبا وإن اليهود تلقاني فتعظمني وأنت ليس بين ابن نبيكم وبينه إلا أب واحد قتلتم ولده. وعن زين العابدين (ع) قال: لما أتي برأس الحسين (ع) إلى يزيد كان يتخذ مجالس الشرب ويأتي برأس الحسين (ع) ويضعه بين يديه ويشرب عليه. وخرج زين العابدين (ع) يوماً يمشي في أسواق دمشق فاستقبله المنهال بن عمرو فقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله قال: أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً عربي وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمداً منها وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مغصوبون مقتولون مشردون إنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه يا منهال (اهـ) ولله در مهيار حيث قال:

يعظمون له أعواد منبره وتحت أرجلهم أولاده وضعوا
بأي حكم بنوه يتبعونكم وفخركم إنكم صحب له تبع

وأمر يزيد بمنبر وخطيب وأمر الخطيب أن يصعد المنبر فيذم الحسين وأباه صلوات الله عليهما فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم بالغ في ذم أمير المؤمنين والحسين الشهيد وأطنب في مدح معاوية ويزيد فذكرهما بكل جميل. فصاح به علي بن الحسين عليهما السلام: ويلك أيها الخاطب اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوأ مقعدك من النار.

ودعا يزيد بعلي بن الحسن وعمرو بن الحسن عليهم السلام وكان عمرو غلاماً صغيراً يقال: إن عمره إحدى عشرة سنة فقال له: أتصارع هذا يعني ابنه خالداً فقال له عمرو: ولكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً ثم أقاتله فقال يزيد: شنشنة أعرفها من أخزم هل تلد الحية إلا حية. وكان يزيد وعد علي بن الحسين يوم دخولهم عليه أن يقضي له ثلاث حاجات فقال له: اذكر حاجاتك الثلاث اللاتي وعدتك بقضائهن فقال له: الأولى أن تريني وجه سيدي ومولاي وأبي الحسين فأتزود منه وانظر إليه وأودعه. والثانية أن ترد علينا ما أخذ منا. والثالثة إن كنت عزمت على قتلي أن توجه مع هؤلاء النساء من يردهن إلى حرم جدهن ﷺ فقال: أما وجه أبيك فلن تراه أبداً، وأما قتلك فقد عفوت عنك، وأما النساء فما يردهن غيرك إلى المدينة، وأما ما أخذ منكم فأنا أعوضكم عنه أضعاف قيمته فقال (ع): أما مالك فلا نريده، وهو موفر عليك، وإنما طلبت منك ما أخذ منا، لأن فيه مغزل فاطمة بنت محمد ﷺ ومقنعتها وقلادتها وقميصها، فأمر برد ذلك وزاد فيه من عنده مائتي دينار فأخذها زين العابدين وفرقها في الفقراء والمساكين.

إلى المدينة

ثم أن يزيد أمر برد السبايا والأسارى إلى المدينة وأرسل معهم النعمان بن بشير الأنصاري في جماعة، فلما بلغوا العراق قالوا للدليل: مر بنا على طريق

كربلاء وكان جابر بن عبد اللّه الأنصاري وجماعة من بني هاشم ورجال من آل الرسول ﷺ قد وردوا لزيارة قبر الحسين ﷺ فبينا هم كذلك إذا بسواد قد طلع عليهم من ناحية الشام فقال جابر لعبده: انطلق إلى هذا السواد وائتنا بخبره، فإن كانوا من أصحاب عمر بن سعد فارجع إلينا لعلنا نلجأ إلى ملجأ، وإن كان زين العابدين فأنت حر لوجه الله تعالى، فمضى العبد فما كان بأسرع من أن رجع وهو يقول: يا جابر قم واستقبل حرم رسول الله هذا زين العابدين قد جاء بعماته وأخواته، فقام جابر يمشي حافي الأقدام مكشوف الرأس إلى أن دنا من زين العابدين (ع) فقال الإمام: أنت جابر فقال: نعم يا ابن رسول الله، فقال: يا جابر ها هنا والله قتلت رجالنا وذبحت أطفالنا وسبيت نساؤنا وحرقت خيامنا.

وقال ابن طاوس في كتاب الملهوف: إنهم لما وصلوا إلى موضع المصرع وجدوا جابر بن عبد اللّه الأنصاري وجماعة من بني هاشم ورجالاً من آل الرسول ﷺ قد وردوا لزيارة قبر الحسين (ع) فتوافوا في وقت واحد وتلاقوا بالبكاء والحزن وأقاموا المأتم واجتمع عليهم أهل ذلك السواد وأقاموا على ذلك أياماً (اهـ).

نعي الحسين لأهل المدينة

ثم انفصلوا من كربلاء طالبين المدينة. قال بشير بن جذيم فلما قربنا منها نزل علي بن الحسين عليهما السلام فحط رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال: يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعراً فهل تقدر على شيء منه قلت: بلى يا ابن رسول الله إني لشاعر، قال: فادخل المدينة وانع أبا عبد اللّه، قال بشير: فركبت فرسي وركضت حتى دخلت المدينة فلما بلغت مسجد النبي ﷺ رفعت صوتي بالبكاء وأنشأت أقول:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار

الجسم منه بكربلاء مضرج ... والرأس منه على القناة يدار

ثم قلت: يا أهل المدينة هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا

بساحتكم ونزلوا بفنائكم وأنا رسوله إليكم أعرفكم مكانه قال: فما بقيت في المدينة مخدرة ولا محجبة إلا برزن من خدورهن وهن يدعين بالويل والثبور ولم يبق بالمدينة أحد إلا خرج وهم يصيحون بالبكاء، فلم أر باكياً أكثر من ذلك اليوم ولا يوماً أمر على المسلمين منه بعد وفاة رسول الله ﷺ، فضربت فرسي حتى رجعت فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع فنزلت عن فرسي وتخطأت رقاب الناس حتى قربت من باب الفسطاط وكان علي بن الحسين عليهما السلام داخلاً فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له وجلس عليه وهو لا يتمالك من العبرة وارتفعت أصوات الناس بالبكاء من كل ناحية يعزونه فضجت تلك البقعة ضجة شديدة، فأومأ بيده أن اسكتوا، فسكنت فورتهم فقال: الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين بارىء الخلائق أجمعين الذي بعد فارتفع في السماوات العلى وقرب فشهد النجوى نحمده على عظائم الأمور وفجائع الدهور وألم الفجائع ومضاضة اللواذع وجليل الرزء وعظيم المصائب الفاظعة الفادحة الجائحة، أيها القوم إن الله، وله الحمد، ابتلانا بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل أبو عبد اللّه وعترته وسبي نساؤه وصبيته وداروا برأسه في البلدان من فوق عامل السنان وهذه الرزية التي لا مثلها رزية أيها الناس، فأي رجالات منكم يسرون بعد قتله، أم أي فؤاد لا يحزن من أجله، أم أي عين منكم تحبس دمعها وتضن عن إنهمالها، يا أيها الناس أي قلب لا ينصدع لقتله، أم أي فؤاد لا يحن إليه، أم أي سمع يسمع هذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصم، أيها الناس أصبحنا مطرودين مشردين مذودين شاسعين عن الأمصار من غير جرم اجترمناه ولا مكروه ارتكبناه ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إن هذا إلا اختلاق، والله لو أن النبي ﷺ تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها وأوجعها وأفجعها وأكظها وأفظعها وأمرها وأفدحها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا وما بلغ منا إنه عزيز ذو انتقام.

ثم دخل زين العابدين (ع) إلى المدينة فرآها موحشة باكية ووجد ديار أهله خالية تنعي أهلها وتندب سكانها ولنعم ما قال الشاعر:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغم تخلت

بعض أحوال يزيد وما فعله مع ابن زياد

في جواهر المطالب لأبي البركات شمس الدين محمد الباغندي كما في نسخة مخطوطة في المكتبة الرضوية المباركة ما لفظه: حكى ابن الفوطي في تاريخه قال: كان ليزيد قرد يجعله بين يديه فيكنيه بأبي قيس ويسقيه فضل كأسه ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصابته خطيئة فمسخ، وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت له ويرسلها مع الخيل في حلبة السباق فحمله يوماً عليها فسبقت فسر وأنشد:

تمسك أبا قيس بفضل زمامها ... فليس عليها إن سقطت ضمان
فقد سبقت خيل الجماعة كلها ... وخيل أمير المؤمنين أتان

وجاء يوماً فطرحته الريح فمات فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتكفينه ودفنه وأمر أهل الشام أن يعزوه فيه وأنشأ يقول:

ما شيخ قوم كرام ذو محافظة[1] ... إلا أتانا يعزي في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجملها ... إلى المساعي على القربوس والريس
لا يبعد الله قبراً أنت ساكنه ... فيه جمال وفيه لحية التيس

وقال سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص: استدعى يزيد ابن زياد إليه وأعطاه أموالاً كثيرة وتحفاً عظيمة وقرب مجلسه ورفع منزلته وأدخله على نسائه وجعله نديمه، وسكر ليلة وقال للمغني غن ثم قال يزيد بديهاً:

اسقني شربة تروي فؤادي ... ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ... ولتسديد مغنمي وجهادي

---

(١) الذي في الأصل: كم قوم كرام ذو محافظة، فأصلحناه بما ذكر.

قاتل الخارجي أعني حسينا ومبيد الأعداء والحساد

وقال ابن عقيل: ومما يدل على كفره وزندقته فضلاً عن سبه ولعنه أشعاره التي أفصح بها بالإلحاد وأبان عن خبث الضمائر وسوء الاعتقاد قوله في قصيدته التي أولها:

علية هاتي واعلني وترنمي بذلك إني لا أحب التناجيا
حديث أبي سفيان قدما سما بها إلى أحد حتى أقام البواكيا
ألا هات سقيني على ذاك قهوة تخيزها العنسي كرماً شآميا
إذا ما نظرنا في أمور قديمة وجدنا حلالاً شربها متواليا
وإن مت يا أم الأحيمر فانكحي ولا تأملي بعد الفراق تلاقيا
فإن الذي حدثت عن يوم بعثنا أحاديث طسم تجعل القلب ساهيا
ولا بد لي من أن أزور محمدا بمشمولة صفراء تروي عظاميا

قلت ومنها قوله:

معشر الندمان قوموا واسمعوا صوت الأغاني
واشربوا كأس مدام واتركوا ذكر المغاني (المثاني)
شغلتني نغمة العيـ ـدان عن صوت الأذان
وتعوضت عن الجو ر عجوزاً في الدنان

إلى غير ذلك مما نقلته من ديوانه ولهذا تطرق إلى هذه الأمة العار بولايته عليها حتى قال أبو العلاء المعري يشير بالشنار إليها:

أرى الأيام تفعل كل نكر فما أنا في العجائب مستزيد
أليس قريشكم قتلت حسيناً وكان على خلافتكم يزيد

قلت: ولما لعنه جدي أبو الفرج على المنبر ببغداد بحضرة الإمام الناصر وأكابر العلماء قام جماعة من الجفاة من مجلسه فذهبوا فقال جدي: (ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود). وحكى لي بعض أشياخنا عن ذلك اليوم أن جماعة سألوا جدي عن يزيد فقال: ما تقولون في رجل ولي ثلاث سنين: في السنة

الأولى قتل الحسين وفي الثانية أخاف المدينة وأباحها وفي الثالثة رمى الكعبة بالمجانيق وهدمها؟ فقالوا: نلعن، فقال: فالعنوه. وقال جدي في كتاب الرد على المتعصب العنيد: قد جاء في الحديث لعن من فعل ما لا يقارب عشر معشار فعل يزيد وذكر الأحاديث التي ذكرها البخاري ومسلم في الصحيحين مثل حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه لعن الواشمات والمتوشمات، وحديث ابن عمر لعن الله الواشمة والمتوشمة وحديث جابر لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله «الحديث» وحديث ابن عمر في مسند أحمد لعنت الخمر على عشرة وجوه «الحديث» وأورد أخباراً كثيرة في هذا الباب وهذه الأشياء دون فعل يزيد في قتله الحسين وأخوته وأهله ونهب المدينة وهدم الكعبة وضربها بالمجانيق وأشعاره الدالة على فساد عقيدته. ومن رام الزيادة على هذا فليقف على كتابه المسمى بالرد على المتعصب العنيد (اهـ).

كيف لم يصالح الحسين كما صالح أخوه الحسن عليهما السلام

قد يسأل عن وجه خروج الحسين (ع) (بأهله وعياله إلى الكوفة) وهي في يد أعدائه، وقد علم صنع أهلها بأبيه وأخيه مع أن جميع نصائحه كانوا يشيرون عليه بعدم الخروج ويتخوفون عليه القتل ومنهم ابن عباس وابن عمر وكثير ممن لاقاه في الطريق، وكيف لم يرجع حين علم بقتل مسلم بن عقيل، وكيف استجاز أن يحارب بنفر قليل جموعاً عظيمة لها مدد، ولم ألقى بيده إلى التهلكة، وما الجمع بين فعله وفعل الحسن الذي سلم الأمر إلى معاوية بدون هذا الخوف؟

وعن هذا السؤال جوابان **أحدهما**: للسيد المرتضى في تنزيه الأنبياء والأئمة **والثاني**: للسيد علي بن طاوس في كتاب الملهوف. وحاصل ما أجاب به المرتضى أن الحسين غلب على ظنه بمقتضى ما جرى من الأمور أنه يصل إلى حقه بالمسير فوجب عليه وذلك بمكاتبة وجوه أهل الكوفة وأشرافها وقرائها مع تقدم ذلك منهم في أيام الحسن وبعد وفاته وإعطائهم العهود والمواثيق طائعين

مبتدئين مكررين للطلب مع تسلطهم على واليهم في ذلك الوقت وقوتهم عليه وضعفه عنهم وقد جرى الأمر في أوله على ما ظنه، ولاحت أسباب الظفر فبايع مسلماً أكثر أهل الكوفة وكتب إلى الحسين بذلك وتمكن مسلم من قتل ابن زياد غيلة في دار هانيء لكنه لم يفعل معتذراً بأن الإسلام قيد الفتك، ولما حبس ابن زياد هانئاً حصره مسلم في قصره وكاد يستولي عليه لكن الاتفاق السيء عكس الأمر. أما الجمع بين فعله وفعل أخيه الحسن، فالحسن لما أحس بالغدر من أصحابه وإنهم كاتبوا معاوية في الفتك به أو تسليمه إليه وأنه ليس معه إلا نفر قليل سلم إبقاء على نفسه وأهله وشيعته، والحسين طلب بحقه حين قوي في ظنه النصرة ممن كاتبه وعاهده ورأى قوة أنصار الحق وضعف أنصار الباطل، فلما انعكس الأمر رام الرجوع فمنع منه وطلب الموادعة كما فعل أخوه الحسن فلم يجب وطلبت نفسه فمنع منها بجهده حتى مضى كريماً إلى جوار جده. انتهى ملخص ما ذكره السيد بتصرف. والأمر كما ذكره من أنهم لم يجيبوه إلى الموادعة بل طلب ابن زياد أن ينزل هو وأصحابه على حكمه وفي رواية أن يبايع هو وأصحابه يزيد فإذا فعل ذلك رأى ابن زياد رأيه ولو فعل لكان المظنون قوياً أن يقتله مع أصحابه صبراً، بل المتيقن من حال ابن زياد وخبثه ونسبه اللئيم أن يفعل ذلك فاختار موت العز في مجال الطراد على موت الذل بيد ابن زياد. وهذا الجواب جار على ظاهر الحال ولا يحتاج من يجيب به إلى تكلف شيء لكن يبقى عليه أنه لم يرجع حين علم بقتل مسلم، ويمكن الجواب بأن الأمل لم يكن منقطعاً بدليل قول أصحابه له ما أنت مثل مسلم ولو دخلت الكوفة لكان الناس إليك أسرع.

(والجواب الثاني) جار على شيء من التعمق: وهو أن الحسين كان عازماً على عدم مبايعة يزيد على كل حال ولو أدى ذلك إلى قتله وكان مقدماً على ذلك في حال ظن السلامة أن وجد وفي حال ظن العطب بل تيقنه. مع إمكان دعوى ظهور الحكمة في فعل الحسن وفعل أخيه الحسين باختلاف حالة معاوية وابنه يزيد الظاهرية في الجملة بتهتك الثاني وتستر الأول شيئاً ما، فلو بايع الحسين

يزيد لخفي حاله على الأكثر واعتقدوه إمام حق فكان يتمكن من تبديل الدين، ومن هنا يقال إن الحسين فدى دين جده بنفسه وأهله وولده وما تزلزلت أركان دولة بني أمية إلا بقتل الحسين. وهذا الوجه هو الذي اعتمده ابن طاوس في كتاب الملهوف فقال: الذي تحققناه أن الحسين (ع) كان عالماً بما انتهت حاله إليه وكان تكليفه ما اعتمد عليه، ثم أورد بعض الأخبار الدالة على ذلك ثم قال: لعل بعض من لا يعرف حقائق شرف السعادة بالشهادة أن الله لا يتعبد بمثل هذه الحالة ورده بأن الله تعبد قوماً بقتل أنفسهم فقال: فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم «انتهى باختصار». مع أنه إذا كان في ذلك من الفوائد مثل إحياء الدين وكشف قبائح المنافقين وردع الناس عن الاقتداء به كان التعبد به أولى من التعبد بقتل النفس عند التوبة ولا يقصر عن التعبد به في الجهاد والقصاص. أما توهم إن ذلك البقاء باليد إلى التهلكة ففاسد لأن بذل النفس في سبيل الله تعالى للحصول على الحياة الدائمة والنعيم الخالد إلقاء باليد إلى أعظم السعادات. وأما ما في بعض الروايات من أن الحسين (ع) طلب منهم إما أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى أو أن يسير إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده فلم يثبت، وذكر ابن الأثير في الكامل ما يكذبه فقال: روي عن عقبة بن سمعان أنه قال: صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق فلم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته للناس إلى يوم مقتله فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس أنه يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين «اهـ».

وأما دعاؤه الناس إلى نصرته مثل عبد اللّه بن الحر الجعفي وغيره وكتابه إلى أهل البصرة فكل ذلك من باب إقامة الحجة وقطع المعذرة.

ومما يدل على أن الحسين (ع) كان موطناً نفسه على القتل وظاناً أو عالماً في بعض الحالات بأنه يقتل في سفره ذلك خطبته التي خطبها حين عزم على الخروج إلى العراق التي يقول فيها: «خط الموت على ولد آدم الخ» فإن أكثر فقراتها يدل على ذلك، ونهي عمر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام له

بمكة عن الخروج وإقامته البرهان على أن ذلك ليس من الرأي بقوله: إنك تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه وعدم أخذ الحسين بقوله مع اعتذاره إليه واعترافه بنصحه. ونهي ابن عباس أيضاً محتجاً بنحو ذلك من أن الذين دعوه لم يقتلوا أميرهم وينفوا عدوهم ويضبطوا بلادهم بل دعوه وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فكأنهم دعوه إلى الحرب ولا يؤمن أن يخذلوه فيكونوا أشد الناس عليه. ومعاودته للنهي ذاكراً له نحواً من ذلك ومشيراً عليه باليمن فلم يقبل. وجوابه لمحمد بن الحنفية حين أشار عليه بعدم الخروج إلى العراق فوعده النظر ثم ارتحل في السحر فسأله ابن الحنفية فقال له الحسين (ع): أتاني رسول الله ﷺ بعدما فارقتك فقال: يا حسين اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلاً، قال: ما معنى حملك هذه النسوة معك قال: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا. وقول ابن عمر له حين نهاه عن الخروج فأبى: إنك مقتول في وجهك هذا، فإنه دال على أن ظاهر الحال كان كذلك وما ظهر لابن عمر لم يكن ليخفى على الحسين (ع) وقول الفرزدق له: قلوب الناس معك وأسيافهم عليك وقول بشر بن غالب له: خلفت القلوب معك والسيوف مع بني أمية، وتصديق الحسين (ع) له، ونهي عبد اللّه بن جعفر له وقوله: إني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، وقول الحسين (ع) له: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأمرني بما أنا ماض له، وامتناعه من أن يحدث بتلك الرؤيا. ونهي عبد اللّه بن مطيع له وقوله: والله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك وإباء الحسين (ع) إلا أن يمضي، وقول الأعراب له أنا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج: القاضي باستيلاء بني أمية استيلاء تاماً وخطورة الأمر. وأخبار أخته زينب (ع) بما سمعته حين نزل الخزيمية «وما» رآه في منامه بالثعلبية «وقوله» لأبي هريرة: وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية «ونظره» إلى بني عقيل حين أخبره الأسديان بقتل مسلم وهانىء وأشارا عليه بالرجوع وأخبراه أنه ليس له بالكوفة ناصر بل هم عليه وقوله لهم:

ما ترون فقد قتل مسلم، وامتناعهم عن الرجوع حتى يموتوا أو يدركوا ثأرهم وقوله للأسديين: لا خير في العيش بعد هؤلاء فإن الذي يظهر أنه كان يريد أن يجيبوا بالامتناع عن الرجوع ليعتذر بذلك إلى الأسديين وإنه عازم على عدم الرجوع على كل حال. وقوله لأصحابه حين جاءه خبر مسلم وهانىء وعبد الله بن يقطر أنه قد خذلنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف، وعدم رجوعه بعد تفرقهم عنه وبقائه في أصحابه الذين صحبوه من المدينة ويسير من غيرهم وإشارة عمرو بن يواذان عليه بالرجوع وقوله له: والله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف ونهيه إياه عن المسير لأن الذين كتبوا إليه لم يكفوه مؤونة القتال، وقول الحسين (ع) له: ليس يخفى علي الرأي ولكن الله تعالى لا يغلب على أمره وقوله: والله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني «وكتابه» الذي كتبه إلى بني هاشم حين توجه إلى العراق: أما بعد فإنه من لحق بي استشهد ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح. إلى غير ذلك مما يقف عليه المتتبع والمتأمل وهذه كلها ما بين صريح أو ظاهر في المطلوب كما لا يخفى.

خطبه

مر أنه خطب بكربلاء في أشد الساعات بلاء التي تذهب فيها العقول وتطيش الألباب وتخرس الألسنة وتبلبل الخطباء وتحضر الفصحاء فلم يسمع متكلم قط قبله ولا بعده أفصح في منطق منه وأنه قال ما لا يحصى كثرة وإن ابن سعد قال: ويلكم كلموه فإنه ابن أبيه والله لو وقف فيكم هكذا يوماً جديداً لما انقطع ولما حصر، ومر جملة من كتبه إلى أهل الكوفة والبصرة، ومر جملة من خطبه في مكة حين عزم على المسير إلى العراق، وفي كربلاء في عدة مناسبات.

خطبته عند مسير أبيه إلى صفين

ومن خطبه ما خطب به في الكوفة لما أراد أبوه أمير المؤمنين (ع) المسير إلى حرب صفين رواها نصر بن مزاحم في كتاب صفين وهي مع كونها في ساعة

الرخاء ليست دونها خطبه التي كانت بكربلاء عند أشد الشدائد فذكر نصر أن أمير المؤمنين خطب أولاً ثم خطب ابنه الحسن ثم خطب الحسين عليهم السلام فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أهل الكوفة أنتم الأحبة الكرماء والشعار دون الدثار جدوا في إطفاء ما وتر بينكم وتسهيل ما توعر عليكم ألا أن الحرب شرها وريع وطعمها فظيع فمن أخذ لها أهبتها واستعد لها عدتها ولم يألم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها فذاك قمن أن لا ينفع قومه وأن يهلك نفسه نسأل الله بقوته أن يدعمكم بالفيئة.

من خطبة أخرى له عليه السلام

في كشف الغمة: خطب (ع) فقال: إن الحلم زينة والوفاء مروءة والصلة نعمة والاستكبار صلف والعجلة سفه والسفه ضعف والغلو ورطة ومجالسة أهل الدناءة شر ومجالسة أهل الفسق ريبة.

خطبة أخرى له عليه السلام

في كشف الغمة أيضاً: خطب الحسين (ع) فقال: أيها الناس نافسوا في المكارم وسارعوا في المغانم ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوه واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكسبوا بالمطل ذماً فمهما يكن لأحد عند أحد صنيعة له رأى أنه لا يقوم بشكرها فالله له بمكافأته ضمين فإنه أجزل عطاء وأعظم أجراً، واعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم فلا تملوا النعم فتحور نقماً واعلموا أن المعروف مكسب حمداً ومعقب أجراً فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سمجاً مشوهاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار. أيها الناس من جاد ساد ومن بخل رذل، وإن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه، وإن أعفى الناس من عفا عن قدرة، وإن أوصل الناس من وصل من قطعه والأصول على مغارسها بفروعها تسمو فمن تعجل لأخيه خيراً وجده إذا قدم عليه غداً، ومن أراد الله تبارك وتعالى بالصنيعة إلى أخيه كافأه بها في وقت حاجته وصرف عنه بلاء الدنيا ما هو أكثر منه. ومن نفس كربة مؤمن فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة ومن أحسن أحسن الله إليه والله يحب المحسنين.

بعض ما نقل من مواعظه وحكمه وآدابه

كان (ع) يقول: شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عن الإعطاء. وقال (ع): صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عن سؤالك فاكرم وجهك عن رده.

بعض حكمه القصيرة منقولة من تحف العقول

قال رجل عند الحسين (ع): إن المعروف إذا أسدي إلى غير أهله ضاع، فقال الحسين (ع): ليس كذلك ولكن تكون الصنيعة مثل وابل المطر تصيب البر والفاجر، وقال (ع): ما أخذ الله طاعة أحد إلا وضع عنه طاعته، ولا أخذ قدرته إلا وضع عنه كلفته.

وقال (ع) لرجل اغتاب عنده رجلاً: يا هذا كف عن الغيبة فإنها أدام كلاب النار.

وقال (ع): إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة.

وقال لابنه علي بن الحسين عليهما السلام: أي بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله جل وعز، وسأله رجل عن معنى قول الله تعالى: وإما بنعمة ربك فحدث قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله به عليه في دينه.

وقال (ع): من علامات القبول الجلوس إلى أهل العقول. من دلائل العالم انتقاده لحديثه وعلمه بحقائق فنون النظر. إياك وما يعتذر منه فإن المؤمن لا يسيء ولا يعتذر والمنافق كل يوم يسيء ويعتذر «وقال»: للسلام سبعون حسنة تسع وستون للمبتدىء وواحدة للراد (وقال) البخيل من بخل بالسلام (وقال عليه السلام) من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجيء ما يحذر.

وقال (ع) كما عن أسرار الحكماء لياقون المستعصمي: لا تتكلف ما لا تطيق ولا تتعرض لما لا تدرك ولا تعتد بما لا تقدر عليه ولا تنفق إلا قدر ما تستفيد ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت ولا تفرح إلا بما نلت من طاعة الله ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك له أهلاً.

بعض ما ورد عنه (ع) من الدعاء

اعلم أن الأدعية المأثورة عنه (ع) كثيرة وقد جمعها بعض العلماء في كتاب أسماه الصحيفة الحسينية ومن الأدعية البليغة المأثورة عنه (ع) دعاء يوم عرفة دعا به وهو واقف على قدميه في ميسرة الجبل تحت السماء رافعاً يديه بحذاء وجهه خاشعاً متذللاً وهو دعاء طويل مشهور بين الشيعة يداومون على الدعاء به في الموقف.

وروي عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال: لما صبحت الخيل الحسين (ع) رفع يديه وقال: اللهم أنت ثقتي في كل كرب وأنت رجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من كرب يضعف عنه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمن سواك ففرجته عني وكشفته، فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة.

ما روي عنه من الشعر

في كشف الغمة: أما شعر الحسين (ع) فقد ذكر الرواة له شعراً ووقع إليَّ شعر بخط الشيخ أبي عبد اللّه بن الخشاب النحوي وفيه قال أبو مخنف لوط بن يحيى: أكثر ما يرويه الناس من شعر سيدنا أبي عبد اللّه الحسين (ع) إنما هو ما تمثل به وقد أخذت شعره من مواضعه و استخرجته من مظانه وأماكنه ورويته عن ثقات الرجال منهم عبد الرحمن بن نجبة الخزاعي وكان عارفاً بأمر أهل البيت عليهم السلام ومنهم المسيب بن رافع المخزومي وغيره رجال كثيرون ولقد أنشدني يوماً رجل من ساكني سلع هذه الأبيات فقلت له: اكتبها فقال لي: ما

أحسن رداءك هذا وكنت قد اشتريته يومي ذاك بعشرة دنانير فطرحته عليه فاكتبنيها وهي: قال أبو عبد اللّه الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي:

ذهب الذين أحبهم ... وبقيت فيمن لا أحبه
فيمن أراه يسبني ... ظهر المغيب ولا أسبه
يبغي فسادي ما استطاع ... وأمره مما أربه
حنقاً يدب إلى الضرا ... ء وذاك مما لا أدبه
ويرى ذباب الشر من ... حولي يطن ولا يذبه
وإذا خبا وغر الصدو ... ر فلا يزال به يشبه
أفلا يعيج بعقله ... أفلا يثوب إليه لبه
أفلا يرى إن فعله ... مما يسور إليه غبه
حسبي بربي كافياً ... ما أختشي والبغي حسبه
ولقل من يبغي عليـ ... ـه فما كفاه اللّه ربه

وقال (ع) أورده في كشف الغمة عن ابن الخشاب كما مر:

اللّه يعلم أن ما ... بيدي يزيد لغيره
وبأنه لم يكتسبـ ... ـه بخيره وبميره
لو أنصف النفس الخؤو ... ن لقصرت من سيره
ولكان ذلك منه أد ... نى شره من خيره

وقوله ذكره ابن الصباغ في الفصول المهمة وعلي بن عيسى الأربلي في كشف الغمة عن ابن الخشاب كما مر:

إذا ما عضك الدهر ... فلا تجنح إلى خلق
ولا تسأل سوى اللّه ... تعالى قاسم الرزق
فلو عشت وطوفت ... من الغرب إلى الشرق
لما صادفت من يقد ... ر أن يسعد أو يشقي

وقال ابن عساكر في التاريخ الكبير يقال: إن هذه الأبيات للحسين (ع) وفي كتاب جواهر المطالب تأليف ابن البركات شمس الدين محمد الباغندي الشافعي كما في نسخة مخطوطة في المكتبة الرضوية أنشد أبو بكر بن حامد ورواه عن الحسين رضي الله عنه وأرضاه:

اغن عن المخلوق بالخالق ... تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمٰن من فضله ... فليس غير اللّه من رازق
من ظن أن الناس يغنونه ... فليس بالرحمٰن بالواثق
أو ظن أن المال من كسبه ... زلت به النعلان من حالق

قال الأعمش ومن كلامه أيضاً وأورده في جواهر المطالب عن الأعمش:

كلما زيد صاحب المال مالا ... زيد في همه وفي الاشتغال
قد عرفناك يا منغصة العيـ ... ـش ويا دار كل فان وبالي
ليس يصفو لزاهد طلب الزهـ ... ـد إذا كان مثقلاً بالعيال

وروى ابن كثير في البداية والنهاية عن إسحاق بن إبراهيم قال: بلغني أن الحسين (ع) زار مقابر الشهداء بالبقيع فقال:

ناديت سكان القبور فاسكتوا ... فأجابني عن صمتهم ترب الجثا
قالت أتدري ما صنعت بساكني ... مزقت لحمهم وخرقت الكسا
وحشيت أعينهم تراباً بعد ما ... كانت تأذى بالقليل من القذا
أما العظام فإنني مزقتها ... حتى تباينت المفاصل والشوى
قطعت ذا من ذا ومن هذا كذا ... فتركتها مما يطول بها البلى

وقال (ع) لما بلغه قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وقد تقدمت وأولها:

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة ... فدار ثواب اللّه أعلى وأنبل

وقال في زوجته الرباب بنت امرىء القيس بن عدي القضاعية وابنته منها سكينة أورده أبو الفرج في الأغاني:

لعمرك إنني لأحب داراً   تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالي   وليس لعاتب عندي عتاب

وفي جواهر المطالب: مما أنشده الزبير بن بكار للحسين (ع) في زوجته الرباب بنت امرىء القيس:

لعمرك إنني لأحب دارا   تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي   وليس للائم فيها عتاب
ولست لهم وإن عتبوا مطيعاً   حياتي أو يغيبني التراب

مراثيه

لم يكن يجسر أحد من الشعراء على المجاهرة برثاء الحسين (ع) في ملك بني أمية عدا شاذ يقول الأبيات المعدودة غير مجاهر بها ثم تنقل عنه بل في بعض أدوار ملك بني العباس كان الحال كذلك أو أشد ولكن في أوائل الدولة العباسية وفي أواخرها وبعد انقراض الدولتين تبارى شعراء الإسلام في رثائه وقالوا: فأكثروا وأجادوا فحلقوا في كل عصر وفي كل زمان لا سيما شعراء الشيعة ولا غرو فمكانة الحسين (ع) بين المسلمين المكانة السامية التي لا يصل أحد إليها ومصيبته مصيبة عظمى وفاجعته فاجعة كبرى لم يقع في الإسلام أفظع ولا أشنع منها وقد ألحقت بالأمة الإسلامية عاراً لا يمحى وشناراً لا ينسى حتى قال أبو العلاء المعري:

دع الأيام تصنع ما تريد

«البيتين المتقدمين».

وقد جمعنا كتاباً في مختار مراثيه (ع) من شعر المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين أسميناه الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد طبع ثلاث مرات وزدنا عليه في الطبعة الثالثة أكثر من خمسين قصيدة ومقطوعة حتى بلغ عدد أبياته نحواً

من ستة آلاف بيت وها نحن نورد هنا نموذجاً من مراثيه يكون قضاء لحق التاريخ ونوكل من يريد الاطلاع على أكثر من ذلك إلى الكتاب المذكور. فأول من رثاه فيما حكاه سبط ابن الجوزي عن السدي عقبة بن عمرو السهمي ورواه المفيد في المجالس بسنده عن إبراهيم بن داحة قال: أول شعر رثي به الحسين بن علي قول عقبة بن عمرو السهمي من بني سهم بن عوف بن غالب فقال:

إذا العين قرت في الحياة وأنتم ... تخافون في الدنيا فأظلم نورها
مررت على قبر الحسين بكربلا ... ففاض عليه من دموعي غزيرها
وما زلت أبكيه وأرثي لشجوه ... ويسعد عيني دمعها وزفيرها
وبكيت من بعد الحسين عصائباً ... أطافت به من جانبيه قبورها
سلام على أهل القبور بكربلا ... وقل لها مني سلام يزورها
سلام بآصال العشي وبالضحى ... تؤديه نكباء الرياح ومورها
ولا برح الزوار زوار قبره ... يفوح عليهم مسكها وعبيرها

وينبغي أن يكون أول من رثاه سليمان بن قتة العدوي التيمي مولى بني تيم بن مرة وكان منقطعاً إلى بني هاشم فإنه مر بكربلاء بعد قتل الحسين (ع) بثلاث فنظر إلى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وأنشأ يقول: وقيل إنها لأبي الرجح الخزاعي ويمكن كون بعضها لأحدهما وبعضها للآخر واشتبها:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لقتل حسين والبلاغ اقشعرت
وكانوا رجاء ثم أضحوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وتسألنا قيس فنعطي فقيرها ... وتقتلنا قيس إذا النعل زلت
وعند غني قطرة من دمائنا ... سنطلبها يوماً بها حيث حلت
فلا يبعد اللّه الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغم تخلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت
وقد اعولت تبكي السماء لفقده ... وأنجمنا ناحت عليه وصلت

ورثته زوجته الرباب بنت امرىء القيس بن عدي فقالت:

إن الذي كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيل غير مدفون
قد كنت لي جبلاً صلداً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
فمن يجيب نداء المستغيث ومن يغني ويؤوي إليه كل مسكين
تالله لا أبتغي صهراً بصهركم حتى أوسد بين اللحد والطين

وقالت الرباب أيضاً وهي بالشام بعدما أخذت الرأس الشريف وقبلته ووضعته في حجرها:

واحسيناً فلا نسيت حسينا أقصدته أسنة الأعداء
غادروه بكربلاء صريعا لا سقى الله جانبي كربلاء

ورثاه بشير بن جذيم ببيتين نعاه بهما إلى أهل المدينة تقدما. ورثته جارية حين جاء نعيه إلى المدينة بأبيات تقدمت.

«وخرجت» أم لقمان بنت عقيل بن أبي طالب حين سمعت نعي الحسين (ع) ومعها أخواتها أم هانىء وأسماء ورملة وزينب بنات عقيل تبكي قتلاها بالطف وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يرثيه من أبيات:

بكيت لفقد الأكرمين تتابعوا لوصل المنايا دارعون وحسر
بهم فجعتنا والفواجع كاسمها تميم وبكر والسكون وحمير
وفي كل حي نضحة من دمائنا بني هاشم يعلو سناها ويشهر
فسوف يرى أعداؤنا حين نلتقي لأي الفريقين النبي المطهر

وقال رجل من عبد القيس قتل أخوه مع الحسين (ع) وعبد القيس معروفة بالتشيع لأهل البيت عليهم السلام:

يا فرو قومي فاندبي خير البرية في القبور

قتلوا الحرام من الأئمة		في الحرام من الشهور

وقال أبو دهبل الجمحي وهب بن زمعة وهو معاصر لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد من قصيدة:

عجبت وأيام الزمان عجائب		ويظهر بين المعجبات عظيمها
تبيت النشاوى من أمية نوما		وبالطف قتلى ما ينام حميمها
وتضحى كرام من ذؤابة هاشم		يحكم فيها كيف شاء لئيمها
وربات صون ما تبدت لعينها		قبيل السبا إلا لوقت نجومها
تزاولها أيدي الهوان كأنما		تقحم ما لا عفو فيه أثيمها
وما أفسد الإسلام إلا عصابة		تأمر نوكاها ودام نعيمها
وصارت قناة الدين في كف ظالم		إذا مال منها جانب لا يقيمها
وخاض بها طخياء لا يهتدي لها		سبيل ولا يرجو الهدى من يعومها
إلى حيث ألقاها ببيداء مجهل		تضل لأهل الحلم فيها حلومها
رمتها لأهل الطف منها عصابة		حداها إلى هدم المكارم لومها
فشنت بها شعواء في خير فتية		تخلت لكسب المكرمات همومها
أولائك آل الله آل محمد		كرام تحدت ما حداها كريمها
يخوضون تيار المنايا ظواميا		كما خاض في عذب الموارد هيمها
يقوم بهم للمجد أبيض ماجد		أخو عزمات أقعدت من يرومها
فأقسمت لا تنفك نفسي جزوعة		وعيني سفوحا لا يمل سجومها
حياتي أو تلقى أمية وقعة		يذل لها حتى الممات قرومها

وروي أن خالد بن معدان الطائي من فضلاء التابعين لما شاهد رأس الحسين (ع) بالشام أخفى نفسه شهراً من جميع أصحابه فلما وجدوه بعد إذ فقدوه سألوه عن سبب ذلك فقال: ألا ترون ما نزل بنا ثم أنشأ يقول:

جاؤوا برأسك يا ابن بنت محمد		مترملاً بدمائه ترميلا
وكأنما بك يا ابن بنت محمد		قتلوا جهاراً عامدين رسولا
قتلوك عطشاناً ولما يرقبوا		في قتلك التأويل والتنزيلا

ويكبرون بأن قتلت وإنما قتلوا بك التكبير والتهليلا

ومن رثاه من قدماء الشعراء عبد اللّه بن الحر الجعفي حين أتى كربلاء ونظر إلى مصرع الحسين (ع) وأصحابه وكان قد دعاه الحسين (ع) إلى نصره فلم يفعل فقال من أبيات:

يقول أمير غادر وابن غادر ألا كنت قاتلت الحسين بن فاطمه
ونفسي على خذلانه واعتزاله وبيعة هذا الناكث العهد لائمه
سقى اللّه أرواح الذي تآزروا على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أطلالهم ومحالهم فكاد الحشى ينقض والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا سراعاً إلى الوغى مصاليت في الهيجا حماة خضارمه
تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
وما أن رأى الراؤون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهر قماقمه

ومن رثاه من قدماء الشيعة جعفر بن عفان الطائي وكان معاصراً للصادق (ع) وقد استنشده الصادق شعره في رثاء الحسين (ع) وأثنى عليه وله في ذلك قصيدة أولها:

ليبك على الإسلام من كان باكياً فقد ضيعت أحكامه واستحلت

ومن رثاه من قدماء شعراء الشيعة منصور النمري من النمر بن قاسط وكان في زمن الرشيد فقال من قصيدة:

متى يشفيك دمعك من همول ويبرد ما بقلبك من غليل
قتيل ما قتيل بني زياد ألا بأبي وأمي من قتيل
غدت بيض الصفائح والعوالي بأيدي كل مؤتشب دخيل
معاشر أودعت أيام بدر صدورهم وديعات الغليل
فلما أمكن الإسلام شدوا عليه شدة الحنق الصؤول
فوافوا كربلاء مع المنايا بمرداة مسومة الخيول
وأبناء السعادة قد تواصوا على الحدثان بالصبر الجميل

أيخلو قلب ذي ورع ودين　　من الأحزان والهم الطويل
وقد شرقت رماح بني زياد　　بري من دماء بني الرسول

وممن رثاه من قدماء شعراء الشيعة دعبل بن علي الخزاعي وكان معاصراً للرضا (ع) فقال من قصيدة:

ألم تر للأيام ما جر جورها　　على الناس من نقض وطول شتات
ومن دول المستهزئين ومن غدا　　بهم طالباً النور في الظلمات
فكيف ومن أنى يطالب زلفة　　إلى الله بعد الصوم والصلوات
سوى حب أبناء النبي ورهطه　　وترك عداهم من هن وهنات
هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه　　ومحكمه بالزور والشبهات
ولو قلدوا الموصى إليه أمورها　　لزمت بمأمون على العثرات
أخي خاتم الرسل المصفى من القذى　　ومفترس الأبطال في الغمرات
نجي لجبريل الأمين وأنتم　　عكوف على العزى معاً ومناة
مدارس آيات خلت من تلاوة　　ومنزل وحي مقفر العرصات
منازل كانت للرشاد وللتقى　　وللصوم والتطهير والصلوات
ديار عفاها جور كل منابذ　　ولم تعف للأيام والسنوات
هم آل ميراث النبي إذا اعتزوا　　وهم خير سادات وخير حماة
إذا لم نناج الله في صلواتنا　　بأسمائهم لم يقبل الصلوات
أفاطم لو خلت الحسين مجندلا　　وقد مات عطشانا بشط فرات
إذا للطمت الخد فاطم عنده　　وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير واندبي　　نجوم سماوات بأرض فلاة
توفوا عطاشى بالفرات فليتني　　توفيت فيهم قبل حين وفاتي
رزايا أرتنا خضرة الأفق حمرة　　وردت أجاجاً طعم كل فرات
بنفسي أنتم من كهول وفتية　　لفك عناة أو لحمل ديات
سأبكيهم ما حج لله راكب　　وما ناح قمري على الشجرات
سأبكيهم ما ذر في الأفق شارق　　ونادى منادي الخير للصلوات

وقال الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع المتوفى سنة ٢٥٠ :

ومما شجا قلبي وأوكف عبرتي ... محارم من آل النبي استحلت

وربات خدر من ذؤابة هاشم ... هتفن بدعوى خير حي وميت

أرد يداً مني إذا ما ذكرته ... على كبد حرى وقلب مفتت

فلا بات ليل الشامتين بغبطة ... ولا بلغت آمالها ما تمنت

وممن رثاه من قدماء الشعراء القاسم بن يوسف الكاتب أحد متكلمي الشيعة وشعرائهم ذكره المرزباني فقال من قصيدة طويلة :

يا ابن النبي وخير أمته ... بعد النبي مقال ذي خبر

ماذا تحمل قاتلوك من الـ ... آصار والأعباء والوزر

ما تنقضي حسرات ذي ورع ... ودم الحسين على الثرى يجري

ودماء إخوته وشيعته ... مستلحمون بجانب النهر

خذلوا وقل هناك ناصرهم ... فاستعصموا بالله والصبر

مستقدمين على بصائرهم ... لا ينكصون لروعة الذعر

يأبون أن يعطوا الدنية أو ... يرضوا مهادنة على قسر

آل الرسول وسر إرته ... والطاهرون لطيب الطهر

حلوا من الشرف اليفاع على ... علياء بين الغفر والنسر

* * *

لا يبلغ المثني مداه ولا ... تحوي المديح مقالة المطري

مأوى اليتامى والأرامل والـ ... أضياف في اللزبات والعسر

لا مانعاً حق الصديق ولا ... يخفى عليه مبيت ذي الفقر

كم سائل أعطى وذي عدم ... أغنى وعان فك من أسر

وتخال في الظلماء سنته ... قمراً توسط ليلة البدر

لا تنطق العوراء حضرته ... عف يعاف مقالة الهجر

وقال الصنوبري معاصر سيف الدولة من أبيات :

يا خير من لبس النبو ة من جميع الأنبياء
وجدي على سبطيك وجـ ـد ليس يؤذن بانقضاء
هذا قتيل الأشقيا ء وذا قتيل الأدعياء
يوم الحسين هرقت دمـ ـع الأرض مع دمع السماء
يوم الحسين تركت با ب العز مهجور الفناء
نفسي فداء المصطلي نار الوغى أي اصطلاء
فاختار درع الصبر حيـ ـث الصبر من لبس السناء
وأبى إباء الأسد أن الأسد صادقة الأباء
وقضى كريماً إذا قضى ظمآن في نفر ظماء
منعوه طعم الماء لا وجدوا لماء طعم ماء

ورثاه الشريف الرضي في القرن الرابع وهو بالحائر الحسيني ولا شك أن لوجوده هناك أثراً مشجياً بادياً على شعره فقال من قصيدة:

وضيوف لفلاة قفرة نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا بحدى السيف على ورد الردى
تكسف الشمس شموساً منهم لا تدانيها ضياء وعلى
وتنوش الوحش من أجسادهم أرجل السبق وإيمان الندى
ووجوهاً كالمصابيح فمن قمر غاب نجم قد هوى
يا رسول اللّه لو عاينتهم وهم ما بين قتل وسبا
من رميض يمنع الظل ومن عاطش يسقى أنابيب القنا
لرأت عيناك منهم منظراً للحشى شجواً وللعين قذا
ليس هذا رسول اللّه يا أمة الطغيان والبغي جزا
جزروا جزر الأضاحي نسله ثم ساقوا أهله سوق الاما
يا قتيلاً قوض الدهر به عمد الدين وأركان الهدى
قتلوه بعد علم منهم إنه خامس أصحاب الكسا
حملوا رأساً يصلون على جده الأكرم طوعاً وإبا

يتهادى بينهم لم ينقضوا　　عمم الهام ولا حلوا الحبا
ميت تبكي له فاطمة　　وأبوها وعلي ذو العلى
لو رسول اللّه يحيا بعده　　قعد اليوم عليه للعزا

وقال الشريف الرضي أيضاً من قصيدة:

يوم حدا الطعن فيه لابن فاطمة　　سنان مطرد الكعبين مطرور
فخر للموت لا كف تقلبه　　إلا بوطىء من الجرد المحاضير
ظمآن يسلي نجيع الطعن غلته　　عن بارد من عباب الماء مقرور
للّه ملقى على الرمضاء غص به　　فم الردى بين أقدام وتشمير
تحنو عليه الربى ظلاً وتستره　　عن النواظر أذيال الأعاصير
تهابه الوحش أن تدنو لمصرعه　　وقد أقام ثلاثاً غير مقبور
أغرى به ابن زياد لؤم عنصره　　وسعيه ليزيد غير مشكور
وود أن يتلافى ما جنت يده　　وكان ذلك كسراً غير مجبور
تسبى بنات رسول اللّه بينهم　　والدين غض المبادي غير مستور
يلقى القنا بجبين شان صفحته　　وقع القنا بين تضميخ وتعفير
من بعد ما رد أطراف الرماح له　　رأي فسيح وقلب غير محصور
والنقع يسحب من أذياله وله　　على الغزالة جيب غير مزرور
أكل يوم لآل المصطفى قمر　　يهوي بوقع العوالي والمباتير
وكل يوم لهم بيضاء صافية　　يشوبها الدهر من رنق وتكدير

وقال الشريف الرضي أيضاً من قصيدة:

ما يبالي الحمام اين ترقى　　بعد ما غالت ابن فاطم غول
أي يوم أدمى المدامع فيه　　حادث رائع وخطب جليل
يا ابن بنت النبي ضيعت العهـ　　ـد رجال والحافظون قليل
إن أمراً قنعت من دونه السيـ　　ـف لمن حازه لمرعى وبيل
يا غريب الديار صبري غريب　　وقتيل الأعداء نومي قتيل

ورثاه محمود الملقب بكشاجم الشاعر المشهور بقوله من قصيدة:

يا بئس للدهر حين آل رسول الـ لـه تـجـتـاحـهـم جـوائـحـه
أظـلـم فـي كـربـلاء يـومـهـم ثـم تـجـلـى وهـم ذبـائـحـه
يـا شـيـع الـغـي والـضـلال ومـن كـلـهـم جـمـة فـضـائـحـه
عـفـرتـم بـالـثـرى جـبـيـن فـتـى جـبـريـل قـبـل الـنـبـي مـاسـحـه
وبـيـن أيـديـكـم حـريـق لـظـى يـلـفـح تـلـك الـوجـوه لافـحـه
إن عـبـتـمـوه بـجـهـلـكـم فـكـمـا يـضـر بـدر الـسـمـاء نـابـحـه
أو تـكـتـمـوا فـالـقـرآن مـشـكـلـه بـفـضـلـهـم نـاطـق وواضـحـه
قـوم أبـى حـد سـيـف والـدهـم لـلـديـن أو يـسـتـقـيـم جـامـحـه
حـاربـه الـقـوم وهـو نـاصـره يـومـاً وغـشـوه وهـو نـاصـحـه
منخفض الطرف عن خطامهم وهـو إلـى الـصـالـحـات طـامـحـه
بـحـر عـلـوم إذا الـعـلـوم طـمـت فـهـي بـتـيـارهـا ضـحـاضـحـه
يـا عـتـرة حـبـهـم يـبـيـن بـه صـالـح هـذا الـورى وطـالـحـه
مـغـالـق الـشـر أنـتـم يـا بـنـي أحـ ـمـد إذ غـيـركـم مـفـاتـحـه

وممن رثاه من قدماء الشعراء الجبري شاعر آل محمد ﷺ فقال من قصيدة:

فهم مصابيح الدجى لذوي الحجى والعروة الوثقى لذي استمساك
وهـم الأدلـة كـالأهـلـة نـورهـا يـجـلـو عـمـى الـمـتـحـيـر الـشـكـاك
يـا أمـة ضـلـت سـبـيـل رشـادهـا إن الـذي اسـتـرشـدتـه أغـواك
لا تـحـسـبـنـك بـريـئـة مـمـا جـرى والـلـه مـا قـتـل الـحـسـيـن سـواك
يـا آل أحـمـد كـم يـكـابـد فـيـكـم كـبـدي خـطـوبـاً لـلـقـلـوب نـواكـي
وإذا ذكـرت مـصـابـكـم قـال الأسـى لـجـفـونـي اجـتـنـبـي لـذيـذ كـراك
وأبـكـي قـتـيـلاً بـالـطـفـوف لأجـلـه بـكـت الـسـمـاء دمـاً فـحـق بـكـاك

وممن رثاه من مشاهير شعراء الشيعة في القرن السادس أبو الفتح محمد بن عبيد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٥٣ فقال من قصيدة:

ولـو أكـرمـت دمـعـك يـا شـؤونـي بـكـيـت عـلـى الإمـام الـفـاطـمـي
على نجم الهدى الساري وبحر الـ ـعـلـوم وذروة الـشـرف الـعـلـي
عـلـى الـحـامـي بـأطـراف الـعـوالـي حـمـى الإسـلام والـبـطـل الـكـمـي
عـلـى الـبـاع الـرحـيـب إذا ألـمـت بـه الأزمـات والـكـف الـسـخـي
عـلـى أنـدى الأنـام يـداً ووجـهـاً وأرجـحـهـم وقـاراً فـي الـنـدي
وخـيـر الـعـالـمـيـن أبـاً وأمـاً وأطـهـرهـم ثـرى عـرق زكـي
لئن دفعـوه ظلمـاً عـن حقـوق الـ ـخـلافـة بـالـوشـيـج الـسـمـهـري
فـمـا دفـعـوه عـن حـسـب كـريـم ولا ذادوه عـن خـلـق رضـي
لـقـد فـصـمـوا عـرى الإسـلام عـوداً وبـدأ فـي الـحـسـيـن وفـي عـلـي
ويـوم الـطـف قـام لـيـوم بـدر بـأخـذ الـثـأر مـن آل الـنـبـي
بـكـتـه الأرض إجـلالاً وحـزنـاً لـمـصـرعـه وأمـلاك الـسـمـي
وغـودرت الـخـيـام بـلا مـحـام يـنـاضـل دونـهـن ولا ولـي
فما عطف البغاة على الفتاة الـ ـحصان ولا على الطفل الصبي
ولا سـفـروا لـثـامـاً عـن حـيـاء ولا كـرم ولا أنـف حـمـي
وسـاروا بـالـكـرائـم مـن قـريـش سـبـايـا فـوق أكـوار الـمـطـي
فـيـالـلّـه يـوم نـعـوة مـاذا وعـى سـمـع الـرسـول مـن الـنـعـي
ولـو رام الـحـيـاة نـجـا إلـيـهـا بـعـزمـتـه نـجـاء الـمـضـرجـي
ولـكـن الـمـنـيـة تـحـت ظـل الـر قـاق الـبـيـض أجـدر بـالأبـي

وممن رثاه الشيخ علي بن الحسين الشهيفيني الحلي من أهل القرن السادس بقصائد كثيرة طويلة أجاد في كثير منها يقول في بعضها:

مـاض عـلـى عـزم يـفـل بـحـده الـ ـمـاضـي حـدود الـبـيـض حـيـن تـجـرد
فـي أسـرة مـن هـاشـم عـلـويـة عـزت أرومـتـهـم وطـاب الـمـولـد
وسـراة أنـصـار ضـراغـمـة لـهـم أهـوال أيـام الـوقـائـع تـشـهـد
الـتـائـبـون الـعـابـدون الـحـامـدو ن الـسـائـحـون الـراكـعـون الـسـجـد
ألـقـت عـلـيـه الـسـافـيـات مـلابـسـاً وكـسـتـه وهـو مـن الـلـبـاس مـجـرد

والسيد السجاد يحمل ضارعاً ويقاد في الأغلال وهو مصفد
يا للرجال لعبد سوء آبق أضحى أسيراً في يديه السيد
لا خير في سفهاء قوم عبدهم ملك يطاع وحرهم مستعبد
متباعدون لهم بكل تنوفة مستشهد وبكل أرض مشهد
كم مدحة لي فيكم في طيها حكم تغور بها الركاب وتنجد
صلى الإله عليكم ما بكرت ورق على ورق الغصون تغرد

وقال الأبوصيري صاحب البردة من جملة قصيدته الهمزية في مدح خير البرية:

يا أبا القاسم الذي ضمن أقسا مي عليه مدح له وثناء
بالعلوم التي لديك من اللـ ـه بلا كاتب لها إملاء
وبريحانتين طيبهما منـ ـك الذي أودعتهما الزهراء
كنت تؤويهما إليك كما آ وت من الخط نقطتيها الياء
من شهيدين ليس ينسيني الطف مصابيهما ولا كربلاء
ما رعى فيهما ذمامك مرؤو س وقد خان عهدك الرؤساء
أبدلوا الود والحفيظة في القر بى وأبدت ضبابها النافقاء
وقست منهم قلوب على من بكت الأرض فقدهم والسماء
فابكهم ما استطعت إن قليلاً في عظيم من المصاب البكاء
كل يوم وكل أرض لكربي فيهم كربلاء وعاشوراء
آل بيت النبي إن فؤادي ليس يسليه عنكم التأساء
آل بيت النبي طبتم فطاب الـ ـمدح لي فيكم وطاب الرثاء
أنا حسان مدحكم فإذا نحـ ـت عليكم فإنني الخنساء
سدتم الناس بالتقى وسواكم سودته الصفراء والبيضاء

وقال عبد الباقي العمري الموصلي البغدادي من قصيدة:

حتى جرى بكربلاء ما جرى وسال حتى بلغ السيل الزبى
ومادت الأرض ومادت السما وانهالت الأطواد فيه كثبا

يوم به الزهراء قد تصعدت ... أنفاسها ودمعها تصوبا
صدوه عن ماء الفرات صاديا ... فاختار من حوض أبيه مشربا
ماذا يقولون غداً لجده ... عذراً إذا عاتبهم وأنبا
كان أبوه سيداً كجده ... للأنبيا والأوصيا قد نصبا
ذبح عظيم أبعد الرحمٰن عن ... رحمته الذي به تقربا
ثغر شريف طالما قبله ... أبو الميامين النبي المجتبى
سل الدعي ابن زياد الذي ... إلى أبي أبي يزيد نسبا
والمصطفى وابنته وصهره ... لمن غدوا جداً وأماً وأبا
واحربا يا آل حرب منكم ... يا آل حرب منكم واحربا
لا عبد شمسكم يساوي هاشماً ... كلا ولا أمية المطلبا

ومن فحول الشعراء المتأخرين الذين أكثروا من رثاء الحسين (ع) فأجادوا وسبقوا، الحاج هاشم ابن الحاج حردان الكعبي، وهو ممن لم يمنعهم من اللحاق بفحول الشعراء المتقدمين أمثال أبي تمام والمتنبي إلا خلو زمانهم عن مثل ما حواه ذلك الزمان ممن يجيز الشعراء بالألوف، فنظم في رثائه عدة قصائد فائقة يقول من إحداها:

يا منزلاً بمحاني الطف لا برحت ... سقيا السحائب منك البان والكثب
إني وإن عنك عاقتني يدا قدر ... ببين جسم فقلبي منك مقترب
لا تحسبن كل دان منك ذا كلف ... فالدار بالجنب لكن الهوى جنب
يا سائق الحرة الوجناء أنحلها ... طي السري وطواها الأين والنصب
علامة بضروب السير أقربها ... منها إلى رأيها التقريب والخبب
عج بي إذا جئت غربي الحمى وبدت ... منه لمقلتك الأعلام والقبب
وحي عني الأولى أقمارهم طلعت ... من طيبة ولدى كرب البلى غربوا
قوم كأولهم في الفضل آخرهم ... الفضل أن يتساوى البدء والعقب
من كل أبيض وضاح الجبين له ... نوران من جانبيه الفضل والنسب
أمت أمية أن تعلو لها شرفاً ... ويصبح الرأس مخدوما له الذنب

فشمرت للوغى فرسانها طرباً | وامتاز بالسبك عما دونه الذهب
حتى إذا سئموا دار البلا وبدت | لهم عياناً هناك الخرد العرب
جلا لها ابن جلا عضب الشبا ذكراً | لا يعرف الصفح إذ يستله الغضب
تأتي على الحلق الماذي ضربته | ولا يقيم عليها البيض واليلب
وباسم الثغر والأبطال عابسة | كأن جد المنايا عنده لعب
لا يسلب القرن إذ يرديه بزته | والليث همته المسلوب لا السلب
ماض بماض إذا استقبلت أمرهما | بدا لعينيك من فعليهما العجب
تلقى الردى في الندى طلق العنان كما | ترى حياة الورى محمولها العطب
يا غيث كل الورى إن عم عامهم | جدب ويا غوثهم إن نابت النوب
والثابت العزم والأهوال مقبلة | والراسخ الحلم والأحلام تضطرب
ما غالبت صبرك الدنيا ومحنتها | إلا انثنت وله من دونها الغلب
ولا تروع لك الأيام سرب حجى | بلى إذا ريعت الأعلام والهضب
أن يصبح الكون داجي اللون بعدك والـ | ـأيام سودا وحسن الدهر مستلب
فأنت كالشمس ما للعالمين غنى | عنها ولم تجزهم من دونها الشهب

وقال الحاج هاشم أيضاً من قصيدة:

آل الرسول ونعم أكـ | ـفاء العلى آل الرسول
خير الفروع فروعهم | وأصولهم خير الأصول
ركبوا إلى العز المنو | ن وجانبوا عيش الذليل
أو ما سمعت ابن البتو | لة لو دريت ابن البتول
إذ قادها شعث النوا | صي عاقدات للذيول
يطوي بها متن الوعو | ر معارضا طي السهول
متنكب الورد الذميـ | ـم مجانب المرعى الوبيل
طلاب مجد بالحسا | م العضب والرمح الطويل
لف الرجال بمثلها | وثنى الخيول على الخيول
وأباحها عضب الشبا | لا بالكهام ولا الكليل

خلط البراعة بالشجا عة فالصليل عن الدليل
للسانه وسنانه صدقان من طعن وقيل
ذات الفقار بكفه وبكتفه ذات الفضول
قل الصحابة غير أن قليلهم غير القليل
من كل أبيض واضح الـ حسبين معدوم المثيل
يمشون في ظلل القنا ميل المعاطف غير ميل
يا ابن الذين توارثوا الـ علياقبيلاً عن قبيل
والسابقين بمجدهم في كل جيل كل جيل
إن تمس منكسر اللوا ملقى على وجه الرمول
فلقد قتلت مهذباً من كل عيب في القتيل
جم المناقب لم تكن تعطي العدا كف الذليل
كلا ولا أقررت إقـ رار العبيد على الخمول
يهدي لك الذكر الجميـ ـل على الزمان المستطيل
يا طف طاف على مقا مك كل هتان هطول

وقال الحاج هاشم أيضاً من قصيدة:

جزى الله قوماً أحسنوا الصبر، والبلا مقيم وداعي الموت يدعو ويخطب
إذ الصارم الهندي خلى سبيله وحاد عن القصد السنان المذرب
وقامت تحامي دونه هاشمية تحن إلى وصل المنايا وتطرب
أتوا في العلى ما ليس يدري فأغربت معاني الثنا في مجدهم حيث أغربوا
ترى الطير في آثارهم طالب القرى متى ضمهم في حومة الحرب موكب
أبادوهم قتلاً وأسراً ومقلة كأن رسول اللّه ليس لهم أب
ففي كل نجد في البلاد وحاجر لهم قمر يهوي وشمس تغيب
بني الوحي يا كهف الطريد ومن بهم يلوذ فينجو الخائف المترقب
منازلكم للنازلين مرابع يريف بها عاف ويخصب مجدب

وقال الحاج هاشم أيضاً من قصيدة:

وأقام معدوم النظير فريد بيـ ـت المجد معدوم النصير فريدا
يلقى القفار صواهلاً ومناصلاً ويرى النهار قساطلاً وبنودا
ساموه أن يرد الهوان أو المنيـ ـة والمسود لا يكون مسودا
فثوى بمستن النزال مقطع الـ ـأوصال مشكور الفعال حميدا

وقال أيضاً من قصيدة:

سبقوا الأنام فضائلاً وفواضلا ومآثراً ومفاخراً وسدادا
ومراتباً ومناقباً ومساعياً ومعالياً وجلادة وجلادا

ورثاه من شعراء الشيعة المتأخرين من أهل القرن الثاني عشر الشيخ عبد الحسين الأعسم النجفي بقصائد على عدد حروف المعجم أجاد فيها ما شاء وكلها في الدر النضيد.

وللفقير مؤلف هذا الكتاب عدة قصائد مودعة في الدر النضيد يرجو ناظمها من كرمه تعالى أن يكون معدوداً من ناصري أهل البيت عليهم السلام بلسانه إن لم يستطع نصرهم بيده.

مدفن رأس الحسين (ع)

اختلف فيه على أقوال ذكرناها في لواعج الأشجان: **الأول**: إنه عند أبيه أمير المؤمنين (ع) بالنجف معه إلى جهة رأسه الشريف ذهب إليه بعض علماء الشيعة استناداً إلى أخبار وردت بذلك في الكافي والتهذيب وغيرهما من طرق الشيعة عن الأئمة (ع)، وفي بعضها أن الصادق (ع) قال لولده إسماعيل إنه لما حمل إلى الشام سرقه مولى لنا فدفنه بجنب أمير المؤمنين (ع) ويؤيده ورود زيارة للحسين من عند رأس أمير المؤمنين عليهما السلام عن أئمة أهل البيت، **الثاني**: إنه مدفون مع جسده الشريف، وفي البحار إنه المشهور بين علمائنا الإمامية رده علي بن الحسين عليهما السلام، وفي الملهوف أنه أعيد فدفن بكربلاء مع جسده الشريف وكان عمل الطائفة على هذا المعنى المشار إليه (اهـ). واعتمده هو أيضاً في كتاب الإقبال، وقال ابن نما الذي عليه المعول من

الأقوال أنه أعيد إلى الجسد بعد أن طيف به في البلاد ودفن معه (اهـ). وعن المرتضى في بعض مسائله أنه رد إلى بدنه بكربلاء من الشام، وقال الشيخ الطوسي ومنه زيارة الأربعين. وقال سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص أشهر الأقوال أن يزيد رده إلى المدينة مع السبايا ثم رد إلى الجسد بكربلاء فدفن معه قاله هشام وغيره (اهـ)، **الثالث**: إنه مدفون بظهر الكوفة دون قبر أمير المؤمنين (ع) رواه في الكافي بسنده عن الصادق (ع)، **الرابع**: إنه دفن بالمدينة المنورة عند قبر أمه فاطمة (ع) وأن يزيد أرسله إلى عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة فدفن عند أمه الزهراء (ع) وأن مروان بن الحكم كان يومئذ بالمدينة فأخذه وتركه بين يديه وقال:

يا حبذا بردك في اليدين ولونك الأحمر في الخدين

والله لكأني أنظر إلى أيام عثمان. حكاه سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص عن ابن سعد في الطبقات. وفي كتاب جواهر المطالب لأبي البركات شمس الدين محمد الباغندي الشافعي كما في نسخة مخطوطة في المكتبة الرضوية عند ذكر أحوال الحسين (ع): وأما رأسه فالمشهور بين أهل التاريخ والسير أنه بعثه ابن زياد الفاسق إلى يزيد بن معاوية وبعث به يزيد إلى عمرو بن سعيد الأشدق لطيم الشيطان وهو إذ ذاك بالمدينة فنصبه ودفن عند أمه بالبقيع، **الخامس**: إنه بدمشق قال سبط ابن الجوزي حكى ابن أبي الدنيا قال: وجد رأس الحسين (ع) في خزانة يزيد بدمشق فكفنوه ودفنوه بباب الفراديس وكذا ذكر البلاذري في تاريخه قال: هو بدمشق في دار الإمارة وكذا ذكر الواقدي أيضاً (اهـ) وفي جواهر المطالب ذكر ابن أبي الدنيا أن الرأس لم يزل في خزانة يزيد حتى هلك فأخذ ثم غسل وكفن ودفن داخل باب الفراديس بمدينة دمشق (اهـ) (ويروى) أن سليمان بن عبد الملك قال: وجدت رأس الحسين (ع) في خزانة يزيد بن معاوية فكسوته خمسة أثواب من الديباج وصليت عليه في جماعة من أصحابي وقبرته (وفي رواية) إنه مكث في خزائن بني أمية حتى ولي سليمان بن عبد الملك فطلب فجيء به وهو عظم أبيض فجعله في سفط وطيبه وجعل عليه

ثوباً ودفنه في مقابر المسلمين بعدما صلى عليه، فلما ولي عمر بن عبد العزيز سأل عن موضعه فنبشه وأخذه والله أعلم ما صنع به (وقال) بعضهم: الظاهر من دينه أنه بعث به إلى كربلاء فدفنه مع الجسد الشريف. وفي جواهر المطالب عن الحافظ ابن عساكر أن يزيد بعدما نصبه بدمشق ثلاثة أيام وضعه بخزانة السلاح حتى كان زمن سليمان بن عبد الملك فجيء به وقد بقي عظماً أبيض فكفنه وطيبه وصلى عليه ودفنه في مقابر المسلمين (وروى) ابن نما عن منصور بن جهور أنه دخل خزانة يزيد لما فتحت فوجد بها جونة حمراء فقال لغلامه سليم: احتفظ بهذه الجونة فإنها كنز من كنوز بني أمية، فلما فتحها إذا فيها رأس الحسين (ع) وهو مخضوب بالسواد فلفه في ثوب ودفنه عند باب الفراديس عند البرج الثالث مما يلي المشرق «انتهى» (أقول): وكأنه هو الموضع المعروف الآن بمسجد أو مقام أو مشهد رأس الحسين (ع) بجانب المسجد الأموي بدمشق وهو مشهد مشيد معظم، **السادس**: إنه بمسجد الرقة على الفرات بالمدينة المشهورة، حكى سبط ابن الجوزي عن عبد الله بن عمر الوراق أن يزيد لعنه الله قال: لأبعثنه إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان، وكانوا بالرقة، فبعثه إليهم فدفنوه في بعض دورهم ثم أدخلت تلك الدار في المسجد الجامع، قال وهو إلى جنب سدرة هناك وعليه شبه النيل ولا يذهب شتاءً ولا صيفاً، **السابع**: إنه بمصر نقله الخلفاء الفاطميون من باب الفراديس إلى عسقلان ثم نقلوه إلى القاهرة وله فيها مشهد عظيم يزار نقله سبط ابن الجوزي (أقول): حكى غير واحد من المؤرخين أن الخليفة الفاطمي بمصر أرسل إلى عسقلان وهي بين مصر والشام فاستخرج رأساً قال إنه رأس الحسين (ع) وجيء به إلى مصر فدفن فيها في المشهد المعروف الآن وهو مشهد معظم يزار وإلى جانبه مسجد عظيم رأيته في سنة ١٣٢١ والمصريون يتوافدون إلى زيارته أفواجاً رجالاً ونساءً ويدعون ويتضرعون عنده وأخذ الفاطميين لذلك الرأس من عسقلان ودفنه بمصر لا ريب فيه لكن الشأن في كونه رأس الحسين (ع) (وهذه) الوجوه الأربعة الأخيرة كلها من روايات أهل السنة وأقوالهم خاصة والله أعلم.

مشهد رؤوس العباس وعلي الأكبر وحبيب بن مظاهر بدمشق

رأيت بعد سنة ١٣٢١ في المقبرة المعروفة بمقبرة باب الصغير بدمشق مشهداً وضع فوق بابه صخرة كتب عليها ما صورته:

(هذا مدفن رأس العباس بن علي ورأس علي بن الحسين الأكبر ورأس حبيب بن مظاهر) ثم إنه بعد ذلك بسنين هدم هذا المشهد وأعيد بناؤه وأزيلت هذه الصخرة وبني ضريح داخل المشهد ونقش عليه أسماء كثيرة لشهداء كربلاء، ولكن الحقيقة إنه منسوب إلى الرؤوس الشريفة الثلاثة المقدم ذكرها بحسب ما كان موضوعاً على بابه كما مر. وهذا المشهد: الظن قوي بصحة نسبته لأن الرؤوس الشريفة بعد حملها إلى دمشق والطواف بها وانتهاء غرض يزيد من إظهار الغلبة والتنكيل بأهلها والتشفي لا بد أن تدفن في إحدى المقابر فدفنت هذه الرؤوس الثلاثة في مقبرة باب الصغير وحفظ محل دفنها والله أعلم.

البناء على قبر الحسين (ع)

أول من بنى القبر الشريف بنو أسد الذين دفنوا الحسين (ع) وأصحابه يظهر ذلك من الخبر المروي في (كامل الزيارة) عن زائدة عن زين العابدين (ع) حيث قال فيه: قد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض هم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة وهذه الجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لقبر سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام (اهـ). ومن قول ابن طاوس في الإقبال أنهم أقاموا رسماً لقبر سيد الشهداء بتلك البطحاء يكون علماً لأهل الحق. ويدل خبر مجيء التوابين إلى القبر الشريف إنه في ذلك الوقت وهو سنة هلاك يزيد (٦٣ أو ٦٤) كان ظاهراً معروفاً ولا يكون ذلك إلا ببنائه. أما تعمير القبة عليه فقد تكرر مراراً.

العمارة الأولى للقبة الشريفة

التي كانت في زمن بني أمية إذ تدل جملة من الآثار والأخبار أنه كان عليه سقيفة ومسجد في زمن بني أمية، واستمر ذلك إلى زمن الرشيد من بني العباس، لكن لا يعلم أول من بنى ذلك، قال السيد محمد بن أبي طالب الحسني الحائري فيما حكي عن كتابه تسلية المجالس وزينة المجالس في مقتل الحسين (ع): كان قد بني عليه مسجد ولم يزل كذلك بعد زمن بني أمية وفي زمن بني العباس إلى آخر كلامه وسيأتي. ويدل الخبر الذي رواه السيد علي بن طاوس في الإقبال عن الحسين بن أبي حمزة أنه كان عليه سقيفة لها باب في آخر زمن بني أمية حيث قال فيه: خرجت في آخر زمن بني أمية وأنا أريد قبر الحسين (ع) إلى أن قال: حتى إذا كنت على باب الحائر خرج إلي رجل ثم قال: فلما انتهيت إلى باب الحائر: فجئت فدخلت. وقال الصادق (ع) لجابر الجعفي في حديث رواه ابن قولويه في كامل الزيارة إذا أتيت قبر الحسين (ع) فقل. وجابر توفي على ما ذكره النجاشي سنة ١٢٨ ومات مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية سنة ١٣٢ فتكون وفاته قبل انقضاء دولتهم بأربع سنين، وروى ابن قولويه في كامل الزيارة عن أبي حمزة الثمالي عن الصادق (ع) في كيفية زيارة الحسين (ع) أنه قال: فإذا أتيت الباب الذي يلي الشرق فقف على الباب وقل. ثم قال: ثم تخرج من السقيفة وتقف بحذاء قبور الشهداء. وهو صريح في أن البناء كان سقيفة له باب من الشرق وقوله: الباب الذي يلي الشرق يدل على وجود باب غيره وفي حديث صفوان الجمال عن الصادق (ع) إذ أردت زيارة الحسين بن علي فإذا أتيت الباب فقف خارج القبة وارم بطرفك نحو القبر وقل. ثم ادخل رجلك اليمنى القبة وأخر اليسرى وقل: ثم ادخل الحائر وقم بحذائه. وقال المفيد في مزاره عند ذكره لرواية صفوان بن مهران فإذا أتيت باب الحائر فقف ثم تأتي باب القبة فقف من حيث يلي الرأس ثم أخرج من الباب الذي عند رجلي علي بن الحسين ثم توجه إلى الشهداء ثم امش حتى تأتي مشهد العباس بن علي فقف على باب السقيفة وقل وروى ابن قولويه بسنده عن أبي

حمزة الثمالي عن الصادق (ع): فإذا أردت زيارة العباس فقف على باب السقيفة وقل ثم ادخل.

هدم الرشيد قبر الحسين (ع)

وبقيت هذه القبة إلى زمن الرشيد فهدمها وكرب موضع القبر وكان عنده سدرة فقطعها. وقال السيد محمد بن أبي طالب الحسيني الحائري فيما حكي عن كتابه تسلية المجالس وزينة المجالس: وكان قد بني عليه مسجد ولم يزل كذلك بعد بني أمية وفي زمن بني العباس إلا على زمن هارون الرشيد فإنه خربه وقطع السدرة التي كانت ثابتة عنده وكرب موضع القبر (اهـ) ويوجد إلى الآن باب من أبواب الصحن الشريف يسمى باب السدرة ولعل السدرة كانت عنده أو بجنبه.

العمارة الثانية

في زمن المأمون. قال محمد بن أبي طالب في تتمة كلامه السابق بعدما ذكر تخريب الرشيد له: ثم أعيد على زمن المأمون وغيره.

هدم المتوكل قبر الحسين (ع)

قال الطبري في تاريخه: في سنة ٢٣٦ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق، فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الوضع وزرع ما حواليه (اهـ) ويعلم من ذلك أنه كان قد بني حوله دور ومساكن وسكن الناس هناك لقوله: إنه أمر بهدمه وهدم ما حوله من المنازل والدور. وروى الشيخ الطوسي في الأمالي عن ابن حشيش عن أبي المفضل الشيباني عن علي بن عبد المنعم بن هارون الخديجي من شاطىء النيل قال: حدثني جدي القاسم بن أحمد بن معمر الأسدي الكوفي وكان له علم

بالسيرة وأيام الناس قال: بلغ المتوكل جعفر بن المعتصم أن أهل السواد يجتمعون بأرض نينوى لزيارة قبر الحسين (ع) فيصير إلى قبره منهم خلق كثير فأنفذ قائداً من قواده وضم إليه عدداً كثيفاً من الجند ليشعث قبر الحسين ويمنع الناس من زيارته والاجتماع إلى قبره فخرج القائد إلى الطف وعمل بما أمر وذلك في سنة ٢٣٧ فثار أهل السواد واجتمعوا عليه وقالوا: لو قتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منا عن زيارته ورأوا من الدلائل ما حملهم على ما صنعوا، فكتب بالأمر إلى الحضرة فورد كتاب المتوكل إلى القائد بالكف عنهم إلى الكوفة مظهراً أن مسيره إليها في مصالح أهلها والانكفاء إلى المصر فمضى على ذلك زمن حتى كانت سنة ٢٤٧ فبلغ المتوكل أيضاً مصير الناس من أهل السواد والكوفة إلى كربلاء لزيارة قبر الحسين (ع) وأنه قد كثر جمعهم لذلك وصار لهم سوق كبير، فأنفذ قائداً في جمع كثير من الجند وأمر منادياً ينادي ببراءة الذمة ممن زار قبره، ثم نبش القبر وحرث أرضه وانقطع الناس عن الزيارة وعمد على تتبع آل أبي طالب والشيعة فقتل ولم يتم له ما قدره (أقول) فيكون ابتداء أمر المتوكل بذلك سنة ٢٣٦ ثم أعاد الكرة سنة ٢٣٧ ثم فعل مثل ذلك سنة ٢٤٧ وفيها قتل المتوكل فكان يمنع من زيارته فيمتنع الناس مدة أو تقل زيارتهم ويزورون خفية ثم تكثر زيارتهم فيجدد المنع إلى أن قتله الله. وقد قال بعض الشعراء في ذلك:

أيحرث بالطف قبر الحسين ... ويعمر قبر بني الزانية
لعل الزمان بهم قد يعود ... ويأتي بدولتهم ثانيه

وقال في تتمة كلامه السابق بعدما ذكر إنه أعيد تعميره على زمن المأمون وغيره قال: إلى أن حكم المتوكل من بني العباس فأمر بتخريب قبر الحسين (ع) وقبور أصحابه وكرب مواضعها وأجرى الماء عليها (اهـ) وكان المتوكل شديد البغض لعلي وأهل بيته عليهم السلام.

العمارة الثالثة

عمارة المنتصر. قال محمد بن أبي طالب في تتمة كلامه السابق بعد ما ذكر تخريب المتوكل القبر الشريف قال: إلى أن قتل المتوكل وقام بالأمر بعده ابنه المنتصر فعطف على آل أبي طالب وأحسن إليهم وفرق فيهم الأموال وأعاد القبور في أيامه (اهـ) وذكر غير واحد من المؤرخين إنه أمر الناس بزيارة قبر الحسين (ع)، وقال المجلسي في البحار إن المنتصر لما قتل أباه وتخلف بعده أمر ببناء الحائر وبني ميلا على المرقد الشريف وأحسن إلى العلويين وآمنهم بعد خوفهم (اهـ) ومر في الجزء الثالث عند ذكر تعمير قبر أمير المؤمنين (ع) إن السقيفة التي كانت على قبر الحسين (ع) سقطت سنة ٢٧٣ وهذه التي بناها المنتصر وبويع له بالخلافة سنة ٢٤٧ وتوفي بعد خمسة أشهر وليست التي بناها الداعي محمد بن زيد التي تأتي لتصريح ابن طاوس في فرحة الغري إنها كانت أيام المعتضد والمعتضد بويع سنة ٢٧٩ وتوفي سنة ٢٨٩.

العمارة الرابعة

عمارة محمد بن زيد بن الحسن بن محمد بن إسماعيل حالب الحجارة ابن الحسن دفين الحاجر بن زيد الجواد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب الملقب بالداعي الصغير ملك طبرستان بعد أخيه الحسن الملقب بالداعي الكبير عشرين سنة وبنى المشهدين الغروي والحائري أيام المعتضد قال محمد بن أبي طالب في تتمة كلامه السابق بعدما ذكر إعادة القبور في أيام المنتصر قال: إلى أن خرج الداعيان الحسن ومحمد ابنا زيد بن الحسن فأمر محمد بعمارة المشهدين: مشهد أمير المؤمنين، ومشهد أبي عبد الله الحسين وأمر بالبناء عليهما (اهـ) وكانت هذه العمارة ما بين (٢٧٩ و٢٨٩) وفي كلام لبعض المعاصرين أنه انتهى منها سنة ٢٨٠.

العمارة الخامسة

عمارة عضد الدولة فناخسرو بن بويه الديلمي قال محمد بن أبي طالب

في تتمة كلامه السابق بعدما ذكر عمارة محمد بن زيد: وبعد ذلك بلغ عضد الدولة ابن بويه الغاية في تعظيمهما وعمارتهما والأوقاف عليهما وكان يزورهما كل سنة (اهـ) وفي كتاب لبعض المعاصرين أنه لما زار المشهد الحسيني سنة ٣٧١ بالغ في تشييد الأبنية حوله وأجزل العطاء لمن جاوره وتوفي سنة ٣٧٢ بعدما ولي العراق خمس سنين وفي زمانه بنى عمران بن شاهين الرواق المعروف برواق عمران في المشهد الحائري.

العمارة السادسة

عمارة الحسن بن مفضل بن سهلان أبو محمد الرامهرمزي وزير سلطان الدولة ابن بويه الديلمي قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٠٧ فيها في ١٤ ربيع الأول احترقت قبة الحسين والأروقة وكان سببه أنهم أشعلوا شمعتين كبيرتين فسقطت في الليل على التأزير فاحترق وتعدت النار (اهـ) فجددها الوزير المذكور وفي مجالس المؤمنين عن تاريخ ابن كثير الشامي أنه بنى سور الحائر الحسيني وقتل سنة ٤٦٠، قيل وهذا السور هو الذي ذكره ابن إدريس في سنة ٥٨٨ في كتاب المواريث من السرائر (اهـ) وهذه العمارة هي التي رآها ابن بطوطة وذكرها في رحلته التي كانت سنة ٧٢٧.

العمارة السابعة

الموجودة الآن أمر بها السلطان أويس الإيلخاني سنة ٧٦٧ وتاريخها هذا موجود فوق المحراب القبلي مما يلي الرأس الشريف وأكملها ولده أحمد بن أويس سنة ٧٨٦ وقد زيد فيها وأصلحت من ملوك الشيعة وغيرهم، وفي عام ٩٣٠ أهدى الشاه إسماعيل الصفوي صندوقاً بديع الصنع إلى القبر الشريف وفي عام ١٠٤٨ شيد السلطان مراد العثماني الرابع القبة وجصصها وفي سنة ١١٣٥ أنفقت زوجة نادر شاه مبالغ طائلة لتعمير الروضة الحسينية وفي سنة ١٢٣٢ أمر فتحعلي شاه بتذهيب القبة الشريفة.

هدم الوهابية قبر الحسين (ع)

في سنة ١٢١٦ جهز سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الوهابي النجدي جيشاً من أعراب نجد، ويقول بعض مؤرخي الإفرنج أنه يقرب من ستمائة هجان وأربعمائة فارس وغزا به العراق وحاصر مدينة كربلاء مغتنماً فرصة غياب جل الأهلين في النجف لزيارة الغدير ثم دخلها يوم ١٨ ذي الحجة عنوة وأعمل في أهلها السيف فقتل منهم ما بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف وقتل الشيوخ والأطفال والنساء ولم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب أو اختبأ في مخبأ ونهب البلد ونهب الحضرة الشريفة وأخذ جميع ما فيها من فرش وقناديل وغيرها وهدم القبر الشريف واقتلع الشباك الذي عليه وربط خيله في الصحن المطهر ودق القهوة وعملها في الحضرة الشريفة ونهب من ذخائر المشهد الحسيني الشيء الكثير ثم كر راجعاً إلى بلاده.

ثورته

خلا الجو لمعاوية بعد مقتل الحسن بالسم، أما زياد بن أبيه فقد تكفل بالقضاء على كل العناصر القيادية في العراق، مستعملاً في ذلك أبشع الوسائل.

وفي المدينة عاشت الارستقراطية العربية في بحبوحة من العيش، عاشت في قصور ناعمة يجلب إليها من كل الأقطار وسائل الترفيه ويعيش في غرفاتها القيان والعبيد ويجلس الأمير في حاشية من صحبه وخدمه والمتزلفين إليه.

وكانت ارستقراطية المدينة تتكون أساساً من الولاة السابقين الذين فروا بمال بيت المال، أو أغدق عليهم معاوية ما شاءت له سياسته ليتقاعدوا ويكفوا يدهم عن السياسة.

ومن كبار المحاربين ذوي الأعطيات الضخمة وأصحاب الثروات الطائلة ومن أبناء هؤلاء جميعاً وأتباعهم، وستصبح المدينة بعد ذلك مكاناً شاعرياً يظهر فيها الغناء والشعر والموسيقى والرقص كأزهى ما كانت عليه مدينة في عصور الازدهار القديمة.

ومن الممكن تصور كيف كانت تفكر هذه الارستقراطية. كانت أحاديث السياسة هي الغالبة، وكان البحث عن مواقع القوى ومراكز التجمع والأنصار هو شغلهم الشاغل في المدينة، كذلك كان الحسين ظاهراً كأكثر الرجال شعبية، وأظفرهم برضاء عامة المسلمين وقواعدهم. وكان هناك أيضاً عبد الله بن الزبير، كما كان هناك سعد بن أبي وقاص، كما كان مروان بن الحكم قطب بني أمية الكبير، كما كان هناك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وغير هؤلاء كثيرون من نفس الطبقة أو أقل قليلاً.

وكل من هؤلاء كان يتطلع إلى الخلافة وينظر إلى السياسة ويفكر فيها من هذه الزاوية. ووراءهم مباشرة يأتي الولاة الذين يستمدون سلطانهم في حكم أمصار ضخمة كالعراق ومصر وغيرهما من الانضمام إلى هذا الفريق أو ذاك.

والنظام الفوقي للدولة يتكون عموماً من هذه الارستقراطية التي تصطرع فيما بينها على السلطة وتكون كل منها تجمعات حولها في مواقع مختلفة تستفيد منها في تدعيم نفوذها، وتتربص باللحظة المناسبة للوثوب إلى السلطة.

ولكن أقوى الأحزاب جميعاً، هو الحزب الحاكم المنتصر، حزب معاوية الذي لم يكن يملك النفوذ فقط، بل يملك القوة الرسمية الضاربة أيضاً. وهي القوة الوحيدة المنظمة. وإذا كانت الارستقراطية العربية المقيمة في المدينة تملك المال الوفير، فإن هذا المال لا يقاس ببيت المال الذي يتحكم فيه معاوية، والذي يجبى إليه من جميع الأمصار التي تخضع لحكم الدولة.

وفي هذا الصراع العنيف من أهل السلطة، كثرت التجمعات، وغلبت المصلحة على كل شيء، ووصلت الأخلاق العامة إلى أقصى درجة في الانحدار.

ورأينا كيف يخرج الرجل من ولاء إلى ولاء في سهولة ويسر، وهو في ولائه الثاني أكثر التزاماً من ولائه الأول، ثم لا يلبث أن ينتقل إلى ولاء ثالث بنفس القوة. على تعارض كل جبهة من هذه الجبهات.

وكان القتل هو أبسط الوسائل التي يستعملها الحكام في هذا الصراع، إذ كان التمثيل بالحثث والصلب على الأشجار، وتقطيع الأيدي والأرجل، وألوان العقاب البدني المختلفة هي لغة الحديث اليومية. أما الوقيعة والدس والتزلف والخيانة والسرقة والنهب فهي السمة العامة لتلك المرحلة.

وفي سبيل السلطة لم يكن الرجل ذو النخوة يخجل من أن يثلم عرضه إذا كان في هذا منفعة.

وقصة زياد بن أبيه قصة غريبة تدعو للتأمل، حيث نسبه معاوية إلى أبيه أبي سفيان ليكون أخاه، مدعياً أن أبا سفيان قد عاشر أمه سمية وهي زوجة رجل آخر فأنجب زياداً منها.

وأغرب ما في هذه القصة أن ادعاء هذه الأخوة تم في مجلس علني رسمي حتى يتحقق الادعاء على روس الأشهاد فلم يخجل منه زياد، موازناً بين مغانم هذه الأخوة وبين ازدراء الناس له. ففضل أخوة الخليفة على سلامة العرض. وزياد كان في أول أمره مع علي.

ثم على يدي زياد لاقى العلويون القتل والصلب والتقطيع، بعد أن عمل لمعاوية، وكأن بينه وبين البشر ثأراً قديماً.

وزياد هو صاحب قصة حجر المشهورة التي قتل فيها ستة من المسلمين الشرفاء لأنهم رفضوا أن يسبوا علياً أمام الناس، فهذا الانتهازي الغريب الذي كان إلى جانب علي كان يدعو الناس فيأمرهم بأن يسبوا علياً حتى إذا امتنعوا أوقع بهم أبشع أنواع العذاب.

وقصة حجر وأصحابه أخذت من كتب التاريخ الإسلامي صفحات كثيرة فكان يؤتى بالرجل منهم بعد أن يحفر قبره أمامه ليعدل عن موقفه فإذا أبى قتل ودفن في قبره المحفور.

والذي فعله زياد هذا يقصر عما فعله بعده ولده عبيد الله بن زياد.

على أن هناك حادثة أخرى تثير التأمل وتكشف عما يستطيع أن يفعله الطموح إلى السلطة بالإنسان وكرامته كما تستطيع أن تكشف عن أخلاقيات معاوية ووجهة نظره إلى الحياة.

فهناك رجل اسمه عبد اللّه بن سلام كان والياً لمعاوية على العراق تزوج من امرأة هي أرينب بنت إسحاق، وقيل أنها كانت أجمل امرأة في عصرها، وأن يزيد بن معاوية رآها فأحبها حتى أمرضه الحب. وعرف معاوية بهذه القصة، وأن المرأة امتنعت على ولده ففكر في أن يطلقها من زوجها ليزوجها من يزيد.

أرسل معاوية إلى عبد اللّه بن سلام فاستدعاه. وعندما جاء قربه إليه ثم فاتحه في أن يزوجه من ابنته، فما كان من الرجل إلا أن طار فرحاً. ولكن معاوية عاد فقال أنه لا ينبغي أن يجمع إلى زواجه من ابنته زوجة أخرى، ولم يفكر عبد اللّه بن سلام إلا قليلاً فطلق امرأته أرينب وبعد الطلاق فوجىء بأن ابنة معاوية ترفض زواجه وأن معاوية رجل متحضر يرفض أن يرغم ابنته على زواج تأباه.

أما أرينب فقد رفضت طلب رسول معاوية، وإنقاذاً للموقف سارع الحسين بزواجها حتى إذا رجع عبد اللّه بن سلام خائباً، ردها الحسين دون أن يقربها.

مثل هذه القصة تكشف عن المدى الذي وصلت إليه أخلاق الناس، وكيف استطاع الحكم أن يفسد هذه الأخلاق حتى يهبط بها إلى هذا المستوى.

وسنجد أن الأخ يخذل أخاه والابن يعق أباه، وأن الخوف والطمع هما المحركان الأساسيان في هذا المجتمع.

وفي هذا الجو المخيف من انهيار القيم فكر معاوية في أن يورث الخلافة في بيته ولم ينقض نصف قرن على الإسلام.

وتروي الكتب القديمة أن معاوية قد أوحي إليه بهذه الفكرة من أحد الدهاة

المتزلفين هو المغيرة بن شعبة، وكان الخليفة قد غضب عليه في أمر من الأمور فأراد أن يشتري رضاءه بهذه الزلفى، وأن يضيف إليها إسهامه في انتزاع البيعة من الولاية التي يحكمها.

ومثل هذه الرواية لا تستبعد في هذه الظروف، والواقع يؤكدها، فقد انتهى الأمر فعلاً إلى خلافة يزيد بن معاوية.

ولكن الغريب أن يزيد هذا كان سكيراً عربيداً متبطلاً. وقصة غرامه بأرينب بنت إسحاق تكشف عن طبيعته المتبطلة المتفسخة. وإنها لجرأة في النفاق من المغيرة بن شعبة هذا، أن يقترحه على معاوية خليفة للمسلمين.

وبدأ معاوية يعمل لتنفيذ الفكرة، غير عابىء برد الفعل الخطير الذي سيحدثه في الرأي العام للمسلمين، فما من مسلم إلا ويعلم سيرة يزيد، وما من مسلم إلا ويرفض أن يتحول الإسلام إلى كسروية أو قيصرية.

ومع ذلك فقد فرض يزيد خليفة على المسلمين وبويع بالخلافة في عهد أبيه.

ولسنا في حاجة إلى تقصي قصة هذه البيعة ولا ما قيل من روايات كثيرة عن الأسلوب الإرهابي الذي اتبعه معاوية، إلا أن الواضح أن الشعب كان في واد والسلطة في واد آخر. وحين يحكم السيف، تضيع الكرامة ويستسلم الناس ويستدعون من أنفسهم كل الكوامن الخبيثة ليعايشوا السلطة القاهرة بأسلحة من طباعها.

وفي بعض فترات التاريخ يبدو الواقع حاداً شديد الحدة. فيخيل للإنسان الذي يعايش هذا الواقع أن كل ما قرأه عن القيم الخيرة، والنزوع البشري إلى الخير، إن هو إلا أوهام كتاب حالمين لم يصدموا بالواقع. فعند احتدام هذا الواقع لا يستطيع الإنسان أن يميز بين الخطأ والصواب.

وحين ينتصر الباطل في أفضح صوره إثر موقعة، ويكتسح الحكم

الإرهابي أمامه كل العقبات، يحدث ما يشبه الوباء العام. وتصبح غالبية الناس جبناء ونهازين وقتلة ومجرمين، حتى يصعب تصديق أن الطبيعة الإنسانية تحتوي على أي إحساس يمت للخير بصلة.

إن نفوس الناس تنهار واحدة إثر الأخرى، والعدوى تنتقل انتقال الوباء المستشري وتفقد البشرية إحساسها بالكرامة، وكأنها هي تحكم على نفسها بالانحطاط إلى أبعد مدى، تعاقب نفسها بما ترتكبه من آثام.

وليست بعد ذلك صراعاً بين قوى ظالمة وقوى مظلومة، إنما هي في الواقع صراع بين القيم الإنسانية العليا والقيم السفلى. ومهما تلبس القوى المتحكمة تصرفاتها من أردية المنطق والعدالة والسياسة فإنها في الواقع تنخر في صميم الكيان البشري، وتوشك أن تؤدي بهذا الكيان إلى الفناء.

وكل سلطة متحكمة ترى دائماً إلى جانب السيف والمال مفكريها الذين يفلسفون التسلط ويبررونه. ولقد كان معاوية يردد كثيراً «يؤتي الملك لمن يشاء» وكأن ملكه قدر إلٰهي، وإن هذا القدر قد اختاره، وبناء على ذلك فكل سلوك له يستمد شرعيته من هذا الاختيار.

ولنا أن نعجب وندهش من تلك الآراء التي تعبر عن نفسها بوقار العلم والموضوعية وبمنطق حتمية التاريخ لتصور المرحلة على أنها مرحلة بناء الدولة وأن معاوية كان رجل دولة. وفي سبيل هذا البناء التزم سياسة واقعية بارعة، في مقابل سسياسات خيالية اتبعها خصومه من أصحاب الدعوة إلى العدل الاجتماعي والكرامة الإنسانية.

وكثر من هؤلاء المؤرخين يرون أن منطق التطور من الوضع القبلي إلى الدولة المركزية، هو الذي يبرر كل ما حدث من جرائم لإنشاء هذه الدولة، ومع ذلك فالدولة لم تعمر بعد ذلك إلا ستين عاماً، ولم تلبث أن انهارت إنهياراً كاملاً.

قوى الثورة

كان صن يات صن الزعيم الروحي للصين الحديثة يقول عقب كل فشل لثورته الوطنية: هذا هو فشلنا الرابع أو الخامس أو العاشر، إلى آخر سلسلة الفشل التي تعرضت لها الثورة الصينية قبل أن تنتصر.

والواقع أن تاريخ البشرية جميعاً هو سلسلة من الثورات الفاشلة حتى تتحقق ثورة ناضجة لا تلبث هي الأخرى أن تتجمد أو تغتصب لتظهر ثورات أخرى تتابع فشلها حتى يتحقق النصر الحاسم.

والثورة ليست سابقة لأوانها أبداً فالشرارة الأولى هي دائماً الإعلان الحاسم بوجوب نقلة أخرى، وهذه النقلة قد تنتظر طويلاً حتى تتحقق، ولكن دون أن تظهر هذه الشرارة، فإن الثورة لا تولد، بل تصبح في حكم العدم.

والثورة ليست مجرد تغيير تنشده وتعمل له مجموعة مقهورة، لتلغي قهرها وتسترد حقوقها، بل هي أعمق من هذا، أنها طريق في سلم التطور الأخلاقي للمجموعة البشرية، وهذا السلم يبدأ من السلوك الفردي في أبسط صوره، إلى السلوك الجماعي للأمة والإنسانية بشكل عام.

وكان الصراع من أجل توزيع الثروة هو ذريعة قانون التطور للوصول إلى مستوى أخلاقي أعلى للمجموعة البشرية.

وآية ذلك أن قادة الثورات لا تحركهم إلى الثورة ضغوط الحرمان أو القهر وحدها، بل قيم إنسانية أعلى من القيم السائدة، بل إن هؤلاء القادة غالباً ما يكونون واقعين تحت ضغوط غير مادية، بل لعلهم في الأغلب لا يعانون من أي ضغط أو حرمان مادي. إن التركيبة النفسية لقادة الثورة تتناقض مع القيم الأخلاقية السائدة في مجتمعهم، فهم يحسون بدوافع قوية للدفاع عن المثل التي أهدرت ويشعرون باختلال الطريق البشري إلى الارتقاء الروحي وأنهم منذورون لإعادة الجماعة الإنسانية إلى الطريق السوي. وكثيراً ما يكون القائد الثوري محكوماً عليه بالاندفاع في طريق الثورة بحيث لا يملك التراجع حتى ولو أراد،

إن طبيعته تدفعه إلى الثورة حتى لحظات الخطر الماحق والعذاب الرهيب.

ولسنا ندري لماذا يختار البطل الثوري الجانب الخاسر في اللحظات الحاسمة حين يكون الاختيار بين أمرين: التراجع الآمن، والعذاب المحقق.

وكما ينطبق هذا على الثائر القائد ينطبق على الثائر الجندي. وعلى المشانق والمقاصل والصلبان وفي حجرات التعذيب الحديثة والقديمة يظهر هذا الجنون المصمم المنتحر. وهو جنون يقابل جنوناً من نوع آخر جنون السلطة الذي يجافي كل قيمة من القيم الإنسانية، جنون وحشي مصمم يثير من الدهشة ما يثيره ثبات الثائر وإصراره.

وأروع لحظات الاستشهاد لا تظهر إلا في لحظات الانحدار الروحية الشديدة وكأن المجموعة البشرية تطلق كل إمكانياتها في هذه اللحظات الشديدة الخطورة.

عندئذ يصبح الصراع الطبقي مجرد ذريعة لتتخطى البشرية هوة الانحدار الأخلاقي.

وأمامنا الكثير من قصص الغدر والخيانة والتوحش في تلك الفترة لتدلنا على مدى ما وصل إليه الانهيار الأخلاقي في تلك الفترة التي عزم فيها الحسين بن علي على التصدي للنظام.

فلقد رأى الحسين كيف تخاذل الأنصار عن أبيه، ورأى ضعف الناس إزاء السلطة والاغراء. ورأى غير ذلك من الحوادث الغريبة التي تشكك الرجل في نفسه.

ومع ذلك خرج الحسين، وهو يحسب أن الناس ما زالوا يطلبون العدل الاجتماعي، وأنه من الطبيعي أن ترفض الكرامة البشرية أن يفرض عليها حاكم سكير عربيد في مجتمع يعتبر السكر والعربدة معصية تستوجب عقاب الله والمجتمع.

والحسين من اللحظة الأولى قد اختار دوره، أو على الأصح قد اختاره دوره. فطبيعته ترفض كل ما يحدث، وهي ترفضه لحد الأزمة، إن السيف والإرهاب يطالبانه بالبيعة ليزيد فلا يبايع ويأوي إلى مكة. وفي مكة يتقاطر حوله الناس يدعونه إلى الخروج وطلب البيعة. ولو لم يطلب إليه الناس ذلك لكان قد خرج أيضاً أو لمات قهراً. فإلى جانب الذين حضوه على الخروج كان هناك الذين يحضونه على إيثار السلامة. وكانوا من أخلص الناصحين له. ومع ذلك لم يقبل السلامة.

جاءته الكتب من العراق بأنه لو وفد عليهم لبايعوه، فاتخذ هذه الكتب ذريعة ليلعب دوره المقدور عليه.

أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى أصحاب هذه الكتب يستطلع الأمر، واستقبل مسلم استقبالاً حسناً ولم يملك الوالي هناك أن يتصدى له، بل كل ما فعله هو النصح. فما أن علم مستشارو الخلافة الدهاة بموقف الوالي حتى اقترحوا عزله وتعيين عبيد اللّه بن زياد ابن أبيه مكانه فجاء عبيد اللّه هذا وهو النموذج المقابل لمسلم وللثوار. رجل السلطة الذي تحكمه طبيعته أيضاً ليوغل في الأثم إلى الدرك الأسفل، ونشبت المعركة سجالاً بين الجبن والشجاعة، وبين اللؤم والنبالة. فهو يفر من وجه الجماهير ويحتمي بالقصر، ثم يظهر في صورة الجبار حين تتفرق الجماهير، ويخلف العهد، ويغري بالمال، ويغري بالسلطة، ويستعمل سلاح الإرهاب والتخويف، حتى يستطيع أخيراً الظفر بمسلم فيقتله قتلة شنعاء ويلقي بجثته من أعلى القصر.

وتأتي كتب مسلم إلى الحسين بأن عشرات الألوف ينتظرونه لمبايعته ويتحرك الحسين فيبلغه ما حدث لمسلم، وبدلاً من أن يتراجع مؤثراً السلامة يقرر المضي إلى العراق، ويمضي الحسين وليس معه إلاّ سبعون رجلاً ونساؤه وأطفاله، محتجاً لنفسه ولأهله ونفره القليل بأنه حين يدخل العراق سيلتف الناس حوله. وكان يعني أن وجوده بينهم سيقضي على خوفهم وتخاذلهم ويردهم إلى

آدميتهم. وهو بذلك يحدد دوره، إنه بعث الروح من جديد ليس أكثر.

وفي هذه اللحظة يكون الحسين قد أدرك الموقف كله فهو يعلم أن جيوش عبيد الله بن زياد قد تعترضه، بل هي تعترضه قطعاً، وعندئذ تكون النهاية.

ولكن الحسين كان يعلم أنه لا بد من فدية ضخمة. فدية تتوهج بالدم وكان هو الوحيد الذي يملك أن يتقدم كفدية تهز الضمير شبه الميت في قلب الأمة.

إن الأمر هنا ليس حنكة سياسية وليس غفلة سياسية، ليس واقعية أو رومانتيكية، إنه أمر واضح تماماً، يرتفع عن مستوى الغفلة أو الخيال أذكى وأشرف رجل في عصره يقدم نفسه ليوغل فيه أعداء القيم العلياء ما شاء لهم انحدارهم كآخر ما يستطيع أن يصل إليه الشر فتكون الصرخة التي توقظ ضميراً خربوه بكل الوسائل.

وهكذا مضى الحسين في طريقه إلى العراق، فتخاذل عنه من تخاذل، واختفى من حوله صغار النفوس، الذين ساروا في مواكبه أول الطريق حين علموا بخروجه إلى البيعة. لم يمض معه إلا هؤلاء الذين تمثلت فيهم الثورية بمعناها العميق، ثورية التغيير الجذري للقيم ذاتها.

وتبلورت القوى الثورية هنا في هذه الجماعة الصغيرة التي تقطع الصحراء، متحدية، مصممة، ليس لها من أمل إلا في أن تعدي الناس بالثورة، وأن تعدي بالذات تلك الجيوش التي قد تقطع عليها طريقها إلى العراق.

وهذا الأمل هو الذريعة التي يتذرع بها الحسين ليحقق هدفه، وهو الشهادة في أكمل صورها.

وفي الطريق يسأل مجمعاً بن عبيد العامري فيجيبه «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس فإن قلوبهم تهوي إليك، وسيوفهم غداً مشهورة عليك».

وفي هذه الجملة تلخيص ذكي للقوى القائمة، فكبراء الناس، هؤلاء الذين يملكون الثروة، لم يعد يهمهم في شيء أن يخرج حفيد النبي، بل لعل خروجه يهمهم من زاوية أخرى، هو أن هذا الحفيد يريد أن يغير مراكز القوى، وأن يعيد توزيع الثروة، وأن يمضي في نفس الطريق الذي مضى فيه أبوه، فهو من هذه الناحية عدو طبقي لا يهمل خروجه في طلب البيعة. إنه الحسين بن علي بن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله، والسلطة قوية ولتفعل ما تشاء.

ولكن السلطة ليست بهذه البلاهة، إنها لا تلقي بدم الحسين على عاتقها وحدها فمن أراد أن يدافع عن ثروته، وعن مركز الاجتماعي فليشترك في دم الحسين.

وسنرى أن رجالاً من هذه الطبقة أهيب بهم أن يشتركوا في قتل الحسين وكانوا بين خوف من غضب السلطة والشك في ولائهم للمصلحة الطبقية الواضحة وبين أن يأثموا بدم الحسين.

على أن الأمر لم تكن له هذه الخطورة فمن قبل قتل علي نفسه، ومن بعده قتل الحسن مسموماً، كما قتل محمد بن أبي بكر. إن الإحساس بالأثم كان إحساساً هيناً يمر بالخاطر مراً سريعاً ولولا أن الحسين بالذات تربى في حجر النبي ولولا أنه رجل يمثل الصورة المثلى للإسلام، لما مر مثل هذا الخاطر بأحد.

ومن الناحية الأخرى فإن سائر طبقات الشعب قد بلغ بها القهر والشك والخوف ما يجعلها تتردد ألف مرة في الثورة. وفي العراق بالذات كان الرجل يؤخذ بمجرد الشبهة، وسيرة زياد ابن أبيه لم تنس بعد، فقد خطب فيهم خطبة خطيرة ورد فيها أنه سيأخذ البريء بالمسيء.

لاقى شعب العراق صنوفاً من الضغط لم يلقها شعب آخر جيلاً وراء جيل، فكيف كان يمكن لهذا الشعب المطحون أن يهب لمساندة الحسين.

والخوف يقضي على كل كرامة وقد استطاع الحكم الأموي أن يزرع الخوف وأن يجعله القوت اليومي للشعب العراقي.

وبهذه الصورة لم يكن لخروج الحسين، إلا معنى واحد هو الشهادة.

التراجع والشهادة

وأي سياسي آخر غير الحسين كان يستطيع تقدير الموقف، وأن يتراجع في الوقت المناسب، أو يرى طريقاً آخر للكفاح. أما التراجع فقد كانت فرصته أمامه حين شارف أرض العراق وجاءته أنباء مقتل رسوله مسلم بن عقيل وانفضاض الناس من حوله.

ومع ذلك فقد استمع باهتمام إلى واحد من صحبه يقول «ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع».

واقتنع الحسين، لم يفكر ولم يتدبر موقفه.. أكان ذاك عن سوء تدبير؟.

لا يستطيع أحد أن يحكم هنا بسوء تدبير الحسين، فهو منذ تحرك من مكة كان يعلم أن الوضع قد بلغ الحد الذي يدفع إلى المواجهة، إلى القتال الصريح، مهما تكن القوة التي تجابهه.

وقد تأكد له الموقف بعد ذلك، حين أرسل قيساً بن مسهر الصيداوي فقتل هو الآخر، ثم عاد فأرسل عبد الله بن بقطر فألقي من شرفات القصر. أي شيء إذن كان يتوقعه؟.

أنه يلح في الاتصال بالشعب، فقد وضع أمله فيه، وإن لم يستطع الاتصال به عن طريق الكتب، إذ كان رسله يقتلون واحداً بعد الآخر فليس هناك إلا أن يتصل بهم بحدث يزلزل كيانهم، أهذا كان تفكير الحسين؟.

ليس من الضروري أن تكون هذه الفكرة واضحة في الذهن، يكفي أن تكون هي الموجه لكل تصرف، وجميع تصرفات الحسين تؤكد أن مثل هذه الفكرة وراءها.

لم يكن أمامه إلا أن يتراجع، وكان له أكثر من مبرر للتراجع، فهؤلاء الذين كتبوا إليه ييستقدمونه انفضوا عن رسوله حتى قتل. وها هو ذا يرسل رسلاً آخرين فلا يكون حظهم خيراً من حظه.

فلماذا لم يتراجع؟ ألأنه كان عليه عندئذ أن يمنح البيعة ليزيد، وكانت هذه في رأيه أكبر الكبائر، أليعتكف في حرم الكعبة، وهل كان ليزيد أن يتحرج عن قتله في قلب الحرم.

ليس أمامه إلا أن يمضي في طريقه فهو يعلم تماماً أن ظهوره أمام الشعب سوف يجمعهم حوله. يعلم كيف يحدثهم وكيف ينزع الخوف من قلوبهم ولكن كيف يصل إلى مداخل العراق، وعبيد اللّه بن زياد يرصد له الجيوش الآن.

إن الموقف لا يصعب تقديره على الرجل العادي.

ومن المؤكد أن الحسين كان محيطاً به من كل جوانبه. وربما خالجه ظن بأن أي جيش سيعترض طريقه لا يلبث أن يلين له حين يخاطبه فيزيل الغشاوة عن عينيه. هذا خاطر لازمه مع خاطر آخر لم يفارقه، وهو أنه مقتول بغير شك، إذ كان يردد أن الموت كتب على ابن آدم..

كان يضع موته في كفة وثقته في الناس في كفة. فهو لم يفقد الثقة في الجوهر الكامن في النفس الإنسانية، ذلك الجوهر النازع إلى الارتقاء الروحي.

ومرة أخرى لم يتراجع الحسين بل مضى في طريقه.

الصدام الأول

لم يكد الحسين بمضي إلا قليلاً حتى التقى عند جبل ذي حسم بجيش من ألف فارس يقوده الحر بن يزيد، وهو أحد الأشراف الذين أشار إليهم مجمع بن عبيد العامري، بل سنرى أيضاً أن اختيار الرجال الذين سيحاربون الحسين تم بدقة حتى تتبلبل أفكار الشعب، فالقائد الذي قاتل الحسين في معركته الأخيرة كان عمر بن سعد بن أبي وقاص، ابن صحابي كبير.

ماذا يقول الشعب عندئذ. . ابن علي بن أبي طالب، يقاتله ابن سعد بن أبي وقاص!!.

وإنه لأمر مثير للدهشة أن يأتمر عمر بن سعد بن أبي وقاص، بأوامر عبيد اللّه بن زياد. ابن فاتح فارس وصحابي رسول الله، يأتمر بأمر ابن زياد مجهول الأب، المشكوك في نسبه!!.

بل إن عمر لا يأتمر بأمر عبيد اللّه فحسب، بل يتملق ويدهن إليه. فحين جيء بمسلم بن عقيل بين يدي عبيد اللّه طلب مسلم أن يفضي بكلمة إلى عمر، وتقدم إليه عمر فهمس مسلم في أذنه مناشداً قرابته أن ينفذ وصيته التي سيفضي لها إليه، وهي أن يرد دينا عليه قد اقترضه من رجل بالكوفة فيبيع سيفه ودرعه ويوفي دينه، وأن يرسل إلى الحسين من يمنعه من المجيء مصححاً رسالة سابقة بأن الناس معه.

إن عمر بن سعد بن أبي وقاص لم يكتم السر الأخير بل بادر فأفشاه لعبيد اللّه بن زياد.

إلى هذا المدى فقد أعاظم الرجال كرامتهم، فإلى أي مدى فقد الشعب المقهور هذه الكرامة؟.

وتقدم الحر بن يزيد فقال للحسين أنه أمر بأن يقدم به على عبيد اللّه بن زياد. لم يجبه الحسين بل أمر مؤذنه أن يؤذن لصلاة الظهر ثم خطب الجميع أصحابه وخصومه على السواء. أو خصومه بوجه خاص: «أيها الناس، أني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس علينا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق. . فقد جئتكم. . فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه».

وكانت لحظة صمت جماعية، لا يدري أحد ما جرى في أذهانهم،

ولعلهم كانوا جميعاً يودون لو يقاتلون من أجله. ولكن الخوف والمصلحة وكل عروض الدنيا كانت تقف دون ذلك.

عندئذ التفت الحسين وقال للمؤذن «أقم الصلاة»، ثم التفت للحر بن يزيد وسأله: هل يصلي كل فريق على حدة؟ فقال الحر: بل نصلي بصلاتك.

وانتهت الصلاة خلف الحسين وبدأ ركب الحسين يتجه وجهته، وبدأ الحر يتعقبه، وكلما اتجه وجهة أخرى حاصره ورده إلى طريق الكوفة. وأخيراً وقف الحسين مرة أخرى يعظهم:

«أيها الناس... إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بعمل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمٰن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلمونني ولا تخذلونني، فإن بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم في أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي، وخلعتم بيعتي، فلعمري ما هي لكم بنكير والمغرور من اغتر بكم، فحظكم اخطأتم، ونصيبكم ضيعتم. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنيني الله عنكم».

ولكن الخطبة أعقبها صمت تام، ثم تقدم الحر يحذره بأنه إذا قاتل فسيقتل، فصاح فيه الحسين «أبالموت تخوفني؟».

واصطبر الحسين، ومضى والحر وراءه يمنعه كلما ابتعد عن طريق الكوفة، والحسين يرفض أن يبدأه بالقتال.

وأخيراً ظهرت طلائع جيش جديد من أربعة آلاف رجل على رأسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص لا أحد غيره!.

وانتهى الأمر بين الطرفين إلى أن حصر الحسين وصحبه في كربلاء. وبدا أن الحرب لا بد أن تقع. فبعد قليل وصل شمر بن ذي الجوشن ليكون رقيباً على عمر بن سعد بن أبي وقاص إذا تخاذل.

وهنا جمع الحسين أصحابه، وقال لهم: «لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيري. ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحداً.. فإذا جنكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم».

ولم يقبل واحد منهم أن يترك الحسين ويهرب بحياته..

ويعود الحسين فيلح في هذا، فلا يخرج من معسكره رجل واحد.

وكانوا سبعين رجلاً بأزاء خمسة آلاف رجل.

عرض عمر بن سعد التسليم فرفض الحسين، بل طلب الاحتكام إلى الشعب.

وحصر الحسين وصحبه عند كربلاء بعيداً عن الماء حيث يحميه جيش عمر بن سعد، واشتد الظمأ بالأطفال والنساء، وحمل الحسين ولده عبد الله ليسقيه بنفسه، ظاناً أن وجوده ومعه الطفل قد يمنع محاصريه من إيذائه، ولكنهم رشقوا الطفل بسهم فسقط صريعاً بين يدي أبيه.. وتمالك الحسين أمام هذا كله نفسه، فإلى آخر لحظة كان يأمل في أن يبعث الروح في هذه الضمائر الميتة.

وتقدم الحسين يخطب الجيش وهو في رداء النبي ﷺ. فإذا بالجيش يحدث من الضجيج والضوضاء ما يغطي على كلامه. ولم يتراجع الحسين، بل ظل صامتاً حتى هدأت ضجتهم ثم انفجر قائلاً: انسبوني من أنا.. هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم؟ أولم يبلغكم ما قاله رسول الله لي

ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة.. ويحكم.. أتطلبونني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته؟».

وقد أحدثت هذه الكلمات أثرها كالسحر؟ وبدأت الرجال من جيش عمر بن سعد تنضم إلى جانب الحسين، وكان أولهم الحر بن يزيد.

وكان الموقف خطيراً فلو انتظر عمر قليلاً لانفرط الجيش كله. كما أنه خشي الرقباء أن يبلغوا يزيد بما حدث، فما كان إلا أن تناول سهمه ورمى به جماعة الحسين، وهو يصيح اشهدوا لي عند الأمير أنني أول من رمى الحسين.

وهكذا بدأ القتال في توتر وسرعة لا تتيح لكلمات الحسين أن تفعل أثرها.

وقاتل الحسين وصحبه قتالاً مجيداً حتى سقطوا جميعاً، وسقط الحسين مثقلاً بجراحه، مصاباً بمائة وعشرين طعنة.. ثم تقدم شمر بن ذي الجوشن فاحتز رأسه.. ثم وطأوا جسده الشريف بخيولهم حتى رضوا ضلوعه ومثلوا به أشنع تمثيل.. وحملوا الرؤوس ومضوا بها على أسنة الرماح إلى عبيد اللّه بن زياد.. ثم إلى يزيد بن معاوية!..

وبذلك انتهت أول جولة للعدل مع الظلم. انتهت بأروع استشهاد وأعظم بطولة. وكانت شهادة الحسين أعظم انتصار للثورة، لأنها تغلغلت في الضمير العربي والإسلامي، وأحيت الضمائر التي خنقها الإرهاب، لتسقط بعد ذلك بستين عاماً فقط.. دولة بني أمية.

أحمد عباس صالح

دولة حسينية

أشهر الدول الحسينية هي الدول الفاطمية التي أنشأت أول ما نشأت في شمال أفريقيا ثم امتدت إلى مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية وجنوب أوروبا ونذكر هنا تلخيصاً موجزاً لبعض شؤونها:

الحسين بن أحمد بن محمد، المعروف بأبي عبد اللّه الشيعي وأبي عبد اللّه المحتسب، لأنه كان، على ما قيل، محتسباً في البصرة، وبأبي عبد اللّه الصنعاني لأنه ولد بصنعاء.

هو المُمَهِّد لقيام الدولة الفاطمية ومُوَطِّد أركانها في شمالي أفريقيا؛ كان مولده في صنعاء وتنقل في أكثر من بلد حتى كان في اليمن، وهناك اتصل بالداعي الفاطمي المعروف بابن حوشب، والملقب بمنصور اليمن، فقرر ابن حوشب إرساله إلى المغرب. وكان قد سبقه قبل ذلك كل من الداعيين الحلواني وأبي سفيان، حيث مهدا أمر الدعوة، ثم ماتا قبل أن يقوم للدعوة نظام حكم وقبل أن تنجح نجاحها المطلوب، لذلك رأينا ابن حوشب بعد موت أبي سفيان والحلواني يُعِدّ أبا عبد اللّه للذهاب إلى أفريقيا ويوصيه قائلاً: «إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطّأة مُمَهّدة لك».

فانطلق أبو عبد اللّه أول ما انطلق إلى مكة في موسم الحج سنة ٢٧٩هـ، (٨٩٢م)، وهناك عمل على الاتصال بحجاج كتامة ليلمّ بمقدار تقبّلهم لما يدعو إليه، فوجد عندهم استعداداً لذلك. وعندما أراد مفارقة مجلسهم سألوه أن يأذن لهم بزيارته، فأجابهم إلى ذلك، فأخذوا يترددون عليه. ثم سألوه إلى أين يقصد بعد الحج فلم يجبهم بأنه إنما يقصد بلادهم، بل أجابهم بأنه يريد مصر. ومصر بطبيعة الحال هي طريقهم، فسرّوا بصحبته ورحلوا جميعاً من مكة، وهو في كل ذلك يخفي عنهم أغراضه. وكان أبو عبد اللّه يتمتع بشخصية قوية وصفات جذابة محببة، وهذا زاد في تعلق الكتاميين به ومحبتهم له، فضلاً عما لمسوا فيه من علم وورع وزهد.

وكان دائم الاستطلاع منهم عن بلادهم والاستخبار عن أوضاعهم، وكان أكثر ما يهمه هو صلتهم بالحكم وصلة الحكم بهم. وعندما سألهم عن أميرهم، قالوا: ليس له علينا طاعة وبيننا وبينه عشرة أيام.

وفي مصر ودعهم أبو عبد اللّه مظهراً العزم على البقاء فيها فشقّ عليهم فراقه وسألوه عن حاجته في مصر، فقال: إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم، فقالوا له: «فأما إن كنت تقصد هذا، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقك».

فأجابهم إلى السير معهم، واستأنفوا السير حتى أصبحوا على مقربة من بلاد كتامة، وقد خرج إلى لقائهم أصحابُهم الذين كانت قد أينعت فيهم التعاليم الفاطمية على يد الدعاة.

ولما وقف القوم على حال أبي عبد اللّه أحلّوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام، ورغبوا في نزوله عندهم واقترعوا أيهم يضيفه. ولما بلغوا أرض كتامة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م) تهافت كل منهم على إنزاله في بيته، فسألهم: «أين فجّ الأخيار[1]؟ فذلوه عليه فقصده، وسار إلى جبل أيكجان،

---

(١) في جبل أيكجان في أرض كتامة، (على مقربة من مدينة قسنطينة)، تعرف بمناعتها وتسكنها قبائل من كتامة.

فنزل بفج الأخيار، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمالي المغرب الأقصى. وعلى الرغم من مساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة، كان مركز أبي عبد اللّه محوطاً بكثير من المصاعب. فقد أثارت مساعدة هؤلاء لدعوته حنق كثير من زعماء المغاربة وفقهائهم. على أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه، لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء، فتكاثر الداخلون في طاعته رغبة ورهبة، وتوافرت جموعه، وقوي أمره واستقام له أمر البربر وعامة كتامة.

ولم يدخر إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ ـ ٢٨٩هـ) صاحب أفريقيا وسعاً في القضاء على دعوة أبي عبد اللّه، فحاول أن يجذبه إليه في أول الأمر، وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها، فلم يجبه أبو عبد اللّه إلى ما طلب، ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة[١]. ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لقتاله. وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٢٨٧هـ أي قبل وفاة إبراهيم الأغلبي بسنتين وكان النصر فيها حليف أبي عبد اللّه. ولكن إبراهيم الأغلبي عول على مواصلة القتال فأرسل جيشاً آخر لم يلبث أن هزم.

وفي سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) بدأت أعمال أبي عبد اللّه الحربية فوقعت في يده عدة مدن. وساعد على تقدمه في الفتح موت إبراهيم بن الأغلب سنة ٢٩١هـ ولحاق ابنه أبي العباس به وتولية ولده زيادة اللّه الذي قضى أيامه في اللهو والترف.

وغدا جماعة أبي عبد اللّه في ذلك الوقت، (سنة ٢٩١هـ)، أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان. واتبع أبو عبد اللّه سياسة تنطوي على الحكمة وبعد النظر وإقرار العدل بين الناس، كما يتبين من هذه الحكاية التي رواها ابن عذاري، وهي أن أبا عبد اللّه لما استولى على مدينة طبنة، سنة ٢٩٣هـ، أتاه والي هذه المدينة مع بعض عمال

---

(١) وردت هاتان الرسالتان في كتاب نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية، ج٢٦، ورقة ٢٦.

الجباية وأعطوه الأموال التي جمعوها من الأهلين، فقال أبو عبد اللّه لأحدهم: من أين جمعت هذا المال؟ فقال: من العشور، فقال أبو عبد اللّه: إنما العشور حبوب وهذا عين، ثم قال لقوم من ثقات ذبنة: إذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أُخذ منه، واعلموا انهم أمناء على ما يخرج اللّه لهم من أرضهم، وسنّة العشور معروفة في أخذه وتفرقته على ما ينصه كتاب اللّه عز وجل، ثم قال لآخر: من أين هذا المال الذي في يدك؟ قال جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم، فقال: وكيف أخذته عيناً وإنما كان يأخذ رسول اللّه من الملّي ثمانية وأربعين درهماً ومن المتوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً؟ فقال له: أخذت العين عن الدراهم بالعرف الذي كان يأخذه عمر رحمه اللّه. فقال أبو عبد اللّه: هذا مال طيب. ثم أمر أحد الدعاة بأن يفرقه على أصحابه. وقال لمن أتاه بمال الخراج: هذا مال لا خير فيه ولا قنى له ولا خراج على المسلمين في أموالهم، ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على أهله. وقبض مال الصدقة من الإبل والبقر والغنم بعد أن قيل له إنها قبضت منهم الأنعام على الأسنان الواجبة في الصدقات، ثم بيعت وجمعت أثمانها، ورضي بذلك وجوّزه. فلما نظر أهل طبنة إلى فعله سروا به ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة. وانتشر فعله في نواحي أفريقيا، فتاقت أنفسهم إليه وكاتبوه ودخلوا في طاعته.

ومما يدل على حسن سياسة أبي عبد اللّه، هذا الحديث الذي داره بينه وبين أخيه أبي العباس حين أراد أن ينشر مذهبه بين الناس عن طريق العنف والإكراه، فمنعه أبو عبد اللّه. يقول النويري: «ولما وصل أبو العباس، أراد أن ينفي عن القيروان من يخالف مذهبه، فقال أبو عبد اللّه: إن دولتنا دولة حجة وبيان، وليست دولة قهر واستطالة، فاترك الناس على مذاهبهم»[١].

---

(١) نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية، ج٢٦، ورقة ٣١.

بعد قيام الدولة

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب المجالس والمسايرات للنعمان بن محمد: «وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز (الفاطمي) بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الأندلس عبد الرحمٰن الناصر الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين، وصوّر ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدول البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز (الفاطمي) لحرب الروم. ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ».

ويقول الدكتور محمد كامل حسين:

«فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية».

وفي هذا الذي قاله الدكتور محمد كامل حسين يتضح لنا الجانب الآخر من الصورة الفاطمية. فإذا كان الفاطميون قد أقاموا الوحدة بعد التجزئة وأنشأوا الجيش الضخم والأسطول الفخم فحموا بذلك العالم الإسلامي من أكبر كارثة كانت ستحل به، فإنهم إلى جانب ذلك قد وضعوا منذ الساعة الأولى لحكمهم خطة هي أن يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة، وخططوا، كما نقول اليوم، لسياسة تعليمية شاملة ترتكز على إنشاء جامعة كبرى، ثم على تفريغ العلماء للعلم وحده، فلا يشغلهم شاغل العيش على الانصراف إلى العلم، ولا يلهيهم الفقر عن التوسع في البحث والدرس، فجعلوا لهم موارد من الرزق تضمن لهم العيش الكريم، ثم أرسلوا يستدعون العلماء من الخارج. وقد

اشتد هذا المنهج واتسع وقوي بعد إقامة الوحدة بضم البلاد الأخرى إلى مصر، وإنشاء القاهرة وإقامة الأزهر وقد تم ذلك على الشكل الآتي:

(١) خصّصوا لكل مذهب من المذاهب الإسلامية في جامعتهم الكبرى، الأزهر، كرسياً لتدريس ذلك المذهب. وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد القريبة منها، وقد عرفنا من عدد الحلقات التي كان ينضم إليها الطلاب مقدار انتشار كل مذهب من تلك المذاهب؛ وعندما يكون عدد حلقات المالكية خمس عشرة حلقة ومثلها عدد حلقات الشافعية، وعندما تكون الحلقات الحنفية لا تتجاوز الثلاث، وعندما نفتقد الحلقات الحنبلية، فمعنى ذلك أنه كان للمذهبين المالكي والشافعي الأغلبية يليهما بفارق كبير المذهب الحنفي، وأن المذهب الحنبلي لم يكن له وجود.

(٢) كان العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي يعانون محنة الفقر وكانت حياتهم مأساة مفجعة، فأرسل الفاطميون يستدعونهم إليهم ويضمنون لهم العيش الكريم. وكأمثلة لما كان يجري نورد أسماء محدودة من كل عصر، إذ يضيق المجال عند ذكر الجميع، والذي يدعو إلى الإعجاب بالفاطميين أن جميع العلماء الذين استدعوهم أو وفدوا إليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين.

فمن تلك الأسماء اسم عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة الذي وفد إلى مصر فأقام أربعين سنة يلقي تعاليم مذهبه. ومنها اسم القاضي أبو الفضل محمد البغدادي إمام الشافعية الذي وفد هو الآخر إلى مصر وأخذ يملي من مذهبه ما شاء اللّه أن يملي حتى مات سنة ٤٤١هـ.

وكذلك أبو الفتح سلطان بن إبراهيم الفلسطيني (٥١٨هـ) وأبو الحجاج يوسف الميروقي (٥٢٣هـ) ومجلي بن جميع المخزومي (٥٥٠هـ) والقاضي علي الموصلي الخلعي (٤٤٨هـ) وأبو محمد عبد اللّه السعدي (٥٦١هـ) وهؤلاء كانوا ممّن ولي القضاء للفاطميين على أنهم شافعيو المذهب.

ومن فقهاء المالكية عرفت مصر الفاطمية أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعّال الذي كانت إليه الرحلة في مصر. وكانت حلقته في الأزهر تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه.

وهناك قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي (٤٢٢هـ) أحد الأئمة المجتهدين في المذهب، والذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم يرَ في المالكية أفقه منه. لقد ضاقت به دنيا العرب والإسلام، فكاد يموت من الجوع في بغداد، فلم يجد إلاّ مصر الفاطمية يحتمي بها، فلما جاءها تدفّق عليه المال وأمروه بالانصراف إلى علمه وبحثه، ولكن الأمر لم يطل به فأصيب بالفالج فقال: «لا إله إلاّ اللّه، عندما عشنا متنا»؛ وعبد الجليل مخلوف الصقلي (٥٤٩هـ) وأبو بكر الطرطوشي (٥٢٥هـ) وغيرهم العديد الوافر.

وقال القلقشندي في صبح الأعشى، (ج٣ ص٥٢٤)، عن الفاطميين:

«كان من سيرهم في رعيتهم استمالة قلوب مخالفيهم، وكانوا يتألفون أهل السنّة والجماعة ويُمَكّنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مُخالفة معتقدهم في ذلك»[1].

وقد حرصنا على أن نختار واحداً فقط من كل فترة تاريخية لنبين أن الأمر قد استمر ولم ينقطع.

ومن أشهر العلماء الذين لجؤوا إلى مصر في عهد الحاكم بأمر اللّه أبو الفضل جعفر وكان مكفوفاً، فأعجب به الحاكم وخلع عليه ولقّبه عالم العلماء.

على أننا، ونحن نشير إلى بعض العلماء الذين احتضنتهم مصر الفاطمية،

---

(١) يقول ريني دوسو في كتابه Histoire et religion des Nousairis: كان عهد الفاطميين عهد رخاء لمصر كما كان عهد تسامح ديني لم ير مثله إلاّ في القليل النادر من عصور التاريخ الإسلامي، وإن القاهرة على عهد الفاطميين أصبحت المركز الرئيسي للعالم الإسلامي.

فإن أشهر واحد منهم هو ابن الهيثم الذي استدعاه الحاكم بأمر اللّه وخرج لاستقباله بنفسه.

وكان الحاكم يأمر بإحضار جماعة من المتخصصين في كل علم، بعضهم من أهل الحساب والمنطق، وبعضهم من الفقهاء والأطباء للمذاكرة بين يديه، فكانت تحضر كل طائفة على انفراد ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم.

ومن أبلغ ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابن أبي أصيبعة: «إنه لما وصل المهذب ـ وكان فاضلاً في صناعة الطبّ ـ إلى الشام من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل لها بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيّما أرباب العلم والفضل، فتوجه إلى مصر فوهبت له الأموال وأقام فيها مكرماً».

لقد تفرد الفاطميون بإنشاء دور الكتب الكبرى في الإسلام وبلغت تلك الدور حداً عجيباً واجتمع فيها ما يثير اليوم دهشتنا. ويكفي أن مكتبة القصر وحدها مثلاً كانت تضم ستمائة ألف وألف كتاب، (٦٠١٠٠٠)، ولتسهيل المطالعة على المراجعين كانوا يقتنون من أُمهات الكتب الكبرى التي تكثر حاجة الناس إليها، كانوا يقتنون منها عشرات النسخ، فقد كان يوجد من تاريخ الطبري وحده ألف ومائتا نسخة منها نسخة بخط ابن جرير نفسه، ومن كتاب العين نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل، إلى غير ذلك من هذا وأشباهه.

وقد توسّع الحاكم بأمر اللّه بشأن دور الكتب العامة وحرص على تسهيل وصول جميع طبقات الشعب إليها، فقد قال المسبحي، وهو يتحدث عن مكتبات القصر، إن بعضها كان في خزائن القصر البرانية. ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه الخزائن البرانية هي التي أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥هـ وسماها دار العلم وحمل إليها من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله قط مجتمعاً لأحد من الملوك. وقد أباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم.

وننشر فيما يلي ملخصاً لبحث الدكتور كامل حسين:

«ومن مآثر الفاطميين التي لا يزال المسلمون يستفيدون منها حتى اليوم جامعة الأزهر وقد شرع القائد الفاطمي جوهر في بناء الأزهر بأمر المعزّ عندما شرع في بناء مدينة القاهرة يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ وتم بناؤه في التاسع من رمضان سنة ٣٦٣هـ، ثم جدّد فيه العزيز باللّه والحاكم بأمر اللّه، ثم جدّده المستنصر باللّه والحافظ لدين اللّه. وكان هذا المسجد محلّ رعاية الخلفاء الفاطميين وعنايتهم فلم يقصّروا في تجديده والزيادة فيه ووقفوا لمؤذّنيه وخدمه وسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو مذكور في كتب التاريخ. والذي يهمّنا الآن أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتحلّق في هذا المسجد واتخذوا منه جامعة علمية تعدّ بحقّ أقدم جامعة عرفها التاريخ. وفيه كان داعي الدعاة يعقد مجلساً للنساء يلقي عليهن من علوم أهل البيت»[١].

ويقول القلقشنديَ إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز باللّه في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق وبنى لهم داراً بجانب الجامع الأزهر[٢].

وقد ورد أنه سنة ٣٨٣هـ رُتِّبَ رجل جعفري للجلوس في الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت فشغب عليه الفقهاء من أهل الجامع، (من غير الشيعة)، فبلغ ذلك القاضي فقبض على بعضهم. فمن هذا النص نستطيع أن نتبين أنه كان بالجامع فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية، وأنهم كانوا يفتون على حسب مذهبهم وعقيدتهم، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الجعفري شغبوا عليه فاضطر القاضي إلى أن يقبض على بعضهم. لقد شغبوا عليه ولم يتسامحوا معه مثلما تسامحت الدولة معهم.

أضف إلى ذلك أن مصر عرفت في العصر الفاطمي عدداً من فقهاء الشافعية والمالكية، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد بن بندار أبو

---

(١) الخطط.

(٢) الكندي.

يوسف القزويني شيخ المعتزلة وأقام بها أربعين سنة[١] يلقي تعاليمه التي تخالف تعاليم الفاطميين.

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا أن عدداً كبيراً من علماء مذاهب السنّة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية.

وأنشأ الفاطميون ما عرف باسم المحول، وهو أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث، وكان يؤم المحول الخاصّة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس[٢]. ولم يكتف الخُلفاء الفاطميون بأن يكون المحول جزءاً من قصرهم بل نراهم يهتمّون اهتماماً خاصّاً بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين؛ فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم في ذلك الوقت. ويقول المقريزي نقلاً عن ابن طي بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر: «ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا». ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت فى القاهرة بالقصر، ومن عجائبها أنّه «كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك، ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب»[٣]. ويقول المقريزي: «ومما يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد». ويُروى عن المسبحي أن عدد الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة بعضها داخل القصر وبعضها في خزائن القصر البرانية. وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلّدات في كل فنّ من فنون العلوم. ويقال إن العزيز بالله ذكر عنده كتاب العين للخليل ابن أحمد فأمر

---

(١) النحوم الزاهرة.

(٢) المجالس والمسايرات.

(٣) المقريزي، سبق الاستشهاد، ج٢، ص٢٥٥.

خُزّان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه. وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز خازنه فأخرج له من الخزانة ما ينيف عن العشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير... إلخ[١]. ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فنّ وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس في كل علم، وذلك تشجيعاً للعلم والعلماء. ولا غرو في ذلك فإن مذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل والاستزادة من جميع العلوم والآداب.

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم.

ويصف الدكتور محمد كامل حسين بدء النكبات، وكيف أن جلود هذه الكتب أخذها العبيد والإماء برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم وأُحرق ورقها، وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصارت تلالاً باقية تعرف بتلال الكتب[٢]. وينتهي الدكتور إلى القول: أبادها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين، وكذلك ضاعت كنوز الفاطميين بيد التعصّب الممقوت[٣].

أما المكتبات التي عبر عنها المسبحي بـ«البرّانيّة» فأُرجّح أنها كانت

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يقول الدكتور محمد الرميحي في مجلة العربي، (العدد ٤٢٦ ـ أيار/ مايو ١٩٩٤ ص٢٢): «كان اندفاع الفاطميين في مصر نحو عشق الكتاب غريباً...» إلى أن يقول: «وقد أنشأ خليفتهم العزيز باللّه في عام ٩٧٥م أوّل مكتبة شهيرة داخل قصره، وكانت من الضخامة بحيث إنّها ضمّت ٦٠٠ ألف كتاب مخطوط مقسّمة إلى أربعين قسماً. ثُمّ ما لبثت أن أنشئت أيضاً دار الحكمة القاهرية، وهي لم تكن أرففاً لاحتواء الكتب فقط ولكنّها كانت تضمّ داخلها جيوشاً من المترجمين والعلماء والنسّاخين، وكانت بذلك جامعةً متخصّصةً لإنتاج الكتب.

ومثلما شهد العصر الفاطمي ازدهار المكتبات القاهرية شهدت نهاية هذا العصر انهيارها بفعل النهب والحرائق واللامبالاة.

كالمكتبات العامة في عصرنا هذا ولعلها هي التي أنشأها الحاكم بأمر اللّه سنة ٣٩٥هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءاً من قصره. وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم يُرَ مثله مجتمعاً قط لأحد من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممّن يؤثر، فجلس فيها القراء وعلماء الفلك وأصحاب النحو واللغة والأطباء وغيرهم، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي لم يسمع بمثلها، من إجراء الرزق الكثير لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافتهم وفنونهم العلمية، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق[1]. فدار العلم إذاً كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم، وكثيراً ما كانت تقام المناظرات بين علمائها. من ذلك ما رواه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة اللغوي النحوي قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحاق علي بن سليمان المعري النحوي، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات. ويروي المقريزي عن المسبحي أنه سنة ٤٠٣هـ أمر الحاكم بأمر الله بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد، وجماعة من الأطباء إلى حضرته، للمناظرة بين يديه، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم.

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل أعمى يقال له أبو الفضل جعفر[2]، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخلع عليه ولقّبه بعالم العلماء، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة، ومنهم أبو بكر

---

(١) الخطط للمقريزي.

(٢) هو واحد ممن جذبتهم حرية الرأي وتكريم العلم إلى القاهرة عاصمة الفاطميين فلقي فيها هذه الرعاية.

الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يقيما بدار العلم ويلقيا دروساً في المذهب المالكي[1].

فهذا كله إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكتبتها، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل. فالفاطميون كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي امتازت بها المدنية الحديثة في أيامنا هذه.

وبلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها وكثرة المؤلفات في كل فنّ من فنون العلم.

وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب، وقد أوقفوا أرزاقاً ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أهّلوا أنفسهم له، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشؤون العلماء أسبق ممّا هو عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قدرهم ولم توفّهم حقهم، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولاً، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول. وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن الكتب في القصر وفي دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطّلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع الخليفة المعز يقول: «إننا لنسرّ بمن نراه من أوليائنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير كما نسرّ بذلك في الولد». ففي ظلّ هؤلاء الخلفاء، وعلى ضوء ما ذكره المعز، وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ويحميهم من الفاقة، بل وجدوا ما يشجّعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف.

ويذكر المؤرّخون عدداً من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والفاطميين بالخير.

---

(١) النجوم الزاهرة.

فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح أنظار العلماء ومحطّ رحال الطلاّب. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط أراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشيعة بعامة، وعلى الفاطميين بخاصة، يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها. وأقرب مثل نقدمه لذلك هو الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه القسطاس المستقيم والمنقذ من الضلال والمستظهري وغيرها، ولكنه وفد على مصر الفاطمية في أواخر حياته ووضع فيها كتابه مشكاة الأنوار.

ويسترسل الدكتور محمد كامل حسين في الحديث معللاً هذا بقوله:

ويخيل إليّ أن السبب الذي من أجله شجّع الخلفاء الفاطميون العلم والعلماء أن المذهب الشيعي نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء، فلا غرو إن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذي هو دعامة من دعائم العقيدة الشيعية.

وكان الفاطميون يهتمّون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد. فالفكر اليوناني وجد ترحيباً من الفاطميين وتوسعوا في دراسته، وقد اهتموا بالعلوم الفلسفية واصطنعوا كلّ من عُرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة، وقد كاتب العزيز باللّه جبرائيل بن يختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر[1]. وأرسل الحاكم بأمر اللّه إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب. وأرادوا حمل أبي العلاء المعرّي إلى مصر واعدين بأن يبنوا له دار علم يكون متقدّماً فيها، وسمحوا له بخراج معرّة النعمان، ولكن أبا العلاء اعتذر. وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية، فأبو الفتوح منصور بن مقشر كان طبيباً للعزيز والحاكم بأمر اللّه ومن المقرّبين إليهما، وبعد

(١) أخبار الحكماء للقفطي.

وفاته استطبّ الحاكم إسحاق بن نسطاس وهما من غير المسلمين، ولكن الفاطميين أغدقوا عليهما وعلى غيرهما من الأطباء والفلاسفة الأموال والخلع والألقاب، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم.

وإذا درسنا الحياة العقلية في العالم الإسلامي في القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثّرين بالآراء الشيعية، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة. فابن حوقل كان متشيّعاً لهم حتّى قيل إنه كان من دعاتهم، والفارابي مثلاً في حديثه عن القلم واللوح يكاد يتحدّث بلسان دعاة الفاطميين[١] ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد. وابن سينا قيل إنه إسماعيلي المذهب وإن أباه كان أحد دعاتهم فنشأ متأثراً بعقائدهم[٢]. وجماعة إخوان الصفا الذين يُرَجّح أنهم ازدهروا في ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيّع[٣]، وظهرَ في رسائل إخوان الصفا تشيّعهم، وابن الهيثم كان متصلاً بالحاكم بأمر اللّه الفاطمي وعاش في كنفه، وأبو العلاء المعرّي حكيم المعرّة كان متأثراً تأثراً تامّاً بهذه الآراء التي كانت تحيط به، فقد امتدّ ظلّ الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين، كما انتشرت في كلّ البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم؛ فترى في أشعار أبي العلاء وكتابته كثيراً من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر[٤]. ونذكر أحمد حميد الدين الكرماني، فيلسوف الدعوة وحجّتها في العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل وكتاب المصابيح وكتاب الهادي والمهتدي وكتاب الأقوال الذهبية وغيرها التي تدلّ على أن الكرماني فيلسوف ناضج التفكير، ونذكر المؤيّد في

---

(١) الصحيح أن يقال: إنّه كان يتحدّث بلسان الشيعة، فالفارابي كان شيعياً صريحاً.

(٢) ابن سينا كان شيعياً كالفارابي.

(٣) لا يمكن أن يقال إن البويهيين كانوا يميلون إلى التشيّع، كما ذكر هنا الدكتور محمد كامل حسين، بل إنّ البويهيين كانوا من أعرق الناس في التشيع.

(٤) شعر أبي العلاء يدلّ على نزعة شيعية متأصّلة فيه.

الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها. وهكذا نستطيع أن نتتبّع كثيراً من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية وكان لهم فضل تقريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة.

وهكذا نرى أن الفاطميين لم ينسوا العلوم الفلسفية، ونقصد بذلك جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى والتي تضمنتها رسائل أخوان الصفا من رياضيات وموسيقى وطبّ وتنجيم وطبيعيات وإلٰهيّات ومنطق وغير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والتي لا يستحقّ طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألمّ بها جميعاً، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد، قبل كلّ شيء، على العلم وتمييز الإلٰهيّات من الطبيعيات، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها.

ولعلّ أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الحسن ابن الهيثم الذي قال عنه الأستاذ محمد رضا مدور: «إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغالياً إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبة تضاهي مرتبة إينشتين في عصرنا هذا».

ويقول عنه الأستاذ مصطفى نظيف: «إن ابن الهيثم[١] قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علماً جديداً، فهو قد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالأصول التي نراها الآن».

ولكن ذنب ابن الهيثم أنه كان في مصر الفاطمية فلقيت تعاليمه وآراؤه ما

---

(١) لمّا استقدمه الحاكم بأمر الله إلى مصر وأقبل على القاهرة خرج الحاكم لاستقباله بنفسه مع كبار رجال دولته عند قرية على باب القاهرة كانت تعرف بالخندق، ثمّ أمر بإكرامه وأن ينزل في ضيافته (راجع أخبار العلماء للقفطي).

لقيت مصر الفاطمية كلّها بسبب تعصّب من آتى بعد الفاطميين، فكلّ عالم من علماء الفاطمية يجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه، وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء.

وظهر في مصر، في هذا العصر، عدد كبير من الأطباء، والطبّ كما نعلم كان معدوداً في ذلك العصر من علوم الفلسفة، وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفقه، وكثرة التآليف حوله. وقرّب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما أوقفوه لهم من مرتبات شهرية، مما حمل عدداً من الأطباء أن يفدوا إلى مصر من كلّ مكان كالطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي الذي جاء من القدس، والطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف باليبرودي الذي جاء من دمشق، والطبيب أبو الحسن المختار بن الحسن المعروف بابن بطلان البغدادي الذي جاء من العراق، وغيرهم. ومن أشهر من وفد على مصر من غير الأطبّاء الفيلسوف أمية بن أبي الصلت الأندلسي وكان إلى جانب علومه الفلسفية شاعراً فحلاً وأديباً ممتازاً.

وهكذا نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفلسفية ازدهرت في العصر الفاطمي ازدهاراً لا نجد له مثيلاً في الأقطار الإسلامية الأخرى، بل نجد أنّ غير الفاطميين كانوا يميلون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة إلحادية، وأن القائمين بها من العلماء زنادقة، ولكن الفاطميين كانوا أوسع أفقاً في تفكيرهم[1].

ويختم الدكتور محمد كامل حسين الكلام بقوله:

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في

---

(١) هذا ما ذكره الدكتور محمد كامل حسين في هذه الناحية خاصّة، وغنيّ عن البيان أنّه إذا كان هذا مقدار ازدهار مثل هذه العلوم عند الفاطميين، فإنّ العلوم الأخرى من لغة ونحو وتاريخ وأدب وشعر وحديث كانت على غاية ازدهارها ونضجها.

نموّ مطّرد في كلّ نواحيها وألوانها وفنونها، وتعدّدت مراكزها في مصر، وكانت حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتنيس في الشمال وفي أسوان وقوص وغيرها في الجنوب، كما كان أمراء الأقاليم يجمعون حولها العلماء والشعراء. وعن مصر الفاطمية أخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب.

وبعد أن يتحدّث الدكتور حسين عن الحياة الأدبية يقول: «ولكن هذه الموجة الفنيّة التي طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية، فضاع الشعر ولم يبق منه إلاّ اسم الشاعر أحياناً إن قُدِّر لاسمه البقاء. ونحن لا نتردّد في اتهام الأيوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصري لتعمّدهم أن يمحوا كل أثر أدبي يمتّ للفاطميين بصلة، فقد أحرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر».

ويقول الأستاذ حسن عبد الوهاب من مقال له في مجلّة الكتاب، الجزء الثالث من السنة الثانية الصفحة ٢٨١ عن العلم في عهد الفاطميين:

«في الوقت الذي خصّصوا (الفاطميون) فيه حلقة لدرس فقه الشيعة في الجامع الأزهر، كان جامع عمرو بن العاص معقلاً للحديث والمذاهب السنّية، فقد بلغت حلقات التدريس فيه في نهاية القرن الرابع مائة حلقة وعشر حلقات يتزعّمها أئمّة الفقهاء والقرّاء وأهل الأدب».

ثم يُشير بعد ذلك إلى من ارتحل من خارج مصر إلى الاسكندرية فاستقرّ بها.

وقال الدكتور علي إبراهيم حسن في الصفحة ٢٤٠ من الجزء ٨، السنة الأولى، من مجلة الكتاب: «في زمن الفاطميين بلغت مصر حالة من الثراء والرخاء أصبحت معها مضرب الأمثال في سائر الأقطار».

ويقول حسن عبد الوهاب في الجزء الثالث من السنة الثانية عن

الاسكندرية في عهد الفاطميين: «كان في الاسكندرية علماء أعلام محدثون ناصروا السنّة وكانت الرحلة إليهم. كما أن الحافظ السلفي دخل الاسكندرية وبها علماء أجلاّء نشأوا فيها، وآخرون رحلوا إليها واستوطنوها وكان لهم أثر كبير في نهضتها العلمية فأخذ عنهم وأخذوا عنه، منهم العلاّمة ابن مطر وابنه، سمع عليهما خلف بن محمد الخولاني المتوفّى سنة ٢٧٤هـ (٩٨٤م) ومحمد بن ميسر فقيه الاسكندرية في النصف الأوّل من القرن الرابع الهجري، وعبد الرحمٰن بن عوف بن عمرو العلاّف، سمع عليه عبيد بن محمد القرطبي المتوفّى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠١م) وابن عبّاد الاسكندراني، وكان من شعراء القرن الخامس الهجري، (الحادي عشر الميلادي)، ومحمد بن الخمشي المتوفى في حدود الخمسمائة، وابن مكنسة الاسكندراني إسماعيل بن محمد المتوفّى في حدود الخمسمائة وكان شاعراً، وأبو منصور ظافر بن القاسم المعروف بالحدّاد المتوفّى سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م) وابن الفحّام عبد الرحمن بن أبي بكر بن عتيق بن خلف الصقلي المقرىء المجوّد، وله مصنفات في التجويد والقراءات السبع، وكان من شيوخ القرّاء توفّي في سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م)، وسند الاسكندرية ابن الخطاب محمد بن إبراهيم الرازي ثمّ المصري المعدّل الشاهد سند الديار المصرية وشيخ الاسكندرية المتوفّى سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م)، والإمام الطرطوشي محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الصوفي المالكي، كان عالماً زاهداً، حوّل قسماً من داره إلى مدرسة فوفد عليه العلماء والطلاّب مدّة حياته إلى أن توفّي سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م)، وأبو القاسم بن مخلوف المغربي ثمّ الاسكندري، أحد علماء المالكية تفقّه به أهل الاسكندرية إلى أن مات سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م)، والحافظ المقدسي أبو الحسن علي بن أبي المكارم المالكي، كان فقيهاً فاضلاً من أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه توفي سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) وغيرهم».

ويقول علي مصطفى مشرفة في مجلة المقتطف، (م١٠٦ ج٤)، إنه

يخالف ابن خلدون والسيوطي «من أن الفاطميين ضغطوا على المذاهب الأخرى بما ذكره السيوطي نفسه من أن أبا بكر النعماني إمام المالكية كانت تدور حلقته في الأزهر على ١٧ عموداً وكان للمالكية ١٥ حلقة، وللشافعية مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط» ثم يورد شواهد كثيرة.

وعندما علم الفاطميون بما عليه الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي من الفقر في بغداد، وهو الذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم يُر في المالكية أفقه منه ـ عندما علموا بفقره المدقع استدعوه إلى مصر كما كانت خطّتهم باستدعاء العشرات أمثاله كما ذكرنا في المجلد الثالث.

يقول ابن خلّكان واصفاً وداع البغداديين له عندما علموا بعزمه على الرحيل إلى القاهرة، ناقلاً ذلك عن ابن بسام في كتاب الذخيرة:

«وحُدِّثت أنه شيّعه حين فصل عن بغداد من أكابرها وأصحاب محابرها جملة موفورة وطوائف كثيرة، وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كلّ غداة وعشية ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية.

«واجتاز في طريقه إلى مصر بمعرّة النعمان فأضافه أبو العلاء المعرّي. وفي ذلك يقول:

والمالكيُّ ابن نصرٍ زار في سفر ... بلادنا فَحَمِدْنا النأيَ والسَّفَرا
إذا تفقّه أحيا مالكاً جَدَلاً ... وينشرُ الملك الضِّلّيلَ إنْ شَعَرا

وقال الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما المعز لدين الله: «أبلى الفاطميون بلاء حسناً في إصلاح حال رعيّتهم وفي النهوض بدولتهم ليس في بلاد المغرب فقط بل في مصر أيضاً. فقد كانوا يتوخّون الإصلاح ويهدفون إلى توحيد كلمة العالم الإسلامي بوجه عامّ وكلمة العالم العربي بوجه خاصّ، الأمر الذي يجعلنا نقطع بأن المعزّ لدين الله يعتبر من أكبر المصلحين المسلمين ومن أكبر أنصار الوحدة العربية والإسلامية.

وفي الحقّ أن فكرة جمع العالم الإسلامي وتوحيده تحت راية العلويين فكرة متأصّلة في نفوس هؤلاء منذ أيام علي بن أبي طالب نفسه. فقد وجد الكثير من الشيعيين بأن عليهم رسالة تحتم عليهم جمع كلمة المسلمين ولمّ شملهم تحت لواء واحد، لا سيّما بعد أن بدأ التفرّق يسود هذا العالم الكبير في العصر العبّاسي الثاني، حيث أسلس العباسيون قيادهم للغرباء. ومعنى ذلك أن الفاطميين كانوا أسبق الناس إلى المناداة بالوحدة العربية.

والشيء الذي يلفت النظر حقّاً في أمر الفاطميين وأجدادهم هو تركيزهم الجهود في جمع كلمة العالم العربي أولاً، ثم العالم الإسلامي ثانياً. لذلك نراهم في دور استتارهم يتّخذون من البلاد العربية مكاناً لاختفائهم، حتّى إذا أتيحت لهم الفرصة ظهروا لتحقيق أملهم في سيادة العالم الإسلامي، فنرى عبيد اللّه الجهري[1] وأسلافه يتّخذون من سلمية في سوريا مستقراً ومقاماً، وينشرون دعاياتهم في العالم العربي وفي سائر العالم الإسلامي. ومع ذلك كان المهدي وأسلافه قد عقدوا العزم على قيام الدولة الفاطمية في البلاد العربية ولم يفكروا في إقامة دولتهم المنشودة في غيرها برغم كثرة أشياعهم فيها. وإنما عوّلوا على إقامتها في اليمن، ولما استحال عليهم ذلك قصدوا المغرب وأقاموا دولتهم فيه. وفي تعبير آخر كان الأئمّة الفاطميون في دور استتارهم يعتمدون على العرب في تأسيس دولتهم التي يرمون من ورائها إلى سيادة العالم العربي فالعالم الإسلامي.

ولم يلبث المعز لدين اللّه أن وحّد بين تونس وبين المغربين الأوسط والأقصى، (الجزائر والمغرب)، ثم أخذ يوجّه جهوده نحو المشرق فأخضع المغرب الأدنى، (ليبيا)، ثم وجّه همّه لضمّ مصر إلى شمال أفريقيا ليكتمل بها عقد الوحدة العربية الأفريقية.

(١) الصحيح أن اسمه عبد اللّه لا عبيد اللّه.

نعم كان الفاطميون قوماً تقدّميين على الرغم من الاتهامات الكثيرة التي رماهم بها أعداؤهم، وكانوا يقصدون الوحدة الإسلامية والوحدة العربية على حدّ سواء. ولكن اهتمامهم بالوحدة العربية سبق اهتمامهم بالوحدة الإسلامية، لأنهم لو استطاعوا توحيد العالم العربي لأمكنهم توحيد سائر العالم الإسلامي، ولأعادوا للعروبة مجدها وللإسلام عزّته. وهذا يفسّر لنا لماذا أتّم المهدي توحيد بلاد المغرب ثم قصد إلى مصر وبعث إليها بثلاث حملات، كما حاول أن يجتذب الإخشيد إليه بزواج وليّ عهده القائم من ابنته.

استطاع المهدي، برغم إخفاقه في إتمام فتح مصر، أن يورث خلفاءه من بعده مهمّة توحيد العالم العربي كخطوة لتوحيد العالم الإسلامي.

وكان المعزّ لدين اللّه الفاطمي خير من يضطلع بهذه المهمّة، فعمل على تنفيذها فقرّ رأيه أن يجعل من جميع بلاد شمالي أفريقيا كتلة لا يستطيع الغربيون النيل منها. ولم يتحالف على الأمويين في الأندلس، بل تركهم رغم اختلافهم وإياه في المذهب الديني، ليكونوا قوة أمام الأوروبيين الذين يراهم العدوّ الحقيقي.

يدلّ على ذلك أن المعزّ وقف من البيزنطيين، حين غزوا جزيرة كريت، (إقريطش)، في منتصف القرن الرابع الهجري، موقفاً عدائياً صريحاً مع أنها كانت تابعة للعبّاسيين، واعتبر أن نصرة العرب في تلك الجزيرة واجب عليه وعلى كل المسلمين، لذلك نراه يرسل لأبي الحسن عليّ الإخشيد في مصر يحثّه على الاشتراك مع جيوش الفاطميين في استرداد هذه الجزيرة، ويبيّن له أن اختلافه وإياهم في المذهب الديني لا يحول دون ذلك لأنهم جميعاً عرب مسلمون وأنهم جميعاً أعداء للبيزنطيين.

ولم يكتف المعزّ بذلك بل أرسل إلى امبراطور الدولة البيزنطية نفسه يحذّره من مغبّة عمله، ويفهمه أن الدولة الفاطمية سوف تستردّ جزيرة إقريطش باعتبارها جزءاً من بلاد العالم الإسلامي الذي أخذ الفاطميون على عاتقهم

المحافظة عليه ورفع شأنه لذلك يقول له: «فإقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا بما خوّلنا اللّه منها وأقامنا له فيها، أطاعنا فيها من أطاع وعصانا من عصى، وليس بطاعتهم يجب أن نملك ولا بعصيانهم يحقّ لنا أن نترك».

إلى أن يقول: «وعهدك إن تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك. فانظر لنفسك ولأهل ملّتك، فإنا مناجزوك وإيّاهم الحرب بعون اللّه وتأييده ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه».

يقول المعزّ ذلك لأنه كان يعتقد أنه صاحب رسالة هي رسالة الوحدة العربية والوحدة الإسلامية؛ (انتهى بعض ما قاله الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف).

ويعلّق الكاتبان على عدم نجاح المعزّ بتوحيد العالم العربي ثم العالم الإسلامي كله بأن ذلك بسبب ما أثاره عليه المتسلّطون من ثورات، كثورة القرامطة وثورة القائد التركي أفتكين، وبما نشروه من أراجيف عن الفاطميين وما سعوا إليه من تشويه عقائدهم.

الأسطول

الأسطول كلمة يونانية معرّبة ومعناها مجمع السفن. وأعظم أسطول إسلامي أو عربي كان أسطول الدولة الفاطمية الذي وصفه بعض المؤرّخين بقوله: «بلغ ربابنة أسطول الفاطميين خلال القرن الرابع الهجري، (العاشر الميلادي)، خمسة آلاف ربّان وعدد سفنه مائتي سفينة، واضطرّ الإفرنج إلى الانحياز بمراكبهم إلى الجانب الشمالي الشرقي من البحر المتوسط لا يبرحونه لأن هذا البحر يسيطر عليه الفاطميون».

تقول الدكتوره سعاد ماهر في كتابها البحرية في مصر الإسلامية:

«إن اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الأسطول المصري على سواحله كان له أكبر الأثر في صيانة كيان الدولة الإسلامية عامّة، والمحافظة على النفوذ

العربي في شرقي البحر الأبيض المتوسّط خاصّة، ذلك أن الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العبّاسية ولا سيّما بعد استيلائهم على إقريطش، (كريت) فعوّلوا على الهجوم على إقليم الشام لكي ينتزعوا بيت المقدس منه. ففي سنة ٩٧٥م سار الأسطول الرومي إلى بلاد الشام واستولى على كثير من مدنها ولا سيّما الساحلية منها، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا، إلاّ أن قوّات مدينة طرابلس البرية استطاعت، بفضل مؤازرة الأسطول المصري، (الفاطمي)، لها[١]، هزيمة الأسطول الرومي، وبذلك عاد فاشلاً إلى القسطنطينية، وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من أطراف الشام الشمالية».

وتقول أيضاً:

«... وتحقّقت مخاوف الفاطميين، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م إلى تأليب حكّام صور وطرابلس على الفاطميين ومساعدتهم على شقّ عصا الطاعة عليهم، ولكن الأسطول المصري، (الفاطمي)، كان لهم بالمرصاد، فتصدى لسفن الروم في مياه هذين الميناءين وأنزل بهم هزيمة منكرة».

وتقول أيضاً ما خلاصته: أرسل غليوم الأول صاحب صقلية أسطولاً نزل دمياط سنة ١١٥٥م (٥٥٠هـ) فعاث فيها فساداً، ثم اتّجه إلى تنيس فقتل بحّارته الرجال وسبوا النساء، وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية. ولكنه سرعان ما فرّ هارباً عندما ظهر له الأسطول المصري، (الفاطمي).

وفي وقائع الأسطول وهزيمته للصليبيين يقول المهذّب بن الزبير:

وكأنّ بحر الروم خلقَ وجهه	وطفتْ عليه منابتُ المرجانِ
ولقد غزا الأسطول حين غزا بما	لم يأتِ في حينٍ من الأحيانِ

---

(١) Iteven Runciman, The First Crusade - A History of the Crusades, vol. 1, p.330

أحببْ إليّ بها شواني أصبحت — من فتكها ولها العداة شواني

شبّهن بالغربان في آلوانها — وفعلن فعل كواسر العقبانِ

فأتتك موقرة بسبي بنيهم — أسراهم مغلولة الأذقانِ

ويقول طلائع بن رزيك في الانتصار على الصليبيين:

توالت علينا في الكتائب والكتب — بشائر من شرق البلاد ومن غرب

بشائر تهدي للموالي مسرّة — وتحدث للباغين رعباً على رعبِ

ففي كبد من حرّها النار تلتظي — وفي كبد أحلى من البارد العذبِ

جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت — عليها عتاق الخيل كالنفنف السهبِ

فقد أصبحت أوعارها وحزونها — سهولاً توطّا للفوارس والركبِ

ولمّا غدت لا ماء في جنباتها — صببنا عليها وابلاً من دم سكبِ

وجادت بها سحب الدروع من العدا — نجيعاً فأغنتها الغداة عن السحبِ

وأجرت بحاراً منه فوق جبالها — ولكن بحار ليس تعذب للشربِ

فقد عمّها خصب به من رؤوسهم — بها وكم خصب أضرّ من الجدبِ

وقد روّعتها خيلنا قبل هذه — مراراً وكانت قبل آمنة السربِ

وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها — فعاقت نواقيس الفرنج عن الضربِ

المتوسط بحيرة فاطمية(١)

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه شرف في كتابهما المعز لدين اللّه، وهما يتحدّثان عن القوى البحرية للمعزّ، (ص٤٨)، الطبعة الثانية:

«ولا نغالي إذا قلنا إن المعز استطاع بفضل أسطوله القوي أن يجعل غربي البحر الأبيض المتوسّط بحيرة فاطمية، ولا غرو فقد هجم أسطوله على أساطيل عبد الرحمن الناصر الأموي في عقر دارها في الأندلس، وانتصر على الروم

---

(١) يقول آدم متز: «لم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي فقد كان بحراً عربياً وكان لا بدّ لمن يريد أن يقضي لنفسه أمراً أن يخطب ودّ العرب كما فعلت نابولي وغيته وأمالقي».

حلفاء الأمويين في ذلك الحين حتى أرغمهم على طلب الهدنة، وكثيراً ما هجم أسطول المعز على إقليم قلوريا، (كالابريا)، جنوبي إيطاليا. وينبغي أن لا ننسى ذلك الدور الهائل الذي قام به هذا الأسطول في سبيل مساعدة مسلمي جزيرة إقريطش، (كريت).

«وقد ذكر النعمان المغربي، قاضي المعزّ، أن المهدية كانت غاصّة بالسفن حتى إن هذا الخليفة الفاطمي عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تخفّف الضغط عن هذا الثغر، وقد وجد القاعدة المنشودة في سوسة.

«ولهذا كانت المهدية وسوسة مراكز أساسية للأسطول الفاطمي الأفريقي. أما الأسطول الفاطمي الأوروبي فكانت سفنه رابضة في موانىء صقلية».

وقد خصّ المؤرّخان غربي البحر المتوسّط في كلامهما المتقدّم، لأنهما كانا يتحدّثان عن الأسطول الفاطمي قبل فتح مصر والشام. أما بعد فتحهما فقد أضافا قائلين:

«أضف إلى ذلك أن المعزّ حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوّق على سائر أساطيل البحر الأبيض، ولا غرو فقد دخلت في حوزة المعزّ، بعد أن فتح مصر والشام، البلاد الواقعة على البحر الأبيض من أنطاكية إلى سبتة، ووقعت في يده موانىء المغرب الأقصى المطلّة على المحيط الأطلسي أيضاً.

«ومن ثم ملأ المعزّ كثيراً من موانىء الشام الهامة مثل صور وعكا وعسقلان بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع، وأهمّها: الشلندمات والشواني الحربية والمسطحات والطرادات والعشاريات والجرافات. وقد رأينا موقف أسطول المعزّ من صور وسواها في حروبه مع الروم، كما رأينا كيف اتخذ جوهر من عكّا وعسقلان مستودعات للإمدادات التي كانت تتدفّق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام».

وهكذا يمكن القول إن البحر الأبيض غربيه وشرقيه أصبح بحيرة فاطمية.

ثم يستطرد المؤرّخان قائلين:

«وكذلك عني المعزّ بالأسطول التجاري لينقل البضائع المصرية إلى البلدان الأخرى ويعود محمّلاً بالسلع، من هذه البلدان. وقد أصبح للفاطميين أسطولان تجاريان: أحدهما في البحر الأبيض المتوسط، والآخر في البحر الأحمر، فكانت الاسكندرية ودمياط في مصر، وعسقلان وعكّا وصور وصيدا في الشام من أهمّ الموانىء الفاطمية في البحر الأبيض. كما كانت عيذاب أهمّ موانىء البحر الأحمر، وكانت مزوّدة بأسطول حربي يقوم على حماية الأسطول التجاري والقضاء على اللصوصية في هذا البحر».

وقال مؤرّخ واصفاً حال الأسطول الفاطمي يومذاك: «بلغ عدد ربابنة أسطول الفاطميين خلال القرن الرابع الهجري، (العاشر الميلادي)، خمسة آلاف ربّان، وعدد سفنه مائتي سفينة، واضطرّ الإفرنج إلى الانحياز إلى الجانب الشمالي الشرقي من البحر المتوسّط لا يبرحونه لأن هذا البحر يسيطر عليه الأسطول الفاطمي من مضيق جبل طارق إلى بيروت».

ويقول الدكتور مرمول محمد الصالح في كتابه السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب:

«جرّد الفاطميون حملاتهم العسكرية ضد الروم كلّما وجدوا فرصة لذلك طيلة عهدهم في المرحلة المغربية. فقد جرّد عبيد الله المهدي حملاته ضدّهم في سنوات مختلفة كانت تنطلق من المهدية أو من صقلية. ففي سنة ٣١٥هـ (٩٢٩م) توجّهت حملة بحرية من المهدية بقيادة صابر الفتى عدّتها أربعة وأربعون مركباً فاتجهت إلى صقلية ومنها شنّت غاراتها على سواحل ومدن الروم فقتلت وغنمت وعادت إلى صقلية[1]. ثم أعاد صابر الكرة في السنة الموالية من صقلية أيضاً فافتتح عدّة أماكن رومية واستولى على ما فيها وأجبر أماكن أخرى على مصالحته بأموال وديباج وثياب وعاد بجيشه إلى صقلية مركز انطلاقه[2]. ثم

(١) ابن عذاري، ١ : ١٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ١٩٣.

كرّر هجومه البحري في سنة ٣١٧هـ (٩٣١م) أيضاً فالتقى في البحر بسبعة مراكب للروم وهو في أربعة مراكب فهزم خصومه وفتح وسبى سبياً كثيراً ورجع إلى المهدية[١]. وبذلك سنّ المهدي لمن جاء بعده سنّة توجيه الحملات البحرية من المهدية أو من صقلية ضد موانىء وسواحل الروم. وقد كان ولاة صقلية يُساهمون من مساهمة فعّالة في هذا المجال نظراً لمركز ولايتهم الاستراتيجي وإمكانيات أسطولها البحري، وذلك مثل الحملة التي قادها يعقوب بن إسحاق في آخر حياة عبيد الله المهدي ففتحت جنوة وسردانية»[٢].

وقد قال آدم ميتز أيضاً عن صولة الأسطول الفاطمي بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، منذ عهد عبيد الله المهدي وسيطرته على مياهه، ما نصه: «ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض المتوسّط خلال القرن العاشر الميلادي، فقد كان بحراً عربياً، (فاطمياً)، وكان لا بدّ لمن يريد أن يقضي لنفسه أمراً أنه يخطب ودّ العرب، (الفاطميين)، كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي.

«ففي سنة ٣٢٢هـ (٩٣٥م) استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوى، وأن تفعل مثل ذلك بمدينة بيزا في عامي ٤٠١ ـ ٤٠٤هـ (١٠١١ ـ ١٠١٤م) فهذا يبيّن لنا ثقل وطأة الأسطول الفاطمي على أساطيل أوروبا وتحكّمه في لجج البحر المتوسط، وأن سلطة الفاطميين في المغرب تمثّل قمة المجد البحري الإسلامي في البحر المتوسط».

لقد بقي الاهتمام متواصلاً وكبيراً بشأن الأسطول في عهد أبي القاسم محمد القائم، وزاد شأنه أكثر من السابق واستفحل خطره على الأساطيل البيزنطية حيث ضاعف من غاراته عليهم من موانىء وثغور المغرب ومن صقلية

(١) المصدر نفسه، ١٩٤.
(٢) هي إحدى جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط وتأتي في الأهمية بعد صقلية وإقريطش، (كريت)، فتحها المسلمون سنة ٩٢هـ.

أيضاً. ولعلّ قلّة الثورات الداخلية في بداية عهده تركت له مجالاً للاهتمام بحروب الروم والعناية بالأسطول أكثر من أبيه.

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد: «وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوى فتنقلب بالظفر والغنيمة... كما وقع في أيام بني الحسن القائمين في صقلية بدعوة العبيديين، (الفاطميين). وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي... وأساطيل المسلمين، (الفاطميين)، قد ضربت ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الكثير من بسيط هذا البحر عدّة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح فيه للنصرانية ألواح»[1].

فهذا النصّ يبينّ لنا مدى الدور العظيم الذي لعبه الفاطميون في الدفاع عن المغرب الإسلامي والمتمثّل في ردّ غزوات الروم.

إن الاهتمام بالأسطول البحري يقتضي الاهتمام بلوازمه أيضاً، كمراكز بناء السفن، ومصانع السلاح. ومن أهم مصانع السفن والأسلحة بونة، (عنابة)، والمهدية وغيرهما. وقد أشاد الشعراء بأسطول أبي القاسم ووصفوه بغرر شعرهم. فعدا قصائد ابن هاني التي يأتي بعضها، هناك من وصفوا الأسطول الفاطمي مثل علي بن محمد الإيادي الذي قال في بعض ما قال[2]:

إعجبْ لأسطول الإمام محمّد ... ولحسنه وزمانه المستعذب

لبست به الأمواج أحسن منظر ... يبدو لعين الناظر المتعجّب

من كلّ مشرفة على ما قابلت ... إشراف صدر الأجدل المتنصّب

دهماء قد لبست ثياب تغنُّجٍ ... تسبي العقول على ثياب ترهّب

---

(١) المقدمة، ص١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) انظر: بساط العقيق لحسن حسين عبد الوهاب، ص٥٠ ـ ٥١؛ ومجمل تاريخ الأدب التونسي، ص٩٩ للمؤلف نفسه؛ ومحمد اليعلاوي: «شعراء أفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية» في: حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٠ ص٩٥ وما بعدها، سنة ١٩٧٣م.

من كلّ أبيض في الهواء منشّر ... منها وأسحم في الخليج مغيّب
كملاءة في البر يقطع شدّها ... في البحر أنفاس الرياح الشذّب
محفوفة بمجادف مصفوفة ... في جانبين دوين صلب صلّب
كقوادم النسر المرفرف عُرّيت ... من كاسيات رياشة المتهذّب
تحتشّها أيدي الرجال إذا ونت ... بمصعّد منه بعيد مصوّب
خرقاء تذهب إن يد لم تهدها ... في كلّ أوب للرياح ومذهب
جوفاء تحمل موكباً في جوفها ... يوم الرهان وتستقلّ بموكب
ولها جناح يستعار يطيرها ... طوع الرياح وراحة المتطرّب
يعلو بها حدب العباب مطارة ... في كلّ لجّ زاخر مغلولب
تسمو بأجرد في الهواء متوّج ... عريان منسوج الذوائب شوذب
يستنزل الملاّح منه ذؤابة ... لو رام يركبها القطا لم يركب
فكأنّما رام استراقة مقعد ... للسمع إلاّ أنه لم يشهب
وكأنّما جنّ ابن داودٍ وهم ... ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواهم نارها فتقاذفوا ... منها بألسن مارج متلهّب
من كلّ مسجور الحريق إذا انبرى ... من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقدمه الدخان كأنه ... صبح يكرّ على الظلام الغيهب
ولواحق مثل الأهلّة جنّح ... لحق المطالب فائتات المهرب
يذهبن فيما بينهنّ لطافة ... ويجلن فعل الطائر المتغلّب
كنضائض الحيّات رحن لواعباً ... حتّى يقعن ببرك ماء الميزب
شرعوا جوانبها مجادف أتعبت ... شأو الرياح لها ولمّا تتعب
تنصاع من كثب كما نفر القطا ... طوراً وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه ... ليل يقرّب عقرباً من عقرب
وعلى مراكبها أسود خلافة ... تختال في عدد السلاح المذهب
فكأنما البحر استعار بزيّهم ... ثوب الجمال من الربع المعجب

ولكن نشاط الأسطول لصدّ الروم قلّ في عهد المنصور وذلك بسبب آثار

ثورة صاحب الحمار الخطيرة[١]. بينما واصل عمله في عهد المعزّ، الأمر الذي جعل الروم يستنجدون في بعض الأحيان بملك القسطنطينية لردّ غزوات المعزّ البحرية، كما حدث في سنة ٣٤٥هـ (٩٥٧م) حينما جرّد المعزّ عليهم حملة بحرية انطلقت من صقلية بقيادة حسن بن علي بن الحسين فاستغاث الروم بالملك قسطنطين السابع ٣٢٩ ـ ٤٣٧هـ (٩١٢ ـ ٩٥٩م) فأنجدهم بالعساكر براً وبحراً والتقت في البحر مع جيش حسن بن علي وذلك في شهر شوال. ورغم قلّة عد سفن الفاطميين فإنها انتصرت انتصاراً كبيراً وبلغ عدد ما حزّ من رؤوس الأعداء عشرة آلاف رأس[٢].

هذا ولم تكن صقلية فقط مركزاً لنشاط الأسطول الفاطمي، بل هناك عدّة جزر أخرى كانت مركزاً لنشاط ذلك الأسطول، ومن بينها جزيرة إقريطش، (كريت)، التي كان الصراع فيها بين المسلمين والروم قائماً على أشدّه من قبل عهد الفاطميين، ولكن كانت وطأة الفاطميين عليها أشدّ، وقاوموا الروم مقاومة عنيفة لا سيّما في عهد المعز. قال ابن الأثير في أحداث سنة ٣٥١هـ (٩٦٣م): «وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة إقريطش فأرسل أهلها إلى المعز لدين اللّه العلوي صاحب أفريقيا يستنجدونه فأرسل إليهم نجدة فقاتلوا الروم فانتصر المسلمون وأسر من كان في الجزيرة من الروم».

كما أن هناك جزر أخرى كانت أهدافاً لنشاط الأسطول الفاطمي مثل جزيرة مالطة وقبرص وسردانية وقوصرة.

ومن خلال ما تقدّم يتّضح لنا مدى أهمّية صقلية وغيرها من بعض الجزر بالنسبة لأسطول الفاطميين. ولذا حرصوا أشدّ الحرص على الاحتفاظ ببقاء نفوذهم فيها لأغراض عسكرية واقتصادية، لأنهم كانوا يهدفون إلى إنشاء

---

(١) هي ثورة أهلية أثارها الخوارج على المنصور الفاطمي فشغلوه عن مواجهة الروم.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، والقسم الخاصّ بالمغرب تحت عنوان «تاريخ المغرب في العصر الوسيط»، ص١٢٣.

امبراطورية قوية على الساحل الجنوبي للحوض الغربي للبحر المتوسّط، الأمر الذي جعل من صقلية قاعدة بحرية هامة لأسطولهم وذلك لردّ غارات الروم عن السواحل الأفريقية، هذا بالإضافة إلى أهميتها الاقتصادية، فهي خصبة بمنتوجاتها الزراعية ويكثر فيها أيضاً الذهب والفضّة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها من المعادن[١].

ويتّضح ممّا تقدّم أن الأسطول الفاطمي سيطر سيطرة كاملة على الحوض الغربي للبحر المتوسّط، وانفرد بالسيادة عليه، وضيّق الخناق على الأساطيل الرومية حيث كان سلطانه مرهوباً، ثم امتدّت سيطرته ما بين جبل طارق إلى بيروت[٢] وبلغ عدد سفنه المئات. وكان مرسى المهدية وحده يسع أكثر من مئتي سفينة[٣] واستعملت قطعه لأغراض عسكرية وتجارية.

عني الخلفاء الفاطميون عناية كبيرة بأمور البحرية، ولكن عناية المعزّ بها كانت أكثر، وذلك لقلّة الاضطرابات الداخلية في عهده بسبب سياسة اللين والتفتح التي سلكها مع الثائرين، ولذا وجد المجال متّسعاً للاهتمام بالأسطول[٤] واتخذ من مدينة المهدية وسوسة ومرسى الخزر وغيرها مأوى لقطع هذا الأسطول. ولا ننسى أن الفاطميين استفادوا في هذا المجال من موقع جزيرة صقلية الممتاز لما فيه من موانىء وأحواض على غاية من الأهمية، ولا نغالي إذا قلنا إن المعز استطاع أن يجعل من غربي البحر المتوسط بحيرة فاطمية[٥] لأن أسطوله أخذ زمام المبادرة دائماً على الروم وأجبرهم على طلب الهدنة وإعطاء الجزية وتقديم الهدايا حيث أوفدوا إليه بطريقاً من بطارقتهم لهذا الغرض فقبل

---

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص١٠٠؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص١١٧ وما بعدها.

(٢) مختار العبادي وآخر تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص٧٦ ـ ٧٧.

(٣) البكري، المغرب، ص٣٠؛ مختار العبادي وآخر، سبق الاستشهادي، ص٦٧، ٧١، ٧٢.

(٤) مختار العبادي وآخر، سبق الاستشهاد، ص٧٢.

(٥) كان هذا قبل فتح مصر وبلاد الشام. أمّا بعد ذلك فقد ساد الأسطول الفاطمي غربي البحر المتوسّط وشرقيه.

منهم ذلك[1]. وكان أسطوله الأوروبي مرابطاً بالموانئ المغربية وفي مقدمتها المهدية وسوسة وتونس وبونة وغيرها، وجعل في أهم الموانىء داراً لصناعة السفن والسلاح، كما كان يأمل أن يصل المنصورية بالبحر بواسطة قناة، فقد نقل من كتاب المجالس والمسابرات قوله: «لئن امتد المقام هنا، أي في المنصورية، لنجرينّ البحر بحول الله وقوته إلينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحطّ وتقلع بحضرتنا»[2]. ولا شك أنّ هذا يدل على مدى عنايته أكثر من أسلافه بالجيش البحري حيث أراد أن يجعل من المنصورة ميناء ثالثاً من حيث الأهمية بالنسبة إلى المهدية وسوسة. ولا غرابة في ذلك فللأسطول وحده يرجع الفضل الكبير في انتصارات الفاطميين البحرية. كما أن الفضل يعود إليه في تزويد جوهر بالإمدادات أثناء فتحه لمصر. ونلاحظ أيضاً أن تقدماً ملموساً حصل في قوة الأسطول الفاطمي في عهده أكثر من السابق بصفة خاصة، ومن ضمن ذلك القطع البحرية العاملة بالمغرب الأوسط. (الجزائر)[3].

ومن خلال ما تقدم يتجلّى لنا أن أسطول المغرب الإسلامي في عهد الفاطميين ازداد قوة وتمكيناً في العدد والعدّة، وأمسك بناصية الحوض الغربي للبحر المتوسط وهدد الروم. ويعتبر بناء عبيد الله المهدي لمدينة المهدية على ساحل البحر عاصمة له مظهراً من مظاهر التحول الأساسي في سياسة هذه الخلافة التي عملت من أول عهدها على أن تكون دولة قوية بجيشها البري والبحري، وبالفعل أصبحت لها قوات بحرية عظيمة إلى جانب قواتها البرية.

ومن العوامل التي ساعدت على نمو أسطولها وقوته:

(١) صلاحية الموقع الجغرافي في بلاد المغرب وكثرة موانئه ووجود

---

(١) حسن إبراهيم حسن وآخر، المعز لدين الله، ص١٥٤، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢، ١٩٦٥.

(٢) حسن إبراهيم حسن وآخر، سبق الاستشهاد، ص١٨٥.

(٣) البحرية الجزائرية، نشر المكتبة الوطنية الجزائرية، ص١٨٥.

أحواض لبناء السفن مثل المهدية وسوسة وبونة، (عنابة)، ومرسى الخزر والقالة وبجاية وغيرها، وتوفّر المواد اللازمة لبناء السفن مثل الأخشاب التي تصنع منها ألواح السفن، وكذلك الحديد الذي يوجد بصقلية وبلاد المغرب في بونة وبجاية والإربس، وكذلك توفّر المواد الأخرى من قطران وحبال[1].

(٢) وجد الفاطميون بين أهل المغرب إطارات كفوءة عارفة بمبدأ الملاحة والأمور البحرية ولها خبرة ودراية في هذا المجال منذ عهد الفينيقيين. فكان هذا أحد عوامل قوة بحريتهم ونجاحها.

(٣) يعتبر موقع صقلية البحرية الهام من العوامل التي ساعدت على قوة الأسطول وتحكّمه في مياه الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد أصبحت محطّة بحرية هامة للمسلمين منذ أن فتحت سنة ٢١٢هـ (٨٨٧م).

(٤) يمكن أن نعتبر تأصّل فكرة الجهاد عند الفاطميين وتطلّعهم إلى التوسع شرقاً وغرباً، وخوفهم من الخطر الخارجي المتمثل في الروم بصفة خاصة، من أهم الحوافز التي جعلتهم يعتنون أشد العناية بأمور الأسطول حتى تكون لهم قوة بحرية قادرة على تحقيق آمالهم في توسيع رقعة دولتهم وردّ الخطر الخارجي الرومي.

(٥) اعتناء المعز بالأسطول أكثر من أسلافه لأنه كان يهدف إلى تكوين قوة بحرية قوية يسيطر بها على حوضي البحر المتوسط الغربي والشرقي على السواء ويقارع بها.

وبعد فتح مصر والشام، حقّق ما كان يطمح إليه في هذا المجال، حيث امتد نفوذه البحري من سبتة غرباً إلى أنطاكية شرقاً، بالإضافة إلى الموانىء المُطلّة على المحيط الأطلسي وبذلك بلغ الأسطول في عهده قمة مجده.

لقد وجدت في عهد الفاطميين أنواع مختلفة من السفن منها التجارية ومنها

(١) مختار العبادي وآخر، سبق الاستشهاد، ص٧١ ـ ٧٦.

الحربية فبعضها يستعمل في الملاحة البحرية، وبعضها في الملاحة النهرية، ومن السفن الحربية التي استعملها الفاطميون وغيرهم في البحر المتوسط:

(١) الشلنديات: ومفردها شلندي وهي سفن كبيرة الحجم استعملت لنقل المؤن، والعتاد، والجنود في آن واحد، وهي من المراكب البحرية المسطّحة، حتى يتمكّن جنودها من مقاتلة أعدائهم وهم على متنها وفي نفس الوقت فإن الجذّافين من تحتهم يجذّفون بهم، وتسمى هذه السفن في الأندلس بالأجفان الغزوية، وتستعمل في حالتي الحرب والسلم.

(٢) الشواني، جمع شيني، أو شونة، وهي من السفن الكبيرة التي تستعمل لحمل الأبراج الكبيرة أيضاً وغيرها من العتاد الثقيل، ولعلها أشبه ما تكون بالبوارج الحربية الضخمة التي تستعمل الآن لحمل العتاد الهجومي كالدبابات والمدرّعات.

(٣) الحراقات، وتلي الشواني في الضخامة والأهمية، وتستخدم في إحراق سفن العدو بواسطة المواد المحرقة كالنفط؛ ويجذف فيها نحو مائة مجذّف، وقد ورثها الفاطميون عن الأغالبة، وكثيراً ما استخدمت في غزو بلاد الروم.

(٤) الطرادات، ومفردها طراد، وهي عبارة عن سفن صغيرة، قوية سريعة الحركة وتستعمل لحمل الخيل والمقاتلين، ومختلف المؤن، والأسلحة. ويمكن للواحدة أن تحمل أربعين فرساً ومائة فارس.

وبالإضافة إلى ما تقدم فهناك أنواع أخرى من السفن البحرية وجدت في عهد المعز بمصر، ولا شك أنها كانت موجودة بالمغرب ومنها البطس، وهي مراكب كبيرة تتكون من عدّة طوابق، وتنقل عدداً كبيراً من المحاربين قد يصل إلى سبعمائة. وكذلك المراكب المسماة أغربة لأنها في شكلها تشبه الغراب وكذلك القراقر والسميرات، وغيرها.

ويستخدم المقاتلون في البحر عدة أسلحة وفي مقدّمتها النفط الخاص

بإحراق مراكب العدو، كما يستخدمون الكلاليب الحديدية التي ترمى على سفن العدو بقصد إغراقها أو العبور إليها بواسطة ألواح خشبية وبسلالم. كما يستخدمون السيوف ومختلف الأسلحة الخفيفة. وقد بلغت قطع الأسطول الفاطمي في المغرب أزيد من ثلاثمائة سفينة. كما بلغت قطعه في عهد المعز بمصر أكثر من ستمائة قطعة.

المعز والأسطول

قال الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما المعز لدين الله: «كان للبحرية الفاطمية في عهد المعز لدين الله شأن يذكر في بلاد المغرب ومصر. وقد اتخذ الفاطميون المهدية مرفأ رئيسياً، ومن سوسة وغيرها من موانىء شمال أفريقيا أماكن تأوي إليها سفنهم. ولا ننسى أن الفاطميين، وخاصة المعز، قد أفادوا من موقع جزيرة صقلية لما فيه من موانىء وأحواض للسفن.

«ولا نغلو إذا قلنا إن المعز استطاع بفضل أسطوله القوي أن يجعل غربي البحر الأبيض بحيرة فاطمية، ولا غرو فقد هجم أسطوله على أساطيل عبد الرحمٰن الناصر الأموي في عقر دارها في الأندلس، وانتصر على الروم حلفاء الأمويين في ذلك، حتى أرغمهم على طلب الهدنة. وكثيراً ما هجم أسطول المعز على إقليم قلورية، (كالابريا)، جنوبي إيطاليا. وينبغي أن لا ننسى ذلك الدور الهائل الذي قام به هذا الأسطول في سبيل مساعدة جزيرة إقريطش.

«وقد ذكر النعمان المغربي أن المهدية كانت غاصة بالسفن، حتى إن المعز عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تُخفّف الضغط عن هذا الثغر. وقد وجد القاعدة المنشودة في سوسة فيذكر أنه ظهر بدار الصناعة بمدينة سوسة «سبعة مراجل، (قدور)، أزلية الصنع متقنة ينفذ بعضها إلى بعض كانت مدفونة تحت الأرض إلاّ

أنها تحتاج إلى بعض إصلاح، وإلى صهريج يجري عنه الماء إليها، وأنها، (أي المراجل)، متى امتلأت ماء استغنى بها أهل المدينة عما هو خارج منها وكانت ذخيرة للمراكب ولغير ذلك مما يحتاج إليه».

«ويقول النعمان: «فرفعت ذلك إلى الإمام المعز لدين اللّه فسرّ بها وأمر بإصلاحها وإصلاح هذا الصهريج وأن يبنى مسجد هناك، وكان قبل ذلك قد ذكر له تضايق داري الصناعة بالمهدية بالمراكب وكثرتها وما زاد منها وإن الدارين قد غصّتا بها، فذكر عمارة دار الصناعة بسوسة والإنشاء بها وكان وجود هذه المراجل من مقدمة الخير فيها».

«وهكذا أصبح للمعز لدين اللّه في أفريقيا ميناءان هامان، يعتمد على دور الصناعة فيهما في إخراج السفن وعلى أحواضها في إيوائها. وكان المعز يعمل على أن يجعل من حاضرته المنصورية ميناء ثالثاً من موانئه الرئيسية. يدل على ذلك قوله: «لئن امتدّ المقام هنا، (في المنصورية)، لنجرينّ البحر بحول اللّه وقوته إلينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحطّ وتقلع بحضرتنا»[(١)]. وبهذا نرى أن المعز كان يهتم بتكوين أساطيل قوية وأنه اتخذ من المهدية وسوسة مراكز أساسية لأسطوله الأفريقي. أما أسطوله الأوروبي فكانت سفنه رابضة في موانىء صقلية.

«وقد اتخذ المعز بعض المدن المصرية دوراً لصناعة السفن، فأنشأ في المقس دار صناعة ضخمة وصفها المسبحي، المؤرّخ المصري المتوفي سنة ٤٢٠هـ بقوله: «إنه لم ير مثلها في البحر على ميناء». ويظهر أن المعز لم يهمل دار صناعة الفسطاط التي كانت تسمى دار صناعة مصر؛ كما عني بإقامة دور صناعة السفن في موانىء مصر الهامة كالإسكندرية ودمياط.

«ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً إلى خوف المعز من غارات الروم

---

(١) المجالس والمسايرات، للنعمان.

والقرامطة على مصر والشام فحسب، بل كان ذلك راجعاً أيضاً إلى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقاً يُغيرون منه على مصر. أضف إلى ذلك أنه حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر الأبيض ومن ثم ملأ المعز كثيراً من موانىء الشام الهامة مثل صور وعكا وعسقلان بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع وأهمها الشلنديات والمُسَطّحات والطرادات والعشاريات، (وهي من القوارب النهرية)، والحرّاقات.

«وقد وصف المقريزي عناية المعز بالأسطول في هذه العبارة فقال: «لما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة، اشتدّ أمرهم بأخذ البلاد وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله، وأنشأ المراكب الحربية واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطّحات، وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان، وكانت في أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة».

«وكان لوسطول أمير يدعى قائد القواد وقد سمّي بذلك لأنه كان تحت إمرته عشرة قواد، كما كان يُطلق عليه أمير الجيش والمُسْتوفي. وقد بلغ من عناية المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول، أن الخليفة كان ينفق عليه في غزواته بنفسه ويساعده وزير أو من يقوم مقامه. ولم يكن بحّارة الأسطول من رتبة واحدة، فهناك جماعة تتقاضى راتباً قدره ديناران، وأخرى تتقاضى ثمانية دنانير، وثالثة عشرة دنانير، ورابعة خمسة عشر ديناراً، وخامسة عشرين ديناراً وسادسة خمسة وعشرين ديناراً. أما أمير الأسطول أو مُقَدّمه فكان من كبار الأمراء والأعيان.

كما كان الخليفة يُقْطِع رجال الأسطول إقطاعات عُرفت باسم أبواب الغزاة

وكان قائد الأسطول يُشرف عليه ويتناوب القواد العشرة الإشراف العملي فيأتمر الجميع بأمر القائد الذي تؤول الرياسة إليه.

«ولكي يُشجّع الخليفة رجال الأسطول أو الغزاة، كما كانوا يُسمّونهم، كان يترك لهم من الغنائم المال والثياب والمتاع، ولا يستبقي سوى الأسرى والسلاح. وكانت الفسطاط من أهم مراكز الأسطول. وكان الخليفة يُشاهد بنفسه حفلة النفقة على الأسطول عندَ خروجه ويبارك رجاله ويدعو لهم بالتوفيق كما كان يحضر حفلة استقباله عند عودته.

«وقد بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأسطول أنهم اتخذوا لهم منظرة بالمقس يحتفلون فيها بتوديع الأسطول واستقباله. ويتضح ذلك من الوصف الذي أورده المقريزي حيث يقول: «ويتولّى النفقة في غُزاة الأسطول الخليفة بنفسه، بحضور الوزير، فإذا أراد النفقة فيما تعيّن من عدة المراكب السائرة فيتقدم إلى النقباء بإحضار الرجال وفيهم من كان يتعيّش بمصر والقاهرة، وفيهم من هو خارج عنهما فيجتمعون. وكانت لهم المشاهرة والجرايات في مدة أيام سفرهم، وهم معرفون عند عشرين عريفاً، ويقال لهم النقباء، واحدهم نقيب».

وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظّفي ديوان الجيش. ولا غرو فإن صاحب ديوان الجيش، وهو المستوفي، كان أمير الأسطول. وبذلك وضع المعز لدين اللّه أساس نظام البحرية في مصر، ونهج نهجه من جاء بعده من الخلفاء. وليس أدل على اهتمام المعز بالأسطول من اعتماده على ديوان الجهاد أو ديوان العمائر كما كانوا يُسمّونه، في تنظيم شؤون الأساطيل ووقف الأموال الضخمة للإنفاق على الأسطول ورجاله، وكثيراً ماكان المعز يمدّ هذا الديوان بالأموال الكثيرة من بيت المال.

«وكذلك عني المعز بالأسطول التجاري لينقل السلع المصرية إلى البلدان الأخرى، ويعود مُحمّلاً بالسلع من هذه البلدان.

«وقد عني الخليفة المعز بديوان الإقطاع الذي كان تابعاً لديوان الجيش، وكان عمل صاحبه مقصوراً على النظر في الإقطاعات التي أقطعها رجال الجيش وبخاصة من الممتلكات الكثيرة التي كانت تابعة للإخشيديين من قبل.

«وبهذا نستطيع أن نقول: إن المعز لدين الله نهض بالجيش والبحرية نهضة مباركة»؛ (انتهى ما أورده الكاتبان).

والواقع أن المعز لدين الله الفاطمي كان في ذلك العهد أمل العرب والمسلمين وكانوا يتطلّعون إليه من كل مكان، حتى من الأرض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه. فعندما شعرت مثلاً جزيرة كريت بالخطر الداهم، ولاحت لها طلائع الغزو من بعيد كان همّها أن توصل نداءها إلى الرجل المأمول. ويحدثنا الدكتور حسن إبراهيم حسن، وهو يتحدّث عن كتاب المجالس والمسايرات للنعمان، فيقول: «وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الأندلس، عبد الرحمٰن الناصر الأموي، على الروم في صراعه مع الفاطميين، وصوّر ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة إقريطش الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم. ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل إقريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ».

وابن هاني يدرك ذلك ويدرك أن ممدوجه أهل لما علّق عليه من أمال فيقول:

لا تيأسوا فالله منجز وعده ... قد آن للظلماء أن تتكشفا

ولقد كان المعز جديراً بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الأيام، فلم يدع الوقت يذهب عبثاً، وأدرك للوهلة الأولى أنه أمام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الأشد. لذلك صرف جهده أول ما صرفه إلى إنشاء أسطول ضخم

يتناسب مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وهي حماية الشواطىء الأفريقية الشمالية من أي غزو متوقع، وبذل لهذا الأسطول أقصى ما يستطيع بذله حتى أصبح أسطوله سيد البحر المتوسط، وحتى صار مُهَدّداً للأعداء بعد أن كان الأعداء مهدِّدين، وحتى صاروا يخشونه بعد أن كانت البلاد تخشاهم.

وقد كان هذا الأسطول أعظم ما يمكن أن يصل إليه أسطول في ذلك العصر، مجهزاً بأحدث الآلات الحربية والأدوات النارية. فأثار هذا الأسطول حماسة الشاعر ابن هاني الأندلسي ورأى فيه المخرج من الأخطار والحماية من النوازل، وهاج فيه اعتزازه وحميّته، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحق من فرائد الشعر العربي؛ وهي التي يقول فيها:

لك البرّ والبحر العظيم عبابه ... فسيّان أغمار تُخاض وبيد

ثم يصف وصول وفود الروم متذلّلة تطلب الصلح، مخاطباً المعز مشيراً إلى ما كان من تغلغل الروم قبل ذلك في بلاد الشام:

فلا غرو إن أعززت دين محمّد ... فأنت له دون الأنام عقيد
غضبت له أن ثُلّ في الشام عرشه ... وعادك من ذكر العواصم عيد
وقلت أناسٍ ذا الدمستق شكره ... إذا جاءه بالعفو منك بريد
تناجيك عنه الكتب وهي ضراعة ... ويأتيك عنه القول وهو سجود
إذا أنكرت فيها التراجم لفظه ... فأدمعه بين السطور شهود
ليالي تقفو الرسل رسل خواضع ... ويأتيك من بعد الوفود وفود

ويمضي الأسطول الفاطمي في أداء رسالته، وتجوب قطعه البحر المتوسط متحدّية كل من تحدّثه نفسه بالشرّ، وتعلن سفنه بنفسها عن نفسها، ثم تلتقي على غير موعد بسفن الأعداء، فلا تلبث أن تصطدم بها، ويتهاوى الفريقان في نار الوغى ويتجالدون أعنف جلاد، تحفز الروم ثارات متأصلة وأوتار دفينة، وتحفز العرب أخطار منتظرة وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم إلى الوطن العربي العزيز، ويتخيلون ماذا سيحلّ بتلك الأرض الطيبة، إذا هم تزحزحوا عن

موقفهم أو تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبّرين، وينطلقون مهللين فتنجلي المعركة عن نصرهم البحري الحاسم في معركة المجاز التي نأخذ شيئاً من وصفها عن ابن الأثير. الذي قال وهو يتحدث عن أحداث سنة ٣٥٤هـ: «. . . ذلك أن أحمد بن الحسن والي المعز على صقلية أرسل يستمدّه فبعث إليه المعز المدد بالعساكر والأموال مع أبيه الحسن. وجاء مدد الروم فنزلوا عبر سهل مسيني وزحفوا إلى رمطة، ومقدم الجيش الفاطمي الحسن ابن عمارة وابن أخي الحسن بن علي. فأحاط الروم بهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتتبّعهم المسلمون بالقتل وامتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى، ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب فلّ الروم من صقلية وجزيرة ريو في الأساطيل ناجين بأنفسهم فاتّبعهم الأمير أحمد وأصحابه في الماء وأحرقوا كثيراً من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحد. . .».

ويكون ابن هاني مع قومه بكل شعوره وكل جوارحه، متلهّفاً لمعرفة الخبر الأخير.

ولما بلغ أذنيه نبأ الفوز انطلق مزهواً متغنياً بالبطولات:

يوم عريض بالفخار طويل	لا تنقضي غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام أدمعها به	ولقد تبلّ الترب وهي همول
قل للدمستق مورد الجمع الّذي	ما أصدرته له قناً ونصول
سل رهط منويل وأنت غررته	في أيّ معركة ثوى منويل[1]
منع الجنود من القفول رواجعاً	تبّاً له بالمنديات قفول

(١) بلغ من اهتمام الامبراطور نقفور فوكاس بمحاربة الفاطميين، أنّه أعدّ أسطولاً ضخماً ملأه بالمؤن والذخيرة، وأعدّ جيشاً يقرب من خمسين ألف رجل مجهّزين بأحسن آلات الحرب وأمّر عليه رجلين أحدهما منويل، وكان يمتّ إليه بصلة القرابة، فانهزم الجيش والأسطول هزيمة كاسحة.

وبعثت بالأسطول يحمل عدّةً فأثابنا بالعدّة الأسطول

أدّى إلينا ما جمعت موفّراً ثمّ انثنى باليمّ وهو جفول

ومضى يخفّ على الجنائب حمله ولقد يرى بالجيش وهو ثقيل

لم يتركوا فيها بجعجاع الردى إلاّ النجيع على النجيع يسيل

نحرت بها العرب الأعاجم إنها رمح أمقّ ولهذم مصقول

ثم يتحدّث عن المعز في الأبيات التي مرت في الصفحة ٢١ ـ ٢٢.

وتتكرر معاركِ الأسطول وتتكرر انتصاراته فيحرص الشاعر على الإشادة بالأسطول:

وسفن إذا ما خاضت اليمّ زاخراً جلت عن بياض الصبح وهي غرابيب

تشبّ لها حمراء قانٍ أوارها سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

ثم يشير إلى اعتماد عبد الرحمٰن الناصر الأموي حاكم الأندلس على الروم، واستنصاره بهم على قومه وبني جنسه الفاطميين الذين كانوا يكافحون الروم كفاحاً مريراً، انضم فيه عبد الرحمٰن الناصر الأموي إلى الروم فيقول ابن هاني مخاطباً المعز:

لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحظّهم من ذاك خسر وتتبيب

وعار بقوم أن أعدّوا سوابحاً صفوناً بها عن نصرة الدين تنكيب

وقد عجزوا في ثغرهم عن عدوّهم بحيث تجول المقربات اليعابيب

وجيشك يعتاد الهرقل بسيفه ومن دونه السيم الغطامط واللوب

يخضّض هذا الموج حتّى عبابه إذا ألتجّ من هام البطاريق مخضوب

وتلتقي جيوش الروم وأساطيلهم بجيوش الفاطميين البرية وأساطيلهم أكثر من مرة، وتقع المعارك البرية والبحرية في أوقات متقاربة، وينتصر الفاطميون وتُحمى بانتصاراتهم ديار الإسلام والعروبة، فيقول ابن هاني مشيراً إلى أن الروم كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط، تجوب فيه أساطيلهم وتصول بلا رقيب ولا منافس، وإلى أن جيوشهم البرية كانت كذلك:

لو كان للروم علم بالذي لقيت ... ما هنئت أمّ بطريق بمولود

ألقى الدمستق بالأعلام حين رأى ... ما أنزل اللّه من نصر وتأييد

فقل له حال من دون الخليج قناً ... سمرٌ وأذرع أبطال مناجيد

ثم يخاطب المعز مشيراً إلى ما كان عليه الروم من تسلّط على البحر، ثم ما آل إليه الأمر من سيطرة الأسطول الفاطمي:

ذمّوا قناك وقد ثارت أسنّتها ... فما تركن وريداً غير مورود

حميته البرّ والبحر الفضاء معاً ... فما يمرّ بباب غير مسدود

قد كانت الروم محذوراً كتائبها ... تدني البلاد على شحط وتبعيد

وشاغبوا اليمّ ألفَيْ حجّة كملاً ... وهم فوارس قارياته السّود

فاليوم قد طمست فيه مسالكهم ... من كلّ لاحب نهج الفلك مقصود

هيهات راعهم في كلّ معترك ... ملك الملوك وصنديد الصناديد

وقال الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما المعز لدين اللّه بعد أن وصفا تحرش عبد الرحمن الناصر الأموي حاكم الأندلس بالفاطميين ثم هزيمته أمامهم: «وكان رد الناصر على جرأة المعز بطيئاً فلم يقدم على الانتقام كما أقدم المعز، بل قام في العام التالي (٣٤٥هـ) بمظاهرة بحرية على سواحل أفريقيا وعمل في الوقت نفسه على الاستعانة بالروم فتحالف معهم. حقيقة استغل الأمويون عداء البيزنطيين للفاطميين فاتفق الناصر مع قسطنطين الثامن قبل ذلك الوقت (٣٣٨هـ) وعقدت معاهد بين الفريقين. على أنه لا يبعد أن تكون هذه المعاهدة قد اشتملت على نص يتعلق بموقف كل من هاتين الدولتين من الدولة الفاطمية، بدليل أن الروم قد لبوا نداء الناصر (الأموي) وعملوا معاً على أن يحصروا الفاطميين: هؤلاء من الغرب وأولئك من الشرق وفي ذلك يقول النعمان في المجالس والمسايرات: «بعد أن كتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قبله فأجابه إلى ذلك. وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أمية من الأندلس».

وقد ذهب ابن عذارى إلى القول بأن الناصر استطاع أن يخرب إحدى موانيء

شمالي أفريقيا وأمر بلعن الفاطميين على منابر الأندلس. ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يحقق ما كان يرمي إليه، إذ خرج إليهم أهل تلك الناحية فقتلوا منهم بشراً كثيراً وهزموهم، فمات في البحر منهم أكثر ممن قتلوه، وغنموا ما كان معهم من السلاح[١].

«وكذلك أخفق البيزنطيون في صراعهم مع الفاطميين. وقد صوَّر النعمان في المجالس والمسايرات هذه الحروب بهذه العبارة: وأقبل أسطول الروم فلقي أسطول أمير المؤمنين دون صقلية، ففتح اللّه لوليه على الروم فهزمهم في البحر وقتل رجاله منهم خلقاً عظيماً وولوا هاربين بين يدي أسطوله إلى مجاز رية[٢] ليحموا بلدهم، واتبعهم إلى ما هنالك فلقوه في البحر فهزمهم فنزل عسكر البر بأرضهم فأنكى بالقتل فيهم وأحرق موانئهم وبلغ غاية الأمل من النكاية. ورأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين بأموال عظيمة وهدايا جليلة ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بأرض قلورية على مال قطعه على نفسه يؤديه عنهم، وأسرى من أسارى أهل المشرق يطلقهم في كل عام لمدة يسيرة يسأل الهدنة فيها».

ومضى الكاتبان قائلين:

وهكذا كان مصير ذلك الصراع أن أخفق الناصر الأموي من الناحيتين الحربية والسياسية، ولذلك لجأ، كما تقدّم، إلى الحطّ من شأن الفاطميين في بلاده وسبّهم من فوق المنابر حتى لا تضيع هيبته أمام سلطان المعز ونفوذه. وليس هذا كل ما قام به الخليفة الأموي الناصر في سبيل مناوأة الفاطميين، بل عمل على مهادنة مسيحيي الشمال ومصالحة ملك ليون حتى يتفرغ للصراع مع الفاطميين. ويقول الكاتبان بعد أن يتحدثا عن انتصارات الفاطميين على الروم في صقلية وقلوريا.

---

(١) المجالس والمسايرات.

(٢) هو الخليج الذي يفصل بين صقلية وإيطاليا.

وهكذا انتهى الدور الأول من هذه الحروب التي شنها المعز لدين اللّه على الروم في صقلية وقلورية إلى هذا النصر المؤزر، وزال خطر الروم عن هذه البلاد إلى حين. على أن الامبراطور قسطنطين لم يقف مكتوف اليدين أمام المعز فاتفق مع عبد الرحمٰن الناصر الأموي على محاربة الفاطميين في صقلية، على ما رأينا، وعلى مهاجمة أفريقيا نفسها من الشرق في الوقت الذي يهاجمها فيه عبد الرحمٰن الناصر الأموي من الغرب. ولكن جيوش المعز استطاعت أن تُحبط هذا المشروع الخطر وانتصرت على الروم في البحر الأبيض كما انتصرت على الأمويين. واضطر الامبراطور البيزنطي إلى طلب الصلح بعد أن حلت به هذه الهزائم المتتالية.

ثم يقول الكاتبان: وقد بلغ من اهتمام الامبراطور نقفور فوكاس (٣٥٢ ـ ٣٥٩هـ/ ٩٦٣ ـ ٩٦٩م) الذي أراد أن يتشبه بمن سبقه من الأباطرة البيزنطيين في الاتجاه نحو الغرب ليشغل الفاطميين خاصة عن التطلع إلى بلاد المشرق، بلغ من اهتمام هذا الامبراطور بمحاربة الفاطميين أنه أعد أسطولاً ضخماً ملأه بالمؤن والذخيرة واختار له مشهوري قوّاده وأعد جيشاً يقرب من خمسين ألف رجل، مُجهّزين بأحسن آلات الحرب وأمّر عليه رجلين أحدهما مانويل وكان يمت إليه بصلة القرابة. وكان الروم يعتقدون أن النصر معقود لهم، ولا عجب فإن صقلية لم يدخلها من قبل جيش بلغت قوته قوة هذا الجيش البيزنطي، على ما ذكره ابن الأثير.

أما جهود المعز لدين اللّه وأنصاره في صراعهم مع نقفور فوكاس وأنصاره من أهل صقلية فتتجلى في إعداد أحمد بن الحسن الكلبي والي صقلية الأسطول الصقلي، (الفاطمي)، إعداداً كاملاً وفي إعداد جيوشه البرية وتوزيعها على موانىء صقلية الشمالية والشرقية وفي ذلك المدد الذي أمد به المعز واليه على هذه الجزيرة. وقد وصل أسطول الفاطميين إلى الجزيرة في منتصف سنة ٣٥٣هـ (٩٦٤م).

ثم أطنب الكاتبان في وصف المعارك التي أشرنا إلى بعضها فيما تقدم.

ويقول الكاتبان عن العوامل التي حدت بالفاطميين إلى التقدم إلى بلاد الشام أن منها: أن المعز أدرك رغبة الروم في أن يرثوا الدولة العباسية التي دبّ إليها الوهن، فقد عبروا الفرات واستولوا على بعض مدن الشام، فعمل المعز على فتح هذه البلاد ليحول دون تقدم الروم جنوباً.

ثم يقولان: كان ذلك يرجع إلى رغبة الفاطميين بالوقوف في وجه الروم حتى لا تعود بلاد الشرق الأدنى وجميع شمال أفريقيا إلى حوزة الروم. ولا نغالي إذا قلنا إن الروم الذين اتحدوا مع الأمويين في الأندلس وأخفقوا في هجومهم على بلاد المغرب في عهد المعز (سنة ٣٤٤هـ)، رأوا أنهم يستطيعون القضاء عليه بفتح بلاد الشام، واتخاذها جسراً يعبرون منه إلى المغرب، وهذا العمل من جانب المعز يدل على بعد نظره في السياسة لأنه يجعله يحرص على نفوذه في بلاد المغرب ومصر، وهو يحول دون تقدم الروم في بلاد الشام.

من وقائع الأسطول الفاطمي

وسجل ابن القلانسي في كتابه ذيل تاريخ دمشق بعض وقائع الفاطميين وبعض ما قامت به أساطيلهم خلال الاحتلال الصليبي لبلاد الشام. قال في أحداث سنة ٤٩٦هـ: «في أول شهر رمضان خرجت العساكر المصرية، (الفاطمية)، من مصر والأسطول في البحر مع شرف الدولة ولد الأفضل شاهنشاه وكتب في استدعاء المعونة على الجهاد ونصرة العباد والبلاد بنفاذ العسكر الدمشقي فأجيب إلى ذلك، وعاقت عن مسيره أسباب حدثت وصوادف صدفت ووصل أسطول البحر ونزل يافا آخر شوال وأقام أياماً وتفرق الأسطول والعساكر إلى الساحل وكانت الأسعار بها قد ارتفعت والأقوات قد قلت فصلحت بما وصل مع الأسطول من الغلة ورخص الأسعار إلاّ أن غارات الإفرنج كانت متصلة عليها».

وفي أحداث سنة ٥٠١هـ ذكر ما يلي:

«وفي هذه السنة نهض بغدوين في عسكره المخذول من الإفرنج نحو ثغر صيدا فنزل عليه في البحر والبر ونصب البرج الخشب عليه ووصل الأسطول المصري، (الفاطمي)، للدفاع عنه والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية».

وفي أحداث سنة ٥٠٢هـ ذكر ما يلي:

«. . . وصل عقيب ذلك الأسطول المصري، (الفاطمي)، ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله. ووصل إلى صور في يومه الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها. وأقام بالساحل مدة وفرغت الغلّة في جهاتها. . .».

وفي أحداث سنة ٥٠٣هـ ذكر ما يلي:

«وشرع الإفرنج في عمل البرج ونصبه على سور بيروت فحين نجز وزحفوا به كسر بحجارة المنجنيق وأفسد فشرعوا في عمل غيره، وعمل ابن صنجيل برجاً آخر، ووصل في الوقت من أسطول مصر، (الفاطمي)، في البحر تسعة عشر مركباً حربية فظهروا على مراكب الإفرنج وملكوا بعضها ودخلوا بالمسيرة إلى بيروت فقويت بها نفوس من فيها من الرعية. وأنفذ الملك بغدوين إلى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها إلى بيروت أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة فزحف الإفرنج في البر والبحر إليها بأسرهم في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال ونصبوا على السور برجين واشتدوا في القتال فقُتل مُقَدّم الأسطول المصري وخلق كثير من المسلمين ولم ير الإفرنج من ما تقدم وتأخر أشدّ من حرب هذا. . . .».

وفي أحداث سنة ٥٤٦هـ ذكر ما يلي:

«في هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري، (الفاطمي)، إلى

ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العدد والعدة وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحونة بالرجال. ولم يخرج مثله في السنين الخالية وقرب من يافا من ثغور الإفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والإفرنج ثم قصدوا ثغر عكا، وفعلوا فيه مثل ذلك وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية وقتلوا من حجاج وغيرهم خلقاً عظيماً وأنفذوا ما أمكن إلى ناحية مصر وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وفعلوا فيها مثل ذلك».

وفي أحداث سنة ٥٤٨هـ ذكر ما يلي:

«ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر، (الفاطمي)، إلى عسقلان وقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بعدة وافرة من مراكب الإفرنج في البحر وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها والزحف بالبرج إليها».

إلى غير ذلك من الأحداث التي يتعذر تعدادها.

والواقع أن المعز لدين الله كان في ذلك العهد أمل العرب والمسلمين، وكانوا يتطلعون إليه من كل مكان، حتى من الأرض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه. فعندما شعرت مثلاً جزيرة إقريطش (كريت) بالخطر الداهم، ولاحت لها طلائع الغزو مطلة من بعيد، كان همها أن تُوصل نداءها إلى الرجل المأمول. ويُحدّثنا الدكتور حسن إبراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب المجالس والمسايرات للنعمان فيقول: «وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الأندلس عبد الرحمٰن الناصري الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين، وصوّر ما حلّ بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة إقريطش، (كريت)، الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم. ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل إقريطش وبين

المعز لدين الله نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ».

وابن هاني يدرك ذلك ويدرك أن ممدوحه أهل لما عُلِّق عليه من آمال فيقول:

لا تيأسوا فالله منجز وعده   قد آن للظلماء أن تتكشفا

لقد كان المعز جديراً بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الأيام، فلم يدع الوقت يذهب عبثاً، وأدرك للوهلة الأولى أنه أمام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الأشد. لذلك صرف جهده أول ما صرف إلى إنشاء أسطول ضخم يتناسب مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وفي حماية الشواطىء الأفريقية الشمالية من أيّ غزو متوقع، وبذل لهذا الأسطول أقصى ما يستطيع بذله حتى أصبح أسطوله سيّد الحر المتوسط، وحتى صار مهدِّداً للأعداء بعد أن كان الأعداء هم المهدَّدين، وحتى صاروا يخشونه بعد أن كانت البلاد تخشاهم.

وقد كان هذا الأسطول أعظم ما يمكن أن يصل إليه أسطول في ذلك العصر، مجهزاً بأحدث الآلات الحربية والأدوات النارية. فأثار هذا الأسطول حماسة الشاعر ورأى فيه المخرج من الأخطار والحماية من النوازل، وهاج فيه اعتزازه وحميّته، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحقّ من فرائد الشعر العربي:

لك البرّ والبحر والعظيم عبابه   فسيّان أغمار تخاض وبيد
وما راع ملك الروم إلاّ اطّلاعها   تنشّر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهرّ صبيره   له بارقات جمّة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنّه   لعزمك بأس أو لكفّك جود
أنافت بها أعلامها وسما لها   بناء على غير العراء مشيد
من الراسيات الشمّ لولا انتقالها   فمنها قنان شمّخ وريود
من الطير إلاّ أنّهنّ جوارح   فليس لها إلاّ النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى   فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج   كما شبّ من نار الجحيم وقود

فأنفاسهنّ الحاميات صواعق وأفواههنّ الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنّها دماء تلقّتها ملاحف سود
تعانق موج البحر حتّى كأنه سليط لها فيه الذبال عتيد

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصلح، مخاطباً المعز مشيراً إلى ما كان من تغلغل الروم قبل ذلك في بلاد الشام في الأبيات التي تقدمت في بحث سابق.

ويمضي الأسطول الفاطمي في أداء رسالته، وتجوب قطعه البحر المتوسط متحدّية كل من تحدثه نفسه بالشر، ويتهاوى الفريقان في نار الوغي ويتجالدون أعنف جلاد، تحفز الروم ثارات متأصلة وأوتار دفينة... وتحفز العرب أخطار منتظرة وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم إلى الوطن العربي العزيز، ويتخيلون ماذا سيحل بتلك الأرض الطيبة، إذا هم تزحزحوا عن موقفهم أو تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبّرين، وينطلقون مهللين، فتنجلي المعركة عن نصرهم البحري الحاسم في معركة المجاز. ويكون الشاعر معهم بكل شعوره وكل جوارحه، متلهّفاً لمعرفة الخبر الأخير ولما يبلغ أذنيه نبأ الفوز ينطلق مزهواً بالبطولات:

يوم عريض بالفخار طويل لا تنقضي غرر له وحجول[1]

لقد انهارت الدولة الحمدانية بعد سيف الدولة فتمهد الطريق أمام البيزنطيين ليتقدموا في شمال بلاد الشام، ويحتلوا فيه المدن، ويبسطوا سيادتهم على أجزاء منه كما سيطروا على كيليكيا، بل لقد غزوا شمال العراق وعبروا نهر دجلة. ولم يكن باستطاعة الفاطميين الأقوياء أن يعملوا شيئاً على الجبهة المشرقية، لأن بينهم وبينها أماداً واسعة لا سلطة لهم عليها. ثم إذا بهم على أبواب المشرق ثم يصبحون جزءاً منه، وإذا بهم وجهاً لوجه مع البيزنطيين في المشرق كما هم معهم في المغرب، فجعلوا همهم الأول استرجاع ما استولى

(١) تقدّمت بقيّة الأبيات في بحث سابق.

عليه البيزنطيون من المدن الشامية. وحاولوا أول الأمر إجلاء البيزنطيين عن أنطاكية التي كان قد استولى عليها نقفور فوكاس سنة ٣٥٨هـ، ولكن القوى البيزنطية كانت أكثر كثافة مما قدّرت مُخابرات الفاطميين وكانت تفوق قواتهم عُدداً وأعداداً، فإن البيزنطيين عرفوا خطورة سقوط أنطاكية، فضلاً عن أنها مدينة البطاركة والقديسين، لذلك اعتبرت منافسة بيزنطية من الناحية الدينية. لهذا حشدوا للدفاع عنها قوى لم تكن في تقدير الفاطميين، ففشل الجيش الفاطمي في استردادها، واغتنم الامبراطور البيزنطي حنا زيمسكس هذا الفشل وتقدم بجيوشه سنة ٩٧٥م من أنطاكية إلى حمص ومنها إلى بعلبك، وخافت دمشق مغبة مقاومته فخضعت ودفعت له الجزية، كما سلّمت له طبريا وقيسارية، وكان مصمماً على الوصول إلى القدس، وهكذا يكون هذا الامبراطور البيزنطي ثاني من يفكر من أباطرة بيزنطية، في استرجاع القدس من المسلمين، بعد المفكر الأول نقفور فوكاس الثاني، وهكذا تكون بيزنطية قد سبقت الصليبيين في التخطيط للنفاذ إلى القدس.

ويبدو جلياً من استعراض الأحداث أن الفاطميين أدركوا نية حنا زيمسكس وصمدوا له، فتراجع عن محاولة الوصول إلى القدس بعد أن وصل إلى مدينة قيسارية في فلسطين. فاضطر إلى تحويل هدفه فاتجه إلى الساحل اللبناني مغتنماً فرصة حشد الجيوش الفاطمية في طريق القدس، فاستطاع الاستيلاء على صيدا وبيروت، ثم اتجه إلى طرابلس.

لم يغفل الفاطميون عن نيات الامبراطور البيزنطي، فأسرعوا لصدّه عن طرابلس والوقوف في طريق زحفه إليها، وعضدوا جيشهم البري المدافع عنها بأسطولهم البحري، واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالبيزنطيين ورد حنا زيمسكس عن طرابلس وملاحقته حتى أخلى بيروت وصيدا وكل ما استولى عليه من مدن الساحل اللبناني. وظلت الضربات الفاطمية تلاحقه حتى ردته إلى أنطاكية.

ولما حاق به الفشل عاد آيباً إلى القسطنطينية مقهوراً حيث توفي في أوائل سنة ٩٧٦م.

في مواجهة البيزنطيين

إذا كان العاهل البيزنطي هرقل قد وقف بعد معركة اليرموك وما تلاها، على قمّة من قمم طوروس وتطلع إلى سوريا التي تمزقت فيها جيوشه، وتنهد تنهد الأسيف وقال: وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده...

وإذا كان هرقل قد أيس من العودة إلى سوريا، فإن الذين تلوه بعد ذلك بقرونٍ لم ييأسوا من ذلك، وظلوا متشبثين به هدفاً، لا سيما بعد أن انفرط نظام الدولة الكبرى، دولة أعدائهم، وعادت دولاً مقسّمة تتنازع وتتقاتل، في حين كانوا هم قد تقووا واستفحل أمر بعضهم استفحالاً رأى فيه نفسه جديراً بالعودة إلى سوريا تحت رايات الظفر المؤزر.

فقد جاء قسطنطين ليكابينوس، ثم تلاه الأخوان، برداس فوكاس أولاً ثم نقفور فوكاس، وكل من هؤلاء الثلاثة كان يجمع، إلى المطامح البعيدة، القوّة التي يرتكز عليها لتحقيق هذه المطامح، وفي رأس هذه المطامح أعظمها، أعني العودة إلى بلاد الشام، (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)، واسترداد السيادة البيزنطية عليها.

ولكن تشاء المقادير أن تخلق من ذلك التمزق العربي كتلتين، تتماسك كل منهما تماسكاً محكماً، ويقود كلاً منهما قائد يجمع، إلى الإخلاص، الكفاءة التي تعوز مواجهة المطامح البيزنطية.

فقد قامت في شمال أفريقيا دولة الفاطميين، وقضت هناك على الكيانات الانفصالية وجمعتها كلها في كيان واحد متلاحم. كما قامت في الوقت نفسه في شمال بلاد الشام دولة الحمدانيين، وضمت إليها ما استطاعت ضمه من الأشلاء ومضت تشق طريقها شجاعة طماحة.

فوقت كان يتعاقب على حكم بيزنطية مَنْ عَدَدْناهم من قبل، ووقت كان قسطنطين ليكابينوس يُعربد مُهدّداً متوعداً، كان على رأس الدولة الحمدانية سيف الدولة، لا ينتظر تقدم عدوه إليه، بل يتحداه في عقر داره.

ثم يأتي برداس فوكاس ويقود الجيوش مقتحماً الأرض العربية على سيف الدولة، ويصمد له سيف الدولة فلا ينال برداس منه منالاً، بل يفقد في كل معركة العدد الخطير من جيشه وقواده، حتى يحيق به المصير الرهيب في معركة مرعش سنة ٣٣٢هـ (٩٥٣م) فيُجرح في وجهه ويقع ابنه قسطنطين أسيراً فيمن يقع من الأسرى.

ويكبر الأمر على برداس ويبلغ به الحزن مداه على أسر ولده، فلا يجد ملاذاً لخيبته وأحزانه إلاّ الترهب ودخول الدير.

ويأتي شقيقه نقفور فوكاس الثاني وهو أشرس الثلاثة وأعتاهم، وقد كانت مطامحه متوازية مع شراسته وعتوه. وقد سبق له قبل توليه الملك أن قهر العرب حين كان قائداً عاماً للقوات البيزنطية البرية والبحرية في الجبهة الغربية، فانتزع منهم جزيرة كريت سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م).

ثم ازداد طموحاً وثقةً بالنفس بعد أن تولى المُلْك سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م) بتزوجه من ثيوفانو أرملة الامبراطور رومانوس وإعلان نفسه امبراطوراً. كان شعاره الوصول إلى القدس، فلقد تقدم وفتح طرطوس وخطب من على منبرها قائلاً إن هذه البلدة هي التي كانت تعوقه عن الوصول إلى القدس.

يقول الدكتور حسن حبشي في كتابه الحروب الصليبية، وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام:

«وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م (٣٦٥هـ) على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسملت بعلبك، وأراق الأفتكين صاحب دمشق ماء وجهه إبقاء على ولايته».

إلى أن يقول الدكتور حبشي في الحديث عن الفتح البيزنطي:

«على أن موجة الفتح، (البيزنطي)، على حساب البلدان والإمارات الإسلامية لم تلبث أن توقفت منذ أواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين الذين أمدّوا الإسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح...».

لقد اتجهت سياسة الفاطميين، بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام.

وظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين، فلما خرج أهل صور على طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٨٨هـ بزعامة رجل ملاح يعرف بعلاّقة، اتخذ عملة جديدة، نقش عليها هذه العبارة: «عزّاً بعد فاقة، للأمير علاقة»، أرسل برجوان الذي كان يلي وقتذاك الوصاية على هذا الخليفة، حملة كبيرة إلى صور فتصدى علاّقة في بادىء الأمر لصدّها، واستنجد بالامبراطور باسيل الثاني فبعث إليه بإمدادات في البحر. ورأى برجوان من ناحيته أن ينفذ إلى مياه صور بعض سفن الأسطول الفاطمي. فحوصرت المدينة من البر والبحر، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهى الأمر فيها بتسليم المدينة المحاصرة وسقوطها في أيدي القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين وحليفهم الأمير علاّقة الذي أسر وأرسل إلى القاهرة حيث قتل.

هل كانت الخلافة الفاطمية قائمة عند دخول الصليبيين؟

من بين المصادر التي أعود إليها في الحديث عن الصليبيين كتاب ماهية الحروب الصليبية للدكتور قاسم عبده قاسم. ومع أن هذا الرجل يعيش في أواخر القرن العشرين ويحمل دكتوراه جامعية فإنه لم يستطع التخلص من رواسب العصبيات، فهو يقول عند الحديث عن سقوط أنطاكية ما هذا نصه: «وفي تلك الأثناء كانت تجري تغيرات هامة في الجانب الإسلامي إذ كانت الخلافة الفاطمية في مصر أفاقت من الصدمة التي سببتها الهجمات السلجوقية

الأولى على أملاكها في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى ظنّ الفاطميون أن بوسعهم الإفادة من الهجوم الصليبي. وكان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً للخليفة الفاطمي المستعلي، وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين، وهم أمام أنطاكية، على اقتسام بلاد الشام ولم تثمر هذه المحاولة شيئاً».

وهذا القول هو بعض ما يقوله المفترون لا كلّه وهو من أخف ما يقولون، فما من أحد كتب في هذا الموضوع إلاّ وحاول الدس والافتراء والبهتان.

ونحن نقول للدكتور قاسم، ولمن سبقه ولمن سيلحق به، هذا القول الموجز: هل كان هناك خلافة فاطمية قائمة عندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية، ثم دخلوها؟

إن الدكتور قاسم نفسه يجيب على هذا السؤال. إنه هو القائل فيما تقدم من كلامه: «كان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً للخليفة الفاطمي المستعلي، وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين، وهم أمام أنطاكية، على اقتسام بلاد الشام».

إذاً باعتراف الدكتور قاسم أنه لم يكن للخليفة الفاطمي أية سلطة وأن صاحب السلطة الفعلية هو المتغلب الأفضل بن بدر الجمالي لا الخليفة المستعلي، وأن الأفضل هو الذي أرسل السفارة. إذاً لماذا حشر كلمة الخلافة الفاطمية في مفتتح القول وكلمة الفاطميين في ختامه.

فإن كان هناك من مسؤولية فهي تقع على صاحب السلطة الفعلية مرسل السفارة، لا على الخليفة الفاطمي سجين قصره والمجرد من أية سلطة، على أن انتهاء سلطة الخلفاء الفاطميين كان قبل المستعلي، كان في أواخر عهد أبيه المستنصر. وإن من أفظع ما جاء في كلام الدكتور قاسم هو زعمه أن السفارة كانت لمفاوضة الصليبيين على اقتسام بلاد الشام.

هؤلاء الناس لا يخشون الله ولا الضمير، ولا الأخلاق، ولا شرف

الكلمة، فيوغلون مدفوعين بعصبياتهم وأحقادهم السوداء، يوغلون في الافتراء والتزوير فيختلقون ما طاب لهم الاختلاق، طمساً للحق وإظهاراً للباطل!!

هكذا لخص الدكتور قاسم مهمة السفارة: «مفاوضة الصليبيين لاقتسام بلاد الشام»، هكذا لخصها، وجعل نفسه مسجلاً لمحاضر المفاوضات، وناطقاً باسم المتفاوضين معلناً أن المحاولة لم تثمر!!

هكذا وبكل بساطة قال ما قال، مدوناً في كتابه هذا الكلام الخطير، دون أن يقول لنا من أي مصدر استقاه، وعلى أي شيء اعتمد في هذا القول!! هذا إذا صح أنه كانت هناك سفارة، وهو ما لم يثبت.

إن المصدر الوحيد هو عصبيته...

وحقيقة مهمة السفارة هي ما قاله الدكتور محمد جمال الدين سرور، وهو ما ذكرناه في مكان آخر من الكتاب. والسفارة كانت من الأفضل الجمالي لا من الفاطميين.

عند مداهمة الخطر الصليبي للعالم الإسلامي، لم تكن هناك خلافة فاطمية في مصر، بل كان المسيطرون على الحكم هم من تغلّبوا على الخلفاء وحجبوهم داخل قصورهم لا يملكون من الأمر شيئاً حتى في شؤونهم الخاصة.

لقد انتهت سلطة الفاطميين على مصر قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي لا سيما بلاد الشام بربع قرن.

فإن بدراً الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة ٤٦٦هـ وكان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠هـ، وسقطت أنطاكية في أيديهم سنة ٤٩١هـ.

ويقول ابن الأثير عن سيطرة بدر: «فلما كانت سنة ست وستين وأربعمائة ولي الأمر بمصر بدر الجمالي أمير الجيوش وقتل الدكز والوزير وابن كدية وجماعة من المسلميّة وتمكن من الدولة إلى أن مات، وولي ابنه الأفضل»

(الصفحة ٨٧ من الجزء العاشر طبعة دار صادر ودار بيروت سنة ١٩٦٦).

ويقول عن موته في أحداث سنة ٤٨٧هـ: «توفي أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب الجيش بمصر وقد جاوز ثمانين سنة، وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجع إليه».

ثم يقول: «ثم مضى أمير الجيوش إلى مصر وتقدم بها وصار صاحب الأمر»، (الصفحة ٢٣٥ من الجزء العاشر، طبعة دار صادر ودار بيروت، سنة ١٩٦٦). عَلى أن بدراً الجمالي لم يكتف بإنهاء سلطة الخلافة الفاطمية والسيطرة على البلاد سيطرة كاملة تنتهي بموته، بل تعدى الأمر إلى ما يمكن أن نُسمّيه إنشاء أسرة مالكة جديدة إذا لم تحمل اسم الخلافة لاستحالة ذلك عليها، فقد كان لها جميع مظاهر وحقائق الأسرة المالكة من سلطة مطلقة وإقامة ولاية عهد. فحين مات بدر الجمالي تولى بعده ابنه وولي عهده الأفضل الملقب شاهنشاه.

والمقريزي، حين يتحدث عنه في خططه، يقرّ هذه الحقيقة فيقول في ذلك: «فاستناب ولده شاهنشاه وجعله ولي عهده»، (الصفحة ٣٨٢ من طبعة مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ).

ولنلاحظ تلقيبه باللقب الملكي شاهنشاه، وتسميته ولي عهد. ثم يواصل المقريزي الحديث عنه قائلاً: «وقد تحكم في مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبدّ بالأمور».

ويقول: «وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر». ويقول عن إنهاء سلطة المستنصر والخلافة الفاطمية وقيام السلطة الجديدة سلطة بدر الجمالي: «وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ست وستين وأربعمائة، وقيامه بسلطة مصر ما ذكر في ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة، فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجماً عن التصَرف إلى أن مات سنة سبع وثمانين».

ثم يقول عن الأفضل بن بدر الجمالي: «فلما مات المستنصر أقام

الأفضل بن أمير الجيوش الخلافة من بعده ابنه المستعلي باللّه أبا القاسم أحمد»، (الصفحة ٣٥٦ من الجزء الأول ولم يذكر تاريخ الطبع، نشر مكتبة الثقافة الدينية). ويقول في الصفحة ٤٢٣: «لما مات المستنصر بادر الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي إلى القصر وأجلس أبا القاسم أحمد ابن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي باللّه»، (هو أصغر أخوته نزار وعبد اللّه وإسماعيل).

وهكذا نرى أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي اختار الخليفة وأقامه مقام أبيه، لأنه هو الحاكم المسيطر.

وإذا كان بدر وابنه الأفضل لم يعلنا إلغاء الخلافة نظرياً في حين أنهما ألغياها عملياً، فلأنهما كانا يريدان غطاء شرعياً لحكمهما يبرران به تسلطهما، وكان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

ثم يقول المقريزي: «ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة»، (الصفحة ٣٥٧ من الجزء نفسه). وفي عهد المستعلي، هذا الذي لم يكن له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة، تقدم الصليبيون إلى البلاد الإسلامية واحتلوا القدس.

وكان صاحب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة هو الأفضل. إذاً فلماذا تنسب أحداث تلك الفترة إلى الفاطميين وخلافتهم؟

إنها يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة، وهم غير الفاطميين. ونكرر هنا ما قلناه من أننا لا نقول هذا لأننا نرى في تصرف الأفضل تقصيراً وضعفاً، أو شيئاً مما يؤاخذ عليه في موقفه من الصليبيين.

بل على العكس من ذلك نرى أنه قام بكل ما يستطيع القيام به في دفع الصليبيين عن الوطن الإسلامي. ووقف في وجههم بحزم وصلابة. فحاول أول الأمر دفعهم سلماً، بالمفاوضات كما نقول اليوم، ولما لم ينجح في ذلك قاتلتهم جيوشه أشد قتال وظلت تقاتل دفاعاً عن القدس سبعة أسابيع. وإذا كان

الصليبيون قد تغلبوا عليها فقد تغلبوا على غيرها ممن هم أقوى منها.

أما الوسائل السلمية التي حاولها بدر الجمالي بعد سقوط أنطاكية وظهور الخطر الصليبي على أقوى صورة، وتهديد هذا الخطر للقدس وما في الطريق إليها من بلاد، أما هذه الوسائل فقد أوضحها الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، (الصفحة ٦٧).

قال الدكتور سرور: «لما وصل إلى الحكومة الفاطمية[1] في مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي سنة ٤٩٢هـ (١٩٠٨م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن يتفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية على أن لا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم».

ومن هذا يتبين أنّ الأفضل بن بدر الجمالي لما رأى سقوط أنطاكية وانهزام قوى كربوقا، أيقن أنه لم يبق في طريق الصليبيين قوى إسلامية تستطيع التغلب عليهم والحؤول بينهم وبين الوصول إلى القدس، فحاول أن يقنعهم بالوقوف عند أنطاكية على أن تكون لهم حرية زيارة القدس أفراداً غير مسلحين، وأن يغادرها من يزورها منهم في مدة أقصاها شهر.

وأحسب أن هذا أقصى ما كان يستطيع أن يفعله الأفضل من أجل القدس يومذاك، فأين هو موضع التجريح بهذا الرجل[2]؟

ومع افتراض وجود السفارة نقول: إنه لما فشلت محاولته السلمية لإيقاف

---

(١) ينطلق الدكتور سرور مع رواسبه فينسب الأمر إلى الدولة الفاطمية، في حين أنّه هو نفسه ينسب الأمر بعد ذلك إلى الأفضل الجمالي.

(٢) هذا إذا صح أن الأفضل أرسل سفارة، فنحن لم نجد ذكراً لهذه السفارة المزعومة في أي مصدر عربي.

الصليبيين عند أنطاكية استعد لحربهم، مع علمه بقوتهم وضعف قوته أمام حشودهم اللجبة، فقام وإليه على القدس بتسميم الآبار وطمّ القنوات لئلاّ يستفيدوا من مائها، وأخرج النصارى من المدينة وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان. ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه الحروب الصليبية فيما يقول عن جيش الأفضل بن بدر الجمالي المدافع عن القدس: «وأدرك الصليبيون أنهم واجهوا هذه المرة خصماً يرى أن في ضياع بيت المقدس ضياعاً لهيبته السياسية وانتهاكاً لحرماته الدينية».

ثم يصف الدفاع البطولي عن القدس قائلاً: «شرع الصليبيون في الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعاً قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية». واستمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩م.

ويقول ن.م. ستون في الفصل الثالث من تاريخ الحروب الصليبية الجزء الأول، على ما نقل يوسف أيبش في كتابه عن صلاح الدين بعنوان «الخلافة العربية»، يقول عن بدر الجمالي بعد أن سلّم أتسز دمشق إلى الأمير السلجوقي تتش:

«وتجنب بدر منذ ذلك الحين الدخول في أي نزاع مع السلطة السجلوقية وكرّس نفسه لإعادة تنظيم مصر واسترجاع ازدهارها. فقد قامت الخلافة الفاطمية[1] طيلة قرن آخر، وذلك بفضل حكومته الحازمة والمنتظمة، وحكم ابنه الأفضل شاهنشاه الذي جاء بعده. والحق يقال إن إنجازه كان أكثر جدارة بالملاحظة. فالمبادىء العامة التي أعاد تنظيم الإدارة على أسساها كانت متصورة على نحو سليم إلى درجة أنها بقيت سارية المفعول على امتداد قرون رغم الحروب والتغيرات في السلالات الحاكمة. وكانت السمة الأكثر لفتاً للنظر في

(١) تحت سيطرة الجماليين.

نظامه هي الجمع بين الحكومة العسكرية والإدارة المدنية. فلم يعد الخلفاء الفاطميون منذ هذا الوقت فصاعداً أو أنهم لم يكونوا إلاّ لفترات نادرة وقصيرة بمثابة الحكام الفعليين للبلاد. فقد قبعت مقاليد السلطة الحاكمة بيد الدكتاتور العسكري المدعو بالوزير، أو السلطان في أوقات لاحقة يدعمه جيش يتقاضى قادته أجورهم من الإقطاعات العسكرية. غير أنه بالرغم من بقاء الحكومة العسكرية على رأس الحكم فقد أنشئت إدارة مدنية قوية وبسطت هذه الإدارة سيطرتها على التنظيم المالي برمته، ومن الجملة على دفع أجور العساكر، كما ضبط توزيع الإقطاعات.

«وقلما تقل عن ذلك جدارة بالملاحظة تلك الثورة التي أحدثها بدر الجمالي وابنه في سياسة مصر الخارجية. فسواء تقبلا الحقيقة القائلة بأن الدولة السلجوقية قضت على كافة أحلام التوسيع الإقليمي أم لا، فإن العمل العسكري الوحيد الذي قاما به خارج مصر كان استرجاع قواعدها البحرية في عكا وصور وغيرها من الموانىء (١٠٨٩م) وإقامة رأس جسر دفاعي في فلسطين. ولدى اقتراب الصليبيين أعيد تحصين صور وصيدا مثلما الاستيلاء على القدس مجدداً في سنة ١٠٩٨م من الزعماء التركمان الأرتقيين الذين تولوها كإقطاعية سلجوقية.

«أما الافتراض القائل بأن الأفضل حاول التفاوض مع الصليبيين على تقسيم سورية فتدحضه الحقيقة القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا إلى القاهرة في تلك السنة قد ألقي بهم في السجن». (انتهى ما جاء في تاريخ الحروب الصليبية).

وبعد سقوط القدس واصل الأفضل قتالهم، وقاد حملة لاسترداد القدس في رمضان سنة ٤٩٢هـ (آب ١٠٩٩م) وصل بها إلى عسقلان، فلما بلغت أخبارها إلى جودفري في القدس أرسل على عجل رسولاً إلى تنكريد الذي كان في نابلس يستدعيه هو والقوات التي معه للمشاركة في دفع الخطر الداهم، كما

استدعى بقية الأمراء الذين ساهموا في فتح بيت المقدس، يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة، ولم يتخلف منهم أحد، على الرغم مما كان قائماً بينهم من خلاف يومذاك. وهكذا وحد الخطر بين جميع القوى الصليبية فتحشدت بأقصى ما تستطيع من تحشد ففشلت معركة استرداد القدس في تفاصيل ليس هنا مكان الخوض فيها.

لم يستسلم الأفضل بعد سقوط القدس للأمر الواقع، كما رأينا، بل ظل يقاتل الصلبيين ما وسعه القتال.

يقول المقريزي في خططه وهو يتحدث عن الأفضل: «وفي سنة اثنتين وتسعين ملك الفرنج الرملة وبيت المقدس فخرج الأفضل بالعساكر وسار إلى عسقلان، فسار إليه الفرنج فقاتلوه وقتلوا كثيراً من أصحابه وغنموا منه شيئاً كثيراً وحصروه فنجا بنفسه في البحر وسار إلى القاهرة».

ويقول المقريزي أيضاً: «وفي سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة».

ويقول ابن الأثير، (ج١٠، ص٣٩٤، طبعة ١٩٦٦): «سيّر الأفضل ولده شرف المعالي في السنة الحالية إلى الإفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم».

ويقول المقريزي في خططه (ج١، ص٤٤٣): «وكوتب الأفضل بن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج فاهتم للتوجه إليهم، فلم يبق ممكناً من مال وسلاح وخيل ورجال واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بين يدي الخليفة مكانه وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج فوصل إلى عسقلان وزحف عليها بذلك العسكر ولكن الحملة لم تنجح».

وقال المقريزي أيضاً: (ج١، ص٤٨٠): «وذكر تجهيز العساكر في البر عند ورود كتب صاحبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمسمائة ما يحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك؛ وركب الخليفة الآمر بأحكام الله

وتوجه إلى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة في أعلاه واستدعى مقدم الأسطول الثاني وخلع عليه وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة».

وقال المقريزي، (ج١، ص٢١٢): «قال ابن المأمون البطائحي في حوادث سنة تسع وخمسمائة: ووصلت النجابون من والي الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى أعمال الفرما، فسيّر الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها ويسير الراجل من العطوفية وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم في الليل قبل وصول العساكر إليهم فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي. فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان وطاردوا الفرنج وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة إليه وتحقق أن الإقامة لا تمكنه أمر أصحابه بالنهب والتخريب والإحراق وهدم المساجد، فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد وعزم على الرحيل...» إلى أن يقول: «وأما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان»... ثم يقول: «وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا...».

وهذا ما يدل على أن الأفضل لم يهدأ، ولم يترك الصليبيين يهدؤون بل ظل يغير عليهم ويقاتلهم فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة، على حد تعبير المقريزي.

وإذا كانت القوى الصليبية المتدفقة من أوروبا هي أكثف وأقوى مما استطاع الأفضل حشده، وإذا كان لقوى الصليبيين إمداد دائم من الخارج، وليس للأفضل أي إمداد من العالم الإسلامي الواسع، فذلك ليس ذنب الأفضل بن بدر الجمالي.

وبالرغم من أن من جاؤوا بعد الفاطميين طمسوا كل ما يستطيعون طمسه

من مآثر تلك العهود، وما قيل فيها من الشعر والنثر، فقد أمكن أن يصل إلينا بعض ما خلّده الشعراء من مآثر الأفضل بن بدر الجمالي في جهاده للصليبيين[1]؛ فمن ذلك قصيدة للشاعر أمية بن أبي الصلت يشير فيها إلى انصراف البلاد الإسلامية الأخرى عن مواجهة الخطر الصليبي، واقتصار تلك المواجهة على الأفضل وجيشه. وفيها يقول مخاطباً الأفضل:

جرّدت للدين والأسياف مغمدة   سيفاً تفلّ به الأحداث والغير

ثم يشير إلى فشل حملة استعادة القدس:

وإن هم نكصوا يوماً فلا عجب   قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العود أحمد والأيّام ضامنة   عقبى النجاح ووعد اللّه ينتظر

قالوا في الدولة الفاطمية

ليس من شأننا في هذا الكتاب أن نؤرخ للدولة الفاطمية. وسنكتفي من الحديث عنها بالكلمة التي يراها القارىء فيما يلي:

بدأت الدراسات التاريخية العربية الحديثة تنصف الدولة الفاطمية بعض الإنصاف، بعد أن توالى على كتابة تاريخها أعدى أعدائها فعملوا على تشويه هذا التاريخ.

نقول: بدأت.. وهذه البداية وإن كانت تمشي خجولة ضعيفة، فيكفي أن تظل ماشية لا تتوقف، وهي إن فعلت ذلك فإنها ستصل إلى نتائج باهرة.

فمن ذلك ما كتبه الدكتور عبد المنعم ماجد أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب في جامعة عين شمس في كتابه (ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها) في الطبعة الرابعة الصادرة سنة ١٩٩٤، ص٤٠٧.

---

(١) قال ابن الأثير: «كان الأفضل حسن السيرة عادلاً».

قال الدكتور ماجد:

إن تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر كان غامضاً إلى عهد قريب جداً. فقد كانت معظم مصادره التاريخية لا تستقي من منابعها، أو أنها غير موجودة، أو مزيفة، أو مضربة، أو جافة، أو مختصرة، فضلاً عن أن معظمها مصادر أدبية لا تعطي فكرة صحيحة عنهم. ولكن بفضل ما حصلنا عليه من وثائق أو مخطوطات مكتوبة بأقلام معاصرة، تمكنا من أن نكوّن تاريخاً صحيحاً للفاطميين في مصر.

فهذه الدولة الفاطمية أثارت انتباه المؤرخين المحدثين بحيويتها المتدفقة التي أوجدتها في جسم الإسلام الذي كان قد شاخ على يد الدولة العباسية، فتاريخها منذ انتقالها إلى مصر أشبه بملحمة كبرى: دعوة إلى وحدة العرب في المشرق والمغرب[1]، جهاد بضراوة على أعداء الإسلام، نشر الحضارة الإسلامية على نطاق واسع.... ثم سقوط مؤثر.

ثم إن هذه الدولة اعتبرت في وقتها دولة عظمى بكل مقاييس الدولة العظمى، فقد كانت تمتلك قوة عسكرية ضاربة، ظهرت تجلياتها في انتصاراتها الحربية الكثيرة، حيث اعتمدت في أول الأمر على طوائف مختلفة من العسكر مثلما كانت غالب الجيوش الإسلامية الأخرى، إلا أنها منذ مجيئها إلى مصر اعتمدت على المصريين أيضاً، فاستخدموهم فيما عرف بالحجرية الكبار والصغار. وفي آخر أيام دولتهم في مصر تلاشت جميع الطوائف من جيشهم ولا تسمع إلا عن العسكر المصري، وإن وجد بجانبهم السودانيون بحكم أن السودان ملازم لمصر دائماً.

كذلك هي دولة عظمى باعتمادها على الاقتصاد المزدهر، فأشرفت وحدها على تجارة البهار الهامة وما تدره من أرباح هائلة، مسيطرة على سواحل مصر في البحرين الأبيض والأحمر، وسواحل أقاليم الجزيرة العربية في الحجاز

---

(١) بعد تمزق البلاد العربية إلى دويلات أقامت الدولة الفاطمية الوحدة العربية مؤلفة من شمال أفريقيا ومصر والشام والحجاز واليمن، مضموماً إليها: جزيرة صقلية وقوصرة وقلورية.

واليمن والخليج. وأخيراً دولة عظمى بامتلاكها النموذج الحضاري المتميز الذي أسهم بإبداع في النهوض وبالمعرفة الإنسانية، ولا سيما الإسلامية، مما أبرز حلقة هامة من نهضات المسلمين.

ولا مراء، فإن مصر قبل أي بلد آخر بمركزها الاستراتيجي بين القارات كقاعدة لخلافتهم تعوَّدت على أن تحرك السياسية وتنشىء الحضارة، خلفت للفاطميين هذا التاريخ المملوء بالنبض. ولكن الفاطمين بمجيئهم إلى مصر واتخاذها قاعدة لهم عملوا أيضاً على إبراز أهمية دور مصر في الإسلام، وهو الدور المتميّز الذي لا تزال تلعبه في الإسلام.

وقال في موضع آخر من كتابه هذا:

إن الفاطميين جاؤوا من المغرب إلى مصر بناء على دعوة المصريين أنفسهم، فلم يكن المصريون سعداء في حكم الأخشيديين، فقد كانوا يتطلعون إلى مستقبل جديد مع هذه الدولة الإسلامية الفتية ليبنوا مصر الإسلامية التي لا تقل عن مصر الفرعونية، فلما وصل جيش المعز لدين الله الخليفة الفاطمي من المغرب إلى الاسكندرية سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر قائد جيشه باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد والكاتب والقاضي والتاجر والمسلم والقبطي.

والحقيقة أن الفاطميين، وهم أسرة علويّة، اعتبرت خلافتهم في نظر المصريين خلافة شرعية، منافسة للخلافة العباسية، وذلك لأن المبدأ الدستوري القائم يومذاك، كان ينص على أن الخلافة الشرعية تكون في أسرة النبي. لذلك لم يطمع المصريون مثل غيرهم من شعوب الإسلام في حكم أنفسهم بأنفسهم. فهذه الأفكار في الوطنية لم يكن لها وجود في عهد الفاطميين، والفكرة المسيطرة على المسلمين أن تهمهم شرعية الحكم.

وقد بنى جوهر في مصر عاصمة جديدة سميت القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر أعداء الأمة الإسلامية، وهي توجد في مكان عاصمة مصر القديمة (منف) عند

رأس لدلتا، وأصبحت من يومها عاصمة مصر إلى الآن، حيث شبهت القاهرة بيد المروحة لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواته، مما يؤكد أن الفاطميين سحرتهم الهوية المصرية فسعوا إلى ربط مصر القديمة بمصر الإسلامية.

بل إن خلفاء الفاطميين إلى نهاية دولتهم ولدوا جميعهم في مصر واعتبروا أنفسهم مواطنين مصريين، يتبين ذلك مما أنجزوه لها مدة حكمهم في الكم والمقدار، بالعمل على ازدهار اقتصادياتها ورخائها، وامتلاكها النموذج الحضاري المتميز الذي أسهم بإبداعٍ في مكانة مصر. ومن يومها أصبحت مصر هي الرائدة عند المسلمين جميعاً.

بل وخلفاء مصر كانوا «ملتزمين» في مصر بإحساس قوي نحو قضايا العرب الذين بدأت تظهر عندهم إحساسات قوية نتيجة للتراكمات التاريخية، ولعيشهم في دار الإسلام في إطار حدودي محدد، ولمصيرهم الواحد. فكانت إزادة الفاطميين ظاهرة بالقفز إلى مستقبل عربي أفضل هي شغلهم الشاغل، بينما كانت الدولة العباسية قد أصبحت حطاماً وركاماً، وأن الإنسان العربي يائس من وجودها.

وقال الدكتور خضر أحمد عطا الله في كتابه (الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي) صفحة ٦ وما بعدها من صفحات مختلفة. عمل الفاطميون على توطين الخلافة الفاطمية في مصر، وقد أيقنوا أن هذه الأرض الخصبة الصالحة هي خير أرض تحقق للحضارة الفاطمية البقاء والنماء ليجني المسلمون، بل العالم أجمع، ثمار هذه الحضارة الناهضة، فرأينا جوهر الصقلي يضع أسس مدينة عظمى هي القاهرة التي ولدت عملاقة لترفع لواء الفكر والحضارة، ثم يقيم جوهر الجامع الأزهر ليصبح بعد ذلك أبرز جامعات العالم ومقصد آلاف الدارسين من أجراء العالم الإسلامي... وكان مولد الخلفاء الفاطميين ابتداء من الخليفة الحاكم بأمر الله وحتى آخر خلفائهم العاضد بالله، على أرض مصر، وشربوا جميعاً من نيلها وعاشوا على ترابها يشاركون

المصريين فترات الرخاء والشدة على السواء. . . واتجه آلاف من أرباب القلم والفكر إلى القاهرة يساهمون في إرساء قواعد حضارة عالمية راقية.

. . . وقد نجح بعض الخلفاء الفاطميين في جعل البحر المتوسط بحيرة فاطمية وسيطروا على جزره وأقاموا علاقات اقتصادية وثيقة مع دول أوروبية. والتبادل الاقتصادي من وسائل انتقال الفكر. ومد الفاطميون نفوذهم إلى بلاد الشام والحجاز واليمن وأرجاء أخرى في العالم الإسلامي. وكان للفاطميين علاقاتهم الخارجية التي تراوحت بين الصداقة والعداء وأثرت كلها في الحياة الفكرية. وأثّرت هذه العوامل كلها في عالمية الفكر في العصر الفاطمي فلم يعد فكراً محلياً إقليمياً.

واهتم الخلفاء الفاطميون بالنهضة الفكرية، فكان كثير منهم على جانب كبير من العلم والثقافة، واهتموا بالمؤسسات التعليمية والفكرية وأصبحت قصورهم مراكز فكر وثقافة وضمت تلك القصور مكتبات ضخمة بذلوا المال والجهد في جمع كتبها من أرجاء العالم. وأصبحت القاهرة كعبة العلماء والأدباء والفقهاء. وكان الأزهر مناراً للعلم والثقافة. وأثّر الخلاف المذهبي في الحياة الفكرية، فانصرف كثير من أهل السنة عن مخاطر الحياة السياسية إلى العلم والفكر، وانتعشت أحوال أهل الذمّة في العصر الفاطمي فكان لهم دورهم أيضاً في الحياة الفكرية إلى جانب بروزهم في مجالات السياسة والإدارة. . . وأدت العلاقات الدولية والاتجاهات العالمية إلى انتعاش الحياة الفكرية مرة أخرى في مدينة الاسكندرية. . .

وخلاصة القول: كان الفكر في العصر الفاطمي مرحلة هامة متميزة من مراحل تطور الفكر الإسلامي. وقد أرسى الفاطميون أسساً فكرية وطيدة قام عليها فكر الأجيال التالية. وإذا كانت هذه المرحلة الفاطمية قد شهدت صراعاً فكرياً بين أهل السنّة والشيعة، فإن هذا الخلاف وذلك الصراع كان ظاهرة صحية في المجالات الفكرية وهي تثبت حياة الأمة الإسلامية وسعيها إلى الكمال. كما

أدى الخلاف أحياناً إلى جدال وحوار ونقاش أثرى النشاط الفكري حيث انطلقت ألسنة الشعراء وصالت أقلام الكتاب وانعقدت المجالس الفكرية، وترك لنا المختلفون والمتصارعون إنتاجاً فكرياً خصباً.

وينقل المؤلف في كتابه أقوال بعض المفكرين والمؤرخين عن الفاطميين فمن ذلك ما نقله عن محمد عبد الله عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله) ص٣٢٦ ـ ٣٢٨ وهو:

فقد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة في كثير من قواعد الحكم والإدارة وفي كثير من الرسوم والنظم، وكانت هذه النظم والرسوم فوق طرفتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة التي تطبع الدولة الفاطمية وسائر مظاهرها.

فلما اتّسع ملكها وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشام شعرت بالحاجة إلى التوسع في النظم الإدارية والسياسية التي يقوم عليها هذا الملك الباذخ، ولم تكتف بالاعتماد على الخطط العسكرية والدينية والمدنية المعروفة، بل عمدت إلى الابتكار في تنظيم الأصول والخطط الدستورية وفقاً لحاجتها وغاياتها السياسية والمذهبية.

وينقل عن الدكتور حسن إبراهيم وطه شرف قولهما في كتاب (المعز لدين الله، ص٣) عن المعز قولهما:

ويعتبر المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع من كبار رجال عصره، فقد بز أقرانه ومنافسيه علماً وسياسة وحرباً، ولهذا لا نغلو إذا قلنا أن نفوذ الدولة الفاطمية بلغ أقصى مداه في عهده.

وقد ساهم المعز لدين الله في إنعاش الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر بما سنّه ممن النظم الإدارية الحازمة ولم يكتف بذلك بل نهض بالناحية العلمية والثقافية حتى أصبحت المنصورية في بلاد المغرب والقاهرة في مصر كعبة العلماء والطلاب والمستجيبين والدعاة...

وإن كان المعز قد وضع نواة الحضارة الفاطمية في مصر فقد تعهد العزيز غرس أبيه حتى نما وترعرع ونضج وأتى بالثمار المرجوّة. ويجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله في أخلاقه وعقله وسياسته وتسامحه.. وقد تميزت حكومته بأنها حكومة رشيدة عادلة منظّمة اكتملت بها النظم الحكومية التي وضعها المعز وتبلورت حتى ظهرت في صورتها الكاملة الناضجة، حيث عَدَّدَ الخليفة المعز واجبات الخليفة بخيث تدور كلها حول إصلاح الرعية وحمايتهم فقال: «للناس شغل بدنياهم وما يتلذذون به منها، وشغلنا إقامة دورهم وإصلاح أحوالهم والنظر فيما يعود عليهم ويحمي حماهم ويدفع عن بيضتهم ويحقن دماءهم ويحصن حريمهم وأموالهم ويكف أيدي المتوالين. بذلك نقطع ليلنا ونهارنا والله المستعان على ما قلدنا من أمورهم، وافتراضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب إليه في إصلاحهم وهدايتهم إلى ما فيه حظهم ونجاتهم وأخراهم».

وينقل عن الدكتور محمد حمدي المنياوي في كتابه (الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص٣٨) قوله:

ولا شك أنه تحت حكم الفاطميين عموماً لقي غير المسلمين معاملة طيبة وكانت مناصب الدولة حقاً لكل من توافرت لديه الكفاءة اللازمة دون أي دخل لمعتقد أو مذهب.

وينقل عن الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه: «الحركة الفكرية مصر)، ص٥٧ قوله:

والحق أن الفاطميين كانوا من الحذق والمهارة بحيث استطاعوا أن يلفتوا إليهم نظر الشعب المصري لفتاً قوياً وأن يشعروه بعظمة الحكم الفاطمي وكرم رجاله إلى الحد الذي لم تعرف له مصر نظيراً قبل مجيء هذه الدولة.

وينقل عن محمد عبد اللّه عنان قوله في كتابه (الحاكم بأمر الله) ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ قوله:

وقد كانت الحياة الاجتماعية الباهرة مرآة الدولة الفاطمية تشع بكثير من خواص قوّتها وفخامتها وبهائها ووحي مناهجها السياسية والدينية والعقلية. وكان الشعب المصري على تحفّظه في مشايعة الدولة الجديدة في مناهجها وغاياتها المذهبية يشهد بمرحه المأثور هذا الفيض الفاطمي من البذخ والترف والبهاء في إعجاب وحماسة. أجل، كانت مواكب الخلافة الفاطمية وحفلاتها الرسمية والشعبية ورسومها الفخمة ومآدبها الشهيرة وبذلها المأثور أياماً ومواقف مشهورة تثير من حولها أيما إجلال وروعة. وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة ولياليها الساطعة مثار البهجة والمرح العام، وما زالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل في كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية، فإذا رأيت بعض هذه المواسم والأعياد يجنح إلى نوع من الفخامة، وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء، فإنما ذلك يرجع في الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية في مصر الإسلامية.

وينقل عن الدكتور راشد البراوي في كتابه (حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين) ص١٢٠ ـ ١٢١) وعن عبد الحميد حسن في كتاب صفحات من الأدب المصري قولهما:

ولقد وجد الأقباط أنفسهم أمام حكام يطبقون مبدأ التسامح فأمنوا على أنفسهم وأموالهم والتفتوا إلى أعمالهم. وقد أثر التقدم التجاري في الحياة الاجتماعية ويتجلى ذلك في القصور الفاطمية وبنائها وتأثيثها... وقد أدى هذا إلى تقدم أنواع من الصناعة العربية كالصباغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة وغير ذلك من الصناعات التي امتازت بها حضارتهم.

وينقل عن محمد عبد اللّه عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله (ص٢٩ ـ ٣٠، قوله:

وكان المجتمع المصري بما انتهى إليه من بذخ وترف ونعماء يجذب إليه أكابر الإسلام من كل صوب فيثير فيهم الإعجاب والإجلال. وكانت القاهرة في

هاتيك العصور كالعروس من بين مدن الإسلام جميعاً تبهر العالم الإسلامي بعظمتها وغناها وقوة الدولة التي تتبوّأ ملك مصر.

وينقل عن كتاب (مصر في العصور الوسطى والحديثة) للدكتور حسن أحمد محمود وآخرين ما جاء في الصفحة ١٠ ـ ٥٣ قوله:

تمتعت مصر في العصر الفاطمي في معظم فتراته بالرخاء الاقتصادي طوال العصور الوسطى باستثناء فترات قصيرة وكانت لهذا الرخاء مظاهر في الفنون والصناعات المصرية منذ العصر الفاطمي فصاعداً وفي الحياة الاجتماعية الباهرة وفي النهضة الفكرية العظيمة.

وقد ظهرت هذه الثروة الأسطورية في نفقات الدولة في العصر الفاطمي وظهرت بصورة خاصة في ثروات الخلفاء والوزراء ونفقات الجيش والأسطول ونفقات الخزائن والأعياد والمواسم والهبات التي كانت تعطى للمساجد والمكتبات وغيرها.

وينقل عن شحاتة عيسى إبراهيم في كتابه (القاهرة) ص٧٥ قوله:

ولا يغيب عن البال ما كانت تحدثه احتفالات الفاطميين من انتعاش في الحركة الاقتصادية في البلاد عموماً وفي القاهرة بصفة خاصة، هذا فضلاً عما تضفيه عليها من ألوان البهجة والسرور.

وينقل عن الدكتور علي إبراهيم في كتابه (مصر في العصور الوسطى) ص٤٨٢ قوله:

وكان انتعاش الحياة في مصر من الناحية الزراعية يعود إلى زيادة المساحات الزراعية خاصة في عهد المعز والعزيز، وكذلك بدر الجمالي.

وينقل الدكتور راشد البراوي في كتابه (حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين) ص١٠٦، ١٠٧ ـ ١١٦:

كان الفلاح المصري في عهد الفاطميين يستطيع أن يتصرف في الأراضي ويغير موطن إقامته حسبما شاء.

وامتدح الكتاب الأوروبيون سياسة الفاطميين إزاء الفلاحين فقال البعض أن التسامح كان طابع حكمهم[1] وأن معاملة الشعب على أيديهم كانت خيراً منها على أيدي سواهم من الحاكمين.

وينقل عن الدكتور علي حسين الخربوطلي في كتابه (مصر العربية الإسلامية) ص٢٢٧ ـ ٢٢٨ قوله:

اهتم الفاطميون بالصناعة وتميزت صناعات الفاطميين عن سائر الصناعات المصرية في سائر العصور... ومن أشهر الصناعات في العصر الفاطمي: صناعة النسيج من الكتان والصوف والحرير، كما اشتهرت المصنوعات المصرية بالدقة والجودة وأصبحت مصر تنسج كسوة الكعبة كل سنة، وتقدمت صناعة الزجاج والخزف في العصر الفاطمي، كذلك تقدمت الصناعات الخشبية وخاصة بناء السفن.

وينقل عن الدكتور راشد البراوي في كتابه (حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين) ص١١٩ قوله:

ويعتبر هذا العصر عصر ازدهار الصناعة، ولم تأت هذه النهضة الصناعية عفواً بل تحالفت عوامل سياسية متباينة جعلتها من خصائص العصر الفاطمي وأعظم مميزاته وأكبر مفاخره:

ويعلق المؤلف على ذلك قائلا: ولعل تقدم الصناعة عندهم إنما يرجع إلى استتباب الأمن وقوة الحكومة المركزية وأثر المعاملة السمحة التي تمتع بها الأقباط.

---

(١) The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimide Caliphs P.39.

ويقول الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتاب (الدولة الفاطمية في مصر) ص٦ ما يلي:

على أن أهم ما اتصف به العصر الفاطمي في مصر هو النهضة التي ظهرت آثارها في جميع نواحي الحياة المصرية، فإلى جانب ما نلمسه من تطور الحكم والإدارة، نلحظ اهتمام الفاطميين بتنمية الثروة ما ساعد على انتشار الرخاء في البلاد. ويقول عن المعز (ص٧٥): وليس من شك أن المعز كان يمثل الحاكم المستنير الذي يجمع في يده جميع السلطات ويعمل في نفس الوقت على إسعاد شعبه.

فهرس

أبو محمد الحسن
بن علي بن أبي طالب (ع)

أبو عبد الله الحسين
بن علي بن أبي طالب عليهم السلام

دولة حسينية